

الجامعـــة الإسلاميـــة – غـزة
عمـــادة الـدراســات العليـــا
كلية الآداب- قسم التاريخ والآثار

# الترف في المجتمع الإسلامي الأندلسي

(92هـ/711م=668هـ/1269م)

إعداد الطالب

**نادر فرج زيارة**

إشراف الدكتور

**خالد يونس الخالدي**

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير

(بحث تكميلي) في قسم التاريخ والآثار بكلية الآداب في الجامعة الإسلامية - غزة

1431هـ=2010م


بسم الله الرحمن الرحيم

# شكر وعرفان

أَحمدُ الله تبارك اسمه على أن منَّ عليّ بالتوفيق، حتى إتمام هذه الرسالة، بعد أن ذلَّلَ لي الصعاب، وأكرمني بإشراف الدكتور خالد يونس الخالدي على رسالتي، والذي ما بخل عليّ بالتشجيع، والمتابعة المستمرة الدقيقة، حيث أفادني بما أهداه إليّ من أفكار، وأسداه إليّ من نصح، خلال مدة البحث وما سبقها، وأتمنى أن أكون بهذا الشكر قد أظهرت شيئاً من تقديري واعتزازي بمُشرفي، آملاً منه أن يتقبل هذا الشكر والعرفان مني، وقد أصبحت أحد الطلاب الذين تخرجوا على يديه مستنيرين بعلمه.

كما أتقدم بشكري لكل من المناقشين الفاضلين، الدكتور: سامي أبو زهري، والدكتور عدنان أبو دية على تشريفي بقبول مناقشة رسالتي.

كما وأشكر كل من كان له يد عندي من أساتذتي الكرام، الذين أخذت عنهم العلم خلال مدة دراستي، والذين لم يقصروا في النصح والإرشاد.

وأتقدم بشكري الجزيل لكل من الأخ الكبير الأستاذ يسري البلتاجي، وللأخ الأستاذ سليمان الملالحة على ما قدماه لي من تنقيح لغوي للرسالة، أدت بها للخروج بصورة لائقة، إن شاء الله تعالى.

كما أتقدم بشكري الجزيل لكل من ساهم معي ولو بالنّزر اليسير في إخراج هذا العمل المتواضع على الشكل المرجو.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

# الإهداء

**إلى من ربياني صغيراً**، ولا يُنسى فضلُهما؛ أخفض لهما جناح الذل...

- **والـــــــدتي الحبيـــــــــبة**، التي ما برحت تدعو لي في الغدوة والروحة؛

**ووالدي الحبيب**، المغفور له بإذن الله، والذي أفنى عمره مربياً ومعلماً ومرشداً لي.

- **إلى أحبتي الكواكب الدرية**... إخواني، وأخواتي.
- **إلى شريكة حياتي** ... زوجتي الغالية، التي أعانتني على تحمل مشاق مشوار العلم.
- **إلى قرة عيني** ... زينة الحياة الدنيا، وأبواب الجنة... بناتي الأحبة: روان، ورؤى، وحلا.
- **إلى كل مسلم مجاهد غيور على دينه** ، ترك حياة الترف والذل، والتحق بطريق العزة والثبات... طريق ذات الشوكة.
- **إلى أرواح علماء الأندلس ومجاهديها وحكامها المجاهدين** الذين حاولوا التصدي لحياة الذل والترف، حرصاً على وقف التدهور، والتساقط، والأفول.

**إلى كل هؤلاء أهدي عملي المتواضع هذا آملاً أن يتقبلوه**

الباحث

قائمة بالرموز والاختصارات الواردة في البحث

| الرمز | الدلالة |
|---|---|
| ت | توفي |
| ج | جزء |
| ح | حديث |
| د.ت.ط | دون تاريخ طبعة |
| ص | صفحة |
| ق | قسم |
| م | ميلادي |
| م.ن | المصدر نفسه |
| هـ | هجري |

# المقـــــــــــــدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبيه الكريم، أما بعد:
تعد ظاهرة الترف ظاهرة طبيعية في كثير من المجتمعات التي قطعت شوطاً في الحضارة، إذ أن هذه المجتمعات تكون قد بلغت من العلم والتقدم ما لم يبلغه غيرها من المجتمعات، وعليه فليس غريباً أن تتغير عادات وتقاليد وأعراف هذه المجتمعات تبعاً لهذه التطورات، مما يحدث تغييراً على المستوى الأخلاقي السلوكي؛ والفكري الثقافي، وهو الأمر الذي يهدد هوية المجتمعات، ويأخذها بعيداً عن منابعها الأولى التي استقت منها أفكارها وعاداتها وتقاليدها.

ولا يمكن لإنسان أن ينتقد حياة الترف بالكلية، أو أن يحاربها بالمطلق، فكلنا يسعى لحياة أفضل، ويبحث عن وسائل الراحة التي تحقق له المتعة في حياته، غير أن الاستغراق في حياة النعيم يؤدي إلى كثير من المشاكل التي تتعلق بحياة الناس في المجتمعات، ليس أقلها أن المجتمع يصبح غير منتج، بل إن الإنسان يذهب بعيداً في اللهو غير آبهٍ بمسئولياته، لاهٍ لا يلقي لها بالاً، ولعل هذا ما يؤكده حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: " والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتلهيكم كما ألهتهم"([1]) وهذه إشارة واضحة من النبي إلى أن الخوف من التمتع بالحياة يكمن في كونها ملهية تترك الإنسان غارقاً فيها متناسياً لدوره الحقيقي في الحياة .

ولعل هذا الأمر هو الذي أدى بالمجتمع الأندلسي لأن ينزلق في منحدرات خطيرة من الرذيلة والانحرافات المختلفة، مما أدى لتهاوي البنيان الإسلامي في نهاية المطاف، والذي ظل شامخاً على مدار ثمانية قرون متتالية.

وقد حاولت جاهداً من خلال البحث أن أعرض صورة واضحة للمجتمع الإسلامي عبر مدة غير يسيرة من تاريخ المسلمين في الأندلس، على أن أصور حياة الترف في جميع جوانب الحياة ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، ولم يكن أمامي سوى أن أسبر غور الكتب من مصادر ومراجع بحثاً عن معلومة هنا وهناك، لعلها تؤدي الهدف المنشود من هذه الرسالة التي عملت على إنجازها، ويمكن القول بأن هناك عدداً من الأسباب التي دعتني إلى التوجه نحو هذا الموضوع للبحث والكتابة فيه والتي منها:

١) رغبة فيما عند الله من ثواب بتقديم علم ينتفع به.
٢) خلو المكتبة العربية من أي دراسة علمية تتناول هذا الموضوع على حد علمي.
٣) تطلعي لإظهار جوانب الترف والرفاهية في المجتمع الأندلسي الإسلامي.
٤) حرصي على إظهار مخاطر الإفراط في حياة الترف لدى المسلمين.

---

[1] ) البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل الجعفي: صحيح البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، بيروت، دار ابن كثير، ط3، 1407هـ=1987م، ج5، ص2361، ح6061.

٥) تحذير المسلمين في الزمن المعاصر من أخطار الاستغراق في الحياة المترفة، وما تنتجه من ضعف على جميع الأصعدة، وفي جميع مناحي الحياة، وما قد تجره لهم من الانحطاط في مهاوي الرذيلة، والفساد.
٦) إجلاء الصورة عن الفساد الخلقي والفكري الذي لحق بكثير من الفئات الأندلسية جراء اتباع الشهوات وترف الحياة.
٧) تبيين أن هدف الحياة ليس مجرد المتعة واتباع الشهوات، إذ إن للمسلم مهمة أعظم وأسمى من الاستغراق في الترف، ألا وهي تحكيم شرع الله.
٨) توضيح صورة العلاقات السيئة بين قادة المسلمين في الأندلس والتي خلفتها حياة الترف.
٩) إظهار الخطر الذي لحق بالمدن الإسلامية واستقواء بعضها على بعض بالنصارى طلباً لحياة الترف.
١٠) تصديق الحديث النبوي الشريف، والذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: " وَاللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ. وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ"([1]).

وقد جاءت الرسالة في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة: فأما المقدمة فتوضح أسباب الكتابة في الموضوع، وذكر فصول البحث، وتَعرِض لأهم المشكلات التي واجهتني خلال عملي في هذا البحث، **واعتنى الفصل الأول** بتعريف مفهوم الترف ، فكان بعنوان: "مفهوم الترف ومحدداته"، وتم تقسيمه إلى خمسة مباحث، تتحدث عن تعريف الترف من النواحي اللغوية والاصطلاحية، عند أهل اللغة، وعند المفكرين والعلماء من مسلمين وغير مسلمين.

**وجاء الفصل الثاني** بعنوان: "عوامل شيوع الترف في المجتمع الإسلامي" في خمسة مباحث، والذي تحدثت فيه عن أهم الأسباب التي ساهمت في شيوع الترف، من حيث جمال طبيعة بلاد الأندلس، وازدهار الأنشطة الاقتصادية، وما تمتع به أهل البلاد من غنى، إضافة لاحتكاكهم بغير المسلمين وتشبه حكامهم بالخلفاء والملوك.

**أما الفصل الثالث:** وعنوانه: "مظاهر الترف في المجتمع الأندلسي " ويتكون من سبعة مباحث، فعرضت فيه لجوانب الحياة اليومية التي يمارسها الأندلسي، كالطعام واللباس والمسكن، وطرق الاحتفالات، والمبالغة الزائدة في العمارة الإسلامية، وما اتخذوه من وسائل الترفيه.

بينما تطرقت في **الفصل الرابع** إلى النتائج التي حصدها المجتمع الأندلسي من الترف، وهو بعنوان: "أثر الترف في الانحرافات السلوكية في المجتمع الأندلسي" وجاء هذا الفصل في

---

[1]) مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار احياء التراث، د.ت.ط، ح 2008، ج8، ص212، ح**7614**.

ستة مباحث، تحدثت خلالها عن أخطر وأهم الأوضاع التي وصل إليها المجتمع الأندلسي المسلم، كالولع بالموسيقا والغناء، وانتشار الخمور، والإقبال الشديد على اقتناء الجواري، وكثير من الانحرافات السلوكية والأخلاقية التي فشت في المجتمع، والتي أدت في النهاية إلى صراع داخلي جارف أدى للاستعانة بالنصارى، وتساقط المدن الأندلسية.

وقد ختمت رسالتي بخاتمة ضمنتها أهم النتائج التي خلصت لها الدراسة.

وأرى في الختام أن من المهم الإشارة إلى أهم الصعوبات التي واجهتني خلال هذا البحث، والتي تمثلت بجملة من الأمور، منها صعوبة الحصول على كثير من المراجع والمصادر بسبب الحصار الظالم الذي تتعرض له غزة على مدار بضع سنين، كما كان من العسير عليّ التوفيق بين إنجاز الرسالة وبين عملي، هذا بالإضافة إلى عمليات القطع المتوالية للتيار الكهربائي بسبب العدوان الإسرائيلي المتكرر على المنشئات المدنية في غزة، بالإضافة إلى ما أقدم عليه الاحتلال من حرب وحشية على القطاع الحبيب.

# الفصل الأول

## مفهوم الترف ومحدداته

المبحث الأول: الترف اللغة

المبحث الثاني: الترف في القرآن الكريم

المبحث الثالث: الترف في السنة.

المبحث الرابع: الترف عند الصحابة والتابعين.

المبحث الخامس: الترف عند علماء المسلمين.

## المبحث الأول
## الترف في اللغة

التَرَفُ في اللغة هو التَّنَعُّمُ(١).
والتُرفة بالضم النعمة(٢)، والتُّرَفَةُ الطعام الطيب(٣).
أما الـمُتْرَفُ، فهو الشخص الذي قد أَبْطَرَتْه(٤) النعمةُ، وسِعَةُ العَيْشِ(٥)، وهو أيضاً المتَنَعّم المُتَوَسّع في مَلاَذّ الدنيا وشَهواتها(٦).
ورجل مُتْرَفٌ و مُتَرَّفٌ، مُوَسَّعٌ علـيه(٧).
وأَتْرَفَتْهُ النِّعْمَةُ، بمعنى أَطْغَتْهُ(٨)، وأفسدته(٩).

---

١ ) ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط 1، ج9، ص17؛ ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي: المحكم والمحيط الأعظم ، بيروت، دار الكتب العلمية، 2000م، ج 9، ص 476.

٢ ) م.ن: ج9، ص17؛ النيسابوري، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني: مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، بيروت، دار المعرفة، د.ت.ط، ج 1، ص 150؛ الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني : تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق مجموعة من المحققين، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ط1406هـ=1986، ج23، ص53؛ ابن المطرز، أبو الفتح ناصر الدين ابن عبد السيد بن علي، المغرب في ترتيب المعرب، تحقيق محمود فاخوري، وعبد الحميد مختار، حلب، مكتبة أسامة بن زيد، ط1، 1979م، ج1، ص103؛ مصطفى، إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، القاهرة، دار الدعوة، د.ت.ط، ج1، ص 84.

٣ ) ابن سيده: المحكم، ج 9، ص 476.

٤ ) البطر: هو الطغيان عند النعمة (ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص69).

٥ ) م.ن: لسان العرب، ج9، ص17.

٦ ) الجزري، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري: النهاية في غريب الأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوى، ومحمود محمد الطناحي، بيروت، المكتبة العلمية، 1399هـ=1979م، ج1، ص187؛ ابن منظور، لسان العرب، ج9، ص17.

٧ ) ابن منظور: لسان العرب، ج9، ص17.

٨ ) م.ن: ج 9، ص17؛ الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر: مختار الصحاح، تحقيق محمود خاطر، بيروت، مكتبة لبنان، 1415هـ=1995م، ص32.

٩ ) ابن القطاع، أبو القاسم علي بن جعفر السعدي: تهذيب كتاب الأفعال لأبي بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية، بيروت، عالم الكتب، 1403هـ=1983م، ج1، ص46.

وأترف فلان ، أي أصر على البغي( ١)، وأترف الرجل ، بمعنى أعطاه شهوته( ٢)، وأتُرِف أفرط في التنعم(٣)، وترَفّه حسَّن غذاءه(٤).

وصبـــيٌّ مُتْرَفٌ، إذا كان مُنَعَّمَ البدنِ مُدَلَّلاً(٥)، والتَّتْرِيفُ حُسْنُ الغِذاء(٦).

ورجل رافه مترف، بمعنى مستريح، مستمتع بنعمة(٧)، وتَرَّفَ الرجلَ وأَتْرَفَه، أي دَلَّلَه ومَلَّكَه(٨).

واستترف، تكبر وطغى، من الغنى والسعة(٩).

وقد استخدمت العرب في أمثالها ألفاظاً خاصة بأصحاب النعم، للدلالة على حياة الترف التي يحيونها، فقيل للشخص شديد التنعم المرفه في العيش "أترف من ربيب نعمة"(١٠).

كما أطلقت العرب ما عرف بداء الملوك على أهل الترف، لتشبههم بالملوك في التنعم والبطر، ولذلك قال الشاعر

داءُ الملوك يلوح فوق جبينه شهدت بذاك مواضع التحديق(١١).

وعندما أرادت العرب النصح للناس باختيار القائد، قالوا في أشعارهم:

فقلدوا أمركم لله دركم رحبَ الذراع بأمر الحرب مضطلعاً

لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده ولا إذا حل مكروه به خشعــا(١٢).

وفي هذا الأمر إشارة إلى أن أهل الترف لا يستطيعون مواجهة مصاعب الحياة ومشاقها بسبب ما تعودوه من الرفاهية والنعيم.

---

١ ) مصطفى، إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، ج1، ص84.

٢ ) ابن منظور: لسان العرب، ج9، ص17.

٣ ) ابن القطاع: تهذيب كتاب الأفعال، ج1، ص46.

٤ ) مصطفى، إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، ج1، ص84.

٥ ) ابن منظور: لسان العرب، ج9، ص17.

٦ ) م.ن: ج9، ص17؛ الزبيدي: تاج العروس، ج23، ص54. ابن سيده المرسي: المحكم، ج 9، ص 476.

٧ ) الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقري: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، بيروت، المكتبة العلمية، د.ت.ط، ج1، ص234.

٨ ) ابن منظور: لسان العرب، ج9، ص17.

٩ ) مصطفى، إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، 84.

١٠ ) النيسابوري: مجمع الأمثال، ج1، ص150.

١١ ) الثعالبي، أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ط1، 1965م، ج1، ص 185.

١٢ ) أبو الفرج، الأصفهاني: الأغاني، تحقيق سمير جابر، بيروت، دار الفكر، ط2، د.ت.ط، ج22، ص359.

كما قيل في المرأة ذات النعيم ( نؤوم الضحى)، أي أنها مترفة مخدومة، لها من يكفيها أمرها([1])، ولذلك فهي تأخذ كفايتها من النوم حتى تُضحِي، لأن هناك من يقوم على خدمتها ورعايتها.

كما ضُرب المثل في النساء الحسان بتشبيههن بالغزلان، اللواتي يُعد لهن الماء الحار والمراد بذكر الماء الحار أنهن من أهل النعمة والترف([2]).

كما أن أبا الفرج الأصفهاني وصف شعر عبد الله بن العباس الربيعي([3]) بالحلو الظريف الظريف والمليح، وعدّه من أشعار المترفين( [4])، وهنا يمكن القول بأن الأشعار التي دلت على النعمة والرخاء دليل على معاني الترف المختلفة.

إن المتأمل لما كتبه أهل اللغة عن الترف يلاحظ أن كتاباتهم تدور حول عدد من الأمور، ألا وهي النعمة، والمتعة، والدعة، والشهوة، والسلطة، وما تستعذبه النفس، وتستريح إليه، من ملاذ الحياة وشهواتها.

---

١ ) الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد: دلائل الإعجاز، تحقيق محمد التنجي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، 1995م، ص66.

٢ ) الطائي: أبي تمام حبيب بن أوس: ديوان الحماسة، تحقيق محمد عبد القادر سعيد الرافعي، الأردن، مكتبة الأدب العربي، إعداد الخطيب للتسويق والبرامج، الإشراف العلمي: مركز التراث، لأبحاث الحاسب الآلي، الإصدار الأول، 1999م، ج2، ص 89.

٣ ) هو شاعر من العصر العباسي، وقد أنه لقيط كفله يونس بن أبي فروة، (النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الإرب، في فنون الأدب، تحقيق مفيد قمحية وجماعة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 1424هـ=2004م، ج5، ص24).

٤ ) الأصفهاني: الأغاني، ج19، ص234.

## المبحث الثاني

## الترف في القرآن الكريم

تعددت المواضع التي ذكرت فيها مشتقات كلمة ترف بين آي القرآن المجيد، فبلغ تعدادها الثماني آيات في سبع سور مختلفة، ومن ثمّ اختلف معنى اللفظ بحسب السياق الذي وردت فيه.

### مشتقة الترف في القرآن

وردت كلمة أُترفوا في سورة هود في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾(١)، ففي هذه الآية اقترن الترف بالظالمين، إذ الآية تتحدث عنهم، وأتت كلمة أُترفوا في هذه الآية بمعنى التجبر في المُلك(٢)، وقيل: بمعنى الاستمرار في المعاصي والمنكرات(٣)، أو التنعم بالشهوات والاهتمام بتحصيلها(٤)، ورأيٌ آخر يقول: أُترفوا بمعنى نُعّموا(٥)، وبقوا في الملك(٦)، أو هي الثروة والعيش الهنيء، والشهوات الدنيوية(٧)، ويبدو الوصف الرباني في عجز الآية أكثر وضوحاً، فمن أُترف في الدنيا هم من الظالمين؛ ولذلك فهو يَصِم هؤلاء المترفين بالإجرام بسبب تجبرهم واهتمامهم بتحصيل الشهوات.

---

١ ) سورة هود: آية 116.

٢ ) مجاهد، أبو الحجاج بن جبر المخزومي التابعي: تفسير مجاهد، تحقيق: عبد الرحمن الطاهر محمد السورتي، بيروت، المنشورات العلمية، د.ت.ط، ج 1، ص309؛ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي: جامع البيان في تأويل القرآن، المسمى تفسير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ=2000م، ج15، ص529.

٣ ) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، الثانية 1420هـ - 1999 م، ج4، ص361.

٤ ) أبو السعود، محمد بن محمد العمادي: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، المسمى تفسير أبي السعود، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.ط، ج4، ص247.

٥ ) البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود: معالم التنزيل، المسمى تفسير البغوي، تحقيق محمد عبد الله النمر، وآخران، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، 1417هـ=1997م، ج4، ص206.

٦ ) الجياني، شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري: التبيان في تفسير غريب القرآن، تحقيق فتحي أنور الدابولي، القاهرة، دار الصحابة للتراث، ط1، 1992م، ص239.

٧ ) الألوسي، أبو الفضل محمود الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.ط، ج12، ص162.

كما أن كلمة الترف جاءت في سياقها القرآني لتصف أهلها المترفين، وذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آَخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (12) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13)﴾ ([1])، والقرآن هنا يتحدث بتهكّم عن أولئك الراكضين الفارّين من العذاب، طالباً منهم العودة إلى النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة التي كانوا يتمتعون بها في حياتهم([2])، التي ميزتها اللذات والمشهيات والمساكن المزخرفات( [3])، في إشارة واضحة من القرآن إلى مفهوم الترف، وخصوصاً ذلك الترف الذي يبدو من خلال تنوع صنوف الفنون في العمران والبناء، والذي أشارت إليه الآيات عندما أتت على ذكر مساكن المترفين.

وكأنّ القرآن هنا يشير إلى أن سبب وقوعهم في العذاب هو أنهم أهملوا الإيمان، وتتبعوا شهوات الدنيا وملاذّها، ولذلك فقد استحقوا التهكم عليهم فوق عذابهم، وما ذلك إلا زيادة في التقريع لهم.

كما وردت كلمة الترف في سياق قرآني آخر لتعني النعيم والتنعم، كما ورد في سورة المؤمنون ذكراً لذلك، فيقول جل وعلا: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾([4])، فأترفناهم هنا بمعنى نعَّمناهم([5]) في حياتهم الدنيا بما وسَّعنا عليهم([6])، وذلك بكثرة الأموال والأولاد([7])، ويبدو من السياق أن هؤلاء المترفين فضّلوا اتباع شهواتهم والنعيم على أن يتّبعوا رسولهم، فكانت عاقبة هذا الصدود ما ذكره الله تعالى في نهاية الحديث عن هؤلاء القوم من عقاب لهم، حيث قال تعالى فيهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

---

[1] ) سورة الأنبياء: آية 11- 13.

[2] ) الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن المسمى تفسير الطبري، تحقيق أحمد شاكر، القاهرة، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ=2000م، ج18، ص417؛ ابن كثير: تفسير، ج5، ص335.

[3] ) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المسمى تفسير السعدي، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، القاهرة، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1420هـ=2000م، ص520.

[4] ) آية 33.

[5] ) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، والمحلي، جلال الدين محمد بن أحمد: تفسير الجلالين، القاهرة، دار الحديث، ط1، د.ت.ط، ص449.

[6] ) الطبري، تفسير، ج 19، ص28؛ البغوي: تفسير البغوي، ج 5، ص417؛ الألوسي: روح المعاني، ج 18، ص29.

[7] ) أبو السعود: تفسير، ج6، ص133.

(41) ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آَخَرِينَ (42)﴾[1] والناظر للآيتين يجد فيهما ثلاث عقوبات لهؤلاء المترفين، فقد أخذتهم الصيحة، وأصبحوا غثاءً، وكان من تمام العقاب لهم أن استبدلهم الله تعالى بغيرهم ممن لا يتّصفون بصفاتهم.

وفي سورة الإسراء كذلك وردت مشتقة الترف في سياق الحديث عن العقاب الإلهي، إذ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[2]، فإن المقصود هنا بالمترفين هم كبراء القرية[3]، وشرارها[4]، وهم أولو النعمة، والحشمة، والثروة، والرياسة[5]، والأغنياء[6] والملوك[7]، ومن نُعّم في الدنيا في غير غير طاعة الله تعالى[8]، وعليه فإن معنى الترف في هذه الآية يتنقل بين سلطة المال وسلطة الحكم وسلطة القوة، وجميع هذه المظاهر السلطوية تعد من الأسباب التي تؤدي بأصحابها – من غير المؤمنين– إلى الفسق في نهاية المطاف، ويمكنهم بواسطتها إحراز ما يشتهون من خيرات الدنيا ومُتَعها، ولذلك فإن جميع المظاهر السلطوية المذكورة تصل بأصحابها إلى مرحلة من الفساد، يكون نهايتها دمار الدول وزوالها، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة، وفيه دليل على أن أهل الشهوات إذا وصلوا إلى الحكم غلّبوا شهواتهم في حكمهم فاتّبعوها، مما يكون سبباً واضحاً في تدمير دولهم وزوال ملكهم، وتلك عاقبة الفساد إذا حل بالدول.

أما في سورة سبأ فقد وردت مشتقة الترف بلفظة "مترفوها" في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35)﴾[9]، وهنا تأتي اللفظة بمعنى المتوسعون في النعم في القرى المذكورة[10]، وهم رؤوس القوم في الشر[11]، وأشرافهم[12]، والفئة الغنية من تلك

---

[1] سورة المؤمنون، آية 42.

[2] آية 16.

[3] الطبري، تفسير، ج17، ص405.

[4] السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين: الدر المنثور، بيروت، دار الفكر، 1993م، ج5، ص254.

[5] ابن كثير: تفسير، ج6، ص521.

[6] البغوي: تفسير، ج5، ص83.

[7] أبو السعود: تفسير، ج5، ص162.

[8] الجياني: التبيان، ص265.

[9] آية 34-35.

[10] الألوسي: روح المعاني، ج22، ص147.

[11] الطبري: تفسير، ج20، ص409؛ ابن كثير: تفسير، ج6، ص521.

[12] الصنعاني: تفسير الصنعاني، تحقيق مصطفى محمد، الرياض، مكتبة الرشد، 1410هـ، ج3، ص195.

القرى(١)، وقليلو تعب النفس والبدن(٢)، وقُصد بها أهل مكة الذين تعالوا على النبي بكثرة أموالهم وأولادهم، ومفاخرتهم للنبي بحظوظ الدنيا وزخارفها، والتكبر على المؤمنين والاستهانة بهم(٣)، والمتمعن في الآية يستطيع أن يستنبط السبب الرئيس للتكذيب من قبل المترفين لأنبيائهم، لأنبيائهم، ألا وهو خوفهم من زوال النعم والشهوات التي نُعّموا بها، من قبيل كثرة الأموال والأولاد، واستعلاؤهم بما آتاهم الله من فضله ونعمائه، حيث اعتقدوا أن الفيصل في المفاضلة بين الناس هو الثروة وكثرة النسل من الذكور.

وكذلك فقد وردت اللفظة نفسها "مترفوها" في سياق مشابه من الكفر والتكذيب في سورة الزخرف، حيث يقول الله عز وجل: ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آَبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آَثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23)﴾ (٤)، وكأنّ هؤلاء المترفين المتنعمين في الدنيا وشهواتها والتي ورثوها عن آبائهم، قد ورثوا الكفر عن آبائهم أيضاً.

كما وردت أيضاً لفظة "مترفيهم" في الآية الكريمة من قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (64) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ (65) قَدْ كَانَتْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (66) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (67)﴾(٥) وقد فسرها البعض في هذه الآية بالعظماء(٦)، المستكبرين(٧)، وهم السعداء المنعمون في الدنيا(٨)، الدنيا(٨)، وقيل المتنعمون الذين ما اعتادوا إلا الترف والرفاهية ، ممن لم تحصل لهم المكاره(٩)،

والذين أمدهم الله بالمال والبنين(١٠) من الأغنياء والرؤساء(١١)، والإشارة هنا أيضاً إلى كفار قريش من سادتها وكبرائها(١٢)، والمتأمل في النص القرآني السابق سيجده يشير إلى

---

١ ) البغوي: تفسير ، ج6، ص401.

٢ ) الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف: الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، المسمى تفسير الثعالبي، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، د.ت.ط، ج3، ص148.

٣ ) أبو السعود: تفسير ، ج7، ص135.

٤ ) آية 23.

٥ ) سورة المؤمنون، آية 67.

٦ ) الطبري: تفسير ، ج19، ص50.

٧ ) السيوطي: الدر المنثور، ج6، ص108.

٨ ) ابن كثير: تفسير ، ج5، ص482.

٩ ) السعدي: تفسير ، ص554.

١٠ ) أبو السعود: تفسير ، ج6، ص142.

١١ ) السيوطي والمحلي: تفسير الجلالين، ص451.

١٢ ) ابن الجوزي،: زاد المسير في علم التفسير، بيروت، المكتب الإسلامي، ط3، 1404هـ، ج5، ص482.

أن النعمة التي كان يتمتع بها هؤلاء المترفون هي التي دفعتهم إلى التعالي والتكبر على الخلق، كما هو واضح من سياق الآيات، مما جعلهم يستحقون العذاب.

وأخيراً فقد جاءت مشتقة الترف في سورة الواقعة في قول الله عز وجل: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (44) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (45)﴾(١)، أي كانوا منعمين(٢)، مقبلين على لذات أنفسهم(٣)، من المآكل والمشارب، والمساكن الطيبة، والمقامات الكريمة منهمكين في شهواتهم(٤)، وقد ألهتهم دنياهم وعملوا لها(٥)، لا يتعبون في الطاعة(٦)، متبعين هوى أنفسهم، أنفسهم، يصنعون ما يشاءون بلا أي مانع أو رادع(٧)، تاركين أمر الله جلّ شأنه(٨)، ولعل النص النص القرآني يشير إلى الربط بين أصحاب الشمال وبين أصحاب الشهوات والسلطان من المترفين، فأصحاب الشمال هم أصحاب الترف، وربما يكون ذلك إشارة إلى الناس بالابتعاد عن حياة الترف والتي قد تقود أصحابها إلى الجحيم.

## مقترنات مشتقات الترف في القرآن

ومما سبق يتضح أن كلمة الترف ومشتقاتها في القرآن الكريم جاءت مقترنة بما لا يُرضي النفس من الخصال السيئة، أو العاقبة الوخيمة، فهي تارة تقترن بالظلم والإجرام كما في الآية ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾(٩).

وتارة أخرى تقترن بالعذاب والهلاك، كما ورد في الآيات ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (12) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13)﴾(١٠).

---

١ ) آية 41-45.

٢ ) الطبري: تفسير، ج23، ص131؛ البغوي: تفسير، ج8، ص18

٣ ) ابن كثير: تفسير، ج7، ص538.

٤ ) أبو السعود،: تفسير، ج8، ص194.

٥ ) السعدي: تفسير، ص834.

٦ ) السيوطي والمحلي: تفسير الجلالين، ص715.

٧) الألوسي: روح المعاني، ج27، ص144.

٨ ) ابن الجوزي: زاد المسير، ج8، ص144.

٩ ) سورة هود، آية 116.

١٠ ) سورة الأنبياء، آية 13.

ثم نجدها تقترن بالكفر والتكذيب، كما في الآية ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (33)﴾[1].

ومرة تقترن لفظة الترف بوصف أهلها بالهلاك والفسق والتدمير، كما ورد في سورة الإسراء ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16)﴾[2].

وأخرى يقرن الله فيها المترفين بالتفاخر والاستعلاء على الأنبياء في قوله تعالى من سورة سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35)﴾[3].

وفي آية أخرى من سورة الزخرف يقرنهم بالإصرار على المعصية واتبّاع دين الآباء والأجداد، كما جاء في الآية ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23)﴾ [4].

أما في سورة المؤمنون، فنجد لفظة الترف مقرونة بالعذاب والاستكبار، فيقول عز وجل ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (64) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ (65) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ ( 66) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (67)﴾[5].

ونجد عاقبة المترفين متمثلة في سورة الواقعة، فقد خصهم الله بنار جهنم والحياة التي سيحيونها فيها، وصوّر العذاب لهم يوم القيامة، فقال تبارك وتعالى ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (41) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (42) وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ (43) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (44) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ (45)﴾[6].

وخلاصة القول أن المترفين لم يُذكروا في القرآن بخير، بل ذكروا على سبيل القدح والاستهزاء والإهانة والتبكيت، فالترف وأهله مذمومون في القرآن الكريم، مع التأكيد على الآثار المترتبة على المبالغة في الترف من فسق، وظلم، وإجرام، وكفر، ثم دخول جهنم يوم القيامة.

---

١ ) سورة المؤمنون، آية 23.

٢ ) آية 16.

٣ ) آية 34-35.

٤ ) آية 23.

٥ ) آية 64-67.

٦ ) آية41-45.

## صور من الترف في القرآن

### أ) أصحاب الجنة

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ( 17) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (18) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ( 19) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ( 20) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (21) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ ( 22) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (23) أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (24) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (25) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (26) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (27)﴾ ([١])

ورد ذكر أصحاب الجنة في سورة القلم([٢])، وكانوا من أهل الصلاة المؤمنين من أهل الكتاب بعد رفع عيسى عليه السلام، وكانوا في منطقة يقال لها: (ضروان) قرب صنعاء([٣])، وقيل : ضروان اسم لهذه الجنة([٤])، وقيل : أهل الجنة هم ناس من الحبشة([٥])، وكانت جنة

عظيمة غرسها رجل من أهل الصلاح والإيمان([٦])، وكان يؤدي حق الله تعالى منها([٧])، وكانت وكانت زكاة الثمار من شريعة التوراة([٨])، فلما صارت الجنة لأبنائه من بعده وكانوا ثلاثة([٩])، قالوا: "إن كان أبونا لأحمق يطعم المساكين"([١٠])، وحلفوا ليلة القطاف على جني الثمار ليلاً حتى لا يعلم بهم فقير أو سائل([١١])، وكانت حجتهم في ذلك قلة المال وكثرة العيال([١٢])، فمنعوا الفقراء

---

١ ) القلم: آية 17-27.

٢ ) آية: 17 وما بعدها.

٣ ) الفاسي، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي: البحر المديد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1423هـ=2002م، ج 8، ص 160.

٤ ) ابن عاشور، الشيخ محمد الطاهر: التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، 1997م، ج 29، ص 80.

٥ ) السيوطي: الدر، ج8، ص250.

٦ ) ابن عاشور: التحرير، ج 29، ص 80.

٧ ) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق هشام سمير البخاري، الرياض، دار عالم الكتب، 1423هـ=2003م، ج 18، ص 239.

٨ ) ابن عاشور: التحرير، ج 29، ص 80.

٩ ) الفاسي: البحر المديد، ج 8، ص 160.

١٠ ) السيوطي: الدر، ج8، ص250.

١١ ) ابن كثير: تفسير، ج 8، ص 196.

١٢ ) الفاسي: البحر المديد، ج 8، ص 160.

وبخلوا بحق الله فيها([1])، وتبدو ذريعة قلة المال غير حقيقية، فقد كان المطلوب منهم أن يخرجوا يخرجوا حق الله فقط من المحصول ليس أكثر، ولذلك يبدو بأن منعهم إعطاء الفقراء من باب منع الزكاة، وحبهم للمال وحرصهم على التمتع به، وليس بسبب قلة المحصول.

وقد كانت العقوبة الربانية لفعلة الأخوة الثلاثة أن أرسل الله على جنتهم ناراً، طافت بأرضهم فأحرقتها أثناء نومهم في الليل، حتى أصبح لون جنتهم أسوداً كالليل المظلم([2])، ولعل هذه العقوبة دليل على أن الزكاة نماء وتطهير للمال، وأن من أنعم الله عليه بنعمة ولم يؤدِّ حق الله فيها فهو عرضة لعقوبته تبارك وتعالى في الدنيا قبل الآخرة، خاصة إذا وجه ماله نحو الترف وابتعد عن أداء حق الله فيه.

ولما أصبح القوم، تشاوروا بأصوات منخفضة حتى لا يسمعهم أحد([3])، واعتقدوا أنهم متمكنون من قطف ثمارهم دونما عائق([4])، فلما وصلوا جنتهم ورأوا ما حلّ بها ظنوا أنهم ضلوا ضلوا مكان جنتهم([5])، ولكن أحد هؤلاء الإخوة فطن إلى ما حدث، فقال لهم بل نحن محرومون من خيرها لنيتنا منع الفقراء من حقهم في الثمار([6])، وأصبح يلوم بعضهم بعضاً تندماً([7]).

وتظهر هنا نتيجة الترف وحب المال والجشع الذي أدى بالأخوة لإضاعة الحقوق التي أوجبها الله عليهم في أموالهم، وأودى بهم إلى المهالك.

**ب) قارون**

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78)

---

[1] ) القرطبي: الجامع، ج 18، ص 239.

[2] ) البغوي: معالم التنزيل، ج 8، ص 195.

[3] ) الجزائري، أبو بكر جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر: أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، ط5، 1424هـ=2003م، ج 5، ص 410.

[4] ) الطبري: تفسير ، ج23، ص546.

[5] ) القرطبي: الجامع، ج 18، ص244.

[6] ) النيسابوري، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي: الكشف والبيان، تحقيق الإمام أبي محمد بن عاشور، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1422 هـ – 2002، ج 10، ص 17.

[7] ) الجزائري: أيسر التفاسير، ج5، 411.

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (81)﴾ (١)

هو ابن عم موسى عليه السلام وابن خالته ومن أبناء قومه(٢)، وكان أقرأ بني إسرائيل للتوراة(٣)، ولكنه استخف بحقوق قومه بعد أن آتاه الله كنوزاً عظيمة من الأموال(٤)، وترَفّع عليهم وتكبر(٥)، حتى بلغت مفاتيح خزائنه وزناً ثقيلاً تميل عند حملها عصبة الرجال(٦).

وفي يوم سبت خرج قارون على قومه مع أتباعه متزيناً بأجمل الثياب الملونة وأفضل الركوبة(٧)، وقد زين موكبه بالجواري وعليهن الحلي والديباج، والغلمان عن يمينه وشماله، كما كما زين بغلته بسرج من الذهب، وزين خيوله بالديباج الأحمر(٨)، حتى تمنى بعض قومه أن يكونوا من أهل الثروة مثله(٩)، غير أن أهل العلم من قومه دعوه لإخراج ما لله في ماله من حقوق الفقراء، وعدم الاختيال والتفاخر والتكبر، وأرشدوه إلى عدم نسيان حظه من الدنيا(١٠)، لكنه أصر على المعصية، وادّعى أن الله أعطاه هذه الأموال لاستحقاقه إياها(١١).

ويبدو بأن المظهر الذي خرج به قارون على قومه قد بهر كثيراً من بني إسرائيل، مما قسم مجتمعهم إلى قسمين، فالقسم الأول منهم تمنى النعمة التي أعطيها قارون، ويبدو ذلك من باب الحسد وليس من باب الغبطة، وهم الذين يعدون الترف ضرورة من ضرورات الحياة، أما

---

١) القصص: آية 76-82.

٢) الفاسي: البحر المديد، ج 5، ص435.

٣) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.ط، ج 3،ص434.

٤) ابن عاشور: التحرير، ج20، ص176.

٥) الجياني: التبيان، ص330.

٦) النيسابوري: الكشف،ج 7، ص 260.

٧) القرطبي: الجامع، ج 13، ص316.

٨) الزمخشري: الكشاف، ج 3، ص 436.

٩) الحنبلي، أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي: اللباب في علوم الكتاب، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، 1419هـ=1998م، ج15، ص294.

١٠) الجزائري: أيسر التفاسير، ج 4، ص 100.

١١) القرطبي: الجامع، ج13، ص315.

القسم الآخر فرأوا فيما أنعم الله به على قارون امتحاناً له، ويبدو أن هؤلاء يحاربون حياة الترف أو على الأقل ينتقدونها.

وكانت عاقبة قارون أن أنزله الله إلى أعماق الأرض هو وداره، وكأن الله يريد أن يعاقبه بسلبه ما أراد، فهو أراد أن يتعالى على قومه لكن الله أذله بالخسف[١]

ولقد ذكر الله في القرآن الكثير من قصص المترفين، وأوضح النهاية التي بلغوها من العقوبة، وأمثال هذه النماذج متعددة في القرآن، لكني اكتفي بإيراد القصص السابقة فقط خشية الإطالة، فقد أدت القصص المذكورة الغرض من ذكرها.

---

١ ) السعدي: تفسير ، ج1،ص623.

## المبحث الثالث

## الترف في السنة

إذا كان مفهوم الترف في القرآن الكريم قد اتخذ من النعمة والشهوة والسلطة ومُتَع الحياة الدنيا على تنوعها معنى له، فإن السنة النبوية المطهرة لا تخرج عن هذا الإطار من التفسير لهذا المفهوم، إذ أن السنة في كثير من الأحيان تزيل اللبس والغموض الذي قد يبدو في نصوص القرآن، فهذا العلامة ابن كثير يقول عن السنة: "إنها شارحة للقرآن وموضحة له"([١]).

ولأن القرآن ذكر الترف في مجال الذم – كما سبقت الإشارة في المبحث السابق – فقد كان ذلك مدعاة للنبي صلى الله عليه وسلم أن يتجنب مظاهره ومسبباته، ولذلك فإن الله لما عرض الدنيا وعرض مفاتيح كنوزها على نبيّه، فإنه لم يخترها صلى الله عليه وسلم([٢])، وهذا ما يفسر نصيحة النبي عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل، إذ أوصاه عندما أرسله لليمن بقوله: " إياي والتنعم فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين"([٣])،

ولم تكن نظرة النبي للدنيا ونعيمها عن قلة مال منه عليه السلام ولا عن فقر، فقد كان يحق له صلى الله عليه وسلم خمس الفيء والغنائم التي كان يغتنمها المسلمون من جراء الغزوات([٤]).

ويضاف إلى ذلك أيضاً ما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: "عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً ..."([٥])، بمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم لو أراد زينة الدنيا المتمثلة في الذهب لوافق على هذا العرض، لكنه عليه السلام رفض هذا العرض.

وبالرغم من ذلك فإن رسول الله لم يكن يملك عند وفاته سوى سبعة أو تسعة من الدنانير، وقد طلب من أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن تتصدق بهن، فعن عائشة أنها

---

١) تفسير القرآن، ج1، ص7.

٢) العفاني، سيد بن حسين: رائق الشهد في فضل الزهد، القاهرة، دار العفاني، ط1، 1425هــ، ص15.

٣) ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني: مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرناؤوط، القاهرة، مؤسسة قرطبة، د.ت.ط، ح22158، ج5، ص243.

٤) ابن كثير: تفسير القرآن، ج5، ص121.

٥) الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى السلمي: الجامع الصحيح، المسمى سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.ط، ح2347، ج4، ص575.

قالت:" اشتد وجع رسول الله صلى الله عليه و سلم، وعنده سبعة دنانير أو تسعة فقال: "يا عائشة ما فعلت تلك الذهب"؟ فقلت: هي عندي قال: "تصدقي بها..."(١).

كما أنه من المؤكد بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستطيع أن يتملك ما يشاء، بمجرد طلبه من الله تعالى لذلك، إذ هو مجاب الدعوة، لكن النبي آثر الحياة الآخرة على الدنيا، وطالب أصحابه بذلك، عندما قال لسلمان الفارسي رضي الله عنه: " ليكفِ اليومَ منكم كزاد الراكب"(٢)، كما حث صلى الله عليه وسلم أيضاً زوجه عائشة بذلك قائلاً: " يا عائشة إن أردت اللحوق بي ؛ فليكفك من الدنيا كزاد الراكب، لا تستخلقي ثوباً حتى ترقعيه ، وإياك ومجالسة الأغنياء"(٣)، لقد تجاوز النبي بنصيحته لعائشة حد منعها من الترف، إلى درجة إرشادها بعدم مجالسة الأغنياء، لما قد يكون لهذه المجالسة من تأثير على نفسها، فتشتهي لنفسها ما تراه عند هؤلاء الأغنياء، والله أعلم.

ولعله من المهم تتبُّع مفاصل من حياة النبي صلى الله عليه وسلم في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه وزيجاته، ليتبين موقفه من الترف بوضوح.

### أولاً: طعام النبي صلى الله عليه وسلم:

بالرغم من إشارة سابقة عن كون النبي يستطيع الحصول على ما شاء من متع الحياة الدنيا، إلا أن حياته لم تكن حياة الترف والرفاهية، فلو نظرنا إلى طعامه صلى الله عليه وسلم فسنجده طعاماً بسيطاً متواضعاً لا يختلف عن أي شخص من فقراء المسلمين وعامتهم، ويمكن استنتاج ذلك من قول أبي هريرة رضي الله عنه: " والذي نفس أبي هريرة بيده ما شبع نبي الله صلى الله عليه وسلم وأهله ثلاثة أيام من خبز حنطة حتى فارق الدنيا"(٤).

ويمكن القول أن هذا الحال كان يعيشه النبي في وقت توفُّر الطعام، أما في حالة عدم وجوده فقد كان صلى الله عليه وسلم يربط على بطنه حجراً من شدة الجوع، كما حدث معه أثناء الاستعداد لمواجهة الأحزاب يوم الخندق، ويقول في ذلك جابر رضي الله عنه: "ثم لما حفر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الخندق أصابهم جهد شديد ، حتى ربط النبي صلى الله عليه وسلم

---

١ ) ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي: صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط2، 1414هـ=1993م، ح715، ج2، ص491.

٢ ) م.ن: ح706، ج2، ص481.

٣ ) النيسابوري، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم: المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1411هـ=1990م، ح7867، ج4، ص347.

٤ ) ابن حنبل: مسند، ح9609، ج2، ص434.

على بطنه حجراً من الجوع"([1])، ويؤيد ذلك قول السيدة عائشة رضي الله عنها لعروة بن الزبير: "ثم وإنه يمر بنا هلال وهلال ، وما يوقد رسول الله نار ، فقلت لها : أي خالة فبأي شيء كنتم تعيشون؟ قالت: بالأسودين، الماء والتمر"([2])، وتشير عبارة (وما يوقد رسول الله نار ) إلى عدم توفر طعام يطبخ على النار عند رسول الله طيلة أكثر من شهر كما ورد في الحديث.

إن تعاطي النبي صلى الله عليه وسلم لمثل هذه النوعية البسيطة والمتواضعة من الطعام لم يكن يمنعه في بعض الأحيان من تناول نوعيات أخرى على قدر من الجودة، بمعنى أن النبي لم يعارض أصحابه في التنعم، وطلب الطعام الجيد، فقد دُعي عليه السلام إلى أكل شاة فلبّى، وفي ذلك يقول جابر بن عبد الله: " ثم دعت امرأة من الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم على شاة، فأكل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ..."([3])، وقد كان يحب من الشاة الذراع([4])، وكانت وفاته صلى الله عليه وسلم بسُمٍّ وُضع له في ذراع شاة عن طريق اليهود([5])، وهذا دليل على أن النبي كان له حظ من أطايب الطعام في بعض الأحيان، بمعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينهى عن التنعم، وإنما هو يرفض الانجرار وراء نعم الدنيا لدرجة إهمال الإنسان للقضايا التي خلق من أجلها.

فقد عرف عنه صلى الله عليه وسلم حبه لأطايب الطعام والشراب كالعسل والحلوى واللبن، ويؤيد ذلك حديثٌ لعائشة رضي الله عنها تقول فيه: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب العسل والحلواء ..."([6])، وفي الحديث الذي يرويه أنس رضي الله عنه قال: "لقد سَقيتُ رسول الله بقدحي هذا الشرابَ كلّه ؛ العسل والنبيذ والماء واللبن "([7])، وهذه الشهادة هي شهادة لأقرب الناس من النبي، ألا وهو أنس بن مالك، الذي خدم رسول الله عشر سنين([8]).

كما ذكر ابن عباس "أن النبي صلى الله عليه وسلم شرب لبناً، فدعا بماء فتمضمض ، وقال: إن له دسماً"([9]).

---

١ ) م.ن، ح14258، ج3، ص301.

٢ ) الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد: المعجم الأوسط، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، القاهرة، دار الحرمين، 1415هـ، ح1589، ج2، ص165.

٣ ) ابن حبان، صحيح، ح1137، ج3، ص418.

٤ ) ابن حنبل: مسند، ح8359، ج2، ص331.

٥ ) م.ن، ح3733، ج1، ص394.

٦ ) البخاري، صحيح، ج5، ص2017، ح4967.

٧ ) مسلم: صحيح، ج3، ص1591، ح 2008.

٨ ) ابن حبان: صحيح، ح2894، ج7، ص153.

٩ ) م.ن، ح1159، ج3، ص434.

إن هذه الأحاديث تعطي صورة واضحة عن موقف النبي صلى الله عليه وسلم من طيب الطعام ورديئه، فهو مِثله مِثل باقي المسلمين، يأكل مما يأكل منه عامتهم، ويشتهي ما يشتهونه، ولكنه لا يقضي حياته في البحث عن ملذات الطعام، فأنى توفر له طعام تناوله ما أحبه، وكان من مصدرٍ حلال، فإنه عليه السلام كما ورد في الحديث ما عاب طعاماً قط([١]).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن القارئ قد يجد تناقضاً في النصوص سالفة الذكر، غير أن الأحاديث تدل بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأكل من الطعام الجيد أحياناً ومن الطعام الرديء أحياناً أخرى، وفي ذلك تأكيد على المنهج الوسطي للإسلام والذي اتبعه النبي وكان يأمر به.

**ثانياً: لباس النبي وزينته:**

إن الراغب في التعرف على نوعية الملابس التي كان يرتديها النبي سيجده صلى الله عليه وسلم يبتعد كل البعد عن أي مظهر من مظاهر المبالغة في الزينة، فقد كان عليه السلام يرتدي الخشن من الثياب، فهذا أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: " ثم كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي صلى الله عليه وسلم قد أثرت به حاشية الرداء ..."([٢])، إذن هذا هو لباس النبي، فمن شدة غلظته وخشونته يترك أثراً على كتف النبي عليه السلام بمجرد أن يجذبه ذلك الأعرابي.

وعن أبي بردة قال: "دخلت على عائشة فأخرجت إلينا إزارًا غليظاً مما يصنع باليمن ، وكساء من التي يسمونها الملبدة([٣])، قال: فأقسمت بالله إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبض في هذين الثوبين"([٤]).

إن الذي تأتيه ملابس من اليمن بهذه الصفة، من الممكن أن تأتيه ملابس من غيرها من البلاد، فقد عُرف عن العرب امتهانهم للتجارة، وقد توفر في ذلك الزمن كثير من الأقمشة الأرقى والأفضل مثل أقمشة الحرير والقطن، كما سيرد بعد قليل.

وكذلك فإن النبي إضافة لفعله، فإنه أمر أصحابه بعدم لبس الملابس التي تضفي على الشخص مظهر العظمة والفخامة، حيث أشار علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى نهي النبي

---

١ ) الترمذي، سنن، ح 2031، ج4، ص377.

٢ ) البخاري: صحيح، ح2980، ج3، ص1148.

٣ ) الملبدة: الثوب المرقوع، ( لسان العرب، ابن منظور ، ج3، ص387).

٤ ) مسلم: صحيح، ح2080، ج3، ص1649.

له عن " التختم بالذهب، وعن لباس القسيّ (1)، وعن القراءة في الركوع والسجود وعن لباس المعصفر(2)"(3)، كما رُوي عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من ترك اللباس وهو قادر عليه تواضعاً لله، دعاه الله على رؤوس الخلائق، حتى يخير في حلل الإيمان يلبس أيها شاء"(4).

ولم يقتصر نهي النبي عن لبس الملابس الفخمة بل تعداه ليحذر من تناول الأطعمة والأشربة في أواني الفضة والذهب، ففي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الذي يشرب في آنية الفضة إنما يجرجر (5) في بطنه نار جهنم"(6)، وفي حديث آخر " كان حذيفة بالمداين فاستسقى، فأتاه دهقان(7) بقدح فضة، فرماه به، فقال إني لم أرمه إلا أني نهيته فلم ينته، ينته، وإن النبي صلى الله عليه وسلم نهانا عن الحرير والديباج والشرب في آنية الذهب والفضة، وقال هن لهم في الدنيا، وهي لكم في الآخرة(8).

إن هذه الأحاديث لا تدل فقط على وجود مواد الترف في عهد المسلمين كالذهب والفضة وغيرها، بل لقد كانت هذه المواد في متناول أيدي المسلمين واستعملها بعضهم، وإلا لما نهى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه عن استعمالها.

وفي المقابل أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه المتقشفين بإظهار آثار نعمة الله عليهم، وعدم المبالغة في التزهد في الدنيا، وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى حديث أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة عن أبيه إذ يقول: "أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا قَشِف الهيئة، فقال: هل لك من مال ؟ فقلت: نعم، قال: من أيّ مال ؟ قلت: من كلٍ قد آتاني الله؛ من الإبل والرقيق والغنم ، قال: إذا آتاك الله مالاً فليُرَ عليك "(9)، بل إن رسول الله نفسه

---

1 ) القَسِّيُّ: ثوب يُحمل من مصر يخالطه الحرير. ( مختار الصحاح، للرازي، ص223)

2 ) اللباس المعصفر: اللباس المصبوغ. ( مختار الصحاح، للرازي، ص183).

3 ) الترمذي: سنن، ح1737، ج4، ص226.

4 ) الحاكم: المستدرك، ح206، ج1، ص120.

5 ) جرجر الشراب في جوفه: إذا جرعه جرعاً متداركاً حتى يسمع صوت جرعه ( ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي: المخصص ، تحقيق : خليل إبراهم جفال، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1417هـ=1996م، ج3، ص206).

6 ) مسلم: صحيح، ج3 ص:1634

7 ) الدُّهقان: فارسية معربة بمعنى التاجر (ابن منظور: لسان العرب، ج13، ص163).

8 ) البخاري: صحيح، ح5309، ج5، ص2133.

9 ) ابن حبان: صحيح ابن حبان، ح5416، ج12، ص234.

ارتدى الجبة الرومية، وهي من زيّ النصارى، ولبس الطيالسة الكسروية، وهي من لباس المجوس([1]).

ولعله من المهم الإشارة هنا إلى أن هذه الأحاديث لا تدل على تناقض بين قول النبي وفعله، بل هي إشارة جلية إلى وسطية الإسلام واعتداله، وهو الذي تصدى للإفراط من زاوية وللتفريط من زاوية ثانية، فالإسلام يتصدى للبذخ والتفاخر بالنعم من جهة ويواجه التنطع والبخل من جهة أخرى، ومما يتأكد به هذا القول ما ذهب إليه صاحب كتاب معتصر المختصر عندما أشار إلى أن نهي النبي صلى الله عليه وسلم كان عن "الشرب في آنية الذهب والفضة، ولم ينهَ عن الآنية المفضضة ([2]) كما نهى عن لباس الحرير ولم ينه عما كان فيه شيء من الحرير"([3]).

## ثالثاً: مسكن النبي:

لقد خص الإسلام تباهي الإنسان وتفاخره بالتطاول في البنيان بالذم([4])، ولذلك كان بناء النبي صلى الله عليه وسلم في غاية البساطة، في وقت كانت المدينة المنورة تشتهر فيه بعلوّ حصونها، والتي كان يتخذها كبراء القوم مساكن لهم يتباهون بها في أوقات السلم، ويتحصنون بها في أوقات الحرب، وكان النبي يستطيع آنذاك بإيماءة منه إلى أصحابه أن يطلب منهم بناء ما يشتهي من المباني، ولن يجد منهم أي تردد في إطاعته([5])، غير أن النبي اختار أن يكون مسكنه مسكنه كغيره من عامة المسلمين، ويصف الإمام السهيلي بيوت النبي بقوله: " وأما بيوته عليه السلام فكانت تسعة، بعضها من جريد مطيّن بالطين، وسقفها جريد، وبعضها من حجارة مرضومة([6]) بعضها فوق بعض، مسقفة بالجريد أيضاً "([7])، ويدل وصف السهيلي على غاية

---

[1] ) هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية : البحوث العلمية، السعودية، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، 1423هـ=2002م، ج 7، ص 60.

[2] ) شيءٌ مُفَضَّضٌ: مُمَوَّه بالفضة أو مُرَصَّعٌ بالفضة (ابن منظور: لسان العرب، ج7، ص206).

[3] ) الحنفي، أبو المحاسن يوسف بن موسى: معتصر المختصر، بيروت، عالم الكتب، د.ت.ط، ج2، ص287.

[4] ) البغدادي، زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين : جامع العلوم والحكم، تحقيق شعيب الأرناؤوط، وإبراهيم باجس، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط7، 1417هـ،.ج1، ص41.

[5] ) الحميدي، عبد العزيز بن عبد الله: السيرة النبوية، الإسكندرية، دار الدعوة، ط1، 1418هـ-1997م، ج4، ص11.

[6] ) مرضومة: بعضها فوق بعض، (ابن منظور: لسان العرب، ج12، ص244).

[7] ) السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد : الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق عمر السلامي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1421هـ=2000م، ج4،

البساطة في مسكن النبي صلى الله عليه وسلم، ومن المهم هنا التذكير بما مرَّ ذكره آنفاً بأن النبي يستطيع أن يتملك ما يشاء لو أراد ذلك.

ولذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحث الناس على الزهد في بناء البيوت، فقد روى عبد الله بن مسعود عن النبي أنه قال: " يؤجر الرجل في نفقته كلها إلا التراب أو قال في البناء"([1])، ولكن هذا القول لا يعني أن النبي يدعو إلى هجر المساكن أو عدم اتخاذها، بل ربما يكون هدف النبي هو الدعوة إلى عدم الانجرار وراء الدنيا وإعمارها بالأبنية الفارهة، على حساب الحياة الآخرة.

إذ لا يعقل أن يلتجأ المسلم للناس يسألهم مأوى وهو يقدر على أن يكون له مسكن يملكه، ويتأكد ذلك من خلال شكوى خالد بن الوليد للنبي صلى الله عليه وسلم من مسكنه، حيث ورد في الحديث أنه شكا إلى النبي ضيق مسكنه فقال له النبي: "ارفع ثيابك وسل الله عز وجل السعة"([2])، وهذا دليل واضح على أن النبي كان يدعو أصحابه إلى الأخذ بسبل العيش الكريمة، فالأمر لم يقتصر هنا على إيجاد المسكن، بل تعداه إلى أكثر من ذلك، فخالد بن الوليد يملك المسكن لكنه يشكو الضيق، ولو كان الرسول يعترض على شكوى خالد هذه أو لا يوافقه، لأظهر له ذلك من دون حرج، لكنه وجهه إلى طلب السعة من الله تبارك وتعالى.

ليس ذلك فحسب بل إن النبي فرض مسكناً لعمال الدولة، فيُروى عن المستورد بن شداد قوله: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "من كان لنا عاملاً فليكتسب زوجة، وإن لم يكن له خادم فليكتسب خادماً ، ومن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكناً "([3])، والمتمعن في الحديث يجد أن الرسول لم يفرض لعماله مسكناً فقط، بل فرض لكل واحد زوجة وخادماً، فإذا كان ذلك حق العامل على ولي الأمر يستخرجه من بيت مال المسلمين، فمن باب أولى أن يكون ذلك حق الإنسان في الإنفاق على نفسه وأهله.

وبالنسبة لأثاث المنزل، فقد كان أثاث منزل النبي متواضعاً، إذ يُروى عن عائشة قولها: "كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أدم حشوه ليف "([4])، وقد روى أبو موسى

---

ص163.

١ ) الترمذي: سنن، ح2483،ج4، ص651، وقد صححه الشيخ الألباني.

٢ ) القرشي، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان : إصلاح المال، تحقيق محمد عبد القادر عطا، بيروت، مؤسسة الكتب، ط1، 1414هـ، ح291، ص89.

٣ ) الحاكم: المستدرك ح1473، ج1، ص563.

٤ ) ابن حبان: صحيح، ح6361، ج14، ص 275.

الأشعري أنه دخل على النبي "وهو في بيت، على سرير مرمل([١])، وعليه فراش، وقد أثر رمال السرير بظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وجنبيه([٢])، ما يعني أن النبي كان زاهداً في أنواع النسيج الفاخر وهو قادر عليه، فهو كما سبق ذكره في هذا المبحث يستطيع الحصول على أفخر أنواع الأثاث المنزلي آنذاك بحكم موقعه ومكانته بين أصحابه.

**رابعاً: زواج النبي:**

بالنسبة للزواج فقد أقر الله تعالى للمسلم أن يتزوج النساء، على الرغم من أنه إحدى المتع والنعم التي تعود باللذة على الإنسان، وقد نقل أنس رضي الله عنه قول رسول الله ﷺ "حُبِّب إليّ النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة "([٣])، كما سُمح للمسلم بتعدد الزوجات فيما لا يتجاوز الأربعة في قول الله عز وجل: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع﴾([٤])، كما حثت السنة النبوية المطهرة على الزواج لمن يمتلك مقوماته المادية والجسدية([٥])، فها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يتزوج باثنتي عشرة امرأة([٦])، ولكن تعدد الزوجات هو تشريع للطوارئ وليس هو الأصل في الزواج، ومن أمثلة حالات الطوارئ الملجئة للتعدد الحروب التي تفني كثيراً من الذكور، وكذلك فإن الرجال هم الأكثر عرضة لحوادث العمل، وهم أكثر من يموت بسبب هذه الحوادث([٧])، ولعل أوضح دليل على أن حاجة الإنسان للنساء حدها الأدنى امرأة واحدة، الأمر الذي خلق الله عليه آدم، فالله خلق له حواء واحدة.

ولعل هذا السبب وهو أن أعداد النساء أكثر من الرجال يعد الدافع الأساسي لتعدد الزوجات وكما يقول الغزالي: نحن في هذه الحالة أمام أحد ثلاثة حلول وهي: إما أن نقضي على بعض النساء بالحرمان من الزواج، وإما أن نبيح اتخاذ العشيقات ونسمح بالزنا، أو أن نسمح بتعدد الزوجات([٨]).

---

١ ) رَمَلْتُ السَّرِيرَ ، وأَرْمَلْتُهُ : إذا نَسَجْتُهُ بشَرِيطٍ مِن خُوصٍ أو لِيفٍ (الزبيدي: تاج العروس، ج29، ص98).

٢ ) مسلم: صحيح، ح2498، ج4، ص1943.

٣ ) الحاكم: المستدرك، ح 2676، ج2، ص174.

٤ ) سورة النساء: آية 3.

٥ ) حامد أحمد الطاهر: الوصايا النبوية، دار الفجر للتراث، ط1، 2005، ص443.

٦ ) الزين، عبد القادر نبيل: زوجات النبي صلى الله عليه وسلم،عمان، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط 1، 1997م، ص5.

٧ ) قطب، محمد: شبهات حول الإسلام، القاهرة، دار الشروق، ، ط16، 1403هـ=1983م، ص135-136.

٨ ) محمد الغزالي: فقه السيرة، الإسكندرية، دار الدعوة، ط2، 1409هـ=1989م، ص481.

وكما سبق القول فإن الرسول عمل بمبدأ تعدد الزوجات برغم كونه متعة، بل وأمر بالزواج حتى من نساء يجلبن المتعة للرجل، فقد ورد في حديث جابر بن عبد الله عندما سأله النبي عن زواجه بقوله: "تزوجت؟، قلت: نعم، قال: بكراً أم ثيباً؟، قلت: بل ثيباً، قال: أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟..."([1])، وفي رواية لمسلم "فهلا بكراً تلاعبها..."([2]).

كما أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تزوج امرأة بكراً هي عائشة رضي الله عنها، كما روت هي ذلك بقولها: " يا رسول الله؛ أرأيت لو نزلت وادياً وفيه شجرة قد أُكل منها ، ووجدت شجراً لم يؤكل منها، في أيها كنت ترتع بعيرك؟ قال: في التي لم يرتع منها، تعني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتزوج بكراً غيرها"([3]).

وعن الابتهاج بالزواج فقد روت عائشة أيضاً قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدفوف"([4])، والشرط أن لا يخرج اللهو اللهو في الأعراس عن حد المباح([5])، ولذلك لم يُسمع من الرسول صلى الله عليه وسلم دعوة إلى التنعم الزائد، أو الإسراف في الإنفاق على هذه الأعراس.

ومن المهم الإشارة في ختام هذا المبحث إلى أن الأحاديث الواردة فيه تعطي صورة واضحة للمسلم عن حياة النعيم وكيف يعالجها بصورة وسطية بين الإفراط والتفريط، فلا يجب على الإنسان المسلم أن ينساق خلف شهواته بالكلية فيسرف على نفسه، ولا يتخلى عن حاجاته فيقتر على نفسه.

---

[1] ) البخاري: صحيح، ح1991، ج2، ص739.

[2] ) مسلم: صحيح، ح715، ج2، ص1087.

[3] ) البخاري: صحيح، ح4789، ج5، ص1953.

[4] ) الترمذي: سنن، ح1089، ج3، ص398.

[5] ) ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب، بيروت، دار المعرفة، د.ت.ط، ج9، ص203.

## المبحث الرابع

## الترف عند الصحابة والتابعين

عاش صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم معه في مختلف مراحل دعوته وحتى وفاته وهم يتّبعون سنته، وروي عن عمر بن الخطاب مخاطبته للحجر الأسود عندما قبّله قوله: "إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك"([1])، ولذلك أعتقد بأن الصحابة الكرام والتابعين لن يخرجوا عن إطارٍ حدده رسول الله لهم في المأكل والمشرب والملبس والمسكن والزواج، وعليه فإن مفهوم الصحابة والتابعين للترف سيكون هو ذات المفهوم الذي بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل.

### أولاً: موقف الصحابة من الترف:

نصح عليّ بن أبي طالب لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما بقوله: "إن أردت أن تلحق بصاحبيك، فارفع([2]) القميص، ونكس الإزار([3])، واخصف نعلك، وكل دون الشبع"([4])، فرؤية عليّ لمرافقة النبي في الجنة ترتكز هنا على ترك ملذات الدنيا وشهواتها تشبهاً برسول الله صلى الله عليه وسلم.

وللحق فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان ممن حارب شهوات الدنيا وابتعد عن زخرفها وزينتها، فهو في عام الرمادة يتعرض للجوع ككل المسلمين، ولا يأكل أفضل من أكلهم، فأكل الزيت، وحرّم السمن على نفسه، وكان يسمع قرقرة لبطنه نتيجة الجوع النازل به، فينقر عليه بإصبعه ويخاطبه قائلاً: " قرقر ما شئت أن تقرقر، إنه ليس لك عندنا غير هذا حتى يحيا الناس"([5])، وهذا هو حال عمر الدائم ليس في أوقات الكارثة فقط؛ بل لقد سألته ابنته حفصة ذات

---

١) ابن منده، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن عيسى: الفوائد، تحقيق مجدي السيد إبراهيم، القاهرة، مكتبة القرآن، د.ت.ط، ح34، ص56.

٢) ذكر البيهقي القصة بنص "يا أمير المؤمنين إن سرك تلحق بصاحبيك فأقصر الأمل وكل دون الشبع وأقصر الإزار وارقع القميص واخصف" (البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين: شعب الإيمان، تحقيق محمد السعيد وبسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1410هـ، ح5681، ج5، ص36).

٣) يبدو من النص أن علياً ينصح عمر بألا يترك ثوباً قبل أن يستهلكه بالكامل على وجهيه، فهو يطلب منه قلب القميص إذا بليَ ظاهره.

٤) العمار، ناصر بن عبدالله: الترف وأثره في المجتمع من خلال القرآن الكريم، مجلة دعوة الحق، تصدرها رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، السنة العاشرة، العدد118، 1412هـ-1991م، ص31.

٥) ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي: الاستذكار، تحقيق سالم محمد عطا، ومحمد

ذات مرة "ألا تلبس ثوباً ألين من ثوبك ، وتأكل من طعام أطيب من طعامك هذا ، وقد فتح الله عليك الأمر وأوسع إليك الرزق ؟، فقال: سأخاصمك إلى نفسك ، فذكر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان يلقى من شدة العيش، فلم يزل يذكر حتى بكت"([١]).

وأنه لمن الخطأ أن يُنظر إلى موقف عمر بن الخطاب من نعيم الدنيا بسبب قلة المال، إذ أنه خليفة المسلمين وبيده مفاتيح بيت المال، وكانت كل أنواع النعم والأموال موجودة في عصره، ويدل على ذلك أنه عندما تولى الخلافة قام بفرض الدية؛ على أهل الفضة عشرة آلاف درهم، وألف دينا ر على أهل الذهب، أما على أهل الإبل ففرض مائة منها، وعلى أهل البقر مائتين، وعلى أهل الغنم ألفين من الشياه، فيما عيّن على أهل الحلل مائتي حلة([٢])، وفي هذا خير إشارة على توفر مواد الثراء وانتشارها في المجتمع الإسلامي زمن الخليفة عمر – على أقل تقدير – إذ لو أن المسألة تتعلق بمجرد دية، لتعيّن على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن يحدد نوعاً واحداً من أنواع المال، كالدراهم مثلاً أو الدنانير، غير أنه عدّد صنوفاً مختلفة من المال، ما بين النقد أو النعم أو حتى اللباس دليلاً على وفرتها.

وبالإضافة لما سبق فإن عمر بن الخطاب أرسل إلى أبي موسى يقول له " أما بعد فلتزروا([٣]) وارتدوا ، وألقوا السراويلات ([٤])، وألقوا الخفاف ([٥])، واحتفوا ([٦]) وانتعلوا، وقابلوا بينهما، واخشنوا ، واخشوشنوا ، واخلولقوا ، وتمعددوا ([٧])، فإنكم معد ، وارتموا الأغراض([٨])، واقطعوا الركب، وانزوا على ظهور الخيل نزواً([٩])، واستقبلوا بوجوهكم الشمس، فإنها حمامات

---

علي معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، 2000م، ج8، ص380.

١ ) الحاكم: المستدرك، ح424، ج1، ص211.

٢ ) أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم الأنصاري: كتاب الآثار، تحقيق أبو الوفا، بيروت، دار الكتب العلمية، 1355هـ، ص221.

٣ ) ائتزر: بمعنى لبس المئزر(الزبيدي: تاج العروس، ج10، ص44).

٤ ) السراويلات: جمع سراويل وهو معروف، يذكر ويؤنث (الرازي: مختار الصحاح، ص125).

٥ ) الخفاف: جمع خف، وهو ما يلبس في القدم ( ابن سيده: المخصص، ج1، ص410).

٦ ) احتفى: مشى حافياً ( الزبيدي: تاج العروس، ج37، ص449).

٧ ) التمعدد: هو التشبه بمعد بن عدنان في تقشفهم وخشونة عيشهم وترك زي العجم وتنعمهم وإيثارهم لنعيم العيش. ( الفائق في غريب الحديث، لمحمود بن عمر الزمخشري، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار المعرفة، ط2، ج:3 ص:106).

٨ ) أَتَرَمَّى إذا خرجتَ تَرْمِي في الأغْراض ، وأَرْتَمِي إذا خرجْتَ تَرْمِي القَنَص ، ( ابن سيده: المخصص، ج2، ص41).

٩ ) اقطعوا الركب، وانزوا على ظهور الخيل نزواً: بمعنى اركبوا وثبوا ( ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن: الاشتقاق، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط3، ص31).

العرب، وإياكم وزي الأعاجم وتنعمهم ، وعليكم بلبسة أبيكم إسماعيل "(1)، وقد وصل لهم هذا الكتاب وهم يجاهدون بأرض أذربيجان( 2)، وفي ذلك حث على حياة التقشف، وربما يكون السبب في ذلك خشية عمر من انجرار المسلمين وراء الشهوات وترك الجهاد في بلاد ليست بلادهم، مما يهددهم بخطر الانحراف عن الجادة، وهو يشير أيضاً إلى هؤلاء المقاتلين بقوله: "ذروا التنعم وزي العجم، وإياكم والحرير فأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نهى عنه"(3)، ويبدو أن عمر بن الخطاب كان يصدر إرشاداته حسبما يتطلب الموقف، والحقيقة أن هذا هو الموقف الوسطي الذي ينبغي أن يتسم به القائد المسلم، فعمر بن الخطاب لا ينظر للأمور بجمود، بل إن لديه من المرونة والفطنة ما يؤهله أن يميز بين حاجة المسلمين للتقشف في بعض الأحيان، وحاجتهم لإظهار نعمة الله في أحيان أخرى، ولذلك فإن مؤلفي كتاب البحوث العلمية يذكرون أنّ أمر عمر في هذا الإطار لا يعدو كونه أمر مصلحة، وليس أمراً للتشريع فكيف لعمر أن يمنع مثل هذه الملابس وقد لبسها رسول الله صلى الله عليه وسلم(4).

وبالنظر إلى مصعب بن عمير فأنه عاش شبابه في الجاهلية جميلاً وسيماً مدللاً من أبويه، يُكسى من أمه بأحسن الثياب وأرقّها، وكان من أعطر أهل مكة( 5)، ويُصدّق ذلك وصف عامر بن ربيعة له بقوله: "كان مصعب مترفاً يدّهن بالعبير (6)، ويذيل(7) يمنة(8) اليمن ويمشي ويمشي في الحضرمي(9)"(10)، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكّره بذلك ويقول له: "ما رأيت
بمكة أحسن لمة ولا أرق حلة ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير"(11).

---

1 ) الأزدي، معمر بن راشد: الجامع، تحقيق حبيب الأعظمي، بيروت، المكتب الإسلامي، 1403هـ، ج11، ص85.

2 ) ابن حبان: صحيح ج:12 ص:268.

3 ) الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله: حلية الأولياء ، بيروت، دار الكتاب العربي، 1405هـ، ج3، ص122.

4 ) هيئة كبار العلماء: البحوث العلمية، ج7، ص61.

5 ) الحاكم: المستدرك، ح4904، ج3، ص221.

6 ) يدَّهن بالعبير : أى يمزِج الدُّهن بالعبيرِ ( الزمخشري: الفائق، ج2، ص20).

7 ) التَّذِييْل : تطويل الذَّيْل (م.ن، ج2، ص20).

8 ) اليُمْنَة : ضَرْبٌ من بُرود اليُمن (م.ن، ج2، ص20).

9 ) الحضْرَمِيَّ: هو النعل المنسوبة إلى حَضْرَمَوْتَ. (ابن منظور: لسان العرب، ج 4، ص 202).

10 ) الخطابي، أبو سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم البستي: غريب الحديث ، تحقيق عبد الكريم إبراهيم العزباوي، مكة المكرمة، جامعة أم القرى، 1402هـ، ج2، ص291.

11 ) الحاكم: المستدرك، ح4904، ج3، ص221.

ولكن بالرغم من كثرة النعم التي عايشها مصعب، فقد ترك حياة الرفاهية هذه بعد إسلامه ، حتى بلغ به التقشف والزهد في الدنيا مبلغه، وقد صدق فيه وصف عامر بن ربيعة إذ يقول: "فلما هاجر أصابه ظلف([١]) شديد، فكان يهمد([٢]) من الجوع"([٣]).

ويضاف إلى ما سبق من عفافه عن الدنيا، حالته التي كان عليها عند استشهاده، فإنه استشهد يوم أحد كما يقول خباب ولم يجد المسلمون ما يكفنونه به إلا بردة، إذا غطوا بها رأسه ظهرت قدماه، وإذا غطوا قدميه ظهر رأسه([٤]).

وهذا سعد بن الربيع رضي الله عنه وهو من أغنياء الأنصار، آثر التنازل عن نصف ماله لأخيه عبد الرحمن بن عوف على أن يتمتع به كاملاً، كما أنه عرض عليه أن يختار إحدى زوجتيه([٥])، وفي هذا دليل قاطع على أن سعد بن الربيع كان من أهل النعماء بين أهل مدينته، فهو من أهل الغنى، فضلاً عن أنه متزوج من امرأتين لا واحدة.

ولا عجب أن يكون أهل الديار من الأنصار ذوي يسار، في حين أن هناك من المهاجرين أيضاً من هم ذوو يسار، فعبد الرحمن بن عوف نفسه كان أحد أغنياء المهاجرين، فقد كان تاجراً وقد بلغت ثروته زهاء ثمانية آلاف دينار، تصدق منها بأربعة آلاف دينار بين يدي رسول الله([٦])، ثم إنه بعد ذلك تصدق وفي عهد الرسول أيضاً بمائة وعشرين ألفاً، على ثلاث مراحل، كل مرحلة أربعون ألفاً، إضافة إلى أنه حمل على خمسمائة فرس في سبيل الله، وألف وخمسمائة راحلة([٧])، وهو نفسه اشترى يوماً أرضاً من عثمان بن عفان بأربعين ألف دينار، فقسمها بين الفقراء وذوي الحاجة من الناس وجعل منها لأمهات المؤمنين نصيباً([٨]).

---

١ ) الظَّلَفُ : الشدَّة ( الزمخشري: الفائق، ج2، ص20).

٢ ) يَهْمُد : يَهْلِك (م.ن، ج2، ص20).

٣ ) الخطابي: غريب، ج2، ص291.

٤ ) البخاري: صحيح، ج1، ص429،ح1217.

٥ ) النسائي، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن: سنن النسائي الكبرى، تحقيق د.عبد الغفار سليمان البنداري، وسيد كسروي حسن، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1411هـ=1991م، ج6، ص54، ح10013.

٦ ) الطبري: تفسير الطبري، ج10، ص195.

٧ ) ابن المبارك، أبو عبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي: الزهد، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.ط، ح520، ص183.

٨ ) ابن أبي عاصم، أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشيباني: الزهد، تحقيق عبد العلي عبد الحميد حامد، القاهرة، دار الريان للتراث، ط2، 1408هـ، ص198.

وكذلك الأمر فإن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان أحد المهاجرين، وعلى الرغم من أنه يعيش خارج وطنه إلا أنه كان من أهل النعمة والثراء، فقد اشترى بئر رومة([1])، وجهز جيش العسرة بألف دينار([2]) وكما سبق عنه خلال البحث فقد باع أرضاً لعبد الرحمن بن عوف بأربعين ألف دينار.

ومن المهم ملاحظة أن هؤلاء الصحابة كانوا يتصدقون بجزء من أموالهم وليس كل الأموال، فلا يُعقل أن يقوم المسلم بإنفاق جميع ماله ثم يتوجه لمكابدة المذلة بسؤال الناس، مما يشير إلى وجود طبقة من الصحابة من أهل النعماء وذوي الأموال، فكانت هذه الطبقة تحافظ على بقاء جزء من المال بيدها؛ لتستثمره في التجارة فيتضاعف هذا المال معها من جديد لتعيد الكرّة نفسها.

وهذا عبد الله بن عمر وهو أحد أشهر علماء الصحابة، يأتيه أحد أبنائه طالباً منه الكساء فيقول له: "يا بني نكس إزارك وإياك أن تكون من الذين يجعلون ما رزقهم الله عز وجل في بطونهم وعلى ظهورهم"([3]).

وبالنظر إلى عبد الله بن عمر فإنه كان يزوج بناته على مهر يبلغ الألف دينار، وكان يقسم هذا المهر بين شراء الحلي وبين المتطلبات الأخرى اللازمة للعروس، فكان نصيب الذهب من المهر يبلغ الأربعمائة دينار([4])، وهذا المبلغ يعد مبلغاً غير قليل في بيئة كبيئة المدينة المنورة، إذ سبق الحديث عن تصدق عبد الرحمن بن عوف بنصف ماله وهو أربعة آلاف دينار، وكان عبد الرحمن يعد من أغنياء المسلمين، فكيف يكون بمن يطلب مهراً لابنته يعدل ألف دينار، أي ما يعدل ثُمُن ثروة عبد الرحمن بن عوف.

وبالمقارنة بين هذا المهر الذي كان عبد الله بن عمر يزوج به بناته وبين المهر الذي قدمه علي بن أبي طالب رضي الله عنه لفاطمة فسنجد عندئذ فارقاً كبيراً، فإن علياً قدّم لها درعاً كان قد أخذه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا الدرع لا يتجاوز ثمنه أربعمائة درهم([5])، درهم([5])، أي ما يعدل أربعين ديناراً، لأن كل دينار يعدل عشرة دراهم([1])، والفارق هنا بين

---

١ ) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى: سنن البيهقي الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة، مكتبة دار الباز، 1414هـ=1994م، ج6، ص168، ح 11716.

٢ ) الحاكم: المستدرك، ج3، ص110.

٣ ) ابن حنبل: الزهد، ج1، ص193.

٤ ) أبو يوسف: الآثار، ج1. ص231، ح1021.

٥ ) الدولابي، أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد: الذرية الطاهرة، تحقيق سعد المبارك الحسن، الكويت، الدار السلفية، ط1، 1407هـ، ج1، ص64.

مهور بنات عبد الله وبين مهر فاطمة يبلغ ما نسبته درهم واحد لفاطمة إلى خمسة وعشرين درهم لبنت واحدة من بنات عبد الله بن عمر، وفي هذه المقارنة إشارة إلى أن من المسلمين من كان يمتلك مالاً كثيراً يستطيع أن يدفع به مهراً كبيراً، وهم أولو النعمة والثراء من المسلمين، وإن هناك من المسلمين من لم يكن يمتلك مهراً يتزوج به إلا أدواته الشخصية، كدرع عليّ كرّم الله وجهه، وحتى هذه الدرع كانت هدية من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد أبيح للمسلمين إدخال معدن الذهب والفضة في صناعة السيوف لبث الرعب في نفوس الأعداء، غير أن الصحابة استبدلوا هذا الأمر بشدة بأسهم وقوة إيمانهم للنكاية في العدو(٢)، وهي إشارة إضافية لوفرة هذه المواد في الدولة الإسلامية.

كما كان من أغنياء الصحابة أيضاً الصحابي أبو الدحداح رضي الله عنه، فكان يمتلك بستانين، تصدق بأفضلهما(٣) وكان يحتوي على ستمائة نخلة(٤).

أما سعد بن أبي وقاص والذي كان أحد أغنياء الصحابة أيضاً فقد استشار النبي عندما حضرته الوفاة في أن يتصدق بثلثي ماله أو نصفه فمنعه النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك، ولما رأى منه عزماً شديداً على التصدق بالمال، أشار عليه النبي أن يتصدق بثلث ماله، وقال له "الثلث، والثلث كبير، أو كثير"(٥).

ويمكن القول أن سعداً كان يمتلك الكثير من المال في حياته، أي أنه عاش حياته غنياً، ولما شعر بدنوّ أجله أراد التصدق بجزء كبير من ماله لاعتقاده أنه يفيض عن حاجة ورثته، غير أن رسول الله خالفه الرأي، وعلّمه هو ومن بعده أن من واجب الإنسان أن يترك لأهله ما يكفيهم، وذلك خير لهم من أن يسألوا الناس.

والملاحظ بالرغم مما سلف من روايات عن ابتعاد الصحابة عن زخارف الدنيا وخصوصاً أرباب المال منهم فقد عمل صحابة رسول الله على الموازنة بين متطلباتهم الحياتية وبين حفاظهم على حياة التقشف التي عاشوها، فها هم الصحابة الكرام يلبسون في كل البلاد التي فتحوها لباس أهلها بما في ذلك قلنسوة النصارى(٦).

---

١ ) الشيباني: أبو عبد الله محمد بن الحسن، الحجة على أهل المدينة، تحقيق مهدي حسن الكيلاني القادري، بيروت، عالم الكتب، 1403هـ، ج4، ص 262.

٢ ) العيني، بدر الدين محمود بن أحمد: عمدة القاري، بيروت، دار إحياء التراث، ج14، ص188.

٣ ) الهيثمي، علي بن أبي بكر: مجمع الزوائد، القاهرة، دار الريان، القاهرة، 1407هـ، ج3، ص113.

٤ ) الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب، المعجم الكبير، تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي، الموصل، مكتبة العلوم والحكم، ط2، 1404هـ=1983م، ، ج22، ص301، ح764.

٥ ) البخاري: صحيح، ج1، ص435، ح1233.

٦ ) هيئة كبار العلماء: البحوث العلمية، ج7، ص60.

ومما يؤكد حرص الصحابة على هذه الموازنة الطلب الذي تقدم به خالد بن الوليد للنبي بالتوسيع في بيته، ويستفاد من موقف النبي وطلبه من خالد أن يتوجه إلى الله بالدعاء أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يجعل من توجيهاته للصحابة إلى العزوف عن الدنيا هدفاً بحد ذاته، بل إن النبي كان معنياً بأن يعيش الصحابة حياة عزيزة كريمة لايلجأون من خلالها إلى ذل سؤال الناس، وتبدو هذه التوجيهات النبوية لتحذير الصحابة من الانسياق خلف الشهوات وترك الفرائض التي افترضها الله عليهم.

ولذلك فقد شوهد من صحابة رسول الله عثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعمران بن حصين ، وعبد الله بن أبي أوفى، وأبو هريرة، وأنس بن مالك ، وحسين بن علي ، وعبد الله بن الزبير، وشريح رضي الله عنهم وهم يلبسون ملابس الخز[١][٢].

وتجدر الإشارة هنا بأن الأمثلة السابقة تأتي في مجال الاستشهاد وليست في مجال الاستطراد إذ أن التوسع في أحوال الصحابة من أهل النعيم أو من الزهاد يحتاج إلى رسائل علمية كاملة، ولا تكفيه بضع صفحات.

---

١ ) الخَزُّ: الحَرير ( ابن سيده: المخصص، ج1، ص383).

٢ ) أبو يوسف: كتاب الآثار، ص:231.

## المبحث الخامس
## الترف عند علماء المسلمين

تناول علماء المسلمين مفهوم الترف في كثير من كتاباتهم تلميحاً أو تصريحاً، أو بذكر مظاهره وآثاره المتنوعة، وقد طبع الحديث عن الترف لديهم صبغة تكاد تكون واحدة لا خلافاً جوهرياً فيها.

فقد قرن الشيزري بين الترف والتنعم، وجعلهما مدخلاً للبطر( [١])، والبَطَرُ هو الطغيان عند النعمة([٢])، فالشيزري يساوي هنا بين المفهومين، إذ جعل الترف مرادفاً للتنعم، كما وافقه في النظرة نفسها أبو الحسن الندوي إذ قرن أيضاً بين الترف والتنعم([٣])، وبين الترف والنعيم([٤]).

أما ابن خلدون فقد قرن بين "الترف والخصب"( [٥])، وقرنه بالنعيم بقوله: "الترف وانغماس القبيل في النعيم"([٦])، وقوله: "الترف والغرق في النعيم"([٧])، وقوله: "الترف والنعيم"([٨])، والنعيم"([٨])، وقوله كذلك "الترف والنعمة"([٩]) كما قرنه بالدعة بالقول: "الترف والدعة"([١٠])، وربط وربط الترف بالملك إذ قال: "بالملك والترفه"( [١١])، كما عطف الغنى على الترف، بقوله: "الترف والغنى"([١٢])، كما عطف الثروة كذلك على الترف إذ قال: "الترف والثروة"([١٣])، والواضح هنا أن المراد من هذا الربط بين مفهوم الترف وغيره من المفاهيم يدل على تصنيف ابن خلدون للترف

---

١ ) الشيزري، عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر بن عبد الرحمن: المنهج المسلوك في سياسة الملوك، تحقيق علي عبد الله الموسى، الزرقاء، مكتبة المنار، 1407هـ=1987م، ص557.

٢ ) ابن منظور: لسان العرب، ج4، ص69.

٣ ) الندوي، أبو الحسن علي الحسني: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، المنصورة، مكتبة الإيمان، د.ت. ط، ص245.

٤ ) م.ن، ص113، 123، 248.

٥ ) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي: مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار القلم، ط 5، 1984م، ص89، ص146.

٦ ) م.ن: ص140.

٧ ) م.ن: ص141.

٨ ) م.ن: ص292.

٩ ) م.ن: ص372.

١٠ ) م.ن: ص168.

١١ ) م.ن: ص170.

١٢ ) م.ن: ص377.

١٣ ) م.ن: ص401.

على أنه نوع من أنواع المتع التي يسعى الإنسان للحصول عليها ولذلك فهو يذكر الترف في معرض حديثه عن النعم.

ولعل أهم ربط قام به ابن خلدون للترف أن ربطه بالحضارة بقوله: "الحضارة والترف"(١)، وعكس العطف في موضع آخر"الترف والحضارة"(٢) حيث أنه في هذا الربط يرى يرى بأن الحضارة موازية للترف أو هي الترف ذاته، ويمكن للراغب في التعرف على مفهوم الترف عند ابن خلدون أن يخلص إليه من خلال مقدمته التي أسهب واستفاض فيها في الحديث عن الترف ومظاهره وأسبابه وآثاره.

كما قرن الحافظ ابن حجر العسقلاني بين الترف والملاذ(٣)، وهي أيضاً إشارة من ابن حجر إلى أن الترف والملاذّ يعدان من مظاهر التنعم.

وكذلك فإن أبا الحسن الندوي يعطف البذخ على الترف في أكثر من موضع في كتابه ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين بقوله: "حياة الترف والبذخ"(٤)، وفي موضع آخر بقوله: "البذخ والترفه"(٥)، وفي موضع آخر بقوله: "الترف في العيش والبذخ"(٦) في إيحاء منه على أنهما مترادفتان لهدف واحد هو حياة اللذة والمتعة.

أما حسن البنا فإنه قرن بين النعيم والترف(٧)، ومثله أيضاً السيد محمد نوح(٨) وقد عدّ عدّ البنا اللفظان مفهومان لمعنى واحد، وهو الإقبال على المتع والشهوات(٩).

وهذا عبدالله بن عبد الرحمن الجربوع يربط بين الترف من ناحية والإسراف في المعاصي من ناحية أخرى في موضع(١٠)، وفي موضع آخر يربط بين الترف والإسراف

---

١) ابن خلدون: المقدمة، ص172.

٢) م.ن: ص377.

٣) ابن حجر، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد عبد المعيد ضان، حيدر أباد، مجلس دائرة المعارف، ط2، 1392هـ، 1972م، ج6، ص97.

٤) ص71، 78.

٥) م.ن: ص72.

٦) م.ن: ص148.

٧) البنا، حسن: رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، الإسكندرية، دار الدعوة للطباعة والنشر، ط 1، 1422هـ=2002م، ص143.

٨) نوح، محمد السيد: آفات على الطريق، المنصورة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط 7، 1413هـ=1992م، جزء 1 ص 47.

٩) البنا: الرسائل، ص143.

١٠) الجربوع، عبدالله بن عبد الرحمن: أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، المدينة المنورة، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط1، 1423هـ=2003م، ج1، ص433.

والطغيان([1])، وهو بذلك يتفق مع البنا بربطه بين الترف والإسراف الفاسد([2])، وفي هذا الربط إشارة إلى أن الترف هنا يقع ضمن تصنيف الأمور المستقبحة، فالإسراف والطغيان ليس لهما في المفاهيم العربية أي نظرة توحي بإيجابيتهما.

كما أن السيد محمد نوح ربط بين مفهومي "الترف والسرف"([3]) في رغبة منه للتنفير من الترف، إذ أن مفهوم السرف من المفاهيم المذمومة لدى المسلمين حسبما ورد في الكتاب المجيد (إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)([4]).

ويعرف عبد الرحمن يسرى أحمد الترف على أنه " التنعم باستهلاك وفير من الكماليات، على اختلاف أصنافها، أو اقتنائها، أو هو رفه فى إشباع رغبات النفس فوق ضروراتها وحاجياتها العادية، ومن ثَمَّ فالترف قرين الثراء، ولكن العكس ليس بالضرورة صحيحا"([5]).

يمكن القول ومن خلال ما تم طرحه من آراء للعلماء حول مفهوم الترف لديهم بأنهم كادوا يتفقون على أن الترف يدل على جميع أنواع النعيم التي يستطيع الإنسان الحصول عليها، من مثل المأكل والمشرب والملبس والمسكن، والتمتع بالمناصب السلطوية داخل الدولة، ويؤكد ذلك ذكر العلماء للترف أثناء تعداد النعم، ويمكن القول أن جميع العناصر التي ذكرها العلماء مع الترف تدل على العيش السعيد الهانئ، بصرف النظر عن كون هذه الحياة تمارس في إطار ما هو مشروع أو غير مشروع دينياً، ومن الواضح أيضاً بأن هذه النظرة وهذه المعاني مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بما أوردته المعاجم اللغوية حول مفهوم الترف والتي وردت خلال المبحث الأول من هذا الفصل.

وبالنسبة لمظاهر الترف فقد عدّد ابن خلدون بعضاً منها في حياة الناس، وخصوصاً أهل المدن في مقدمته وجاء فيها: " التأنق في علاج القوت، واستجادة المطابخ، وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج، ... ومعالاة البيوت والصروح، وإحكام وضعها في تنجيدها، ... فيتخذون القصور والمنازل، ويجرون فيها المياه، ويعالون في صرحها، ويبالغون في تنجيدها، ويختلفون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون"([6])، والمتتبع لهذه المظاهر التي ذكرها ابن خلدون يجد بأنه ليس بالإمكان أن يحصل عليها سوى أصحاب المال، فلا نصيب إذن للفقراء فيها.

---

١ ) الجربوع: أثر الإيمان، ج2، ص510.

٢ ) البنا: الرسائل، 367.

٣ ) نوح: آفات على الطريق، جزء 1 ص 52

٤ ) سورة الأنعام: آية141؛ سورة الأعراف: آية 31.

٥ ) أحمد: عبد الرحمن يسرى، موسوعة المفاهيم، www.islamic-council.com .

٦ ) المقدمة، ص120.

ويستطرد ابن خلدون في ذكر مزيد من المظاهر، والتي تأتي على إثر تغلب الأمة على من قبلها من أهل الملك بقوله: "وينزعون مع ذلك إلى رقة الأحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية ويتفاخرون في ذلك ويفاخرون فيه غيرهم من الأمم في أكل الطيب ولبس الانيق وركوب الفاره"([1])، ولعل هذه المظاهر دليل حضارة وتقدم لدى أهلها، ولذلك فلربما يكون الربط والمساواة بين مفهومي الحضارة والترف عند ابن خلدون له ما يبرره، إذ أن الحضارة والترف يسعيان لهدف واحد هو تحقيق المتعة والرفاهية للإنسان، وتهيئة أجواء وأسباب الراحة له.

و يرى الشيزري في الجنوح إلى الملذات ترفاً([2])، وهو بذلك يعد الميل نحو ملذات الحياة لاغتنامها مظهراً من مظاهر الترف، ويرى أن انتهاز الفرصة للتنعم والتمتع بالحياة أحد هذه المظاهر بقوله "افتراص([3]) اللذات"([4]). فيما يتطرق ابن الأزرق لمظاهر الترف فيذكر منها كثرة الرياش وعوائد النعم وتجاوز ضروريات العيش وخشونته([5])، وهذه النظرة تأكيد على أن الترف لا يكون في الأمور الأساسية في الحياة فقط.

أما حسن البنا فيربط الترف بعدد من مظاهره وهي الإقبال على المتعة والشهوات([6]).

ولعل الندوي الذي ربط بين مفهوم الترف وبين مفهومي البذخ والتنعم أو النعيم – كما مرّ سابقاً – يفسر هذه المفاهيم بمجموعة من مظاهر الترف مثل: "اللذة والتهام الحياة ... القصور الباذخة ومظاهر الثروة والنعمة ... الأبهة والغنى"([7])، و"ودانت باللهو واللذة"([8])، و"الملاهي والملاعب ... الملذات والشهوات"([9])، و"التبذير"([10]).

إن الندوي يرى كمن سبقه من العلماء بأن مظاهر الترف تتمثل في شتى صنوف المتع والملذات وفي مختلف الجوانب المادية من الحياة، مع نظرته لمن يتتبع الترف على أنه شَرِه لالتهام لذات الحياة والخضوع لها .

---

[1] ) م.ن: ص167.

[2] ) المنهج المسلوك، ص690.

[3] ) افترص: الفرصة اغتنمها ( مصطفى، إبراهيم، وآخرون: المعجم الوسيط، ج2، ص682).

[4] ) م.ن: ص557.

[5] ) ابن الأزرق: بدائع السلك، ج2، ص222.

[6] ) الرسائل، ص97.

[7] ) ماذا خسر: ص71.

[8] ) م.ن: ص78.

[9] ) م.ن: ص123.

[10] ) م.ن: ص248.

أما عائض القرني فيعدد مظاهر الترف التي سادت لدى ابن عباد بقوله "    غلب عليهِ الانحرافُ عنِ الجادَّةِ ، فكثرت الجواري في بيته ، والدفوف والطَّنابير([1]) ، والعزف وسماع الغناء"([2])، ويستنتج من ذلك أن النظرة هنا للترف تتجاوز المتع المحسوسة لتصل إلى المتع الوجدانية والمعنوية، كسماع ضرب الدفوف والغناء، والقرني هنا يشترك مع الندوي في أن الغناء أيضاً مظهراً من مظاهر الترف([3]).

أما حسين مؤنس فيشير إلى مظاهر الترف بنزوع النفس لحب المال، وتملك العقار الكثير الفاخر والرياش([4]) المستجادة والطعام المستطاب، وهذه المظاهر هي ما تعرف برغد العيش([5])، بينما يراها جواد علي في الغنى ووسائل الراحة([6])، أما إحسان عباس فيعددها بالإنفاق على بناء القصور والدور واقتناء فاخر الأثاث ورفيع الرياش([7]).

وكذلك فإن السيد قطب وأثناء استعراضه لقصة يوسف عليه السلام يصوّر بعض مظاهر الترف عى أنها تتمثل بحياة القصور، ووسائل الراحة الموجودة فيها، من وسائد، وحشايا، ومآدب، حتى استخدام السكاكين من قبل ضيفات امرأة العزيز للطعام عده من الترف([8]).

ويسرد عبد الرحمن يسري أحمد عدداً من مظاهر الترف التي وردت في أحاديث النبي كاستخدام أواني الذهب والفضة والشبع من الطعام ولباس الشهرة، والفخر والمباهاة، ولبس الرجال للحرير، والتحلَّي بالذهب، والبناء فوق الحاجة تفاخراً([9]).

أما عبد العزيز السلمان فيرى مظاهر الترف في المبالغة في الزينة والاعتناء بالجسم والثياب والمركب والأثاث إلى حد الإفراط([10]).

---

[1] ) الطُّنْبُور:"معروف فارسي معرب دخيل يُشْبِه أَلْيَةَ الحَمَل" ( ابن منظور: لسان العرب، ج4، ص504)

[2] ) القرني، عائض: لا تحزن، الرياض، مكتبة العبيكان، ط 3 لجمهورية مصر العربية، 1423=2003م، ج2، ص380.

[3] ) الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص148.

[4] ) الرياش: هو اللباس الفاخر، وقيل المال والخصب والمعاش( الرازي: مختار الصحاح، ص111)

[5] ) مؤنس، حسين: الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1978م، ص139.

[6] ) علي، جواد: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، دار الساقي، ط4، 1422هـ=2001م، ج16، ص361.

[7] ) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، بيروت، دار الثقافة، ط 3، 1974م، ص41.

[8] ) قطب، سيد: في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط35، 1425هـ، 2005م، ج4، ص1984.

[9] ) موسوعة المفاهيم، www.islamic-council.com .

[10] ) السلمان، أبو محمد عبد العزيز: مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار، المكتبة الشاملة، ج 2، ص 307 .

لقد اختلفت المظاهر التي عدّدها علماء المسلمين للترف فبين من يراها مادية وبين من يراها وجدانية، ولكن العامل المشترك بين النظرتين هو اشتراكهما في كون الإنسان يشعر بالسعادة والمتعة بكلتيهما.

وقد اختلفت نظرة العلماء المسلمين للترف فتبدو نظرة ابن خلدون إليه على أنه ناحية كمالية في حياة الإنسان وليست أساسية، ولذلك فهو يعدها مرحلة لاحقة تحدث بعد الملك ولولا الملك لما حصل الترف([١])، فالترف يتجاوز حياة الناس الأساسية، إذ ليس من الترف البحث عن الحاجات الملحّة كالمأكل والمشرب والملبس، ولكن البحث عن كماليات تفيض عن حاجة الناس التي يمكن الاستغناء عنها فهذا الذي يعد ترفاً، وهنا يختلف حسين مؤنس مع توجهات ابن خلدون حول النظرة إلى الترف فهو لا يرى في الترف مفسدة ولا مضرة، بل يعده مطلباً إنسانياً لأن كل إنسان يسعى لمسكن فاخر وأثاث وثير وطعام مستجاد([٢]).

ويتفق الباحث مع ابن خلدون بأن الترف ليس ضرورة من ضرورات الحياة بل هو نتيجة رغبة في الراحة والرخاء، فلو عاش الإنسان حياته بأبسط حاجاته فإن حياته لن تتأثر سوى بشيء من الجهد والتعب، ولن يتأثر نتيجة لذلك عمره بزيادة أو نقصان، ولو افترضنا أن الترف مطلباً إنسانياً كما يقول حسين مؤنس، فلربما يكون ذلك صحيحاً في حال التخفيف من متاعب ومصاعب الحياة الشاقة، ولكن ليس من أجل الوصول إلى الراحة التامة للإنسان لدرجة أن تصبح الآلات تقوم بعمل أبسط المهام الملقاة على عاتق الإنسان كما هو موجود في عالمنا اليوم.

ويرى ابن خلدون في الترف غريزة بشرية([٣])، ولعله في هذه النظرة يعلن توافقه مع ابن ابن الجوزي الذي عدّ حب المال من طبيعة النفوس([٤])، والذي يعد أحد أهم الأسباب المؤدية للترف بحسب التعريفات السابقة، كما أشار إلى ذلك عبد الرحمن الشيزري حيث يرى أن سبب الترف يعود إلى ميل الإنسان الفطري نحو التنعم([٥]).

ولا ينكر ابن الجوزي حب المال في الحياة لكنه يفرق بين هذا المال من حيث اتخاذه وسيلة لمقاصد أسمى وبين حب المال لذاته([٦])، فيما هو يؤكد أيضاً على ميل الناس وتطلعهم إلى

---

١ ) المقدمة، ص167.
٢ ) الحضارة، ص47.
٣ ) المقدمة، ص146.
٤ ) ابن الجوزي، أبو الفرج جمال الدين: صيد الخاطر، تحقيق حامد أحمد الطاهر، القاهرة، دار الفجر للتراث، ط1، 1424هـ=2003م، ص358.
٥ ) الشيزري: المنهج المسلوك، ص690.
٦ ) ابن الجوزي: صيد الخاطر، ص358.

إلى لذات أهل النعيم في الدنيا( [١])، وقد ذهب الشيزري إلى أن النفوس مجبولة على حب الترف والنعيم([٢]) في إشارة إلى أن الميل لحياة الترف والنعيم غريزة فطرت عليها نفوس البشر، ولذلك تستعذبها هذه النفوس وتسعى لحيازتها.

وينظر حسن البنا إلى المال نظرة مشابهة لنظرة ابن الجوزي مع شيء من التفصيل، فهو يرى أن الإسلام يشيد بمنزلة الغني الذي يستخدم ماله في منفعة الناس ويذم الغني الذي يستخدم ماله في ملذات الدنيا الداعية إلى الطغيان والفتنة والسرف، وفي ذات السياق فإن البنا ينتقد المفهوم السائد بأن الزهد مرادف للفقر([٣]).

ويؤكد الشيزري أن الملوك يميلون نحو الترف والنعيم بالفطرة وذلك بحسب موقعهم في الحكم([٤])، وهو بذلك ينظر إلى المتع المختلفة التي تطبع حياة أهلها وانهماكهم في الملذات على أنها من الترف الناتج عن زيادة النعيم، ومن هنا كان الترف عند الملوك أشد من غيرهم إذ أنهم أصحاب الأملاك والأموال.

كما يرى ابن خلدون ذات الرؤية بالنسبة لأهل الملك فهم من ينغمس في النعيم بمجرد توليهم السلطة([٥]) ولعل نظرة ابن خلدون لا تنطبق على الملوك فحسب، بل على كل من له منصب رفيع في الدولة أو من يُعرف بالحاشية، ولذلك يبدو من الحكمة – خلال هذا البحث – إلحاق أرباب الأموال وأصحاب الأملاك والثروات من العامة بالملوك وكبار مساعديهم، إذ أنهم يشتركون في عامل مهم يغذي الترف وهو حيازتهم للمال الوفير، وبذلك فهم يستطيعون الحصول على ما يشتهون من ملذات الدنيا بفعل أموالهم.

ويشارك أبو الحسن الندوي سابقَيه وهم الشيزري وابن خلدون الرأي حول حياة الأباطرة وأمرائهم، إذ أنهم يتمادون في الشرب واللهو والأناقة وشتى أسباب الرفاهية([٦]).

وقد تطرق حسن البنا إلى حكام المسلمين وعدّهم من أكثر الناس انغماساً في هذه المتع، حتى أنه أُثر عنهم ما لم يؤثر عن غيرهم من الحكام( [٧])، وفي نظرة حسن البنا لحكام المسلمين على أنهم من أرباب الترف يشترك مع الشيزري وابن خلدون والندوي في أن المُلك الذي يتمتع به أصحاب السلطان هو الداعم الأساسي لحياة الترف عندهم.

---

١ ) م.ن: ص78.

٢ ) الشيزري: المنهج المسلوك، ص690.

٣ ) الرسائل: ص250.

٤ ) الشيزري: المنهج المسلوك، ص690.

٥ ) مقدمة بن خلدون، ص146.

٦ ) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص72.

٧ ) الرسائل: ص143.

أما صاحب التحرير والتنوير فيرى الترف مرادفاً للرفاهية( [١])، وكذلك عائض القرني الذي يرى في البذخ والإسراف – وهو مثال لحياة الترف – مضاداً لحياة العفاف والكفاف، وبناءً على ذلك فقد طالب بألا يسعى الإنسان لأكثر مما يحتاجه من الرزق( [٢])، كما رأى بأن فضول المباحات من الأمور المزعجة([٣]) وإذا كان القرني عد الترف مضاداً لحياة العفاف والكفاف، فإن فإن الكواكبي عده باباً للذل( [٤]) ويبدو أن هذه النظرة مأخوذة من أن أصحاب المتع تذلهم شهواتهم، وتجبرهم على التخلي عن مبادئهم في مقابل الحصول على ما يرغبون من الشهوات في حياتهم الدنيا.

ويرى عبد الحميد بن يحيى الكاتب([٥])، أن الترف يؤدي إلى سوء العاقبة وهو سبيل إلى الذل والفضيحة([٦])، وكذلك الكواكبي حيث يشير إلى أن الترف يذل أهله( [٧]) في حين أن ابن خلدون يشير إلى أن أصلح الناس لحمل أعباء الدين هم أقل الناس ترفاً( [٨])، ويتفق الكواكبي معه في ذلك، حيث أكد بأن عرب الجزيرة هم الأقدر من غيرهم على تحمل شظف العيش في سبيل تحقيق أهدافهم، وذلك لبعدهم عن الترف( [٩]) ويرى الباحث نفس النظرة حيث أن المترفين لديهم من هموم الدنيا ما يشغلهم عن هموم الدين والمعاناة التي يعانيها غيرهم من الناس.

أما ابن أبي الدنيا فيشير إلى أن غالب القطان رأى مالك بن دينار في المنام ينهى عن مجالسة صنفين من الناس هما صاحب دنيا مترف فيها، وصاحب بدعة قد غلا فيها([١٠]).

---

١ ) ابن عاشور: ج17، ص26.

٢ ) لا تحزن: ص554.

٣ ) م.ن: 548.

٤ ) الكواكبي، عبد الرحمن: أم القرى، بيروت، دار الرائد العربي، 1402هـ=1982م، ص220.

٥ ) عبد الحميد بن يحيى بن سعد أبو يحيى الكاتب يضرب به المثل في الكتابة وكان كاتبا للخليفة الأموي مروان بن محمد بن مروان بن الحكم . ( تاريخ مدينة دمشق لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي، تحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، بيروت، دار الفكر، 1995م، ج34، ص92).

٦ ) القلقشندي: أحمد بن علي: صبح الأعشا في صناعة الإنشا، تحقيق يوسف علي الطويل، دمشق، دار الفكر، ط1، 1987م، ج1، ص121.

٧ ) أم القرى، ص220.

٨ ) المقدمة، ص89

٩ ) أم القرى، ص220.

١٠ ) ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي أبو بكر: المنامات، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، 1413هـ=1993م، ج 1، ص 90.

وينظر عبد السلام الترمانيني إلى الترف على أنه عامل من عوامل إضعاف الغيرة لدى المجتمعات([1]).

ويعد السلمان الترف باباً لتحويل الرجل عن طبيعته الخشنة مما ينقص من ذكورته ويؤدي لعجزه عن الكفاح([2]) .

أما عادل الشويخ فقد رأى بأن الترف يؤدي إلى ذهاب همة الشخص عن دفع العدوان، فهو يستسلم أمامه، حتى أن الترف – كما يراه – قد يؤدي لطلب العون من المشركين والاعتماد عليهم([3])، ولعل ذلك ينبع من أن المترف الذي تعود الترف تصبح الحياة الغليظة المتقشفة صعبة صعبة عليه فلا يحتملها، ومن أجل ذلك فهو يستسلم أمام العدوان في مقابل استمرار حياة الترف التي أَلِفها على حالها، ولو اضطره ذلك للخضوع أمام أعدائه أو طلب العون منهم.

أما سيد قطب فيرى أن وجود الترف في المجتمع ينشر التحلل والتميع والفجور([4])، ويفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويفقد القلوب حساسيتها للتلقي والتأثر والاستجابة([5]) فالمترف الذي يبحث عن الملذات حيث كانت، والمتع متى حُصّلت يسمح لنفسه – غالباً – بتجاوز كل المحظورات حتى ولو أدت للتحلل من الأخلاق، وترك المبادئ في سبيل تحقيق حياة مترفة مرفهة.

ويرى الشيخ عائض القرني بأن حياة الإسراف والبذخ – التي توازي الترف – تزيد من تعقيد الروح([6]).

وينكر حسين مؤنس على ابن خلدون نظرته التي تفيد بأن الترف خاصية للأغنياء والأقوياء وذوي السلطان دون الفقراء، معللاً ذلك بأن النزوع للترف واقع لدى الأغنياء والفقراء على حد سواء([7])، ويتفق الباحث مع هذه النظرة لدى حسين مؤنس، لكن مع شيء من التقييد، فإن هذا النزوع للترف لدى الفقراء موجود، وهو ما تم الإشارة إليه من قول ابن الجوزي

---

١ ) الترمانيني، عبد السلام: الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1984م، ص208.

٢ ) مفتاح الأفكار، ج 2، ص 307.

٣ ) الشويخ، عادل: مسافر في قطار الدعوة، طنطا، دار البشير للثقافة والعلوم، ط 2، 1419هـ=1999م، ص455

٤ ) في ظلال القرآن، ج4، ص1995.

٥ ) م.ن: ج4، ص2467.

٦ ) لا تحزن، ص521

٧ ) الحضارة ، ص138.

والشيزري وابن خلدون بأن الميل للترف غريزة فُطر الإنسان عليها، ولكن هذا النزوع للترف يظل كامناً لدى الفقراء ريثما تتوفر لديهم الأموال التي تمكنهم من عيش حياة الترف.

ويرى الرماني أن الترف مرحلة متقدمة على التبذير، والإسراف يسبق التبذير، بمعنى أن الترتيب يقتضي بأن يكون الإسراف أولاً ثم التبذير ثم يليه الترف، وهي جميعها تدخل في باب الإنفاق المحرم على المعاصي والشهوات المنكرة، وقد استند الرماني لنظرته التحريمية على أن المترف يتوسع في ملاذ الدنيا( [١])، ولا يتفق الباحث مع النظرة التحريمية المطلقة للترف، إذ قد ينفق الإنسان من ماله لشراء حاجيات غير أساسية لكنها لا تتسم بالحرمة ومثال ذلك شراء الإنسان لسيارة، والتي بالرغم من أنها من مظاهر الترف إلا أنها غير محرمة.

إن نظرة العلماء للترف لم تقف عند حد النقد له، ولكن تجاوزتها إلى التحذير من مخاطره وعواقبه التي قد تجر الويلات على المترفين، فهذا سيد قطب يرى أن الإسلام يحارب الترف، وأن نظمه الاجتماعية لا تسمح بوجود المترفين، ويزيد على ذلك أن المترفين كالعفن يفسد ما حوله([٢]).

ويحذر التابعي محمد بن واسع من مجالسة الموتى، فلما سئل من هم الموتى، قال كل غني مترف وسلطان جائر([٣]).

أما ابن خلدون فلقد توصل إلى خلاصة مفادها أن الترف من أسباب زوال الملك([٤]).

ويشير الباحث إلى توافقه مع هذه الرؤية لابن خلدون، لأن من ينغمس في الترف سينشغل به عن مصالح الملك، مما قد يكون سبباً رئيساً لزواله، ولكن هذا الأمر لا يعني ألا يأخذ الإنسان بسبل الراحة التي تساعده على التغلب على مشاق الحياة ومصاعبها، أي يجب أن ننظر إلى المتع والنعم في الدنيا باعتدال ووسطية، فلا نتخلى عن هذه المتع بالكلية، ولا ننساق وراءها لدرجة أن تُنسينا دورنا في الحياة.

**التعريف المختار للترف:**

بعد القيام بعرض مفهوم الترف خلال الفصل الأول وذلك من جوانب عدة سواء كانت لغوية أو اصطلاحية يمكن التوصل إلى تعريف مختار ليكون محدداً لهذا المفهوم خلال بقية

---

١ ) الرماني، زيد بن محمد: مقالة الإسراف والتبذير، مجلة البحوث الإسلامية ، الرياض، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، 1421هـ، العدد60، ص367.

٢ ) في ظلال القرآن، ج4، ص2467

٣ ) الأصبهاني: حلية الأولياء، ج 2، ص 351.

٤ ) المقدمة، ص140.

فصول البحث والتي ستعتمد بشكل أساسي على هذا المفهوم الذي يشير إلى أن "الترف هو الانغماس في شتى وسائل النعيم والرفاهية، والشهوات سواء كانت حسية أو وجدانية"

وهنا يجب مراعاة أمر مهم، ألا وهو أن هذا الترف أو التنعم لا يعني محاربة أو رفض الحياة الهانئة، بل إن الأمر يتعلق بمدى الانغماس في النعيم، فلا يجب إنكار هذا التنعم أو الترف إذا ما وقع في إطار الاعتدال، أما ما كان منه في إطار المبالغة التي تصل إلى حد الإسراف والتبذير فإن ذلك بالتأكيد يشكل خطورة كبيرة على المجتمعات، مما قد يتسبب في زوالها وأفول نجمها.

# الفصل الثاني

## عوامل شيوع الترف في المجتمع الأندلسي

المبحث الأول: جمال الطبيعة وخصوبتها.

المبحث الثاني: ازدهار الأنشطة الاقتصادية.

المبحث الثالث: الغنى وسعة الملك.

المبحث الرابع: الاختلاط بالأعاجم وغير المسلمين.

المبحث الخامس: تشبه حكام الأندلس بالخلفاء والملوك.

## المبحث الأول
## جمال الطبيعة وخصوبتها

خصّ الله تعالى بلاد الأندلس بحظ وافر من الجمال، وهو ما لم يُعرف عن غيرها من البلدان، وقد حظي جمال الطبيعة في هذه البلاد بكثير من الوصف من قبل الجغرافيين والمؤرخين، حتى لقد سحرت الأندلس أعين الشعراء، مما عكس ذلك على كثير من أشعارهم التي تغنوا بها.

وقد تنوعت خصائص الأندلس الجغرافية، فهناك تباين في سطح الأرض وتقطعها الحاد، وفيها تتعدد الأقاليم المناخية، ولذلك يتنوع بها الغطاء النباتي([١])، فهي ذات رياض أريضة([٢]) ومروج أريجة([٣])، وضياع زاهرة([٤]).

والأندلس جزيرة خصيبة، موصوفة بكثرة أنواع الفواكه والنعم، وكثرة النسل، وهي بلاد عظيمة البركة، كثيرة الصيد في البر والبحر، طيبة البقاع والتربة، عذبة المياه، كثيرة المعادن، قليلة الحيَّات والعقارب([٥])، وتعد من أبرك بقاع الأرض وأكثرها نسلاً([٦]).

ولذلك فقد كان بعض الأدباء يرى في جمال الطبيعة في الأندلس مدعاة ودافعاً للجنوح إلى الانحلال الخلقي، وهو ما أكده الأديب أبو الحسن على بن محمد بن شفيع ([٧])، من مدينة بسطة في الأندلس حين قال: " لو طبعت على الزهد ؛ لحملني حسن بلدي على المجون والعشق والراحات"([٨]).

وتقع الأندلس بحسب وصف الرازي في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة التي كان يقسم على أساسها المعمور من الأرض، فهي "موسطة من البلدان، كريمة البقعة بطبع الخلقة، طيبة التربة،

---

١ ) كحيلة، عبادة عبد الرحمن رضا: الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية، مصر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 1995م، ص35.

٢ ) أَرْض أَرِيضةٌ: أي مُعْجِبةٌ للعَينِ (ابن منظور: لسان العرب، ج7، ص111)

٣ ) الأَرِيجُ: تَوَهُّجُ ريح الطيب ( م.ن: ج2، ص207).

٤ ) أمين واصف بك: معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية، تحقيق أحمد ذكي باشا، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.ط، ص17.

٥ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس: تحقيق وترجمة لويس مولينا، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد ميغيل أسين، 1983م، ج1، ص29.

٦ ) الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: كتاب الجغرافيا، تحقيق محمد حاج صادق، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت. ط، ص80.

٧ ) أبو الحسن على بن محمد بن شفيع: كان حياً في أوائل القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، ( ابن الأبار: معجم أصحاب القاضي أبي علي الصدفي ، ، ص286.

٨ ) الحميري: الروض المعطار، ص 113.

مخصبة القاعة، منبجسة(1) العيون الثرار(2)، منفجرة بالأنهار الغزار، قليلة الهوام ذوات السموم، معتدلة الهواء أكثر الأزمان، لا يزيد قيظها زيادة منكرة تضر بالأبدان، وكذا سائر فصولها في أعم سنيها تأتي على قدر من الاعتدال، وتوسط من الحال، وفواكهها تتصل طول الزمان، فلا تكاد تعدم، لأن الساحل ونواحيه يبادر بباكوره، كما أن الثغر وجهاته والجبال التي يخصها برد الهواء وكثافة الجو تستأخر بما فيها من ذلك، حتى يكاد طرفا فاكهتها يلتقيان، فمادة الخيرات فيها متصلة كل أوان، ومن بحرها بجهة الغرب يخرج العنبر الجيد؛ المقدم على أجناسه في الطيب والصبر على النار، وبها شجر المحلب المعدود في الأفاويه(3)، المقدم في أنواع الأُشنان(4)، كثير واسع، وقد زعموا أنه لا يكون إلا بالهند وبها فقط، ولها خواص نباتية يكثر تعدادها"(5).

أما ابن الخطيب فقد وصف الأندلس بقوله: "خص الله تعالى بلاد الأندلس من الريع، وغدق السقيا، ولذاذة الأقوات، وفراهة الحيوان، ودرور الفواكه، وكثرة المياه، وتبحر العمران، وجودة اللباس، وشرف الآنية، وكثرة السلاح، وصحة الهواء، وابيضاض ألوان الإنسان، ونبل الأذهان، وقبول الصنائع، وشهامة الطباع، ونفوذ الإدراك، وإحكام التمدن والاعتمار، بما حرمه الكثير من الأقطار مما سواها"(6).

واتفق ديورانت مع الرازي وابن الخطيب على جودة الطبيعة في الأندلس، وما تحويه هذه الطبيعة من فيض الخيرات، وبسبب ما تميزت به التربة الأندلسية من الخصوبة، فقد عمل الأندلسيون على نقل العديد من النباتات إلى بلادهم، فنقلوا من آسيا الأرز، والحنطة السوداء، وقصب السكر، والرمان، والقطن، والسبانخ، والأسفرج، والموز، والكراز، والبرتقال، والليمون الهندي، والخوخ، ونخيل البلح، والتين، والشليك(7)، والزنجبيل، والمر، مما أحال مساحات واسعة من الأندلس إلى بساتين فواكه وحدائق خضراء، حتى غدت الأندلس جنات على

---

١ ) البَجْسُ: انشقاق في قِرْبة أو حجر أو أرض يَنْبُعُ منه الماءُ (ابن منظور: لسان العرب، ج6، ص24).

٢ ) عينٌ ثَرَّة كَثِيرَةُ الدُّمُوعِ ( ابن سيده: المخصص، ج2، ص149).

٣ ) الأفاويه: جمع فوه، وهو التوابل التي يعالج بها الطعام، وهو كذلك الطيب (الفيومي: المصباح المنير، ج2، ص484).

٤ ) الأُشن: شيء من الطيب أبيض دقيق كأنه مقشور من عرق، وهو من الحوامض ( ابن منظور: لسان العرب، ج13، ص18).

٥ ) المقري، أحمد بن محمد التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1388هـ، ج1، ص140.

٦ ) م.ن: ج1، ص126.

٧ ) لم أجد وصفاً لهذا النبات فيما بين يدي من مصادر.

الأرض(١)، وهذا يشير إلى سعي الأندلسيين للتوسع في ملاذ الدنيا ومتعها، حيث أنهم لم يقتصروا على ما في بلادهم من النباتات، بل استقدموا نباتات غيرها من البلدان.

وبالنظر إلى مصادر المياه في الأندلس نجدها تتركز في أنهارها كثيرة العدد، والتي ذكر بعض المؤرخين أنها تبلغ الأربعين نهراً(٢)، ومن المؤكد أن بلداً تنتشر فيه هذه الأعداد من الأنهار يسهم في انتشار المساحات الخضراء حول هذه الأنهار، والتي توفر مظهراً جذاباً للناظرين، الأمر الذي يسهم في إيجاد متنزهات طبيعية تغص بمختلف أنواع النبات والحيوان والطير.

أما بالنسبة للمعادن في الأندلس فقد منحها الله وفرة فيها، فمناجمها غنية بالذهب والفضة والقصدير والنحاس والحديد والرصاص والشب والكبريت والزئبق، هذا عدا عن المرجان الذي كان يستخرج من كل المدن الأندلسية المطلة على البحر ، واللؤلؤ الذي يصطاد في بعض سواحلها(٣).

ويعد جمال الطبيعة الذي عم الأندلس بجميع أرجائها هو الدافع الأساسي والمحرك الرئيس لمشاعر الشعراء، والذين تفننوا في ذكر وصف محاسن الأندلس وتباروا في ذلك، ويؤكد ذلك حادثة وقعت في أحد البساتين الأندلسية، فقد جلس ثلاثة شعراء في دوحة، وهم ابن خفاجة (ت533هـ=1138م)(٤) وابن عائشة(٥) وابن الزقاق (ت528هـ=1134م)(٦)(٧)، فهبت ريح ريح شديدة على دوحة الخوخ المنورة التي يجلسون فيها؛ فأسقطت الريح عليهم جميع الزهر(٨)، الزهر(٨)، فقال ابن خفاجة يصف متعة الطواف بالبستان:

---

١ ) ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج2، مج4، ص293-294.

٢ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس: ص11.

٣ ) ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج2، مج4، ص294.

٤ ) هو الشاعر أبو إسحق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبيد الله بن خفاجة الهواري، وهو من أهل جزيرة شقر عمل بلنسية ( ابن الأبار: المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي، ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، بيروت، دار صادر، 1885م، ص59).

٥ ) أبو عبد الله بن عائشة: من بلنسية، وهو شاعر ليس له شعر كثير، غير أن له من الأدب حظ وافر، وقد برع في علم الحساب (ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1417هـ=1997م، ج6، ص887).

٦ ) ابن الزقاق: هو علي بن عطية بن مطرف أبو الحسن اللخمي البلنسي الشاعر المشهور المعروف بابن الزقاق، امتدح الأكابر، وكان جيد النظم، توفي دون الأربعين ( ا لصفدي: الوافي بالوفيات، ج21، ص212-213).

٧ ) المقري: نفح الطيب ج4، ص14-15.

٨ ) ابن بسام: الذخيرة، ج6، ص887.

لله نُوريّـــــةُ المُحَيّــــا([1]) تَحمِــلُ ناريّــةَ الحُمَيّــا([2])

دُرنا بها تحتَ ظلِّ دوحٍ قد راقَ مرأىً وطابَ ريّا

تَجَسّمَ النُّورُ فيهِ نَــوراً فكلّ غصـــنٍ بهِ ثُريّا([3])

فرد عليه ابن عائشة واصفاً حال البستان عند هبوب الريح بقوله:

ودوحة قد علت سماءً تطلــعُ أزهارُها نجوماً

هفا نسيمُ الصبّا علينا فخِلتها أرسلتْ رجومــاً

كأنما الأفقَ غارَ لما بدت فأغرى بها النسيمــا

أما ابن الزقاق فوصف الحال آنذاك قائلاً:

ورياضٍ من الشقائق أضْحَتْ يتهادى بها نسيم الرياحِ

زرتها والغمام يجلد منها زهرات تفوق لون الراحِ([4])

قلتُ ما ذنبها فقال مجيباً سَرَقَتْ حُمْرَةَ الخدودِ الملاحِ([5]).

وهذا أبو إسحاق بن خفاجة في موضع آخر يصف الحياة في الأندلس بقوله:

يــا أهـــلَ أندلــسٍ للهِ دَرُكــمُ مــاءٌ وظِــلٌ وأنهــارٌ وأشجارُ

ما جنةُ الخلــدِ إلا في دياركم ولو تخيرتُ هذا كنتُ أختــارُ

لا تحسبوا في غدٍ أن تدخلوا سقراً فليس تُدخلُ بعد الجنةِ النــارُ([6])

النــارُ([6])

ومن بين من انبهر بجمال الطبيعة في الأندلس الشاعر أبو عمارة البصري([7]) ولذلك تراه يتغنى بها قائلاً:

لله أندلسٍ وما جمعَت بها من كل ما ضمت لها الأهواءُ

فكأنما تلك الديار كواكبٌ و كأنما تلك البقــاع سمــاءُ

وبكل قطر جدول في جنة ولعَت به الأفيــاءُ و الأنــداءُ([8])

---

[1] ) المحيا: الوجه ( ابن منظور: لسان العرب، ج13، ص555).

[2] ) حُمَيَّا الكأس: شاربُها ( ابن سيده: المحكم، ج9، ص218).

[3] ) ثُرَيّا: تصغير ثَرْوَى، والثُّرَيَّا من الكواكب ( ابن منظور: لسان العرب، ج14، ص110).

[4] ) الراح هي الأرض المستوية كثيرة النبت ( م.ن: ج2، ص455).

[5] ) المقري: نفح الطيب ج4، ص14-15.

[6] ) م.ن: ج1، ص116.

[7] ) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر.

[8] ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص12.

ومن نظم الشعراء في مدح الأندلس كذلك ما أنشده أبو الحسن بن صفر الأشبيلي([1]):

في أرض أندلسٍ تلتذ نعمــاء ولا يفارق فيها القلب سراء

وليس في غيرها في العيش منتفع ولا تقوم لحق الأنس صهباء([2])

إلى أن يصل إلى قوله:

وكيف لا تبهج الأبصار رؤيتها وكل أرض بها في الوشي صنعاء

أنهارها فضة و المسك تربتها والحور روضتها والدر حصباء

و للهواء بها لطف يـرق به من لا يــرق و تبدو منــه أهواء

لذاك يبسم فيها الزهر من طرب والطير يشدو وللأغصان إصغاء

فيها خلعت عذاري ما بها عوض فهي الرياض وكل الأرض صحراء([3]).

كما أنشد الشاعر الأندلسي إبراهيم بن سهل الإسرائيلي (ت649هـ=1251م)([4]) أبياتاً من الشعر يصف فيها جمال الطبيعة في الأندلس قائلاً:

الأرضُ قد لبِستْ رِداءً أخضَرا والطلُّ([5]) ينثرُ في رباها جوهراً

هاجتْ فخِلتُ الزَّهرَ كافوراً بها وحسِبتُ فيها التُّربَ مِسكاً أذفراً([6])

أذفَراً([6])

و كأنَّ سوسنها يصافحُ وردها ثغرٌ يقبــلُ منه خداً أحمراً

و النهرُ ما بينَ الرّياضِ تخالُه سَيفاً تَعلّقَ في نِجَادٍ([7]) أخضَراً

و جرت بصفحته الصّبا فحسبتها كَفّاً تُنَمِّقُ في الصَّحيفةِ أسطُراً

و كأنّه إذ لاحَ ناصِــعُ فِضّةٍ جعلتهُ كفُّ الشمسِ تبراً أصفراً

أو كالخدودِ بدَتْ لَنَا مُبيَضّــةً فارْتَدَّ بالخَجَلِ البياضُ معصفْراً

---

١ ) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر.

٢ ) الصهباء: الخمر( ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، ج4، ص209).

٣ ) م.ن: ص20-21.

٤ ) هو أبو إسحاق إبراهيم بن سهل الإسرائيلي، عرف بالذكاء منذ صغر سنه، فكان يحفظ كثيراً من الأبيات (ابن سعيد: المغرب، ج1، ص269)، وقد ذكر ابن العماد بأنه كان يهودياً فأسلم ( شذرات الذهب، ج5، ص244).

٥ ) الطَّلُّ: أَخفُّ المَطَر وأَضْعَفُه، وقِيلَ: هو النَّدَي، وقِيلَ: هُوَ فَوقَ النَّدَي ودُونَ المَطَرِ ( ابن سيده: المحكم ، ج9، ص127).

٦ ) مِسْكٌ أَذْفَرُ وذَفِرٌ وهو أَجْوَدَهُ ( ابن سيده: المحكم، ج10، ص63).

٧ ) النَّجْدُ: من الأَرض صَلاَبَتُها، وما غَلُظَ منها وأَشرَفَ وارتَفَعَ واستَوى والجمع أَنْجُدٌ وأَنجادٌ ونِجاد ونُجُودٌ ونُجُدٌ ( ابن منظور: لسان العرب، ج3، ص413).

والطّيرُ قد قامت به خطباؤه      لم تتخذْ إلاَّ الأراكةَ منبراً([1])

ومن المهم الإشارة إلى وفرة المادة الشعرية التي تهتم بوصف جمال الطبيعة في الأندلس بشكل كبير، مما لا يتسع المجال لذكره، وهو ما يوحي بمدى الانبهار بجمال الطبيعة الخلابة التي عمت ربوع الأندلس.

ولا بد من الإشارة إلى أن الوصف السابق يعد وصفاً عاماً لجميع بلاد الأندلس، أما بالنسبة للمدن المختلفة للأندلس، فيمكن التعريج على عينات منها في جميع جهات الأندلس لوصف ما تتمتع به من خيرات وخصوبة في طبيعتها، ويجدر التأكيد بأن معظم المدن الأندلسية مما لم تذكر في هذا المجال تشترك مع هذه المدن في كثير من الصفات والخصائص الطبيعية.

ففي جهة الشرق بلاد تدمير وقاعدتها لورقة وهي "متناهية في كرم البقعة وطيب الثمرة ... وأرضها يسقى بنهر كالنيل بمصر...وعلى نهر تدمير النواعر التي تسقي جناتها"([2])، ومنها يستخرج حجر اللازورد([3]) الجيد، وعلى مقربة منها يستخرج معدن البلور([4])، وبها عنب يزن يزن العنقود منه خمسون رطلاً([5]) عراقياً([6])، وفي ساحلها يوجد معدن الفضة والرصاص، وفيها عين حلوة وطعامها يبقى تحت الأرض خمسين سنة وأكثر، ولا يطرأ عليه أي تغيير([7]).

أما مرسية وهي إحدى مدن تدمير([8])، فهي مدينة كثيرة الخصب والفواكه بالرغم من قلة المطر فيها؛ وتبلغ محاصيلها الخمسين والستين قفيزاً([1]) وحتى المائة، فيما لا يزيد محصول غيرها من

---

١ ) ابن سهل، إبراهيم بن سهل الأسرائيلي الأندلسي الإشبيلي: ديوان إبراهيم بن سهل، بيروت، المطبعة الأدبية، 1885م،ص17.

٢ ) ابن الدلائي، أحمد بن عمر بن أنس العذري: نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهوازي، مدريد، معهد الدراسات الإسلامية، د.ت.ط، ص1.

٣ ) اللازورد: من الأحجار الكريمة لونه أزرق سماوي ( المعجم الوسيط، ج2 ، ص810، لإبراهيم مصطفى وآخرون).

٤ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص142.

٥ ) الرطل العراقي: عند الحنفية يعادل: 406,25 جرام، وعند الجمهور يعادل 382,5 ( علي جمعة محمد، المكاييل والموازين الشرعية، القاهرة، القدس للإعلان والنشر والتسويق، ط2، 1421هـ=2001م، ص29، 30)

٦ ) الحموي أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، بيروت، دار الفكر، د.ت.ط، ج5، ص24-25.

٧ ) ابن الدلائي: نصوص عن الأندلس، ص1.

٨ ) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق تحقيق إحسان عباس، لبنان، دار الثقافة، د.ت.ط، ج:5 ص:321؛ الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، عالم الكتب، ط1،

من البلدان عن الخمسة وعشرين قفيزاً، وفي موضع شنقير بها تُنبت الحبة الواحدة من القمح ما بين ثمانين إلى مائة سنبلة، وفي الموضع ذاته يولد الخروف الرضيع بنفس وزن أمه([٢]).

ومن مدن الشرق كذلك في الأندلس مدينة بلنسية وهي ذات سطح مستوٍ وتقع على نهر جارٍ تزينه البساتين والجنان([٣])، وقد اشتهرت بكثرة بساتينها، وعرفت بمطيب الأندلس، وبها بحيرة مشهورة كثيرة الضوء لمواجهتها الشمس([٤]).

كما أن جزيرة ميورقة والواقعة في البحر المتوسط شرقي الأندلس تعد من أخصب البلاد وأكثرها زرعاً وماشية، وعلى الرغم من كونها منفصلة عن البلاد في عرض البحر إلا أنها مستغنية عنها، ويصل فضل خيرها إلى غيرها من البلدان([٥])، وقد ساعد على استغلالها اهتمام العرب بها، إذ أحالوها إلى فردوس مليء بالفاكهة والأزهار، تشرف عليها أشجار النخيل، حتى سميت الجزيرة باسمها([٦]).

أما في غرب الأندلس فتوجد مدينة إشبيلية([٧]) التي ورثت مجد قرطبة، وكان البعض يظنها خيراً من العاصمة، حيث كانت الناس تحبها لجمال حدائقها ونخيلها وورودها([٨])، وقد عرفت بطيب القرمز([٩]) فيها([١٠]).

ومن مدن غرب الأندلس كذلك مدينة شنترة التي تميزت بطيب تفاحها إذ تبلغ التفاحة الواحدة ثلاثة أشبار([١١]) وثلث([١٢])، وقيل أربعة أشبار([١])، وقد شوهد رجل من أهل شنترة يهدي المعتمد

---

1409هـ=1989م، ج2، ص538.

١ ) القفيز: مكيال، يبلغ عند المالكية 98كجم، وعند الشافعية 24.489كجم (علي جمعة محمد: المكاييل والموازين، ص96).

٢ ) الزهري: الجغرافيا، ص100.

٣ ) الحميري، محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة، ط2، 1980م، ص97.

٤ ) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، وآخرون: فضائل الأندلس وأهلها، تحقيق صلاح المنجد، دار الكتاب الجديد، ط1، 1968م، ص59.

٥ ) م.ن: ص59.

٦ ) ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج2، مج4، ص294.

٧ ) عد المقري إشبيلية من مدن غرب الأندلس، ( نفح الطيب، ج1، ص167).

٨ ) ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج2، مج4، ص290.

٩ ) القرمز: هو صِبْغٌ إرْمَنِيٌّ أحمَرُ ، يقال إنَّه يكون من عصارَةِ دودٍ ( الزبيدي: تاج العروس ، ج15، ص279).

١٠ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص13.

١١ ) الحموي: معجم البلدان، ج3، ص367؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص164.

١٢ ) السِّلَفي، أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سِلَفَه السِّلَفي الأصبهاني: أخبار وتراجم

بن عباد أربع تفاحات يصعب أن يحمل الرجل أكثر منها على رأسه، أما قمحها وشعيرها فإنهما يحصدان بعد زرعهما بأربعين يوماً(٢)، ويوصف أهلها بطول أعمارهم، وهي مدينة صحيحة الهواء، كما تعرف شنترة بالكمثرى والبنفسج والعنبر(٣).

وبالانتقال إلى وسط الأندلس ففيه مدينة طليطلة وهي مدينة عظيمة(٤) يشقها نهر تاجه العظيم(٥)، ويحيط بها من جميع الجهات ما عدا الشمال بما يشبه حدوة الفرس، وفيها مغارس الزيتون، وكروم، العنب، وغابات السنديان(٦) والصنوبر(٧)، وهي على كونها كثيرة الزرع فهي كثيرة الضرع، ومن العجائب فيها أن قمحها لا يخترقه السوس لمدة قد تصل إلى مائة عام(٨)، وقد قال الشاعر فيها متغنياً بجمالها:

| | |
|---|---|
| زادت طليطلة على ما حدثوا | بلد عليه نضرة و نعيـــم |
| الله زينه فوشح خصره | نهر المجرة والغصون نجوم(٩) |

ومثلها في الوسط قرطبة وتقع على نهر الوادي الكبير(١٠)، وهي طيبة الماء والهواء، ومحاطة بالبساتين والزيتون والمياه والعيون من كل جهاتها(١١)، وقد ذكر الحجاري وصفاً لها يقول فيه: "ونهرها من أحسن الأنهار، مكتنف بديباج المروج، مطرز بالأزهار، تصدح في جنباته الأطيار، وتنعر النواعير(١٢)، ويبسم النوار"(١٣)، كما أنها تحتوي على الكثير من المعادن وخصوصاً الفضة(١٤) .

---

أندلسية، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ط1، 1963م، ص40.

١ ) الحميري: الروض المعطار، ص347.

٢ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص164.

٣ ) الحميري: الروض المعطار، ص347.

٤ ) الزهري: كتاب الجغرافيا، ص83.

٥ ) الحميري: الروض المعطار، ص127.

٦ ) نوع من الشجر ( الزبيدي: تاج العروس، ج8، ص224).

٧ ) زيدان، جرجي: فتح الأندلس، تقديم ودراسة محمود علي مكي، القاهرة، مؤسسة دار الهلال، 1982م، ص6.

٨ ) الزهري: كتاب الجغرافيا، ص83.

٩ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص170.

١٠ ) الزهري: كتاب الجغرافيا، ص86.

١١ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ج1، ص20.

١٢ ) النَّاعور: جَناحُ الرَّحى، والنَّاعورة: الدُّولاب، لنَعيرِه، وجمعُه النَّواعير، وهي التي يُستَقى بها، يُديرُها الماءُ ولها صوتٌ ( الزبيدي: تاج العروس، ج14، ص257).

١٣ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص153.

١٤ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ج1، ص20.

أما في جنوب الأندلس فقد اشتهرت مالقَة بكثرة فواكهها وثمارها، وذاعت شهرتها بالزيتون والتين، وعرف التين الجيد باسمها([١])، فالتين المالقي ليس له مثيل في الدنيا([٢])، ومثله الرمان المالقي كذلك، هذا عدا عن كثرة عنبها ولوزها، مما يفيض عن حاجاتها فيصدر للبلدان الأخرى([٣]).

فيما وُصفت غرناطة([٤]) وهي من مدن الجنوب أيضاً بأنها "دمشق بلاد الأندلس، ومسرح الأبصار، ومطمح الأنفس ... كما اختصت بكون النهر يتوزع على ديارها، وأسواقها، وحماماتها، وأرحائها الداخلة والخارجة، وبساتينها، وزانها الله تعالى بأن جعلها مرتبة على بسيطها الممتد، الذي تفرعت فيه سبائك الأنهار بين زبرجد الأشجار، ولنسيم نجدها، وبهجة منظر حورها([٥]) في القلوب والأبصار استلطاف يروق الطباع، ويحدث فيها ما شاءه الإحسان من الاختراع والابتداع"([٦])، كما عرفت غرناطة بكثرة متنزهاتها، كمتنزه حور مؤمل المشهور([٧])، وهو سيد متنزهاتها([٨]).

بينما وصفت المرية في الجنوب كذلك باعتدال مزاج أهلها، ورقة بشرتهم، وحسن وجوههم، أما ساحلها فهو من أنظف السواحل وأشرحها وأملحها منظراً، وبها حصى ملون يستخدم في الرخام، وبها وادي بجانة الفسيح، وتنتشر على ضفتيه رياض([٩])، وبساتين وجنات وأنهار، وطيور مغردة، وفي المرية فاكهة يعجز وصفها من حسنها([١٠])، فصدق فيها قول الشاعر:

---

١ ) عرف تين مالقة بالتين الربي، نسبة إليها لأن اسمها في القديم كان ربة وقد كانت ثمار التين ميسورة الجنى على الأطفال لشدة قربها من الأرض( فضائل الأندلس وأهلها، ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد: وآخران، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ط1، 1968م، ص57).

٢ ) الزبيدي: تاج العروس، ج26، 404.

٣ ) ابن بطوطة أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي: رحلة ابن بطوطة، تحقيق علي المنتصر الكتاني، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط4، 1405م، ج2، ص768.

٤ ) يقال غرناطة وأغرناطة ( ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1393هـ=1973م، ج1، ص91).

٥ ) الحَورُ: نوع من الشجر وأهلُ الشام يسمّون الدُلْبَ حَوَراً وهو بفتحتين ويقال: كالجَوْز نُطِّقَ بالصفصاف والحَوَرِ (ابن المطرزي: المغرب في ترتيب المعرب، ج1، ص233)، والدُّلْبُ: شَجَرٌ يَعْظُمُ ويَتَسِعُ ولا نَوْرَ له ولا ثَمَرَ ( ابن سيده: المحكم، ج9، ص336).

٦ ) ابن حزم وآخران: فضائل الأندلس، ص56.

٧ ) ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك: المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، ط3، 1955م، ج2، ص103

٨ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص475.

٩ ) ابن حزم وآخران: فضائل الأندلس، ص58.

١٠ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص163.

أرض وطئتُ الدُّرَ رَضْرَاضاً([1]) بها والتربُ مسكاً والرياض جناناً([2]).

وتتميز المرية كذلك بعدد كبير من المعادن فيها، يصل عددها الثمانين معدنا، كالحديد، والرصاص، والنحاس، والقذدير([3])، والفضة وغيرها([4]).

ومن مدن شمال الأندلس مدينة وشقة([5])، وهي مدينة حسنة يشقها نهر بانشة([6])، وتربتها طيبة، طيبة، وتحيط بها جنات مغروسة، وحدائق ملتفة، ويكثر فيها الكمثرى والزعرور([7])([8]) والمُصّع([9]) والتفاح، وغرائب الفاكهة([10]).

أما سرقسطة فهي تقع على نهر كبير([11]) هو نهر أبره([12])، ومن عجائبها أنه لا يدخلها حنش ولا حية إلا ماتت، كما أنه لا يُسوّس فيها شيء، ولا يُعفن أي نوع من أنواع الفواكه والطعام والحبوب([13])، إذ هي ذات جنات وبساتين متصلة([14])، كثيرة الزرع والضرع والفواكه، حتى أن

---

١ ) الرَّضْراضُ: الحَصَى الصِّغارُ ( ابن منظور: لسان العرب، ج7، ص154).

٢ ) ابن حزم وآخران: فضائل الأندلس، ص58.

٣ ) هكذا وردت في المصدر.

٤ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص15.

٥ ) وشقة: يقال لها أيضاً وشكة ( كتاب الجغرافيا للزهري، ص82

٦ ) ابن الدلائي: نصوص عن الأندلس، ص55.

٧ ) الزُّعْرُورُ ثمر شجرة الواحدة زُعْرُورَةٌ تكون حمراء وربما كانت صفراء له نَوًى صُلْبٌ مستدير ( ابن منظور: لسان العرب، ج4، ص323).

٨ ) الحميري: الروض المعطار، ص612؛ ابن الدلائي: نصوص عن الأندلس، ص55.

٩ ) المُصَع: ثمر أحمر مدوّر يؤخذ من شجرة العوسج وهو شجر شوكي ( ابن سيده: المخصص، ج3، ص258).

١٠ ) ابن الدلائي: نصوص عن الأندلس، ص55.

١١ ) الحموي: معجم البلدان، ج3، ص212.

١٢ ) نهر أبره: نهر كبير، يأتي بعضه من بلاد الروم، وبعضه من جهة جبال قلعة أيوب، وبعضه من نواحي قلهرة، فتجتمع مواد هذه الأنهار كلها فوق مدينة تطيلة، ثم تنصب إلى مدينة سرقسطة، إلى أن تنتهي إلى حصن جبرة، إلى موقع نهر الزيتون، ثم إلى طرطوشة، فيجتاز بغربيها إلى البحر ( الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص554).

١٣ ) الزهري: كتاب الجغرافيا، ص82.

١٤ ) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص554.

أهلها لا يكادون يأكلون فاكهة يابسة لكثرتها عندهم([1])، وكان ذلك سبباً لرخص ثمنها([2])، وهي فاكهة عذبة، ولها فضل على سائر فواكه الأندلس([3]).

والمتأمل للأوصاف السابقة للأندلس يرى بأن غزارة النعيم وطيب المناخ وخصوبة التربة التي منحها الله للأندلس؛ قد مهدت للأندلسيين الطريق إلى حياة مترفة منعمة، حيث أن هذه العوامل تعد أساسية و لا غنى عنها لقيام حياة المتعة والترف.

---

١ ) الزهري: كتاب الجغرافيا، ص82.

٢ ) الحميري: الروض المعطار، ص317.

٣ ) الحموي: معجم البلدان، ج3، ص212؛ الحميري: الروض المعطار، ص317.

## المبحث الثاني

## ازدهار الأنشطة الاقتصادية

كان للأنشطة الاقتصادية المتنوعة التي مارسها الأندلسيون عظيم الأثر في الارتقاء بالمستوى المادي والمعيشي في المجتمع الأندلسي، مما أسهم في بروز مظاهر الترف فيه، ومن المؤكد أن ازدهار هذه الأنشطة ناجم عن وفرة المواد الخام النباتية والحيوانية والمعدنية، التي توزعت في كافة المدن الأندلسية، وهذا ما تم توضيحه في المبحث السابق.

فلقد امتلأت خزينة الدولة الأندلسية بالأموال زمن الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث "الناصر"، ولم يكن ذلك بسبب الضرائب المفروضة على الناس، بل كان ذلك ناجماً عن تقدم الزراعة والصناعة ورواج التجارة([1]).

ومع تضاؤل الخطر القشتالي بعد معركة الزلاقة انتشى الاقتصاد الأندلسي، وانتشت أجواء من الأمن أدت بالناس إلى التوجه نحو الإنتاج؛ مما أدى لارتفاع مستوى دخل الفرد وهو ما حقق للأندلسيين لوناً من الرخاء والرفاهية([2]).

وسوف أتناول خلال هذا المبحث الأنشطة الاقتصادية الرئيسية والتي تعد الأهم في الأندلس، ألا وهي الزراعة والصيد والصناعة والتجارة، بشيء من الاختصار.

### أولاً: الزراعة:

تمتعت الأرض الأندلسية بخصوبتها([3])، مما كان له أثراً واضحاً في تنوع الأنشطة الزراعية، وهو ما أوضحه المقري بقوله: " واعلم أن بأرض الأندلس من الخصب... ما لا يوجد مجموعه غالباً في غيرها"([4])

وهو ما يفسر ميل المجتمع الأندلسي لامتهان الزراعة حسبما يشير شلميطا، مبيناً أن الغالبية العظمى من عائدات المجتمع الأندلسي تأتيه من العمل في فلاحة الأرض([5]).

---

١ ) ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج2، مج4، ص293.

٢ ) دندش، عصمت عبد اللطيف: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين "عصر الطوائف الثاني"، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1408هـ=1988م، ص196.

٣ ) الحميري: الروض المعطار، ص32.

٤ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص197.

٥ ) شلميطا، بدرو: صورة تقريبية للاقتصاد الأندلسي، من كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمى الجيوسي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1998م، ج2، ، ص1044.

ويبدو أن خصوبة التربة الأندلسية شجعت الأندلسيين على تسهيل المتطلبات اللازمة لمهنة الزراعة، وهو ما يُستشف مما نقله المقري عن ابن غالب الذي أشار في كتابه فرحة الأنفس إلى تميز الأندلسيين بصنعة استنباط الماء، وتدبير تركيب الشجر، وتزيين البساتين بأنواع الخضر، وأصناف الزهر، ولذلك فقد عدّهم من أحكم الناس في مهنة الفلاحة، وشبههم في ذلك باليونانيين(١).

ومن المؤكد أن الزراعة كانت تعد مصدراً مهماً لإدرار دخل وافر على الأندلسيين، مما جعلهم يولونها اهتماماً خاصاً، وذلك باستعانتهم بأحدث الكتب التي ألفت في الزراعة، حتى فاقت إسبانيا في هذا العلم قريناتها من المدن الأوروبية النصرانية(٢).

كما يعد المستوى العالي من المهارة والتقنية المستخدمة في الزراعة بالأندلس سبباً مهماً لزيادة النشاط الزراعي وازدهاره فيها(٣)، بالإضافة إلى أن الأندلسيين قد سخّروا كل إمكانياتهم للارتقاء بالإنتاج الزراعي، فصنعوا القنوات المائية وأقاموا الجسور والقناطر(٤)، كما استفاد الأندلسيون في ظل الحكم الأموي في مجال الزراعة من مياه الأنهر، كنهر تاجه، والوادي الكبير، والوادي اليانع، وإبرو، وأقاموا عليها السدود وشقوا الجداول(٥)، وكل ذلك ساعد على تطوير وزيادة الإنتاج الزراعي.

ولعل التقنيات سابقة الذكر التي تمتعت بها الأندلس جعلتها من أكثر الأقطار الإسلامية ازدهاراً في مجال الزراعة إذا ما قورنت بها(٦)، ويمكن القول بأن هذه التقنيات الزراعية أدت إلى ازدياد اهتمام الأمويين في الأندلس بهذه المهنة، فقد أولوها عناية خاصة، واضعين تقويماً خاصاً للزراعة سمي بالتقويم القرطبي، والذي أصبح فيما بعد دليلاً لزراعة النباتات المختلفة في مواعيدها المناسبة(٧).

---

١ ) المقري: نفح الطيب، ج3، ص151.

٢ ) ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج2، مج4، ص293.

٣ ) وات، مونتغمري: في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ترجمة: محمد رضا المصري، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط2، 1998م، ص60.

٤ ) المبارك، هاني، وشوقي أبو خليل: دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية، بيروت، الفكر المعاصر، ط1، 1417هـ=1996م، ص62.

٥ ) حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، بيروت، دار الجيل، ط14، 1416هـ=1996م، ج3، ص253.

٦ ) وات: في تاريخ إسبانيا، ص61.

٧ ) حسن: تاريخ الإسلام، ج3، ص329.

إن هذا التقدم الكبير الذي شهدته الأندلس في مجال الزراعة أهّلها لأن تكون مدرسة تتعلم منها أوروبا فنون الزراعة التي عُرفت في الأندلس، مثل نظام المدرجات في الجبال والمرتفعات، وكذلك طرق الري([١])، وهذه إشارة واضحة إلى تأثير المسلمين في الأندلس على الأوروبيين.

ولأن الأندلس امتلكت ما سبق ذكره من مقومات فقد استغل أهلها خصوبة تربتهم في زراعة نباتات مختلفة مما يحتاجه السكان، فكان مما اشتهرت به الأندلس زراعة كثير من المحاصيل الهامة مثل القمح والشعير والذرة([٢])، والفواكه([٣])، والنخل([٤])، والزيتون([٥])، والقطن والكتان([٦]).

والكتان([٦]).

وبناءً على ذلك يمكن القول بأن هذه المحاصيل تنطوي على نوعين من المحاصيل، فهي إما محاصيل أساسية تستخدم لحاجة السكان مثل القمح والشعير والذرة والزيتون، أو محاصيل تجارية تستخدم في النواحي التجارية لجلب المال كالقطن والكتان، وغيرها.

ويضاف إلى ما سبق ذكره من الزراعات نقل الحميري عن صاحب كتاب الفلاحة النبطية عن تميز الأندلس ببعض النباتات الغريبة، كالنبات الذي يوجد في طرف من مدينة قادس، وهو نبات إذا رعته المعز أصبح لبنها مُسكراً إسكاراً شديداً، أما الطرف الآخر لقادس ففيه شجيرة تشبه فسيل النخل، لها صمغ إذا خلط بالزجاج لونه، وصار حجراً تتخذ منه الفصوص([٧]).

ومن المهم الإشارة في مجال الزراعة إلى أن حكام الأندلس لم يكتفوا بما وجدوه من نباتات وزراعات في الأندلس، وخصوصاً زمن الأمويين بل عملوا على جلب النباتات غير الموجودة في الأندلس إليها، ومن ذلك ما قام به الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل، حيث جلب شجرة النخيل إلى دولته وقام بزراعتها، فهو بذلك يعد أول من زرع نخلة في الأندلس([٨]).

---

١ ) المبارك، وأبو خليل: دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية، ص62.

٢ ) حسن: تاريخ الإسلام، ج3، ص329.

٣ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص126.

٤ ) ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي: الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، دار المعارف، ط2، 1985م، ص37؛ الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط9، 1413هـ، ج8، ص251؛ الحموي: معجم البلدان ج:3 ص:48

٥ ) الحموي: معجم البلدان، ج1، ص227؛ المقري: نفح الطيب، ج3، ص50.

٦ ) حسن: تاريخ الإسلام، ج3، ص329.

٧ ) الحميري: الروض المعطار، ص448.

٨ ) هونكه، زيغريد: شمس العرب تسطع على الغرب "أثر الحضارة العربية في أوروبة، ترجمة: فاروق بيضون، وكمال دسوقي، مراجعة: مارون عيسى الخوري، دار الجيل، بيروت، ط8، 1413هـ=1993م، ص475.

**ثانياً: الصناعة:**

تميزت المدن الأندلسية بتعدد الصناعات فيها، وقد أشار العديد من المؤرخين إلى هذا الأمر، ومن ذلك ما ذكره المقري حيث نقل عن ابن غالب إعجابه بالأندلسيين وامتداحه إياهم في مجال الصناعة فشبههم بالصينيين قائلاً: "إن أهل الأندلس صينيون في إتقان الصنائع العملية، وإحكام المهن"(١)، فإلى المصنوعات الأندلسية ينتهي التفضيل بحسب آراء المتعصبين للأندلس(٢).

ويبدو أن المدن الأندلسية كانت تتقاسم فيما بينها الشهرة في مختلف الصناعات، وذلك حسبما يذكر المؤرخون، ففي الصناعات الغذائية اشتهر أهل إشبيلية بصناعة الزيت المستخرج من الزيتون، والمنتشر في مساحات واسعة منها(٣).

وبرز من المدن التي كان لها أثر بارز في إنتاج الصناعات الغذائية أيضاً مدينة شريش(٤) التي عرفت بضخامة أسواقها وتميزت بصناعة أجود أنواع الجبن(٥)، حتى قيل من دخلها ولم يأكل بها المجبنات فهو محروم(٦).

أما الشراب ففي مدينة مالقة قامت صناعة الخمر، وقد أشار إلى ذلك ابن سعيد بقوله "وخمر مالقة مشهورة بالأندلس مفضلة"(٧)، حتى غدا خمرها مثلاً للشراب، وفيها قال أحد الخلعاء "يا رب أسألك من جميع ما في الجنة، خمر مالقة..."(٨)

وعلى صعيد الصناعات المعدنية كان هناك تقدماً لافتاً في مدن عديدة من الأندلس، فاشتهرت مُرسية(٩) بمصنوعاتها من الحديد والشهبان(١٠)، واشتهرت طليطلة بالسيوف، وقرطبة

---

١ ) المقري: نفح الطيب، ج3، ص151.

٢ ) م.ن: ج1، ص201.

٣ ) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج2، ص541.

٤ ) شريش: من كور شذونة بالأندلس، بينها وبين قلشانة خمسة وعشرون ميلاً، وهي على مقربة من البحر، يجود زرعها ويكثر ريعها، وبين المغرب والقبلة من شريش حصن روطة على شاطئ البحر، بينهما ستة أميال ( الحميري: الروض المعطار، ص340).

٥ ) المجبنات نوع من القطائف يضاف إليها الجبن في عجينها وتقلى بالزيت الطيب ( المقري: نفح الطيب، ج1، ص184).

٦ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص184.

٧ ) ابن سعيد: المغرب، ج1، ص424.

٨ ) ابن حزم وآخران: فضائل الأندلس، ج1، ص57؛ المقري: نفح الطيب، ج3، ص219.

٩ ) مرسية: مدينة من بلاد كورة تدمير بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم ( الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، للرشاطي، وابن الخراط، ص62).

١٠ ) لم أجد لها معنى فيما بين يدي من مصادر لغوية.

بالدروع([١])، والمجوهرات من الذهب، والفضة، والعاج، والتحف البرنزية([٢])، أما مالقة فاشتهرت بالزجاج المذهب([٣]).

فيما كانت مدينة وشقة توصف بقلة ثمارها وبساتينها، ويبدو أنها استعاضت عن هذا النقص بتقدم الصناعة المعدنية فيها، فقد وجد بها داراً لصناعة الدروع، والبيضات الرشيقة، والآلات النحاسية، والحديدية([٤]).

وفي المرية كذلك وجدت دار للصناعة([٥])، وكان يصنع بالمرية مختلف آلات الحديد، والنحاس([٦])، والزجاج مما يطول وصفه([٧]).

كما انتشرت المصانع الجليلة في الأندلس([٨])، ووجد بها العديد من المصانع لصناعات متنوعة، فكان في قرطبة مصانع للزجاج، والحصير، والسلل، والأواني الفخارية، والخزفية، والقدور بأحجامها وأشكالها المختلفة، وكذلك الصناديق والأقراق([٩])، والأنابيب المستخدمة لجلب المياه، والقراميد المربعة لتبليط الأرضية، والمزججة لكسوة الجدران([١٠]).

وقد شهدت صناعة الخزف تطوراً فريداً في الأندلس، ففي عهد الخلافة الأموية عرف نوع من هذا الخزف باسم خزف مدينة الزهراء، أو خزف مدينة ألبيرة([١١])، كما تطور إلى جانب هذه الصناعة صناعة القاشاني الذهبي الثمين، وازدهرت في الأندلس صناعة الفخار المنقوش([١٢]).

---

١ ) ديورانت: قصة الحضارة، ج2، مج4، ص 294.

٢ ) فكري، أحمد: قرطبة في العصر الإسلامي تاريخ وحضارة، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1983م، ص256.

٣ ) ابن سعيد: المغرب، ج1، ص424؛ ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ج2، ص768.

٤ ) الزهري: كتاب الجغرافيا، ص82.

٥ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص162.

٦ ) الحميري: الروض المعطار، ص538؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص163.

٧ ) المقري: نفح الطيب ج1، ص163.

٨ ) م.ن: ج1، ص130.

٩ ) القرق: لعبة يلعب بها ( الزبيدي: تاج العروس، ج26، ص338).

١٠ ) فكري: قرطبة في العصر الإسلامي، ص256.

١١ ) ألبيرة: كورة جليلة القدر، كثيرة الأنهار ( الرشاطي، وابن الخراط: الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، ص17).

١٢ ) كولان. ج. س: الأندلس، ترجمة: إبراهيم خورشيد، وآخران، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط1، 1980م، ص 179-180.

كما تشير بعض النصوص التاريخية إلى ازدهار صناعة الزجاج في الأندلس، برغم أن التنقيبات الأثرية لم تكشف عن أي مصنع للزجاج الأندلسي، ويبدو أن ذلك عائداً إلى أن طبيعة مادة الزجاج سهلة الكسر([١]).

ومن الصناعات التي عرفتها الأندلس كذلك بعض الصناعات اليدوية، حيث كانت قرطبة كذلك تشتهر بصنع الجلد القرطبي، والذي استخدمه صانعوا الأحذية في أوروبا([٢])، ويبدو أن الجلد القرطبي هذا هو ذاته المستخدم في صناعة الحقائب والسروج التي عرفتها مدينة قرطبة([٣]).

أما الصناعات النسيجية فقد تميزت مدينة بلنسية بها، ومن الواضح أن ذلك كان سبباً في زيادة الطلب على صناعاتها، إذ كانت تُصدر لبلدان المغرب([٤])، ويبدو أن هذه الصنعة كانت منتشرة في عموم الأندلس، فقد أشار حسن إلى ذلك مبيناً اهتمام أهل الأندلس بزراعة نباتي القطن والكتان بُغية استخدامهما في صناعة الملابس([٥]).

ويستشف من كلام الإدريسي أيضاً أن صناعة الحرير كانت من الصناعات المنتشرة في الأندلس، إذ وجدت بعض المدن التي تعتني بتربية دود الحرير، كمدينة جيان([٦]) التي كان لها ما يزيد على ثلاثة آلاف قرية جميعها تربي دود الحرير([٧]).

ولم تقتصر صناعة النسيج في الأندلس على استخدام المواد الخام النباتية، بل استخدموا كذلك مواداً خاماً حيوانية، فصنعت الملابس من الفراء المأخوذة من حيوان القنلية([٨])، وكانت منتجات الفراء هذه غزيرة في الأندلس، بدليل أن كثيراً من أهل الأندلس قد لبسوها، سواء كانوا مسلمين أو نصارى([٩]).

---

١ ) كاستيو، بدرو خيمينيث: الزجاج في مرسية، ترجمة: عبد الله العمير، السجل العلمي لندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، القسم الثالث، الحضارة والفنون والعمارة، الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ط1، 1417هـ=1996م، ص253.

٢ ) ديورانت: قصة الحضارة، ج2، مج4، ص 294.

٣ ) فكري: قرطبة في العصر الإسلامي: ص256.

٤ ) ابن حزم وآخران: فضائل الأندلس، ج1، ص59؛ المقري: نفح الطيب، ج3، ص221.

٥ ) تاريخ الإسلام، ج3، ص329.

٦ ) مدينة بالأندلس بينها وبين بياسة عشرون ميلاً وهي كثيرة الخصب رخيصة الأسعار كثيرة اللحوم والعسل (الحميري: الروض المعطار، ص183).

٧ ) نزهة المشتاق، ج2، ص568.

٨ ) القنلية: حيوان أدق من الأرنب وأطيب طعماً وأحسن وبراً ( المقري: نفح الطيب، ج1، ص198).

٩ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص198.

وينقل المقري كذلك عن كتاب المسهب في غرائب المغرب للحجاري أن مدينة سرقسطة كانت تصنع الفراء الرفيعة الغالية من السمور، ولم يستطع الحجاري أن يميز السمور(١) هل هو نبات أم حيوان(٢).

أما كورة باجة التي تقع غرب إشبيلية، فقد عُرفت زمن بني عباد بدباغة الأديم(٣)، وصناعة الكتان(٤)

كذلك عرفت الأندلس صنوفاً أخرى من صناعة النسيج، فكان في قرطبة لوحدها ثلاثة عشر ألف نساج، كانوا ينسجون السجاجيد، والوسائد، والسجف(٥) الحريرية، والشيلان، والأرائك الأندلسية، وقد كانت التجارة في هذه الأصناف رائجة، فقد كان المشترون يقبلون عليها من كل مكان(٦).

ومن المدن المهمة في مجال الصناعات النسيجية مدينة المرية، التي عرف بها صناعة الحلل الموشية النفيسة(٧)، فهي إحدى المراكز الصناعية الموصوفة في الأندلس بجودة

الوشي(٨)(٩)، والديباج، فإنه لم يعرف في الأندلس من يجيد عمل الديباج كأهل المرية(١٠)، حتى حتى قيل إن بالمرية ثمانمائة نول لنسج طرز الحرير، وألف نول آخر للحلل النفيسة، والديباج الفاخر(١١)، وقد بلغت المرية ذروة مجدها زمن المرابطين، حيث كان بها من مختلف الصناعات وغرائبها، فلم يكن ثمة من هو أيسر من أهلها حالاً أو مالاً(١٢).

---

١ ) نقل المقري عن الحجاري قوله في السمور على أنه ربما يكون الدابة المعروفة التي تخرج من البحر إلى البر( نفح الطيب، ج1، ص197)؛ أما ابن منظور فيذكر أنها دابة معروفة تسوَّى من جلودها فِرَاءٌ غالية الأثمان( لسان العرب، ج4، ص 389).

٢ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص197.

٣ ) الأَدَمَةُ: باطن الجلد الذي يلي اللحم والبشرة ظاهرها ( الرازي: مختار الصحاح ص4) والمقصود بدباغة الأديم صنعة دباغة الجلود.

٤ ) المقري: نفح الطيب ج1، ص159.

٥ ) السَّجْفُ: السِّتر ( ابن سيده: المحكم، ج7، ص278).

٦ ) وول ديورانت: قصة الحضارة، ج2، مج4، ص 294-295.

٧ ) ابن حزم وآخران: فضائل الأندلس وأهلها ج:1 ص:58؛ المقري: نفح الطيب ج:3 ص:220

٨ ) الوشي هو الثوب ذو الألوان المختلفة وهي ثياب معروفة ( الرازي: مختار الصحاح، ص301).

٩ ) الحموي: معجم البلدان، ج5، ص119.

١٠ ) م.ن: ج5، ص119؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص162.

١١ ) الحميري: الروض المعطار، ص538؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص163.

١٢ ) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص562.

وفي قرطبة كذلك ظهرت صنعة الديباج، ولقب من يعمل في هذه الصنعة باسمها كمحمد بن عبيد الله بن أيوب المعروف بالدباج (ت317هـ=929م)، وهو من أهل قرطبة([1]).

أما مالقة، فقد انتشر في شتى أنحائها مجموعة من الصناعات الكمالية التي تعد من متطلبات حياة الترف، والتي يمكن تصنيفها كصناعات نسيجية أيضاً، ومن هذه الصناعات صناعة الوشي العجيبة([2])، وهي من أغلى الحلل الموشية، فقد تجاوز ثمن الواحدة منها الآلاف، وكانت تزين بالصور العجيبة، وشعار الخلفاء([3])، وقد استخدمت هذه الصناعة في مجال صناعة ما عرف بالبسط التنتلية، التي كانت تُصدر لبلاد المشرق، والستائر الرائعة المنظر، التي تغطي الحيطان في المنازل([4]).

**ثالثاً: التجارة:**

حظيت مهنة التجارة في شتى الأرجاء الأندلسية بكثير من التشجيع([5])، ويبدو أن من الأمور التي التي ساهمت في ازدهار الأنشطة التجارية تنظيم الأسواق، وذلك بفرض رقابة عليها، وعلى المكاييل والموازين([6]).

ولعل من الأدلة الواضحة على اتساع النشاط التجاري في الأندلس ضخامة أعداد الحوانيت، التي بلغ عددها زمن ابن أبي عامر حوالي 80455 حانوت وذلك في قرطبة وحدها([7]).

وتعد أسواق قرطبة من أغنى الأسواق، ولا يعرف في الدنيا شيء من التوابل أو العطور، أو المنسوجات الفاخرة، أو البسط الجميلة، أو آلات اللهو في أي ركن من أركان الدنيا إلا وقد جلب إلى أسواقها([8])، فتجار قرطبة كانوا مياسير، وأحوالهم واسعة([9])، ولذلك كان من السهل عليهم استيراد أي سلعة شاءوا.

---

١ ) ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يونس الأزدي: تاريخ العلماء بالأندلس، تحقيق عزت العطار الحسيني، القاهرة، مطبعة المدني، ط2، 1408هـ=1988م، ج2، ص39.

٢ ) ابن سعيد: المغرب، ج1، ص424.

٣ ) ابن حزم وآخران: فضائل الأندلس، ج1، ص57 –58؛ المقري: نفح الطيب، ج3 ص219.

٤ ) ابن حزم وآخران: فضائل الأندلس، ج1، ص59؛ المقري: نفح الطيب، ج3، ص221.

٥ ) وات: في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص61.

٦ ) ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج2، مج4، ص292.

٧ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص541.

٨ ) عويس، عبد الحليم: التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس، القاهرة، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط1، 1414هـ=1994م، ص8.

٩ ) الحميري: الروض المعطار، ص456.

كما أن أهل إشبيلية تمتعوا بالغنى ويسر الحال، مما كان له أثر في كثرة الأسواق والبيع والشراء، وقد أدى ذلك إلى رواج النشاط التجاري فيها([1]).

أما حصن إفراغة([2]) وهو من الحصون المتمدنة، فله الكثير من الأسواق والعديد من الصناعات([3]).

وكان مما اشتهرت به الأندلس نشوء سوق للأدوات الكمالية، وراج فيها بيع الأقمشة الرائعة، وإنتاج وبيع الفراء والأدوات الخزفية([4]).

وتعد مدينة مرسية ممن اشتهر بهذه التجارة، حيث أن المقبلات على الزواج من العرائس كن يقمن بشراء حاجياتهن الخاصة بزفافهن من مدينة مرسية، وفيها يجدن كل ما يَحْتَجْنَهُ، ولا ينقص عليهن شيء مما يتجهزن به([5]).

ويبدو أن الأندلس كانت محطاً لزيارة الكثير من الأجانب، مما كان له أثر في انتشار الحوانيت التي تبيع كل ما يحتاجه المسافرون، كالخبز، والفواكه، والجبن، واللحم، والسمك، وغيرها من مختلف الأطعمة، ولذلك لم يكن المسافر يسير في الأندلس مسافة فرسخين في سهل أو جبل إلا ويجد ما يشتهي ويرغب من حاجياته([6])، وقد اشتهرت مدينة مندوجر([7]) ببيع الخبز والسمك للمسافرين على وجه الخصوص([8]).

ولم يقتصر النشاط التجاري في الأندلس على التجارة الداخلية، فقد تجاوزها لتتمتع الأندلس بعلاقات تجارية خارجية، فقد أشار وات إلى خروج التجارة عن نطاق الأرض الأندلسية إلى الأراضي الفرنسية عبر طريق بري، واشتهرت هذه الطريق بتجارة ضخمة من الرقيق([9]).

كما أن مدينة المرية اشتهرت بإرسال التجار واستقبالهم فيها، فقد كانوا يأتونها عبر المراكب التجارية، حيث أن بها مرفأً ومرسى للسفن([10])، بمعنى أنها كانت تصدر بضائعاً وتستورد

---

١ ) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص541.

٢ ) إفراغة: مدينة بغربي لاردة من الأندلس بينهما ثمانية عشر ميلاً، وهي على نهر الزيتون حسنة البناء لها بساتين كثيرة لا نظير لها ( الحميري: الروض المعطار، ص48).

٣ ) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص733.

٤ ) وات: في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص62.

٥ ) ابن حزم وآخران: فضائل الأندلس، ج1، ص59؛ المقري: نفح الطيب، ج3، ص221.

٦ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص226.

٧ ) مندوجر: بالأندلس قرب المرية ، وهو حصن على تل تراب أحمر( الحميري: الروض المعطار ، ص549).

٨ ) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص566.

٩ ) وات: في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص62.

١٠ ) الحموي: معجم البلدان، ج5، ص119.

أخرى من خلال تجارتها البحرية، فلم تعرف الأندلس أتجر من أهلها في جميع التجارات، سواء بيعاً أو تخزيناً([١]).

وكان أهل إشبيلية يقصدون مدينة سلا المواجهة لهم في الجهة الجنوبية من البحر، يقلعون عنها ويحطون بها، محملين بشتى البضائع، حيث أن الأندلسيين كانوا يتجهزون منها بالطعام إلى سائر بلادهم([٢])، ويبدو أنهم كانوا يتعاملون بنظام المقايضة في البيع، فما يحملونه على سفنهم من سلع سلع يفرغونها في سلا، ويأخذون بدلاً منها سلعاً غذائية، وربما يكون في ذلك إشارة إلى أن السلع الآتية من الأندلس كانت سلعاً غير غذائية.

كما كان لشلب([٣]) كذلك علاقات تجارية مع مدينة سلا نفسها، حيث كانوا يتزودون منها بالأطعمة([٤]).

ولم تقف تجارة الأندلسيين الخارجية عند دول الجوار، بل تجاوزتها إلى بلاد بعيدة، فهذه مدينة مالقة اشتهرت بتصدير الفخار المذهب إلى أقاصي البلاد([٥]).

وقد أشار ديورانت إلى أن الأسطول التجاري في الأندلس في القرن الثالث الهجري/ التاسع للميلاد بلغ ما يربو على الألف سفينة، تحمل الغلال المختلفة إلى أنحاء مختلفة من قارتي آسيا وأفريقيا([٦])، وكان من بين هذه المناطق التي ارتبطت مع الأندلس بعلاقات تجارية مصر وتونس([٧]).

كما غزت البضائع الأندلسية في عهد الحكم الثاني (350-366هـ=961-976م) أسواق الكثير من المدن الأوروبية، مثل بوردو، وروان الفرنسيتيين، وإترخت الهولندية، وشلازفيك الدانماركية، مصدرة لها الزيت الأندلسي، والتين والخمور، وحجر الشبة الذي يستخدم في الدباغة، وأنواعاً عدة من التوابل([٨]).

ولعل كثرة أشجار الزيتون في الأندلس أوجدت فائضاً في زيته عالي الجودة، كالزيت الإشبيلي الذي كان يصدر إلى أقاصى المشارق والمغارب، براً وبحراً([٩]).

---

١ ) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص562.

٢ ) الحميري: الروض المعطار، ص319.

٣ ) شلب: مدينة حسنة على إقليم الشنشين ومن مدينة شلب إلى بطليوس ثلاث مراحل وكذلك من شلب إلى حصن مارتلة أربعة أيام ( الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص543).

٤ ) الحميري: الروض المعطار، ص319.

٥ ) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ج2، ص768.

٦ ) قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج2، مج4، ص 295.

٧ ) وات: في تاريخ إسبانيا الإسلامية، ص62.

٨ ) هونكه: شمس العرب، ص21.

٩ ) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص541.

ومن المدن التي اشتهرت بالتصدير لجميع البلدان مدينة المرية، وكان من أهم ما صدرته لرؤساء مراكش حصى ملون عجيب يستخدمونه في الرخام الملوكي([1]).

## رابعاً: الصيد:

عُرف في الأندلس الكثير من المهن التي أسهمت في تقدمها الاقتصادي، وكان من بين هذه المهن مهنة صيد السمك، والتي أطلق على صاحبها في جميع المدن الأندلسية اسم الخَنَّاق([2]).

وقد نقل المقري عن ابن مفلح وصفه للنهر الأعظم الموجود في إشبيلية حول ما يتميز به هذا النهر من أنواع الأسماك التي لا تحصى([3])، وهذه إشارة لا تدل عل الكثرة في النوع فقط بل وفي الكم أيضاً.

كما تحدث بعض المؤرخين عن وفرة السمك الموجود في الزهراء، عدا عن غيره من صنوف اللحوم الأخرى، كالدجاج، والحجل، والطير، كما أشار بعضهم إلى أن السمك كان يربى في بحيرة بالزهراء، حيث كان يلقى للسمك في البحيرة اثنا عشر ألف خبزة في اليوم، وكان ينقع لها ستة أقفزة من الحمص الأسود كل يوم([4])، وفي ذلك إشارة إلى مهنة ربما لم تكن معروفة في غيرها من المدن آنذاك، ألا وهي تربية الأسماك.

ويبدو من المؤكد غنى الأندلس بشكل كبير بالثروة السمكية من خلال ما أورده ابن فرحون عن القاضي الفقيه ابن السليم (ت367هـ=978م)([5])، والذي كتب عدداً من المؤلفات، وكان يعمل قاضياً وكان مجتهداً في طلب العلم، وبالرغم من عمله في خدمة الدولة إلا أنه كان يعتاش من صيد السمك في نهر قرطبة، فيبيعه ويأخذ ما يقتات به، ويتصدق بما يفيض عن حاجته([6]).

ويمكن هنا الاستدلال بأن هذا الرجل الفقيه كان لا يمتلك كثيراً من وقت الفراغ، فقد كان طالباً للعلم وكان يعمل قاضياً، وبالرغم من انشغاله بهذه الأمور إلا أنه كان يعمل في صيد الأسماك،

---

١ ) ابن حزم وآخران: فضائل الأندلس، ج1، ص58؛ المقري: نفح الطيب، ج3، ص220.

٢ ) السمعاني، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي: الأنساب، تحقيق عبد الله عمر البارودي، بيروت، دار الفكر، ط1، 1998م، ج2، ص403.

٣ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص208.

٤ ) م.ن: ج1، ص567.

٥ ) ابن السليم: هو العلامة الرباني، قاضي الأندلس، أبو بكر محمد بن إسحاق بن إبراهيم بن السليم الأموي حج وسمع من ابن الأعرابي، وكان من العلماء العاملين، ذا زهد ، وباع طويل في الفقه واختلاف العلماء، رأسا في الآداب والبلاغة والنحو( الذهبي: سير، ج16، ص243-244).

٦ ) ابن فرحون، إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المالكي: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.ط، ج1، ص261.

وكان يحصل على ناتج يومي يقتات منه ومنه يتصدق، أي أنه كان يصطاد في مدة زمنية قصيرة من يومه، فهو غير متفرغ لهذه المهنة، ولو كانت كمية السمك قليلة لما تمكن في وقت قصير من الحصول على أجرة تكفيه لطعامه وصدقته.

إن التوسع الذي شهدته الأندلس في المجالات الاقتصادية المتعددة قد أفرز لها وضعاً اقتصادياً صلباً ساهم في رفع مستوى دخل الأفراد، وبالتالي فإن حياة الأندلسي أصبحت مهيأة بشكل كبير لعيش حياة الترف، خصوصاً وأن كثيراً من صناعات وتجارات أهل الأندلس كانت عبارة عن مواد ترفية، كالحرير والديباج والخزف المذهب والوشي وغيرها مما سبق ذكره.

## المبحث الثالث

## الغنى وسعة الملك

لم تصمت المصادر العربية على شيء أكثر من صمتها عند الحديث عن النواحي المالية (في المصادر الأندلسية وغيرها)، ولا يوجد وثيقة رسمية توضح بها دولة من الدول ما يتبعها من المدن والقرى بوصفها وحدودها، وما يجب على أهلها من مال([١])، وتعد معرفة الأوضاع المالية للدول ضرورة حتى يمكن من خلالها تحديد الوضع المعيشي لسكانها، فمن المؤكد أن الدول الغنية توفر لأهلها حياة مرفهة غالباً، وخصوصاً في الوضع المعيشي والمرافق العامة.

وهذا ما حدث للأندلسيين فلقد شكلت الغنائم منذ الفتح عام ( 92هـ=711م)، والجزية المضروبة على الذميين، وغلال الجزيرة الخضراء ثروة هائلة وغنى فاحشاً لدى الفاتحين الأندلسيين([٢]).

وقد أشار ابن كثير إلى كثرة ما جمع موسى بن نصير من الغنائم عند فتح الأندلس بقوله: "وغنم أموالاً كثيرة جزيلة، ومن الذهب والجواهر النفيسة شيئاً لا يعد ولا يحصى، وأما الآلات والمتاع والدواب فشيء لا يُدرى ما هو، وسبى من الغلمان الحسان والنساء الحسان شيئاً كثيراً، حتى قيل أنه لم يسلب أحد مثله من الأعداء، ... وكان إذا سار إلى مكان تُحمل الأموال معه على العجل لكثرتها، وعجز الدواب عنها"([٣]).

وبعدما انتصر طارق بن زياد على لذريق([٤])، عقب الفتح توجه لطليطلة وفتحها، وحصل منها على كميات ضخمة من الذهب والفضة، وسبى حوالي اثني عشر ألف امرأة([٥]).

ومن هذه الغنائم التي حصّلها طارق في طليطلة، مائة وسبعين تاجاً من الدر والياقوت والأحجار النفيسة ، بالإضافة لإيوان ممتلئ بأواني الذهب والفضة، وقد وُصف بكبر سعته، حتى قيل أن الفرسان تلعب فيه برماحها، وذكر فيها غير ذلك مما لا يصدقه الناظر([٦]).

---

١ ) مؤنس، حسين: فجر الأندلس، بيروت، دار المناهل، ط1، 1422هـ=2002م، ، ص551.

٢ ) الدغلي، محمد سعيد: الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي وفي الأدب الأندلسي، منشورات دار أسامة، ط1، 1984م،1404م، ص51.

٣ ) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي: البداية والنهاية، بيروت، مكتبة المعارف، د.ت.ط، ج9، ص172.

٤ ) لذريق: كان ملك طليطلة ومعظم بلاد الأندلس عند الفتح الإسلامي ( ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص320).

٥ ) مؤلف مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص99.

٦ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص161.

أما في المدينة المعروفة بمدينة المائدة([١]) فقد أصاب منها طارق مائدة تسمى مائدة سليمان بن داود عليه السلام([٢])، وكانت مصنوعة من زبرجد أخضر، أما حافاتها وأرجلها فكانت مرصعة باللؤلؤ والمرجان والياقوت، وعدد أرجلها ثلاثمائة وستون رجلاً([٣]).

وهنا بالإمكان القول بأن الفتح الإسلامي للأندلس أسفر عن تحسن في الأوضاع الاقتصادية، فقد أُعيد توزيع الأراضي الزراعية بين العرب والبربر والإسبان([٤]).

فقد كانت مدة حكم الولاة للأندلس حافلة بما ذكره المؤرخون من غنائم، فيذكر بعض المؤرخين أن عبد الرحمن الغافقي (114هـ=732م) عندما كان يستعد لمعركة بلاط الشهداء كان جيشه يحمل معه غنائم طائلة، فشعر هذا الجيش بالخشية عليها، حتى أنهم رأوا وجوب المدافعة عنها، أو الانسحاب من أمام العدو بالأسلاب التي أحرزوها، رغبة في عدم خسارتها، ولكنهم استجابوا لعبد الرحمن بالمواجهة والقتال، غير أن وصول فرقة من الفرنج لمكان الغنائم أدى إلى ارتباك صفوف المسلمين، وتخلي بعض الجنود عن مواقعهم ليحموا الغنائم، مما أفقدهم النصر في المعركة، والتي استشهد فيها أميرهم عبد الرحمن([٥]).

وقد كان الفتح الإسلامي فرصة لبعض الناس باتجاه تحقيق الثروة والغنى، ويمكن الاستدلال على ذلك بما فعله يوسف الفهري (129هـ=747م)، حيث أرسل الصميل بن حاتم إلى سرقسطة، وهناك انتهز الصميل الفرصة مع مائة رجل من قريش، ومن كان معه من الغلمان والحشم، وتمكن بذلك من تكوين ثروة له([٦])، وفي ذلك إشارة إلى توفر مواد الثراء والتي تمنح صاحبها الغنى في حالة أحسن استغلالها.

---

١ ) مدينة المائدة: من أحواز طليطلة ( الحميري: الروض المعطار، ص530).

٢ ) يذكر المقري أن هذه المائدة وجدت في طليطلة، وأن قيمتها تبلغ مائة ألف دينار(نفح الطيب، ج1، ص161)، ولكنه في موضع آخر من كتابه ينفي نسبتها إلى سليمان نقلاً عن ابن حيان بقوله: "وهذه المائدة المنوه باسمها، المنسوبة إلى سليمان النبي عليه الصلاة والسلام لم تكن له فيما يزعم رواة العجم وإنما أصلها أن العجم في أيام ملكهم كان أهل الحسنة منهم إذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس فإذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشباهها من الذهب والفضة" ( المقري: نفح الطيب، ج1، ص272).

٣ ) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج4، ص269.

٤ ) الفقي، عصام الدين: تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، مكتبة نهضة الشرق، د.ت.ط، ص44-45.

٥ ) زيتون: محمد محمد: المسلمون في المغرب والأندلس، مصر، دار الوفاء للطباعة، 1411هـ 1990م، ص209-210.

٦ ) مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، دار الكتاب المصري، ط2، 1410هـ=1989م، ص62.

وبالانتقال للعصر الأموي في الأندلس، فقد وردت إشارات إلى كثرة الأموال، ويعود السبب في ذلك إلى تنوع مصادر الدخل المختلفة، سواء كان ذلك الدخل ناجماً عن الصناعة أو التجارة أو الزراعة والثروات الطبيعية([١])، حيث شكل كثير من العرب طبقة غنية تتمتع بالمال والثروة، وقد ظهر ذلك جلياً منذ عهد عبد الرحمن الداخل([٢]).

وقد أشار ابن الأثير إلى الوفرة الكبيرة في الأموال خاصة في طليطلة، فكانت هذه الأموال سبباً في طمع الناس في أمرائهم في عهد الخليفة الحكم بن هشام ( 180-206هـ=796-822هـ)([٣])، وفي عهده بلغت جباية أقاليم قرطبة وكورها ما يزيد عن مائة وعشرة آلاف دينار، وأربعة آلاف وستمائة مدياً([٤]) من القمح وأكثر من سبعة آلاف وستمائة مدي من الشعير([٥]).

وفي عهد عبد الرحمن الأوسط ( 206-238=822- 852م) شهدت بلاد الأندلس انتعاشاً اقتصادياً كبيراً([٦])، فقد اهتم بشكل كبير بضرب الدنانير، وكان حسن التدبير في تحصيل الأموال، حتى بلغ ما يجنيه إلى خزينة الدولة ألف ألف دينار في كل عام([٧]).

وقد أغدق عبد الرحمن على عاصمته الأموال والثروات، مما كساها بثوب من العظمة وحقق لها الرفاهية، ولم يقتصر الغدق على العاصمة، بل تعداها ليشمل جميع المدن في عهده، فعمرت وازدهرت الحياة إلى أن وصل الخير إلى الريف([٨]).

أما عبد الرحمن الناصر فقد خلف في خزينته أموالاً طائلة بحسب ابن خلدون، وعن ذلك يقول ابن خلدون: "خلف في بيوت أمواله خمسة آلاف ألف ألف دينار مكررة ثلاث مرات، يكون

---

١) دويدار، حسين يوسف: المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، مصر، مطبعة الحسين الإسلامية، ط1، 1414هـ=1994م، ص365.

٢) مصطفى، شاكر: الأندلس في التاريخ، سوريا، منشورات وزارة الثقافة، 1990م، ص30.

٣) الكامل في التاريخ، ج5، ص344.

٤) المدي مكيال لأهل الشام يبلغ وزنه 45,9 كيلو جراماً ( علي جمعة محمد: المكاييل والموازين الشرعية، ص45).

٥) المقري: نفح الطيب، ج1، ص541.

٦) محمود: منى حسن، المسلمون في الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة، القاهرة، دار الفكر العربي، 1986م، ص206.

٧) الصفدي، صلاح الدين خليل أيبك: الوافي بالوفيات: تحقيق أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث، 1420هـ=2000م، ج18، ص84.

٨) عصام الدين عبد الرءوف الفقي: تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، مكتبة نهضة الشرق، د.ت.ط، ص104.

جملتها بالقناطير خمسمائة ألف قنطار، ورأيت في بعض تواريخ الرشيد أن المحمول إلى بيت المال في أيامه سبعة آلاف قنطار وخمسمائة قنطار في كل سنة"([1])

وعلى الرغم من ضخامة المبلغ المذكور، وهو ما يشكك ربما في مدى دقة المعلومة، إذ لم يكن معروفاً في ذلك العصر سجلات تدون بها قيمة هذه الأموال، كما سبقت الإشارة، إلا أن ابن خلدون حاول أن يزيل هذا الشك بقوله: "ولا تنكرن ما ليس بمعهود عندك، ولا في عصرك شيء من أمثاله، فتضيق حوصلتك عند ملتقط الممكنات، فكثير من الخواص إذا سمعوا أمثال هذه الأخبار عن الدول السالفة بادر بالإنكار، وليس ذلك من الصواب، فإن أحوال الوجود والعمران متفاوتة، ومن أدرك منها رتبة سفلى أو وسطى فلا يحصر المدارك كلها فيها،... ولا يسعنا إنكار ذلك عنها، إذ كثير من هذه الأحوال في غاية الشهرة والوضوح بل فيها ما يلحق بالمستفيض والمتواتر"([2]).

أما بالنسبة للإنفاق فإن الناصر كان يقسم الجباية إلى ثلاثة أقسام، قسم منها للجند، والثاني للإعمار، والثالث كان يدخره، أما أخماس الغنائم فكانت لا تحصى([3])، وهذه إشارة واضحة إلى أن الفائدة من هذه الأموال كانت تعم موظفي الدولة، وكانت تنفق في مجال الخدمات العامة، فيما يخدم عامة الناس، وهو ما تنجم عنه الرفاهية في المجتمع.

ويذكر وول ديورانت حجم الموارد المالية للدولة في عهد عبد الرحمن الناصر قد بلغ أموالاً طائلة، فيشير إلى أن هذه الموارد بلغت ما يربو على اثني عشر مليون دينار ذهبي، ويرى ديورانت أن هذه الموارد تعدل جميع موارد حكومات البلاد النصرانية اللاتينية مجتمعة آنذاك([4]).

وفي عهد الحكم المستنصر (350-366هـ=961-976م) تم له فتح منطقة تسمى قطوبية([5]) وجمعت منها غنائم لا تحصى، من الأموال والسلاح والطعام والأثاث، عدا عن الغنم والبقر والرمك([6])، والسبي([7])، وربما يكون ذلك سبباً في غنى شرائح كبيرة من الجنود والقادة

---

١ ) المقدمة، ج1، ص181.

٢ ) م.ن: ج1، ص181.

٣ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص379.

٤ ) قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج2، مج4، ص293.

٥ ) لم أجد تعريفاً لها فيما بين يدي من مصادر، إلا أن محقق النفح أشار إلى أن الصواب ربما يكون قطربيه (نفح الطيب، للمقري، حاشية ص383).

٦ ) الرمك: الفرس ( ابن منظور: لسان العرب، ج10، ص434).

٧ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص383.

العسكريين، الذين يشاركون في هذه المعارك، إذ أن لهم حق معلوم من هذه الغنائم يساوي أربعة أخماسها.

ولما قام محمد بن هشام (399-400هـ=1009-1009م)(١) بخلع المؤيد بالله هشام (366-399هـ=976-1009م)(٢)، وحارب حاجبه ابن أبي عامر، أمر من سانده من الناس باجتياح دور بني عامر في الزهراء، ونهب ما فيها من الأموال، والتي قيل أنها بلغت خمسة آلاف ألف دينار وخمس مائة ألف دينار، ومن الفضة ألف ألف درهم، ثم وجد بعد ذلك خوابي(٣) فيها ألف ألف ومائة ألف دينار(٤)، ويبدو بأن لهذه الحادثة وجهان، فالوجه الأول يشير إلى وجود طبقة تتمتع بالغنى وتكدس الأموال، والوجه الآخر أن من استولى على هذه الأموال من الناس قد حصلوا على ثروة طائلة، وهو ما يعزز حياة الترف التي تحتاج للمال من أجل انتعاشها.

أما في عصر الطوائف فقد برزت صور من الغنى الفاحش، إذ أن المبالغ التي كانت تدفع في بعض المنازل قد بلغت ما يزيد أو ينقص عن مائة ألف دينار(٥)، وهذا يشير إلى وجود طبقة من الأغنياء وكبار الملاك في المجتمع الأندلسي، وهذه الطبقة لم تبالِ بحجم المبالغ التي تنفقها في سبيل توفير حياة أفخم، وربما هذا يؤكد أن الشخص الذي يدفع مثل هذا المبلغ يمتلك مثله أضعافاً.

وتشير الدلائل المتوفرة إلى أن العمال و كبار العرب في الأندلس كانوا يتمتعون بغنى عريض، وكان الكثيرون من رؤساء العرب يملكون ضياعاً واسعة، فيها قصور كبيرة(٦)، وتجدر الإشارة

---

١ ) هو محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن الناصر لدين الله أبي المطرف عبد الرحمن ابن محمد الأموي، هو أول من فتح على بني أمية بالمغرب باب الفتنة، حيث قام في ثلاثة عشر رجلاً، توثب على الأمر بالأندلس وخلع المؤيد بالله هشاماً، وحارب الحاجب المنصور ابن أبي عامر ( الصفدي: الوافي بالوفيات،ج5، ص108).

٢ ) هشام المؤيد بالله: بويع له بولاية العهد في حياة أبيه عام(365هـ=976م) وهو ابن اثنتي عشرة سنة باتفاق الوزراء، وعلم الوزراء أن معه المغيرة بن عبد الرحمن ينازعه في الأمر ويتطلع للحكم ويرى أنه أحقّ بذلك منه لصغر سنه، فهُجم عليه في منزله فذُبح، وكان الذي تولّى قتْله الوزير محمد بن أبي عامر، ولما تولي الحُكم احتاج إلى مدبرٍ للمملكة ، فوقع الاختيار على جعفر المصحفي ، فقلّده هشام حجابته ، وأشرك معه في الحجابة غالب بن عبد الرحمن، وقلّد المنصور بن أبي عامر الوزارة، فارتفع شأن ابن أبي عامر على المصحفي حتى عزل المصحفي ( النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ، ج23، ص235-236).

٣ ) الخابية: التي تُخبَأ الأشياء فيها ( الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم: الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيق حاتم صالح الضامن، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1412هـ=1992م، ج2، ص94).

٤ ) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج5، ص108.

٥ ) ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص 17.

٦ ) مؤنس: فجر الأندلس، ص638-639.

الإشارة إلى أن الثراء الذي كان منتشراً في الأندلس لم يكن يختص بذوي القصور والأمراء، بل كان يشمل فئات أخرى من الناس، مثل تجار الرقيق والمقربون من الحكام، وطبقات الفقهاء، والمنتفعون بالمغامرة([١]).

ومن الشواهد الواضحة على وفرة المال بجميع أنواعه في المدن الأندلسية أن الأردمانيين "النورمان" عندما حاصروا بربشتر([٢])، وتمكنوا من اقتحامها حصلوا منها على غنائم كثيرة، بلغت نحو "ألف وخمسمائة جارية أبكاراً كلهن، ومن أوقار([٣]) الأمتعة من الحلي، والكسوة والوطاء خمسمائة حمل"([٤]) حتى وصفها المقري بأنها لا تحصى([٥])، ولعل انهيار بربشتر أمام النورمان يوحي بمدى الضعف الذي ألحقه حب المال وحياة الترف بأهلها.

ومن مؤشرات الغنى عند بعض الأندلسيين ما روي عن أبي محمد عبد الله ابن الفقيه أبي عمر بن عبد البر، من أنه بعد قدومه إلى إشبيلية كان متحفظاً على إظهار ثروته، ويبدو أن ذلك كان عائداً إلى خوفه عليها، وحينما شعر بالأمان أخذ في اقتناء الضياع والدور([٦]).

أما قرطبة فقد تميزت بغنى فاحش في عهد الخليفة المهدي محمد بن هشام قُتل (400هـ=1010م)، وهو الأمر الذي أطمع الفقراء بأن يبقوا فيها، راجين بذلك أن يحصلوا على ما يأملونه من العيش الرغيد عند أي فرصة تلوح لهم([٧]).

أما في مدينة بلنسية، ومع بناء سورها الحصين في بداية عهد مبارك ومظفر([٨])، ومع شعور الناس نتيجة لذلك بالأمان بدأوا يتوافدون للمدينة من مختلف الأماكن حاملين معهم الأموال،

---

١ ) عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، ص42.

٢ ) بربشتر: من أمهات مدن الثغر، الفائقة في الحصانة، وكان حصار الأردمانيين لها على حين غرة وقلة عدد وعدة من أهلها، حيث بلغت عساكرهم نحو أربعين ألف فارس، فحاصروها أربعين يوماً، حتى افتتحوها، وذلك في سنة 456هـ، وقتلوا عامة رجالها ( الحميري: الروض المعطار، ص90).

٣ ) الوقر: الحمل الثقيل، ( ابن منظور: لسان العرب، ج5، ص289).

٤ ) ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص182.

٥ ) المقري: نفح الطيب، ج4، ص449.

٦ ) م.ن: ج5، ص125- 126.

٧ ) مصطفى، شاكر: الأندلس في التاريخ، ص77.

٨ ) مبارك ومظفر: كانا عبدين وقد استنجدا بالوزير عبد الرحمن بن يسار وتذللا له لإعادتهما لعملهما في وكالة الساقية، وبالفعل عادا إلى العمل،( ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص14)؛ والاسمان دائماً مقترنان، وهما من عبيد بني أبي عامر، وقد توليا معاً إمارة بلنسية ونزلا بقصر الإمارة فيها، وكانا لا يتميزان عن بعضهما بشيء من كسوة أو حلية أو ركوب أو فرش إلا ما كان من صرامة عرفت في مبارك ولم تعرف في مظفر، فكان يتقدم عليه في رسوم الإمارة، وتوفي مبارك سنة (408 هـ = 1018 م)، (الزركلي، خير الدين: الأعلام، ، بيروت، دار العلم للملايين، ط15، 2002م، ج5، ص271).

وخصوصاً من وفد إليها من قرطبة التي كانت تعاني الاضطراب، فبنى الناس فيها المنازل والقصور، وأنشأوا البساتين والرياض، وشقوا فيها قنوات المياه(١)، ومن المؤكد أن تعمير مثل هذه المنشئات يحتاج إلى مبالغ مالية طائلة، وهو ما يؤكد حياة الترف والرفاهية.

ويعد أهل مدينة المرية من أكثر أهل الأندلس ثراءً وغنىً وذخائر(٢)، وهذا لا يعد أمراً غريباً، فقد بيّن سبق في المبحثين السابقين توضيح المدى الذي تمتعت به المرية من ضخامة الإنتاج الزراعي وازدهار النشاط التجاري والصناعي فيها.

وفي عصر دولة المرابطين لم يُرَ في زمن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين (453-500هـ=1061-1107م) أي نوع من أنواع المكس والخراج، لا في بادية ولا في حضر، إلا ما أوجبه الكتاب والسنة من الزكوات والأعشار وجزيات أهل الذمة وأخماس الغنائم، وعلى الرغم من ذلك فإن أمير المسلمين قد جمع من الأموال ما لم يجمع أحد قبله، حتى قدرت الأموال في بيت المال بعد وفاته بثلاثة عشر ألف ربع من الورِق وخمسة آلاف وأربعين ربعاً من مطبوع الذهب(٣)، والمعلوم أن الزكاة لا تدفع إلا عن ظهر غنى، أي أن جمع مبالغ مالية كبيرة من جراء الزكوات وغيرها من المصادر المالية للدولة في عهد المرابطين، دليل واضح على الوفرة في الأموال وسعة الأرزاق.

ومن تلك الأموال ما ذكره ابن خلكان حيث أشار إلى أن الجيش الإسلامي المتحد، والمكون من جيش المرابطين وجيش المعتمد بن عباد، قد غنم سلاحاً ودواباً إثر الانتصار في معركة الزلاقة عام (479هـ=1086م)، وفي العام التالي عاد يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وأثناء هذا العبور قام بدخول مدينة غرناطة واقتحم قصر صاحبها عبد الله بن بلكين، فوجد فيه من الذخائر والأموال ما لا يحصى(٤)، وما لم يحوه قبله ملك، وكان من جملة ما وجده في القصر سبحة(٥) سبحة(٥) فيها أربعمائة جوهرة تبلغ قيمة كل جوهرة فيها مائة دينار(٦)، وهو ما بهر يوسف بن بن تاشفين حيث أُعجب بما رآه في بلاد الأندلس من المباني، والمطاعم، والبساتين، ومختلف أنواع المال(٧).

---

١) ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص16-17.

٢) المقري: نفح الطيب، ج1، ص163.

٣) الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري، ومحمد الناصري، المغرب، مطبعة الدار البيضاء، 1418هـ=1997م، ج2، ص60.

٤) وفيات الأعيان، ج5، ص28-29.

٥) السَّبْحَة: بالفتح الثِّيَابُ من جُلودٍ ( الزبيدي: تاج العروس، ج6، ص449).

٦) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص447.

٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص28-29.

وقد امتد عهد غنى المرابطين إلى خلفاء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، إذ وجدت إشارات أخرى تدل على وفرة الأموال، ويؤكد ذلك أن تاشفين بن عليّ بن يوسف (537-539=1143-1145م) أرسل رسالة إلى والي بلنسية وقرطبة أبي زكريا يحيى بن علي بن غانية يوصيه فيها بحقوق المسلمين في الأعشار، والزكوات، والأموال المفروضة([١])، ويبدو أن أمير المسلمين تاشفين قد وصلته إشارات من قبل الولاة، تؤكد له امتناع بعض الناس عن دفع الزكوات والعشور، ولذلك قام بإرسال هذه الرسالة إلى واليه أبي زكريا، ولعله يتأكد من خلال هذه الرسالة وفرة الأموال في مدينة بلنسية على وجه الخصوص، وهو ما جعل الناس ينحدرون نحو البخل ومنع حق الله من أجل المال والرغبة في حياة الترف.

وفي عصر الموحدين قام الأمير الموحدي أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ( 558-580هـ=1162-1184م) عند توليه الحكم بتوزيع الصدقات، في وقت وزع فيه الأموال بين الأجناد والقبائل، حيث أنه كان موصوفاً بالسخاء والجود([٢])، ولذلك فإن عهده كان وفير الأموال([٣])، مما أدى بالناس للاستغناء في زمنه، من كثرة ما في أيديهم من الأموال([٤])، وبالرغم وبالرغم من أن توزيع الصدقات يكون على الفقراء، فإن مقابل طبقة الفقراء توجد طبقة الأغنياء التي أسهمت في استغناء الناس في عهد أبي يعقوب.

واستمر تكاثر الأموال في عهد الموحدين ولم ينقطع، ففي عهد الأمير المنصور أبو يوسف يعقوب بن يوسف ( 580-595هـ=1184-1199م) في سنة ( 591هـ=1195م)، التقى الجيش الموحدي مع جيش من الفرنجة([٥]) شمال قرطبة قرب قلعة يقال لها رباح([٦]) في مرج

---

١ ) مجهول: رسائل أندلسية، تحقيق فوزي عيسى، الإسكندرية، منشأة المعارف، ط1، 1989م ص59-60.

٢ ) الناصري: الاستقصا، ج2، ص147.

٣ ) المراكشي، عبد الواحد: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، القاهرة، مطبعة الاستقامة، ط1، 1368هـ، ج1، ص253.

٤ ) الناصري: الاستقصا، ج2، ص157؛ المراكشي: المعجب، ج1، ص238؛ ابن خلكان: وفيات، ج:7 ص133.

٥ ) ذكر الذهبي هذه المعركة باسم الزلاقة، ووصف غنائم المسلمين فيها بقوله "وأسر ثلاثون ألفا وغنم المسلمون غنيمة لم يسمع بمثلها حتى أبيع السيف بنصف درهم والحصان بخمسة دراهم والحمار بدرهم"، ويبدو أن وصف الغنائم فيه تشابه إلى حد ما مع وصف المقري لغنائم معركة الأرك، كما اتفق الاثنان على نفس التاريخ، ولكن يبدو أن الأمر التبس على الإمام الذهبي، إذ أن معركة الزلاقة وقعت عام 479هـ=1086م فهذا التاريخ يسبق تاريخ معركة الأرك عام 591هـ=1194م بما يزيد على القرن.(الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز: العبر في خبر من غبر، ، تحقيق صلاح المنجد، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ط2، 1984م، ج4، ص275-276).

٦ ) قلعة رباح: من عمل جيان، بين قرطبة وطليطلة، بناها الأمويون ( الحميري: الروض المعطار ،

الحديد، وهزمهم هزيمة منكرة، كان من نتائجها تحصيل الجيش الموحدي لغنائم طائلة، قيل أن الدروع بلغت منها ستين ذراعاً، كما بلغت الدواب ما لا يحصى عدده([1])، حتى أنه لم يتمكن من المواصلة إلى بلاد الفرنج بسبب كثرة الغنائم([2]).

وعرفت هذه المعركة بمعركة الأرك، وهي لا تقل أهمية عن موقعة الزلاقة عام (479هـ=1086م)، وقد وصف المقري غنائم هذه المعركة بقوله: "غنم فيها المسلمون ما عظم قدره، وكان عدة من قتل من الفرنج فيما قيل مائة ألف وستة وأربعين ألفاً، وعدة الأساري ثلاثين ألفاً، وعدة الخيام مائة ألف وخمسين ألف خيمة، والخيل ثمانين ألفاً، والبغال مائة ألف، والحمير أربعمائة ألف، جاء بها الكفار لحمل أثقالهم، لأنهم لا إبل لهم، وأما الجواهر والأموال فلا تحصى، وبيع الأسير بدرهم، والسيف بنصف درهم، والفرس بخمسة دراهم، والحمار بدرهم، وقسم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع"([3]).

وقد كان الثراء الفاحش الذي تمتعت به قرطبة زمن المنصور يدهش الزائرين، حيث كانت الشوارع مرصوفة، والمدينة مضاءة ليلاً، ومبانيها متصلة لا تنقطع، ولذلك فإن المشهد الذي كانت تبدو عليه المدينة هو الرخاء العام، ويضاف لذلك امتلاك كل أسرة لحمار كوسيلة مواصلات، غير أن ديورانت أشار إلى أن فئة المتسولين في المجتمع كانت عاجزة عن توفير هذه الوسيلة([4]).

وهذه الإشارة إلى وجود المتسولين تدل على أن المجتمع القرطبي لم يكن يتمتع بكليته بالغنى والثراء، فقد وجدت فيه فئة المتسولين، وليس في ذلك غرابة، إذ أن أي مجتمع سوف لن يخلو من وجود المعدمين فيه، ولكن كل الإشارات السابقة تدل على أن السمة الغالبة لهذا المجتمع هي الغنى، والأغنياء أو على الأقل متوسطي الحالة المادية، وهم الذين يتمكنون من توفير جميع متطلباتهم الحياتية هم أكثر الناس تواجداً في المجتمع القرطبي.

---

ص469).

١ ) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص8.

٢ اليافعي، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، 1413هـ، ج3، ص481.

٣ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص443.

٤ ) قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج2، مج4، ص301-302.

## المبحث الرابع
## الاختلاط بالأعاجم وغير المسلمين

فرضت ظروف فتح الأندلس على المسلمين الفاتحين احتكاكاً واختلاطاً مباشرين بأهل هذا البلد، مما كان له أثرٌ ظاهرٌ في حياة وعادات المسلمين الذين عاشوا في الأندلس.

وقد ترتب على تجاور المسلمين مع النصارى في الأندلس قيام علاقات اجتماعية حميمة بين الجانبين(١)، وهو ما وقع للعرب عقب فتح الأندلس، حيث اختلطت أنسابهم بالعجم من أهل البلاد الأصليين(٢)، وقد بدأ هذا الاختلاط مع البدايات الأولى لدخول المسلمين الأندلس، فعقب خروج موسى بن نصير من الأندلس تزوج ابنه عبد العزيز(ت97هـ=716م) من امرأة نصرانية، يقال أنها ابنة لذريق ملك الأندلس(٣)، وقيل زوجته(٤).

وقد أقبل المسلمون على الزواج بالإسبانيات، ومن أمثلة هذه الزيجات زواج القائد البربري منوسة(٥)، وهو أحد قواد طارق بن زياد(٦)، مطلع القرن الثاني للهجرة/الثامن الميلادي من امرأة قوطية هي أخت بلاي القوطي، ومن امرأة ثانية هي مينين بنت ايوديس دوق أقطانية(٧).

ويُعَدُّ المؤرخ الأندلسي أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية (367هـ=977م)، نتاجاً لإحدى هذه الزيجات، فالقوطية هي جدة والد جده واسمها سارة بنت المنذر(٨) وهي ابنة وبة بن غيطشة وكان من ملوك الأندلس(٩).

ويروي المؤرخ ابن القوطية نفسه حادثة زواج سارة القوطية، مشيراً إلى أنها كانت تعيش في إشبيلية، فرحلت إلى عسقلان بالشام، ومن ثم قصدت الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك

---

١ ) كحيلة: الخصوصية الأندلسية، ص24.
٢ ) ابن خلدون: المقدمة، ص130.
٣ ) ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله عبد الحكم بن أعين القرشي المصري: فتوح مصر وأخبارها، تحقيق محمد الحجيري، بيروت، دار الفكر، ط1، 1416هـ=1996م، ص354.
٤ ) المقري: نفح الطيب ج:1 ص:281
٥ ) سالم، سحر: بنو خطاب بن عبد الجواد التدميري، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1989م، ص13.
٦ ) الجارم بك، علي: قصة العرب في إسبانيا، مصر، مطبعة المعارف، د.ت.ط، ص48.
٧ ) سالم: بنو خطاب، ص13.
٨ ) المنذر: ذكره ابن القوطية نفسه باسم المند، (ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، دار الكتاب المصري، ط2، 1410هـ=1989م ص32).
٩ ) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج4، ص370.

(ت125هـ=743م)، لتطلب منه أن يعيد إليها ضياع أبيها، التي استولى عليها عمها أرطباش([1])، فأعطاها هشام بن عبد الملك كتاباً إلى عامله على أفريقية حنظلة بن صفوان الكلبي([2])، يأمره فيه أن يرد عليها ضياع أبيها في إشبيلية، وقام الخليفة بتزويجها لعيسى بن مزاحم([3])، الذي توجه بها إلى الأندلس، وهناك أنجبت له ولدين هما إبراهيم وإسحاق، وبعد وفاة وفاة زوجها رغب كل من عمير بن سعيد اللخمي([4])، وحيوة بن ملامس المذحجي([5]) بالزواج منها، فتم زواجها من عمير بن سعيد اللخمي وولدت له ولداً هو حبيب بن عمير([6]).

وهذا الأمر يؤكد بأن المسلمين ومنذ الفتح الإسلامي للأندلس عقدوا مع النصارى علاقات اتسمت بالمودة، ولذلك دخلوا معهم في صداقات، ومصاهرات، فخالطوهم، وشاركوهم في الأعياد، والمناسبات الاجتماعية، وتجاوز الأمر ذلك حتى وصل إلى أن قصد بعض المسلمين كنائس النصارى، وكان لهذا الاختلاط أثر في معرفة المسلمين للغة نصارى الأندلس([7])، بل تجاوز الأمر هذا الحد لدرجة تأثر لغة المسلمين من أهل الأندلس بالنصارى وهي ما عرفت باللغة باللطينية([8])، والعجمية، وقد ترتب على معرفة هذه اللغة التعرف على عادات المجتمع الإسباني([9])، وبالتأكيد كان لهذا الأمر أثراً واضحاً بالنسبة لتعلم المسلمين بعض عادات النصارى.

---

١ ) ذكره ابن الخطيب "أرطباس" وهو قومس "زعيم" الأندلس واشتهر بالعلم والدهاء (ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص103)، وقد أشار محقق الكتاب إلى أن أرطباس هو الذي تحالف مع العربعند فتح الأندلس، ولذلك فقد عينه العرب عقب الفتح حاكماً لطليطلة ورئيساً للنصارى ( م.ن: ج1، حاشية ص103).

٢ ) هو حنظلة بن صفوان بن تويل بن بشر الكلبي، من أهل دمشق ولي إمرة مصر مرتين والمغرب ليزيد بن عبد الملك ولهشام بن عبد الملك وولي أفريقية ليزيد بن الوليد وكان حنظلة حسن السيرة في سلطانه (ابن هبة الله: تاريخ دمشق، ج15، ص330).

٣ ) هو مولى لعمر بن عبد العزيز، وكان يسكن بالشام، (الذهبي: سير، ج16، ص220).

٤ ) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر.

٥ ) من أهل حمص النازلين بإشبيلية ( ابن الأبار: الحلة السيراء، ج1، ص36)، وصار من رؤسائها وأشراف وكان يحظى بمنزلة رفيعة عند عبد الرحمن بن معاوية ( ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج1، ص232).

٦ ) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص32.

٧ ) كحيلة، عبادة بن عبد الرحمن رضا: القطوف الدواني في التاريخ الأسباني، ، ط1، 1998م، ص63.

٨ ) كحيلة: الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية، ص25.

٩ ) الوراكلي، حسن: ياقوتة الأندلس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1994م، ص133.

ويؤكد حسين مؤنس بأن ارتباط المسلمين من عرب وبربر بالإسبان عن طريق المصاهرة كان منتشراً وشائعاً، وكانت المساواة تحكم الجيران جميعاً من مسلمين ونصارى، ونتيجة لحسن الجوار الذي ساد علاقة الأطراف في الجزيرة الأندلسية، فقد انتشر الإسلام بين أهلها([١]).

والملاحظ أن ظاهرة الزواج من غير المسلمات كانت تتركز على وجه الخصوص بالنصرانيات، ولذلك شاعت هذه الزيجات، وانتشرت بكثرة في المجتمع الأندلسي([٢])، ويعد الأمير الأموي الحكم بن هشام ( 154-206هـ = 771-822 م) المعروف بالربضي نتاجاً لإحدى هذه الزيجات، فأمه أم ولد اسمها زخرف([٣]) أهداها لأبيه قارله بن يليان الرومي عند مسالمته لعبد الرحمن الداخل([٤])، وهو أول من اتخذ لنفسه حرساً خاصاً به من الأسرى والأجانب([٥])، كما أن الحكم أيضاً تزوج من نصرانية اسمها حلاوة، فأنجب منها ولده عبد الرحمن والذي خلفه في الحكم([٦])، ومن المؤكد بأن هذه الزيجات لها تأثير بالغ في نقل عادات هؤلاء النساء النصرانيات إلى أبنائهن – خلفاء المستقبل-، وهذا يشير إلى أن كثيراً من عادات الترف التي اتبعها هؤلاء الخلفاء كانت منقولة عن أمهاتهم.

وهنا يشير عبادة كحيلة إلى التسامح الإسلامي، حيث أن السيد كان يُمنع من فصل الأمة عن أولاده منها([٧])، وهنا تجدر الإشارة إلى أن أصحاب المذاهب الفقهية الأربعة لم يجيزوا بيع أم الولد([٨])، فإذا توفي عنها زوجها أصبحت حرة([٩])، وقد روي عن عمر بن الخطاب قوله: " إذا

---

١ ) فجر الأندلس، ص459.

٢ ) كحيلة، عبادة بن عبد الرحمن رضا: العقد الثمين في تاريخ المسلمين، الكويت، دار الكتاب الحديث، 1417هـ=1996م، ص346؛ الخالدي، خالد: اليهود تحت حكم المسلمين في الأندلس، "رسالة دكتوراة منشورة"، 1421هـ=2000م، ص 230.

٣ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس: ص124؛ الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة: بغية الملتمس، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، دار الكتاب المصري، ط1، 1410هـ=1989م، ج1، ص34.

٤ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس: ص124.

٥ ) أرسلان، شكيب: تاريخ غزوات العرب، بيروت، دار الكتب العلمية، ص130.

٦ ) الضبي: بغية الملتمس، ج1، ص35؛ ابن ماكولا: الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ط2، 1993م، ج2، ص575.

٧ ) القطوف الدواني، ص73.

٨ ) الشيباني، أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني: اختلاف الأئمة العلماء، تحقيق السيد يوسف أحمد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1423هـ=2002م، ج1، ص348.

٩ ) كحيلة: القطوف الدواني، ص73.

إذا ولدت أم الولد من سيدها فقد عتقت وإن كان سقطاً"([1])، وربما يكون ذلك سبباً في كثرة المحررات من أمهات الأولاد في الأندلس من الإسبانيات، مما أثّر في التركيبة الأساسية للمجتمع الأندلسي.

ومما يتأكد به اختلاط المسلمين بالنصارى قيام الناصر لدين الله محمد بن الحكم بأخذ البيعة لنفسه، وتملك قرطبة سنة (399هـــ=1009م)، حيث أخفى هشام المؤيد في الحبس إلى أن مات رجل نصراني يشبه هشام، فقام الناصر بعرض جثته على الناس على أنه المؤيد([2])، وهنا يمكن القول استناداً لهذه الواقعة أن النصارى كانوا يعيشون مع المسلمين في مناطق مشتركة، لأن نقل جثة الميت من مكان لآخر تسبب تعفنها لما تحتاج إليه من وقت في نقلها.

كما كان الجهاد ضد النصارى مصدراً من مصادر الاختلاط بهم، فقد تمكن الأندلسيون خلال جهادهم ضد الجلالقة من تملك الرقيق منهم، وكانوا يوصفون بالجمال والفراهة، هذا بالإضافة إلى ما كانوا يشترونه من الرقيق الصقالبة([3]).

وكان انتشار الرقيق والسبايا واضحاً في عهد المنصور بن أبي عامر (ت392هـــ=1002م)([4])، (ت392هـــ=1002م)([4])، فقد عرف عنه أنه كان محباً للجهاد، وكان من نتيجة ذلك أن ملأ الأندلس سبياً من بنات الروم، وأولادهم، ونسائهم، فكان الناس يُرغّبون بالزواج من بناتهم عن طريق تجهيزهن بكل ما يحتجنه من الثياب والحلي، والسبب في ذلك عزوف الشباب عن الزواج بالمسلمات نظراً لرخص أثمان بنات الروم من السبايا، حتى بيعت ابنة عظيمٍ من عظماء الروم وكانت على قدر فائق من الجمال بعشرين ديناراً عامرياً([5]).

هذا ويرجع أصل مجاهد العامري (ت436هـــ=1044م)([6]) صاحب دانية، ومولى أبي عامر محمد بن أبي عامر لأصل رومي([7])، أي أنه ينحدر من سلالة غير عربية، وغير مسلمة.

---

١ ) البيهقي: سنن البيهقي الكبرى، ج10، ص346.

٢ ) ابن الأثير: الكامل، ج7، ص370 .

٣ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص145.

٤ ) محمد بن أبي عامر المعافري: دخل جده عبد الملك مع طارق بن زياد، ونزل بالجزيرة فساد أهلها، وقد نشأ المنصور ظاهر النجابة، ذو فضل ونباهة، تبدو عليه مظاهر الرياسة، وكان يخبر بذلك عن نفسه، ثم اتصل بالخليفة الحكَم، وولّيَ له بعض الأعمال ( ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص59).

٥ ) المراكشي: المعجب، ص38.

٦ ) مجاهد بن بن يوسف: من فحول الموالي العامريين، رباه المنصور بن أبي عامر، استقل بدانية وملك ميورقة ومنورقة ويابسة (ت 436 هـــ = 1044 م) (ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص211).

٧ ) المراكشي: المعجب، ص74.

ويمكن القول أن أشكال الاحتكاك بين المسلمين والنصارى، لم تقتصر على الزواج والمصاهرة فحسب، بل اتسع نطاق الاختلاط بين الطرفين ليشمل احتكاك التجار العرب والحجاج النصارى من شمال الأندلس بالحجاج النصارى الأوروبيين، ويضاف إلى ذلك احتكاك أهل الأندلس بسيل من الفرسان، والتجار، ورجال الدين القادمين من المدن الأوروبية المختلفة سنوياً(١).

وتعد شريحة الأدباء في الأندلس من أكثر الشرائح تعاملاً مع النصارى واحتكاكاً بهم، مما أتاح لها التعرف على بيئة النصارى وسبر أغوارها، وإنما يعود الفضل في ذلك إلى استمرار المعاشرة بين الأدباء المسلمين وعناصر المجتمع النصراني(٢).

ومن الطبيعي أن الاحتكاك يؤدي إلى حدوث بعض المشاكل، لذلك كان يقع في بعض الأحيان خلافات بين المسلمين والنصارى، وبالرغم من وجود بعض الخلافات والمشاكل فقد كانت روح التسامح هي الروح السائدة بين الطرفين(٣)، وعند الفصل في المنازعات كان الحق غالباً يعطى للنصراني، في إظهارٍ لروح التسامح من قبل المسلمين(٤).

ويشير حسن الوراكلي إلى أن احتكاك المسلمين بالنصارى كان على شكلين:

الأول: ما كان قائماً في دار الإسلام، بمعنى النصارى الذين ظلوا على معتقداتهم، وفضلوا العيش في كنف المسلمين، وهم الذين عرفوا بالمستعربين.

والآخر: المجاوَرَة الحدودية بين الدولة الإسلامية ومن جاورها من النصارى في مناطق الثغور والحدود(٥).

وعلى العكس من كون النصارى هم الذين عاشوا في كنف المسلمين، فقد وُجد مسلمون يعيشون في ظل الحكم النصراني، وهم الذين عرفوا بالمدجنين، وكانوا بعد سقوط المدن الأندلسية يفضلون البقاء في مدنهم تحت حكم النصارى على أن يغادروا بيوتهم، وبرزت هذه الظاهرة خلال وقبل حكم الموحدين للأندلس(٦).

ولعل أغرب اختلاط في هذا الجانب بين المسلمين والنصارى في الأندلس، ما وقع في عصر الطوائف حيث استعانت بعض الممالك الإسلامية بجنود من النصارى عملوا في جيوشها، كما خدم بعض الجنود المسلمين في جيوش النصارى(٧).

---

١ ) هونكه: شمس العرب، ص532.

٢ ) الوراكلي: ياقوتة الأندلس، ص132.

٣ ) كحيلة: العقد الثمين، ص345-346.

٤ ) علي، كرد: غابر الأندلس وحاضرها، مصر، المطبعة الرحمانية، ط1، 1341هـ=1923م، ص38.

٥ ) الوراكلي: ياقوتة الأندلس، ص132.

٦ ) أبو رميلة، هشام: علاقات الموحدين بالممالك النصرانية، دار الفرقان، نابلس، ص356-357.

٧ ) كحيلة: الخصوصية الأندلسية، ص30.

ويجدر القول أن الأندلس عند فتحها لم تكن تحوي النصارى فقط، بل كان بها أعداد كبيرة من اليهود، ويتأكد ذلك من أن موسى بن نصير عندما فتح مدينة إشبيلية أسكن بها اليهود(١).
ومن المهم الإشارة إلى أن العلاقة بين اليهود وبين المسلمين في الأندلس كانت علاقة طيبة يسودها التسامح، فقد سمح لليهود بتملك الأرض، وبالعمل في التجارة، كما شارك اليهود في الحياة الثقافية في عصر الخلافة وما تلاه من عصور(٢).

كما أن بعض اليهود تسنموا مناصب مهمة وحساسة في الدولة الإسلامية، تمكنهم من معرفة دقائق الأمور فيها، فقد وقع اختيار الخليفة عبد الرحمن الثالث (300-350هـ=912-961م) على اليهودي حسداي بن شبروط(٣) ليكون طبيبه الخاص(٤)، ويبدو أن حسداي إضافة لكونه طبيباً حاذقاً، كان كذلك بارعاً في السياسة، فبلغت ثقة الناصر به أوجها عندما اختاره لمهمة حساسة بتوليته مهمة دبلوماسية، فقد أرسله في سفارة إلى أردون بن ردمير ملك جليقية(٥)، كما أنه أنه مثل الدولة الإسلامية ولمَّا يكن يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره بعد(٦)، عندما أرسله الناصر إلى نفارة لعلاج شانجة حفيد طوطة(٧) التي أدارت دفة الحكم في نفارة، وهناك طلب حسداي من شانجة باسم الخليفة أن يتخلى له عن عشر قلاع مقابل علاجه، فوعده شانجة بذلك بمجرد توليه الحكم(٨)، كما أن الحكم استعان بحسداي بن شبروط في تصريف بعض شئون شئون الحكم(٩)، وهذا يؤكد أهمية المكانة الرفيعة التي تولاها بعض اليهود في الدولة مثل حسداي زمن الناصر، ولا يمكن القول أن حسداي كان مجرد طبيب للناصر، فقد طالب طوطة بأمر سياسي مهم وهو منح الناصر بعض القلاع بناءً على طلب الناصر، وكأن سفارته هذه لم

---

١ ) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج4، ص269.
٢ ) كحيلة: القطوف الدواني، ص73.
٣ ) هو حسداي الإسرائيلي، كان ذو حظوة عند عبد الرحمن الناصر، وكان له باع في ترجمة ما جُهل من أسماء العقاقير المذكورة في كتاب ديقوريدس إلى العربية (عيون الأنباء، لابن أبي أصيبعة، ص494)؛ كما أنه خدم من بعد الناصر ابنه الحكم، ونال عنده نهاية الحظوة (م.ن، ص498).
٤ ) ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج3، مج4، ص51.
٥ ) ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص221.
٦ ) ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج3، مج4، ص51.
٧ ) أشار المقري إلى أن غرسية بن شانجة هو ملك البشكنس، وأنه توفي في حياة أمه، ولذلك فقد قامت هي بالحكم، كافلة لولده، ولم يذكر المقري اسم هذا الولد، ويبدو أنه يدعى شانجة ( نفح الطيب، ج1، ص365).
٨ ) دوزي، رينهرت: المسلمون في الأندلس، ترجمة: حسن حبشي، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1414هـ=1994م، ج2، ص52-53.
٩ ) ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج2، مج4، ص285.

تكن بقصد العلاج لشانجة فقط، بل كان من ورائها مآرب أخرى، وهي مآرب سياسية هدفها تحقيق إنجاز سياسي.

وكان من أصحاب المكانة من يهود الأندلس أبو الفضل يوسف بن حسداي اليهودي، والذي عمل وزيراً بسرقسطة([1])، وقد خدم الدولة زمن ابن هود (438-447هـ=1046-1081م)، وأجاد العربية، وبلغ الغاية في البلاغة، والشعر، والأدب([2])، حتى انتهى به الأمر إلى الإسلام بسبب حبه لجارية مسلمة قام سيدها بإهدائها إليه([3])، وهذا الأمر يشير إلى مدى عمق العلاقة بين المسلمين في الأندلس وغيرهم، وانفتاح فئات المجتمع على بعضها، مما مهد السبيل لوصول بعض أهل الذمة لمواقع متقدمة في السلطة، وحتى اعتناق الإسلام، بغية الزواج من مسلمات.

كما عرف من بين اليهود الذين خدموا الحكام المسلمين في الأندلس، إسحق بن قسطار (ت 448هـ=1056م) الذي خدم مجاهد العامري([4])، صاحب دانية وهو أحد ملوك الطوائف، والذي يرجع نسبه إلى أصل رومي([5])، كما خدم ابنه علياً الملقب بإقبال الدولة([6]).

ويبدو أن أمر اختيار وزير من أصل يهودي كان سائداً زمن ملوك الطوائف، فإن ملك غرناطة باديس بن حبوس (ت465هـ=1074م) قام بتعيين وزيراً يهودياً في دولته، هو إسماعيل بن يوسف بن نغرلة – الاسم العربي– ([7])، وهو حاخام يهودي يدعى عند اليهود صمويل هليفي (Samuel Halevi)([8])، والذي كان سبباً في نكبة يهود غرناطة على يد الصنهاجيين، بسبب استهزائه بالقرآن الكريم([9])، وبالرغم من انتقاد بعض العلماء كأبي إسحاق الألبيري([10]) لابن

---

١ ) السلفي: أخبار وتراجم أندلسية، ص129.

٢ ) ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص457.

٣ ) ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص457؛ المقري: نفح الطيب، ج3، ص401.

٤ ) ابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الجزري: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت.ط، ج1، ص498.

٥ ) المراكشي: المعجب، ص74.

٦ ) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص498؛ وفي ترجمة ابن أبي أصيبعة لإسحاق بن قسطار أشار إلى أنه يهودي، عالماً بالطب، والمنطق، والفلسفة، والعبرانية ( م.ن: ص498).

٧ ) ابن سعيد: المغرب، ج2، ص114.

٨ ) ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج2، مج4، ص290.

٩ ) ابن سعيد: المغرب، ج2، ص114.

١٠ ) هو أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود، كان عالماً مشهوراً بالصلاح، في غرناطة ( ابن سعيد: المغرب، ج2، ص132).

حبوس على استوزاره ابن نغرلة([1])، فقد رفض ابن حبوس هذه الانتقادات وقام بنفي أبي إسحاق إسحاق إلى إلبيرة([2])، مما دفع أبو إسحاق لنظم أبيات تظهر مدى الغضاضة التي وقعت في نفسه، جراء بلوغ اليهود تلك المناصب الرفيعة في الدولة فقال فيها:

| | |
|---|---|
| ألا قل لصنهاجة أجمعين | بدور الزمان وأسد العرين |
| لقـد زل سيـدكم زلـة | أقر بها أعـين الشامتيـن |
| تخـير كاتبـه كافـراً | ولو شاء كان من المسلمين |
| فعـز اليهود به وانتخوا | وكانوا من العترة الأرذلين |

وكان لهذه الأبيات الأثر الكبير في استثارة المسلمين، ونكبة اليهود([3])، وكانت خاتمة ابن نغرلة نغرلة القتل عام (459هـ=1067م)([4]).

وتشير بعض المصادر إلى وجود مناطق خاصة باليهود داخل المدن الإسلامية، ويفهم ذلك من حديث ابن الفرضي عن التابعي حنش بن عبد الله([5])، الذي دخل الأندلس ومات بها، ودفن غربي مدينة سرقسطة عند باب اليهود([6]).

وعند حديث ديورانت عن عمق العلاقة بين مسلمي الأندلس ويهودها؛ يذكر أن اليهود في العهد الإسلامي انتشروا في جميع ميادين الحياة، من صناعة وزراعة ومال، واتبعوا عادات العرب، ولبسوا أزياءهم كالعمامة، والأثواب الحريرية الفضفاضة، وتحدثوا بلغتهم، وركبوا العربات، حتى غدا من العسير على الإنسان أن يميز بين من هو يهودي أو مسلم من أهل الأندلس، مما

---

[1] ) ذكره ابن خلدون بابن نغزلة ( تاريخ ابن خلدون، ج4، ص206)؛ وذكره المقري بابن نغدلة ( نفح الطيب، ج4، ص322)؛ واتفق معه الخالدي، إذ رجح تسميته بابن نغدلة، أو ابن نغدال (الخالدي: اليهود تحت حكم المسلمين في الأندلس، ص152-153).

[2] ) ابن سعيد: ج2، ص132-133.

[3] ) الإلبيري: أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبي، تحقيق محمد رضوان الداية، دمشق، دار قتيبة، ط2، 1401هـ=1981م، ص89؛ ابن سعيد: ج2، ص132-133؛ المقري: نفح الطيب، ج4، ص322.

[4] ) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج4، ص206.

[5] ) هو أبو رشدين حنش بن عبد الله الصنعاني، من اليمن، وهو أحد التابعين ( بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي الكندي: السلوك في طبقات العلماء والملوك، ، تحقيق محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي، صنعاء، مكتبة الإرشاد، 1995م، ص113).

[6] ) ابن الفرضي: تاريخ العلماء بالأندلس، ج1، ص151.

يشير إلى متانة في العلاقة بين الجانبين([1])، وهنا يمكن التأكيد بأن التأثير والتأثر كان متبادلاً بين كلا الجانبين.

إن هذا الاختلاط بين يهود الأندلس والمسلمين فيها ساعدهم على إتقان اللغة العربية، والاشتغال بعلومها، حتى أن بعضهم نظم الشعر العربي الجميل، كإبراهيم بن سهل الإسرائيلي الأشبيلي (ت: 649هـ=1251م) الذي نظم أشعاراً توجيهية باصطلاح النحاة، كقوله:

رفعتْ عواملهْ وأحسبُ رتبتي ... بُنيتْ على خفضٍ فلن تتغيرا

وقوله:

تنأى وتدنو والتفاتُكَ واحدٌ ... كالفعل يعمل ظاهراً ومقدراً

وقوله:

إذا كان نَصْرُ الله وقفاً عليكمُ ... فإنَّ العدا التنوين يحذفه الوقفُ([2]).

واستدل المقري من حياة أبي إسحاق إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الإشبيلي (ت649هـ=1251م) وإجادته للشعر العربي قبل إسلامه، بأن يهود الأندلس كانوا يشتغلون بعلم العربية([3])، بمعنى أن اختلاط اليهود بالمسلمين، أفرزت علماً ودراية من اليهود باللغة العربية.

أما بالنسبة للزواج من يهوديات، فيشير خالد الخالدي إلى عدم وجود هذا النوع من الزواج، مرجعاً السبب في ذلك إلى أن الشريعة اليهودية تحرم زواج نساء يهوديات برجال غير يهود([4]).

يهود([4]).

ومن المؤكد أن الاحتكاك في الأندلس لم يقتصر على اليهود والنصارى، لأن الأندلس بلد مفتوح لا تعيق الحدودُ القادمين إليه، وهو ما أتاح الفرصة لحكام المسلمين ليسهموا في إدخال عناصر غير عربية للأندلس، ويستخلص ذلك من كلام ابن أبي زرع عند حديثه عن يوسف بن تاشفين وإدخاله لعنصر الأغزاز([5]) في جيشه سنة (454هـ=1062م)([1])، ومن المعلوم أن يوسف جاز

---

١ ) قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج3، مج4، ص51.

٢ ) المقري: نفح الطيب، ج3، ص525؛ لمزيد من الأشعار لابن سهل المصدر نفسه.

٣ ) المقري: نفح الطيب، ج3، ص525.

٤ ) اليهود تحت حكم المسلمين في الأندلس، ص 230.

٥ ) الأغزاز: يسمون أغز، و آغز وغز والغز جنس تركي ( الخطيب، مصطفى عبد الكريم: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1416هـ=1996م، ص35.

جاز بجيشه إلى الأندلس مرات عدة، الأول منها سنة (479هـ=1086م)، أما الجواز الثاني فكان عام (486هـ=1093م) والجواز الثالث كان سنة (490هـ=1097م)، وله جواز رابع سنة (497هـ=1104م)(٢)، مما يؤكد دخول هذه العناصر غير العربية للأندلس ضمن جيش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

ولم يكن اختلاط المسلمين بغيرهم من العجم يقتصر على المجاورة الحسنة والتعايش الاجتماعي كما سبق ذكره، بل إن المسلمين احتكوا بالأمم الأخرى عن طريق نسج علاقات دبلوماسية دولية، فتبادل المسلمون السفارات في الأندلس زمن الخليفة عبد الرحمن بن الحكم "الأوسط" مع إمبراطور القسطنطينية، ويذكر في ذلك المقري أن إمبراطور القسطنطينية أرسل سفارة ومعها هدية إلى عبد الرحمن، فرد عبد الرحمن على هذه السفارة بسفارة إلى القسطنطينية ترأسها يحيى الغزال(٣)(٤).

ويشير قصي الحسين إلى استمرار العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس والقسطنطينية، التي بلغت أوجها في عهد كل من إمبراطور القسطنطينية قسطنطين السابع، والخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر(٥)، ولذلك أرسل الإمبراطور سفارة من عاصمته إلى الخليفة الناصر، فاحتفل بها الناصر احتفالاً مشهوداً، وأحسن وفادة السفارة على خير ما يكون، فاستقبلها بالعساكر المسلحة، والزي العسكري الكامل، كما زين القصر بأنواع الزينة، والستائر، وجمّل عرش الخلافة بمقاعد الأبناء، والأخوة، والأعمام، والأقارب، والوزراء، حتى أن الرسل عند دخولهم هالهم ما رأوا من عظمة وأبهة(٦)، فوقعت قرطبة موقع الإعجاب من نفوسهم(٧)، وتبدو هذه التقاليد الدبلوماسية غاية في الترف ولعلها كانت ناجمة عن احتكاك المسلمين بغيرهم من النصارى.

---

١ ) ابن أبي زرع، أحمد بن عمر الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس: الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972م، ص139.

٢ ) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج6، ص249-250.

٣ ) هو يحيي بن حكم الغزال، شاعر أديب حكيم استخدمه عبد الرحمن الأوسط كسفير في بعض سفاراته ( المغرب، لابن سعيد،ج2، ص57).

٤ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص346.

٥ ) الحسين، قصي: من معالم الحضارة العربية الإسلامية، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1414هـ=1993م، ص187.

٦ ) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج4، ص183.

٧ ) الحسين: من معالم الحضارة العربية، ص187.

ولم تكن وجهة سفراء الناصر تقتصر على القسطنطينية وحدها، بل لقد تبادل السفارات مع هوتو الأول ملك الصقالبة وهو آخر من ملك من اللمان([1])، وتمتعت سفارة هوتو القادمة للناصر بحفاوة بالغة لدى قدومها([2]).

ولعل هذا الاحتكاك بين المسلمين وغيرهم، سواء كان على المستوى الاجتماعي، أو السياسي، أو حتى العسكري، قد ترك آثاراً اجتماعية متبادلة بين المسلمين وغير المسلمين، ولا يمكن الجزم بأن غير المسلمين وحدهم من تأثروا بهذا الاختلاط، فالتأثير قطعاً متبادل بين الطرفين.

---

١ ) ذكره المقري بملك الألمان ( نفح الطيب، ج1، ص365).

٢ ) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص183.

## المبحث الخامس

## تشبه حكام الأندلس بالخلفاء والملوك ومنافستهم

يرى ابن خلدون أن البشر يأخذون المعارف والأخلاق وما ينتحلونه من المذاهب والفضائل عن طريق التعلم حيناً، وعن طريق المحاكاة حيناً آخر([١])، وهنا يمكن القول أن تشبه الإنسان بمن هو أرقى منه مكانة يعد مصدراً من المصادر التي يتعلم من خلالها العلوم والأخلاق، وهذا ما ينطبق على طبقة الفئة الحاكمة في أي زمان ومكان.

وبالنسبة للأندلس فإن الطبقة الحاكمة عملت على محاكاة غيرها من الحكام، وخصوصاً حكام المشرق الإسلامي، غير أنه من الظاهر أن هذا الأمر لم يكن موجوداً عند قادة الفتح الإسلامي، فلم يكن ثمة مجال يستطيع الأمير من خلاله أن يتخذ ألقاباً تشير إلى الفخامة والأبهة، ويعود السبب في ذلك إلى أن الأندلس عند الفتح كانت تخضع في تعيين الأمير فيها إلى والي أفريقية، والذي كان يتم تعيينه من قبل الخليفة الأموي آنذاك([٢]).

ومع نشوء الإمارة الأموية في الأندلس، بدأت تظهر علامات الأبهة، عندما عملت على منافسة سلطان الدولة العباسية في بغداد حضارياً، وعلمياً، وثقافياً، حتى غدت محجاً للعلماء وطلاب العلم من جميع أنحاء العالم([٣]).

وأخذ الأمويون يخطبون لأنفسهم باسم أبناء الخلفاء، ثم بالخلفاء، ويشير صاحب نفح الطيب إلى ذلك بقوله: "وكانوا صدراً من دولتهم يخطبون لأنفسهم بأبناء الخلائف، ثم خطبوا لأنفسهم بالخلافة ...، وكانت ألقاب الأُوَل منهم، الأمراء أبناء الخلائف، ثم الخلفاء أمراء المؤمنين"([٤])، وكانوا يخرجون للناس، ويظهرون لهم في كثير من الأحيان على أبهة الخلافة([٥]).

ولذلك فإن الأمير عبد الرحمن الناصر(ت350هـ=961م) لقب نفسه بأمير المؤمنين([٦])، إذ يعد هو أول من تلقب بهذا اللقب من بني أمية في الأندلس([٧])، ويبدو أن اتخاذ اللقب بالنسبة للناصر

---

١ ) المقدمة، ج1، ص541.

٢ ) تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية، ص37-39.

٣ ) الحسين، من معالم الحضارة العربية، ص182-183.

٤ ) المقري: ج1، ص213.

٥ ) م.ن: ج1، ص214.

٦ ) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج1، ص198.

٧ ) ابن كثير: البداية والنهاية، ج11، ص238؛ الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج2 ص293 ؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج7، ص270.

لم يكن فقط من باب منافسة خلفاء بني العباس في بغداد، وإنما كان أيضاً تشبهاً بأجداده الأمويين الذين حكموا المشرق، ومن الطبيعي لمن أتى بعد الناصر من الأمويين أن يتخذ لقب الخليفة أمير المؤمنين، سيراً على خطى الناصر، فلما ولي بعده ابنه الحكم تلقب بالمستنصر(١) ودُعي أمير المؤمنين(٢)، والواضح أن اتخاذ الناصر لهذا اللقب كان الخطوة الأولى نحو العظمة والأبهة في التنافس على الألقاب في الأندلس.

وليس غريباً أن يتخذ الناصر وخلفاؤه من بعده هذه الألقاب، تشبهاً بأجدادهم، فهذا ما فعله من قبله جده السابع(٣) الأمير عبد الرحمن بن معاوية (ت172هـ=788م) عندما قام ببناء مدينة الرصافة في قرطبة، متشبها في ذلك بجده هشام بن عبد الملك، الذي بنى مدينة الرصافة بالشام(٤).

وكان من مظاهر إمعان الناصر في التأنق في الحكم، اتخاذ وزير له، هو أحمد بن عبد الملك بن شُهيد(٥) الحاجب(٦)، ولقّبه بذي الوزارتين، وهو أول من عرف في الأندلس بهذا اللقب، وقد لقبه لقبه الناصر بذلك محاكاة لصاعد بن مخلد(٧) وزير بني العباس، والذي كان يلقب بذي الوزارتين، وسبب التسمية هدية ثمينة، قدمها الوزير ابن شُهَيد للناصر سنة (327هـ=939م)(٨).

---

١ ) الحميدي، أبو محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1417هـ=1997م، ص19.

٢ ) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج1، ص198.

٣ ) عبد الرحمن الناصر: بن محمد بن الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط بن الحكم الربضي بن هشام الرضي بن عبد الرحمن الداخل (ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي: كتاب التكملة لكتاب الصلة، ، تحقيق عبد السلام الهراس، لبنان، دار الفكر للطباعة، 1415هـ=1995م، ج1، ص226).

٤ ) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص280؛ الحموي: معجم البلدان، ج3، ص48.

٥ ) شُهيد: بضم الشين وفتح الهاء، ( كتاب الإكمال لابن ماكولا، ج5، ص90)، وهو من علماء الأدب والشعر والبلاغة، وله كتب عدة منها الجدي والهزلي، وله كتاب حانوت العطار ( جذوة المقتبس، للحميدي، ص118).

٦ ) ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسي الإشبيلي: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق محمد علي شوابكة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1983م، ص166.

٧ ) صاعد بن مخلد: كاتب، كان نصرانياً، ثم أسلم، وعمل كاتباً لمحمد بن جعفر المتوكل، وفي عهد أخيه المعتمد تولى الوزارة، توفي عام (276هـ=889م) ( الوافي بالوفيات، للصفدي، ج16، ص136-137).

٨ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص356.

ومع تفكك الخلافة الأموية في الأندلس، انقسمت الأندلس إلى دويلات ممزقة([1])، وتغلب ملوك الطوائف في الأندلس، كل واحد منهم على قطر من أقطارها، وأخذ كل منهم يتلقب بلقب يميزه عن غيره، ويشير إلى العظمة والأبهة التي يتمتع بها، فمنهم من تسمى بالمأمون، ومنهم من تسمى بالمعتصم، وآخر بالمتوكل([2])، وبعضهم تسمى بالملك، وثان بالأمير، وآخر بالوالي، وغيره بالقاضي([3]). وغيره بالمعتضد، والمستعين، والمقتدر، والمعتمد، والموفق، والمتوكل([4])، والمتوكل([4])، وقد أشار ابن الأبار، والمراكشي لمثل هذه الألقاب بشيء من النقد المبطن، وقد استخدما التلميح في النقد، باستخدام مصطلح "الألقاب الخلافية"([5]).

ولعل صاحب نفح الطيب يتفق في هذه المسألة مع المؤرخَيْن السابقين بقوله: "وصار ملوك الطوائف يتباهون في أحوال الملك حتى في الألقاب، فآل أمرهم إلى أن تلقبوا بنعوت الخلفاء، وترفعوا إلى طبقات السلطنة العظمى، وذلك بما في جزيرتهم من أسباب الترفه، والضخامة التي تتوزع على ملوك شتى، فتكفيهم وتنهض بهم للمباهاة"([6]).

لقد كان لاتخاذ حكام الأندلس من بني أمية الألقاب الفخمة تأثير واضح على من حكم الأندلس من بعدهم، فقد كسروا حاجزي الهيبة والجلال، الذَيْنِ كانا يكسوان لقب الخلافة، حتى أصبح يتسمى بهذا اللقب كل من سيطر على مدينة في الأندلس.

فبنو حمود([7]) الذين ينتسبون لإدريس العلوي، توثبوا على الخلافة أثناء الدولة المروانية، وبدءوا وبدءوا في التعاظم، وأخذوا في التسمي بما تسمى به خلفاء بني العباس([8])، فتسمى عليّ بن حمود([9])الخليفة في قرطبة([1])، وتلقب بالناصر، وقتل عام (408هــ=1018م) على يد غلمانه

---

[1]) الصلابي، علي محمد محمد: دولة المرابطين، المنصورة، مكتبة الإيمان، ط1، ص105.

[2] ) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج17، ص144.

[3]) الصلابي: دولة المرابطين، ص105.

[4] ) المراكشي: المعجب، ج1، ص70.

[5] ) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج2، ص81؛ المراكشي: المعجب، ج1، ص70.

[6] ) المقري: ج1، ص213.

[7] ) بنو حمود: علويون من نسل أدارسة المغرب حكموا مالقة والجزيرة الخضراء ما بين عامي (404هــ-449=1013-1057م)، ( كتاب محاضرات في تاريخ الدويلات الإسلامية، لصلاح العاوور وعصام سيسالم، غزة، مكتبة المنارة، ط1، 1418هــ=1997م، ص439.

[8] ) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج2، ص26.

[9] ) هو الناصر لدين الله أبو الحسن علي بن حمود بن ميمون بن حمود بن علي بن عبد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب، وهو أول ملوك بني هاشم في الأندلس ( أعمال الأعلام، لابن الخطيب، ص128)؛ وقد أشار ابن خلدون إلى أن علياً وأخاه قاسم تمكنا من السيطرة على الحكم بالاستعانة بالبربر، ومحوا ملك بني أمية، وقاموا بقتل المستعين سنة (407هــ=1016م) (

غلمانه

الصقالبة في الحمام([2])، أما ابنه يحيى فإنه لما تولى الحكم أيضاً تسمى بالخليفة، وتلقب بالمعتلي، وكان ذلك عام (413هـــ=1022)([3]).

وكان خلفاء بني حمود يحاكون الخلفاء باتخاذ الحُجّاب، كما استقبلوا في بلاطهم الشعراء والمدَّاحين، وعند حضور المداحين والمنشدين، أو أي شخص يريد مخاطبتهم، يكلموهم من وراء حجاب، والحاجب واقف عند الستار، يجيب كما يسمع من الخليفة، وكان من مشاهير ملوكهم إدريس بن يحيى الحمودي (ت447هـــ=1055م)، وقد لقب بالعالي([4])، وخطب له بالخلافة في مالقة، وعندما جاءه ابن مقانا الأشبوني([5]) تملقه بقصيدته النونية الشهيرة كما يتملق الشعراءُ الخلفاءَ، مادحاً إياه بقوله:

وكأن الشمس لما أشرقت فانثنت عنها عيون الناظرين

وجه إدريس بن يحيى بن علي بن حمود أمير المؤمنين

حتى بلغ النفاق منتهاه في قوله:

انظرونا نقتبس من نوركم إنه من نور رب العالمين([6]).

وهذا الأمر ينطبق على مبارك (ت408هـــ=1018م) ومظفر([7])، وهما حاكمان من ملوك الطوائف، ملكا مدينة بلنسية، وسلكا "سبيل الملوك الجبارين في إشادة البناء، والقصور، والتناهي في عليات الأمور إلى أبعد الغايات، ومنتهي النهايات، بما أبقيا شأنهما حديثاً لما

---

تاريخ ابن خلدون، ج4، ص195).

١) ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك الخزرجي الأنصاري: الصلة، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، دار الكتاب المصري، ج2، ط1، 1410هـــ=1989م، ص482.

٢) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج21، ص54.

٣) ابن ماكولا: الإكمال، ج7، ص209.

٤) ابن الأبار: الحلة السيراء ج:2 ص:26

٥) هو أبو زيد عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني القبذاقي، وهو شاعر مشهور ة سافر إلى مالقة ومدح بها الخليفة إدريس بن يحيى علي بن حمود الفاطمي (ابن سعيد: المغرب، ج1، ص413).

٦) المقري: نفح الطيب، ج1، 214.

٧) هما عبدان لابن أبي عامر، وقد بلغا غاية تحدثت بها المشارق والمغارب، وقد غرّتهم المكانة التي وصلوا إليها، فألهتهم عن سنة الله في أمثالهم، وقد وليا وكالة الساقية ببلنسية، ثم عُزلا عنها، فدخلا على الوزير عبد الرحمن بن يسار عام (401هـــ=1010م) وطلبوا منه العفو وإعادتهم لعملهم، ففعل (ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص13-15)، ولم أجد لمظفر تاريخ وفاة فيما بين يدي من مصادر.

بعدهما، واشتمل هذا الرأي أيضاً على جميع أصحابهما، ومن تعلق بهما من وزرائهما وكتابهما، فاحتذوا فعلهما في تفخيم البناء فهاموا منه في ترهات(١) مضلة"(٢).

أما أبو الحسن يحيى بن ذي النون، المتلقب بالألقاب السلطانية(٣)، والذي ملك طليطلة – وسط الأندلس– عام(435هـ=1043م) فإنه يعد من أقدم ملوك الطوائف بالأندلس، رياسة وشرفاً، وتلقب بالمأمون(٤)، والقادر بالله(٥).

وكان من ملوك الطوائف أصحاب الألقاب التي حاكوا فيها الملوك والخلفاء ابن الأفطس(ت437هـ=1045م)(٦)، الذي تلقب بالمظفر، فيما اتخذ ابنه عمر لقب المتوكل على الله، وكان يملك بطليوس وأعمالها– الأجزاء الغربية من الأندلس– ويابرة(٧) وشنترين(٨) والأشبونة(٩)(١٠)، واتخذوا لأنفسهم وزراء، كان من أشهرهم ذو الوزارتين أبو الوليد بن الحضرمي وزير المتوكل بن الأفطس، الذي عزله بسبب تجبره(١١).

ومن ملوك الطوائف كذلك بنو هود الذين ملكوا طرطوشة(١٢) وأعمالها وسرقسطة وأعمالها وأفراغة(١٣) ولاردة(١٤) وقلعة أيوب(١٥) – الأجزاء الشرقية من الأندلس– وهؤلاء

---

١ ) التُّرهة: فارسية معربة وتجمع على تُرَّهات وهي الأباطيل ( ابن منظور: لسان العرب، ج13، ص480).

٢ ) ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص17.

٣ ) م.ن: ج5، ص92.

٤ ) المراكشي: المعجب، ص:72.

٥ ) ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص92.

٦ ) أشار المراكشي في المعجب إلى أنه نسي اسم ابن الأفطس (ص74)؛ وهو عبد الله بن محمد بن مسلمة التجيبي أبو محمد، المعروف بابن الافطس صاحب بطليوس (ت437 هـ = 1045 م)، (الزركلي: الأعلام، ج4، ص121.

٧ ) يَابُرَة: مدينة قديمة من كور باجة الاندلس ( الحميري: الروض المعطار، ص615).

٨ ) شنترين: مدينة متصلة الأعمال بأعمال باجة في غربي الأندلس، ثم غربي قرطبة، وعلى نهر تاجه قريب من انصبابه في البحر المحيط، وهي حصينة، ( الحموي: معجم البلدان، ج3، ص367).

٩ ) الأشبونة: مدينة بغربي باجة، وهي مدينة قديمة على سيف البحر تتكسر أمواجه على سورها ( الحميري: الروض المعطار، ص61).

١٠ ) المراكشي: المعجب، ص74-75.

١١ ) ابن سعيد: المغرب، ج1، ص365.

١٢ ) مبنية على سفح جبل قريبة من بلنسية، وبينها وبين بلنسية أربعة أيامو ولها سور من بناء الأمويون (الحميري: الروض المعطار، ص391).

١٣ ) إفراغة: تقع غربي لاردة بالأندلس بينهما 18 ميلاً (الحميري: الروض المعطار، ص 48).

١٤ ) لاردة: مدينة تقع شرقي قرطبة تتصل أعمالها بأعمال طركونة ( الحموي: معجم البلدان، ج5، ص7).

١٥ ) قريبة من مدينة سالم، كما أنها قريبة من مدينة دروقة ( الحميري: الروض المعطار، ص469).

الملوك لم يقصروا في اتخاذ الألقاب الفخمة الدالة على عظمة الملك، فسليمان بن هود (ت441هـ=1046م) تلقب بالمؤتمن[١]، وتلقب ابنه بالمقتدر وتلقب ابنه بالمستعين[٢].

ولعل الصورة التي رسمها ابن بسام لدعوة الطعام التي دعا لها المأمون بن ذي النون[٣] النون[٣] أحد ملوك الطوائف، أبلغ دليل على تشبه هؤلاء الملوك بكبار الخلفاء في المراسم الخاصة ببلاطهم بقوله: "احتفل المأمون ابن ذي النون في مدعاة[٤] إعذار[٥] حفيده يحيى، فحشد فحشد أمراء البلاد، وجملة الوزراء، والقواد... وقد رسم لخدمته في توسيع مشارب هذا الإعذار، وإرغاد موائده، وتكميل وظائفه، وإذكاء مطابخه، رسوماً انتهوا فيها إلى حده، وشقق عليها جيوب أكياسه، وأمر بالاستكثار من الطهاة والإتآق[٦] للقدور، والإتراع[٧] للجفان[٨]... للجفان[٨]... ولما بكرت أفواج علية الناس إلى باب القصر مستبقين، وغشيته زمرهم وزرافاتهم وزرافاتهم مبتدرين، أنزلوا عن دوابهم عند باب المنصب الأول، فأذن لهم بالدخول على مراتبهم، فمشوا وقد حفهم سراة[٩] الصقلب الخصيان، وخواص الحشم والغلمان...، فلما استقر استقر فيه جمعهم خرجت تسمية من الأمير المأمون، بإدخال القضاة، والفقهاء، والعدول، ومن يليهم من كبار الناس...، ثم وصلوا إلى مجلس قد فرش بالديباج التستري المرقوم بالذهب، وسدلت فوق حناياه ستور من جنسه تكاد تلتمع الأبصار بنصاعة ألوانها وإشراق عقيانها، وقد جلس لهم الأمير المأمون في جانب منه، وحفيده في جانب آخر، فأكب الناس عليه يهنئونه، ويلثمون أطرافه ...، وهو يشملهم بإقبال طرفه، ويعمهم بإجمال رده، فيثنون منه إلى حفيده"[١٠].

---

١ ) ذكره ابن الأبار بلقب آخر بقوله: "وأول ملوكهم أبو أيوب سليمان بن محمد المتلقب من الألقاب السلطانية بالمستعين بالله"، الحلة السيراء، ج2، ص246.

٢ ) المراكشي: المعجب، ص70-71.

٣ ) المأمون: هو ملك طليطلة أبو زكريا، يحيى بن صاحب طليطلة الأمير إسماعيل بن عبد الرحمن بن عامر بن ذي النون الهواري، الاندلسي، استولى أبوه على البلد بعد عام (420هـ=1029م)، وتملك المأمون بعد أبيه سنة (435هـ=1043م) وامتد حكمه خمس وعشرين سنة، وهو من أهل اللذات والخلاعة (الذهبي: سير، ج18، ص220).

٤ ) مدعاة: الدعوة للطعام، ( الرازي: مختار الصحاح، ص86)

٥ ) الإعذار: طعام الختان، ( ابن منظور: لسان العرب، ج4، ص551).

٦ ) الإتآق: شدَّة الامْتِلاء، ( م.ن: ج10، ص31).

٧ ) ترع الإناء بمعنى امتلأ، ( الرازي: مختار الصحاح، ص32).

٨ ) الجفنة: كالقصعة، ( م.ن: ص45)

٩ ) السَّرِيُّ: الرَّئيسُ، والجمْعُ سَراةٌ ( الزبيدي: تاج العروس، ج38، ص272).

١٠ ) ابن بسام: الذخيرة، ج7، ص128-130.

ومن ملوك الطوائف أيضاً المعتضد بالله أبو عمرو عباد بن القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي (ت464هـ=1071م)، وهو صاحب إشبيلية – غرب الأندلس – التي ملكها بعد أبيه، ولقب نفسه بالمعتضد بالله[١] المنصور بفضل الله[٢]، وتلقب كذلك بأمير المؤمنين[٣].

وكان للمعتضد بالله منافساً من ملوك الطوائف هو صاحب المرية – جنوب الأندلس – محمد بن معن بن صمادح (ت484هـ=1091م)[٤]، الذي تولى الحكم بعد أبيه ولم يكن قد بلغ آنذاك الثامنة عشرة من عمره، واتخذ لنفسه لقب معز الدولة، ثم ما لبث أن استبدل هذا اللقب بلقبين آخرين في آن واحدٍ من ألقاب بني العباس، وهما المعتصم بالله، والواثق بفضل الله[٥].

ومن ملوك الطوائف كذلك عليّ بن مجاهد العامري (ت474هـ=1081م) صاحب دانية – شرق الأندلس–، ملكها بعد أبيه ولقب نفسه بالموفق[٦]، وإقبال الدولة[٧].

ومن الجدير ذكره بأن مظاهر الحكم والملك التي تبارى فيها ملوك الأندلس وحكامها بهرت عامة الناس وسفهائهم، فكانت كقول الشاعر:

أمورٌ يضحكُ السفهاءُ منها ويبكي من عواقِبها الحليمُ[٨]

وهذا ما أثار قرائح الشعراء لتنتقد هذه الحالة المتردية للأندلس، فقام بعض الشعراء بنظم أبيات تهجو واقع ملوك الطوائف، كالشاعر ابن رشيق القيرواني[٩] الذي أنشد شعراً يقول يقول فيه:

---

١ ) الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، لبنان، دار الكتاب العربي، ط1، 1407هـ=1987م، ج31، ص148.

٢ ) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج:2 ص:81.

٣ ) ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي: شذرات الذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، دمشق، دار ابن كثير، ط1، 1406هـ، ج3، ص316.

٤ ) هو أبو يحيى محمد بن معن بن محمد بن أحمد بن صمادح، التجيبي، صاحب المرية وبجاية، وكان جده محمد بن أحمد بن صمادح صاحب مدينة وشقة وأعمالها، وذلك في أيام المؤيد هشام بن الحكم الأموي (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص39).

٥ ) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج2، ص81.

٦ ) المراكشي: المعجب، ص74.

٧ ) ابن عبد الملك، أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري الأوسي المراكشي: السفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ط1، 1965م، ج1، ص205؛ ابن الأبار، التكملة، ج1، ص168؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ج:4 ص:211.

٨ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص215.

٩ ) ابن رشيق القيرواني: أحد البلغاء الشعراء الأفاضل، ولد بالمسيلة "بالمغرب" وتأدب بها قليلاً، ثم ارتحل إلى القيروان سنة ستٍ وأربعمائة (ت463هـ=1071م) ( الصفدي: الوافي بالوفيات، ، ج4، ص133).

مما يزهدُني في أرضِ أندلسٍ تَلقيبُ معتضدٍ فيها ومعتمدِ
ألقابُ مملكةٍ في غيرِ موضعها كالهرِّ يحكي انتفاخاً صولة الأسدِ([1])

ولم تكن الألقاب تخص الملوك وحدهم، فقد اتخذ كبار رجالات الدولة ألقاباً سامية، تفيد بالعلو والرفعة، كلقبي الحاجب وذي الوزارتين، مما يوحي بفخامة الملك، وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله: "وأما في الدولة الأموية بالأندلس، فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة، ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دونهم، فكانت في دولتهم رفيعة غاية كما تراه في أخبارهم، كابن حديد([2]) وغيره من حجابهم، ثم لما جاء الاستبداد على الدولة اختص اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها، فكان المنصور بن أبي عامر وأبناؤه كذلك، ولما بدؤوا في مظاهر الملك وأطواره، جاء من بعدهم من ملوك الطوائف، فلم يتركوا لقبها، وكانوا يعدونه شرفاً لهم، وكان أعظمهم ملكاً بعد انتحال ألقاب الملك وأسمائه، لا بد له من ذكر الحاجب، وذي الوزارتين، يعنون به السيف والقلم، ويدلون بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة، والخاصة، وبذي الوزارتين عن جمعه لخطتي السيف والقلم"([3]).

وبالنسبة للوزارة في ظل الدولة الأموية فإنها كانت تتكون من عدد من الأشخاص، يختارهم صاحب الدولة، بهدف إعانته وطلب المشورة منهم، وكان يختار من بينهم من ينوب عنه، ويسميه الحاجب، وكان لهذا اللقب مكانة عالية، إلى أن جاء ملوك الطوائف، وأصبح منصب الحاجب من أعظم ما يُتنافس عليه ويُظفر به، وعرف من ينوب عن الملك بذي الوزارتين([4]).

فهذا الحكم والملقب بالمستنصر بالله، قد اختار جعفراً المصحفي([5]) ليتولى حجابته([6])، وبلغ به الرقي في السلطة مبلغه، حتى غدا المستنصر يسمع منه ما يشاء([7]).

---

١ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص213-214.

٢ ) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر.

٣ ) ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص240-241.

٤ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص216-217.

٥ ) هو أبو الحسن جعفر بن عثمان الوزير الحاجب، المعروف بابن المصحفى، كان من أهل العلم والأدب البارع، وله شعر كثير رائع، يدل على سعة أدبه؛ وكان الوزير الناظر في الأمور قبل المنصور محمد بن أبي عامر، ثم قوى المنصور بصبح وتعويلها عليه، وتغلب على جعفر فنكبه، ومات في تلك النكبة (الحميدي: جذوة المقتبس، ص164).

جعفر بن عثمان أبو الحسن الوزير الحاجب المعروف بابن المصحفى، كان من أهل العلم والأدب البارع، وله شعر كثير رائع، يدل على طبعه وسعة أدبه؛ وكان الوزير الناظر في الأمور قبل المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر، ثم قوى المنصور بصبح وتعويلها عليه، وتغلب فنكب جعفرا، ومات في تلك النكبة

٦ ) ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص154؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج4، ص185.

٧ ) م.ن: ص154.

ولعل منصب الحجابة الذي اعتلاه المنصور ابن أبي عامر المعافري جعله يتجرأ على المؤيد فحجبه عن الناس([1]).

فيما اتخذ سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر والملقب "بالمستعين باللّه قتل (407هـ=1016م) "له وزيراً يسمى أبو عثمان سعيد بن هارون الماردي وتلقب هذا الوزير بذي الوزارتين، وقد أهّله لقبه وموقعه في الدولة لأن يخلف سليمان بعد مقتله، فملك ما كان بيد سليمان وتوفي عام (434 وقيل 435هـ=1043-1044م)([2]).

وفي زمن الطوائف استعان ملوكها في دولتهم بوزراء لم يكونوا يختلفوا عنهم في الفكر المترف واتخاذ ألقاب لها بريق خاص، فشاع في عهدهم لقب ذي الوزارتين كثيراً، وممن اشتهر بهذا اللقب محمد بن أحمد بن باق والذي قتل عام (419هـ= 1029م) وكان والياً على مدينة سالم([3]).

وكان من حجاب الأندلس أيضاً عباد بن محمد المعتمد(ت461هـ=1069م) والملقب بسراج الدولة([4])، وكان كذلك الأمر حاكماً لقرطبة([5]) وإشبيلية([6])، وهو أحد أبناء اعتماد الرميكية([7])، الرميكية([7])، وكل منهم له لقب يشير إلى الفخامة والتشبه بالخلفاء، فعباد هذا لقب أيضاً بالمأمون، وأخوه عبيد الله لقب بالرشيد، وأخوه يزيد لقب بالراضي، والمؤتمن([8]).

أما عبد المجيد بن عبدون (ت527هـ=1133م)([9])، فقد كان وزيراً لدى بني الأفطس حكام بطليوس، واتخذ لقب ذي الوزارتين، حتى انقضاء دولتهم، وبعدها انتقل لخدمة المرابطين([10]).

---

١ ) ابن سعيد: المغرب، ج1، ص199.

٢ ) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج2، ص18.

٣ ) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج1، ص237.

٤ ) ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص418.

٥ ) القلقشندي، أحمد بن عبد الله: مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ط2، 1985م، ج2، ص9.

٦ ) الزركلي: الأعلام، ج6، ص181.

٧ ) اعتماد الرميكية: كانت سرية المعتمد، اشتراها من رميك بن حجاج، فنسبت إليه، وكان قد اشتراها في أيام أبيه المعتضد، وأفرط في الميل إليها، وغلبت عليه ( ابن العماد: شذرات الذهب، ج3، ص357).

٨ ) الزركلي: الأعلام، ج1، ص334.

٩ ) ابن عبدون المغربي: هو أبو محمد عبد المجيد بن عبد الله بن عبدون الفهري، وكان أديباً شاعراً كاتباً مترسلاً، عالماً بالخير والأثر، ومعاني الحديث. أخذ الناس عنه. وله مصنف في الانتصار لأبي عبيد الله على ابن قتيبة وهو من أهل يابره ( الصفدي: الوافي بالوفيات، ج19، ص87).

١٠ ) الزركلي: الأعلام، ج4، ص149.

ومع قدوم دولة المرابطين، وتملكها للأندلس بعد المغرب؛ اتخذ أمراؤها ألقاباً براقة تدل على المُلك، فيوسف بن تاشفين (453-500هـ=1061-1107م) الذي يعد أول أمرائها، اتخذ لنفسه لقب أمير المسلمين([1])، وقد ملك في الأندلس من مدينة أفراغة إلى آخر عمل شنترين، والأشبونة، وخطب له في المغرب والأندلس على ألف وتسعمائة منبر([2])، وبالرغم من أن يوسف بن تاشفين امتنع عن اتخاذ لقب أمير المؤمنين؛ إلا أن لقب أمير المسلمين لا يخلو من الأبهة والفخامة والسلطان.

أما في زمن ابنه علي بن يوسف بن تاشفين، فمال الحكم إلى اتخاذ مظاهر ذات طابع أسباني([3])، أسباني([3])، ويمكن عزو ذلك إلى التشبه بالأسبان، الذين كان للعرب علاقات وثيقة معهم، واتصال مباشر بهم.

فيما دولة الموحدين لم تتورع عن منافسة الدولة الإسلامية في المشرق، فقد تسمى ملوكها بالخلفاء، وقد أشار الناصري إلى اتخاذ عبد المؤمن للقب الخليفة بقوله: "ولما جاء عبد المؤمن هذا، لم يبالِ بذلك كله، واتسم بالخليفة، وتلقب بأمير المؤمنين، وتبعه على ذلك بنوه من بعده ولسان الحال ينشد:

لقد هزُلت حتى بدا من هزالها كلاها([4]) وحتى سامها([5]) كل مفلس([6])

ومن خلفاء الموحدين الخليفة يعقوب الملقب بالمنصور (ت595هـ=1199م)([7])، وقد بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه، ودعي أمير المؤمنين كأبيه وجده([8])، وهو الذي جاز إلى الأندلس مرتين أثناء مدة خلافته([9]).

أما لقب الحاجب فإن دولة الموحدين لم تكن تعرفه عند تملكها، بل اتخذت لقب وزير للكاتب الذي كان يشارك السلطان في شئونه الخاصة، ثم ما لبثت أن أعطت هذا اللقب فقط لمن يعود نسبهم إلى دولة الموحدين([10]).

---

١ ) للحق فإن الأمير يوسف بن تاشفين امتنع عن التلقب بلقب أمير المؤمنين مع أن أشياخ قبيلته وأعيان دولته طالبوه باتخاذ هذا اللقب وذلك بعد اتساع ملكه ( ابن الخطيب، محمد لسان الدين بن الخطيب: الحلل الموشية، صححه البشير الفورتي، تونس، مطبعة التقدم الإسلامية، ط1، ص16).

٢ ) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص136.

٣ ) بروفنسال، ليفي: حضارة العرب في الأندلس، ترجمة، ذوقان قرقوط، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت.ط، ص26.

٤ ) كَلَّ يَكِلُّ كَلاًّ وكَلالاً وكَلالة أَعْيا ( ابن منظور: لسان العرب، ج11، ص590).

٥ ) السَّوْمُ عَرْضُ السِّلْعَةِ على البيع (م.ن: ج12، ص314).

٦ ) الناصري: الاستقصا، ج2، ص110.

٧ ) ابن الخطيب: الحلل الموشية، ص121.

٨ ) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص3.

٩ ) ابن الخطيب: الحلل الموشية، ص121.

١٠ ) ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص241.

ويمكن القول أن اتخاذ الألقاب يعد من بين أهم الأمور التي تشبه من خلالها حكام الأندلس بغيرهم من الملوك والخلفاء، وإذا كان من إشارة في هذا الأمر فهي تتمثل في أن اتخاذ مثل هذه الألقاب له ما بعده من التأنق في الملك، من حيث اتخاذ القصور، والجواري، والحرس، واتّباع الشكليات المختلفة، التي يقتضيها هذا المنصب من أبهة وفخامة، وترف.

# الفصل الثالث

## مظاهر الترف في المجتمع الأندلسي

المبحث الأول: الترف في الطعام

المبحث الثاني: الترف في الملبس

المبحث الثالث: الترف في المسكن

المبحث الرابع: الترف في الأعراس والاحتفالات

المبحث الخامس: الترف في أماكن العبادة "المنشئات الدينية"

المبحث السادس: أدوات الترف ووسائل الترفيه

## المبحث الأول

## الترف في الطعام

يعد تحسن الطعام وتنوع أصنافه لدى أمة ما دليل قائم على حياة الترف التي تحياها هذه الأمة، وهو ما تشير إلى وجوده المصادر والمراجع عند الحديث عن بلاد الأندلس.

ويمكن القول بأن الطعام الأندلسي كان عبارة عن مزيج مختلط من التأثيرات المشرقية والبربرية والموروث الأندلسي القوطي([١])، حيث أن الأندلس جمعت هذه الأعراق الثلاثة وذلك طوال مدة بقاء المسلمين في الأندلس، فقد كان لعامل الزمن أثر على عادات الأكل عند المسلمين في الأندلس، ومع الزواج بالإسبانيات عرفت أنواع مختلفة من الأكلات الإسبانية طريقها للمائدة الإسلامية، مما كان له كبير الأثر في تسرب ألوان الترف والبذخ، خاصة عند الأمراء والخلفاء وأهل السلطة([٢]).

وكان استخدام اللحوم من خصائص الطبخ في الأندلس، كلحوم البقر( [٣])، والسمك والطيور المختلفة([٤]) والجزور([٥])([٦])، ولقد أشار ابن خلدون إلى أن الأندلسيين يتمتعون بذكاء العقول، وخفة الأجسام، وقبول التعليم، بفضل ما يتناولونه من أطعمة معتمدين في ذلك على طرق طبخ تساعدهم في ذلك([٧]).

وقد عَرَف الأندلسيو ن مختلف أنواع الأطعمة خصوصاً الفاخرة منها، كالثريد الذي يتكون من أنواع عدة من اللحم والدجاج، كانت تُقدم بشكل منسق ومنمق في طبق كبير، بحيث تشكل نقيضاً للأطباق العادية، وهو ما حدا بالناس لوصفها "بأحد أطباق الملوك والوزراء"([٨]).

---

١ ) بولعراس، خميسي: الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف، (رسالة ماجستير غير منشورة)، باتنة، جامعة الحاج لخضر، 1428هـ=2007م، ص99.

٢ ) دويدار: حسين: المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، القاهرة، مطبعة الحسين الإسلامية، ط 1، 1414، 1994م، ص288.

٣ ) دايفد وينز: فنون الطبخ في الأندلس، من كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1998م، ج2، ص1030.

٤ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص567.

٥ ) الجزور: الناقة ( ابن منظور: لسان العرب، ج4، ص133).

٦ ) السقطي، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد المالقي الأندلسي: في آداب الحسبة، ترجمة: ليفي بروفنسال، باريس، المعهد المتوسط الوطني المغربي، 1931م، ص32.

٧ ) المقدمة، ج1، ص88.

٨ ) وينز: فنون الطبخ في الأندلس، ج2، ص1021.

ويبدو أن الأندلسيين أولعوا بأكل اللحوم، وكانوا يفضلون شرائها مطهية في المطابخ العامة، ومن طريف ما ذكره السقطي أنهم لم يميزوا بين أنواع الطعام الجاهزة في كثير من الأحيان، فقد كان بعض الطهاة يستخدمون لحوماً فاسدة في طبخهم، كاستخدام لحم فرس ميت، أو حتى ذبح الكلاب، واستعمال لحومها، ولم تكن مثل هذه الأمور تخفى على السلطات، فكانت تكتشف الفاعلين في بعض المرات، وفي مرات أخرى لم تكن لديها القدرة على معرفتهم([1])، ويمكن الاستدلال بذلك على شدة طلب الأندلسيين على اللحوم؛ ما جعل بعض الطهاة يستغلون هذا الأمر باستخدام اللحوم الفاسدة والمحرمة دون علم الناس الذين يشترونها.

ويشير ابن خلدون إلى أن أهل الأمصار ومنهم الأندلسيين يعتاشون في غالب أكلهم على لحوم الضأن والدجاج، حتى أنهم لا يميلون إلى السمن لتفاهته عندهم([2])، ويؤكد ذلك ما قاله وينز بأن الأندلسيين يدخلون مختلف أنواع اللحوم في طبخاتهم، كلحم الضأن والحمل والدجاج والطيور المنوعة بشكل كبير، وهو ما يعد من أكثر مظاهر الترف في الطعام انتشاراً([3]).

ويبدو أن أنواع الطعام الدسمة التي تناولها الأندلسيون غذاءً لهم، كانت تؤدي لحدوث إمساك([4]) في المعدة، وتخمة في البطن، وقد أشار ابن أبي أصيبعة إلى أن "أهل الأندلس إذا أراد أراد أحدهم إسهال طبيعته أخذ من السقمونيا ([5]) وزن ثلاثة دراهم حتى تلين طبيعته مقدار ما يلينها نصف درهم في بلدنا "([6])، بمعنى أن الجرعة المتناولة في الأندلس من السقمونيا، كانت كبيرة نظراً لشدة معاناتهم من صعوبة وعسر الهضم، وهو ما يؤكد عادة متأصلة عند الأندلسيين ألا وهي الترف في الطعام، والتوسع في تناوله.

وقد تميزت عهود المسلمين في الأندلس بتنوع أشكال الطعام وألوانه وأنواعه، وكان لكل عصر من هذه العصور ما يميزه عن غيره، إلا أن المشترك في ذلك كله كان النوعية الفاخرة للطعام، فمع قدوم المسلمين الفاتحين للأندلس، كان اعتمادهم في الطعام على تلك الوجبات التي اعتادوا عليها في بلادهم ([7])، والتي كان منها طعام الثريد، وهو خبز يفت ويبل بالمرق ويوضع

---

[1]) في آداب الحسبة، ص36.

[2]) المقدمة، ج1، ص88.

[3]) وينز: فنون الطبخ في الأندلس، ج2، ص1030.

[4]) يشير الدكتور الدقر إلى أن الإمساك وعسر الهضم يحدث بسبب التخمة المزمنة ( الدقر، محمد نزار: روائع الطب الإسلامي، ج1، ص20، نقلاً عن المكتبة الشاملة، الإصدار 3.24).

[5]) السقمونيا: نبات يستخرج منه دواء مسهل للبطن ومزيل لدوده (مصطفى، إبراهيم، وآخرون: المعجم الوسيط، ج1، ص437)

[6]) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص190.

[7]) دويدار: المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، ص288.

ويوضع فوقه اللحم، والكوثان وهو عبارة عن أرز وسمك، والجشيش وهو دقيق مجروش يوضع في قدر ثم يوضع عليه لحم أو تمر، والقديد والصفيف، وهما أكلتان من اللحم، والخريزة وهي قِدْر فيه ماء كثير، يوضع عليه اللحم مقطعاً قطعاً صغيرة([1])، ويبدو أن اعتماد العرب في كثير من أكلاتهم على اللحوم نابع من توافرها بشكل كبير في بيئتهم الجديدة، عوضاً عن بيئتهم القديمة، ويمكن القول بأن كثرة الغنائم في بداية الفتح – عصر الولاة – والتي كانت تعج بالحيوانات في الأندلس ساهمت بشكل كبير في وجود مثل هذه الوجبات والتي نقل طريقة طهيها العرب والبربر من بلادهم إلى الأندلس.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مرحلة الفتح تعد مرحلة جهاد تتميز بالاعتماد على أكل اللحوم، إذ تعد الحيوانات مكوناً أساسياً من المكونات المستخدمة في الجيش لتوفير الطعام له، وربما تكون العنصر الوحيد في بعض الأحيان، ومما يؤكد ذلك ما فعله المسلمون منذ فتح الأندلس، فإن طارق بن زياد تمكن من دخول جزيرة أم حكيم([2]) وفيها ترك بعض جيشه متوجهاً نحو قرطبة لفتحها، فقام من بقي بها من الجنود بأسر واحد من أهل الجزيرة، وذبحوه أمام أصحابه، وأوهموا أصحابه بأنهم يطبخونه أمامهم، وفي نفس الوقت كانوا قد طبخوا لحماً حلالاً لهم، وبعد نضوجه أكلوه أمام أصحاب الرجل الذبيح، فاعتقدوا أن اللحم الذي يأكله جيش طارق هو من لحم جسد ذلك الرجل([3]).

أما في عصر الدولة الأموية فقد أولى الأمويون الطعام عناية خاصة، فانتشر في زمنهم الكثير من أكلات الترف التي تعتمد في طهيها على مختلف أنواع اللحوم الحيوانية، هذا عدا عن لحوم الدجاج والحجل وغيرها من أنواع الطيور ومختلف أصناف الأسماك، وكان الاستهلاك اليومي منها في قصر الزهراء لوحده يفوق الثلاثة عشر ألف رطلاً، تبلغ حصة الفرد منها أزيد من عشرة أرطال يومياً([4])، ولكن وبالرغم من ذلك فإن هذا العهد عرف بعض أهل البدع ممن تجاوزوا أكل اللحوم الحلال ليأكلوا من اللحوم المحرمة، كأبي الخير([5]) الذي ثبت عنه أنه أكل لحم الخنزير([6]).

---

[1] ) حسن: تاريخ الإسلام، ج1، ص442.

[2] ) هي الجزيرة الخضراء ويقال لها جزيرة أم حكيم، وأم حكيم جارية طارق، كان حملها معه، وتركها بهذه الجزيرة فنسبت إليها ( الحميري: الروض المعطار، ص223).

[3] ) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ج1، ص346.

[4] ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص567.

[5] ) يسميه المقري أبو الشر وقد عاش في عهد الخليفة الأموي الحكم ( نفح الطيب، ج5، ص129).

[6] ) أبي الأصبغ، عيسى بن سهل الأندلسي، ثلاث وثائق في محاربة الأهواء والبدع في الأندلس مستخرجة من

وقد كان بعض الأمراء والخلفاء زيادة على ترفهم في الطعام شديدو الولع بالطعام، ويقبلون عليه بشراهة، ويدلنا على ذلك استدعاؤهم للأطباء عند تناولهم لوجبات من الطعام ليزودوهم بالأدوية التي تساعدهم على هضم الطعام وهي ما عرفت حينها (بالجوارشنات)(١)(٢).

ومع قدوم زرياب للأندلس سنة (207هـ=822 م)(٣) فإنه استحدث أطعمة جديدة على الأندلسيين لم تكن معهودة عندهم من قبل، حتى عُرفت بعض هذه الأطعمة باسمه، فهو " أول من اجتنى بقلة الهليون (٤) المسماة بلسانهم الإسفراج ، ولم يكن أهل الأندلس يعرفونها قبله ومما اخترعوه من الطبيخ اللون المسمى عندهم بالتفايا (٥)، وهو مصطنع بماء الكزبرة الرطبة محلى بالسنبوسق(٦) والكباب، ويليه عندهم لون التقلية المنسوبة إلى زرياب"(٧)، كما ابتدع طرقاً جديدة لطبخ الأرانب والدجاج، وذلك بطهيها في مرق كثير الأفاويه والتوابل( ٨)، وفي محاضرة لليفي بروفنسال بعنوان الشرق الإسلامي والحضارة العربية الأندلسية يشير فيها إلى أن زرياب علم أهل قرطبة أرقى أنواع الطهي البغدادي(٩).

ولم يكن الترف في الطعام لدى الأندلسيين يقتصر على الطعام نفسه، بل لقد تعداه ليصل إلى الترف في الأواني والأدوات المستخدمة في الطعام، ومن ذلك اتخاذ آنية الزجاج والفضة، واستخدام فُرش أنطاع(١٠) الأديم اللينة الناعمة، وسُفر الأديم لتقديم الطعام، بدلاً من تقديم الطعام

---

مخطوط الأحكام الكبرى للقاضي أبي الأصبغ، دراسة وتحقيق: محمد عبد الوهاب خلاف، مراجعة وتقديم: محمود علي مكي، ومصطفى كامل إسماعيل، القاهرة، المركز العربي الدولي للإعلام، ط 1، 1981م، ص41.

١ ) الجَوارِشْنَ: هو نوع من الأدوية المركبة يقوّي المعدة ويهضِم الطعام، وهي لفظة غير عربية ( ابن منظور: لسان العرب، ج13، ص88).

٢ ) دويدار: المجتمع الأندلسي، ص288.

٣ ) الزركلي: الأعلام، ج5، ص28.

٤ ) الهِلْيَوْنُ: نَبْتٌ مَعْروفٌ حارٌ رَطْبٌ ( الزبيدي: تاج العروس،ج36 ص284).

٥ ) لم أجد لها تعريفاً فيما بين يدي من مراجع ومصادر ، غير أن محقق كتاب الذخيرة تحدث عن طعام يسمى الاسفيدباج، وعرفه بأنه عبارة عن تفايا بيضاء ساذجة، وهي إذا كانت من لحم الضأن تقطع قطعاً صغيرة وتخلط ببعض التوابل واللوز المقشر، وتنضج على نار لينة (الذخيرة، ج2، ص945).

٦ ) السنبوسق: لم أجدها بالقاف، وإنما بالكاف وهي لحم مدقوق مع التوابل ( ابن سعد الخير، القرط على الكامل، ج1، 162).

٧ ) المقري: نفح الطيب، ج3، ص127-128.

٨ ) حسن: تاريخ الإسلام، ج2، ص348.

٩ ) الزركلي: الأعلام، ج5، ص28.

١٠ ) أنطاع: بساط من الجلد ( مصطفى، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، ج2، ص930).

على الموائد المصنوعة من الخشب، ويعود الفضل في هذا التطور إلى زرياب( [1])، ويُذكر بأن زرياب ابتكر تقاليد جديدة في الطعام ومنها أن يبتدئ الطعام بالحساء ومن ثم ينتقل إلى اللحوم، وبعد الانتهاء من الطعام يقوم بتناول الحلوى( [2])، ويبدو أن الأمويين قد نقلوا إلى الأندلس عادة الاهتمام بالحلوى تشبهاً بأجدادهم في الشام، فمعاوية ابن أبي سفيان كان يأكل يومياً من الحلوى شيئاً كثيراً([3])، وعلى هذا الأساس فقد التقت رغبات الأمويين بمهارة زرياب، ولذلك فإن أمراء الأندلس وخلفاءهم اتخذوا من زرياب قدوة لهم بما ابتدعه من آداب المائدة، وأنواع الطعام المنسوب إليه([4]).

ولابن شُهيد (ت426هـ=1035م)([5]) الذي عاش في بداية عهد الطوائف رسالة في الحلوى تؤكد ذلك، فقد صور ظاهرة الشَّرَه بالحلوى في هذه الرسالة عندما كان في جولة له مع أصحابه وهم على باب أحد الدكاكين التي تبيع الحلوى – في شرح يطول ذكره- ، ويأتي من خلال رسالته على ذكر أصناف مختلفة من الحلوى التي كانت تباع هناك؛ ومنها الفالوذج( [6])، والخبيص([7])، والزلابية([8])، ويذكر في رسالته أنه اشترى من الغلام العامل في الدكان أرطالاً من أصناف الحلوى الثلاثة المذكورة، وأطعمها لفقيه من رفقائه( [9])، وقد ذكر ابن بسام نوعاً رابعاً من الحلوى في الحادثة ألا وهو القبيطاء( [10])([11])، وهنا الإشارة الواضحة بأن دكاكين بيع

---

[1] ) المقري: نفح الطيب، ج3، ص128.

[2] ) حسن: تاريخ الإسلام، ج2، ص348.

[3] ) ابن كثير: البداية والنهاية، ج8، ص119.

[4] ) حسن: تاريخ الإسلام، ج4، ص598.

[5] ) هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك، بن أحمد بن عبد الملك، بن عمر بن محمد بن عيسى ابن شهيد، عالم بالأدب والشعر والبلاغة، وهو صاحب متاب حانوت العطار، وله عدد من الرسائل والكتب وهي "نافعة الجد، كثيرة الهزل، وشعره كثير مشهور" ( الحميدي: جذوة المقتبس، ص117-118).

[6] ) وصفه الحسن البصري بأنه: "لباب البر ولعاب النحل بخالص السمن" (الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل: كتاب خاص الخاص، تحقيق حسن الأمين، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت.ط، ص56.

[7] ) الخبيص حلوى تصنع من التمر والسمن، وسميت بالخبيص لأنهما يخبصان، أي يقلبان ويخلطان ( الزبيدي: تاج العروس، ج17، ص542).

[8] ) الزلابية: حلواء تصنع من عجين رقيق تصب في الزيت وتقلى ثم تعقد بالدبس ( مصطفى، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، ج1، ص397).

[9] ) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري: يتيمة الدهر، تحقيق: مفيد محمد قميحة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1983ج2، ص55؛ ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص270-271.

[10] ) لم أجد للقبيطاء تعريفاً فيما بين يدي من مصادر، وإنما سياق النص يوحي بأنها نوع فاخر من الحلوى.

[11] ) ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص270.

الحلوى الجاهزة كانت منتشرة، ومعروفة في الأندلس، وتباع حسب أوزانها، وربما تكون الحلوى لديهم رخيصة الثمن لأنه اشترى كمية كبيرة منها، مما يشير إلى حالة رخاء ونعيم كانت سائدة في تلك المدة.

أما على صعيد الطعام في عهد ملوك الطوائف فإن هذا العهد عرَف جملة من مأكولات الترف والرفاهية، فعُرفت عندهم " أطعمةً طيورية، جوامد وباردة ، وصنوفاً من المصوص (١) والأشربة والطباهج(٢)"(٣).

ويبدو أن عادة الإكثار من الطعام خصوصاً أطايبه كانت منتشرة كذلك في هذا العهد، ومعها انتشرت بعض الأمراض الناجمة عنها، وهو ما دفع بعض شعراء الهجاء لاغتنام الفرصة من أجل هجاء كل من يمارس هذه العادة، ومن ذلك ما قاله السميسر (480هـ=1087م)(٤)، حيث قال:

| | |
|---|---|
| يـا آكلاً كلَّ ما اشْتَهَاهُ | وشاتِمَ الطِّـبَ وَالطبيبِ |
| ثمارَ ما قد غَرَسْتَ تَجْنِي | فانتظرْ السُّقْمَ عَـنْ قريب |
| يجتمِــعُ الدَّاءُ كلَّ يـوم | أغذيـةَ السوءِ كالذنوب(٥) |

وتشير بعض النصوص إلى أن بعض ملوك الأندلس كانوا يفضلون إظهار الترف في الطعام للتغلب على صفة البخل؛ وإظهار الكرم المفرط، وهو ما تشير إليه حادثة تعرض لها المعتصم بن صمادح (ت 484هـ=1091م) حين أحسن للنحلي البطليوسي(٦)، فلما غادره البطليوسي إلى إشبيلية مدح المعتمد بن عباد هناك وذم ابن صمادح بقوله:

| | |
|---|---|
| أبادَ ابنُ عبادٍ البربرا | وأفنى ابنُ معنٍ دجاجَ القرى |

وبمرور الزمن نسي البطليوسي ما قاله، وعاد للمرية حيث المعتصم، فدعاه المعتصم لمنادمته، وأحضر موائد للعشاء ليس فيها سوى الدجاج، فقال له النحلي البطليوسي: يا مولاي ما عندكم فى المرية لحم غير الدجاج؟ فقال: إنما أردت ان أكذبك فى قولك : "وأفنى ابن معن دجاج

---

١ ) المصوص: لحم ينقع في الخل ( ابن منظور: لسان العرب، ج7، ص93)

٢ ) الطباهج: هي الكباب وهو اللحم المشوي أو المقلو ويبدو أن الكلمة فارسية (ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج4، ص433).

٣ ) ابن بسام: الذخيرة، ج7، ص135.

٤ ) السميسر: هو خلف بن فرج الإلبيري، من أعلام شعراء إلبيرة، في مدة ملوك الطوائف، وهو مشهور بالهجاء ( ابن سعيد: المغرب، ج2، ص100).

٥ ) ابن سعيد: المغرب، ج2، ص100؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج13، ص225.

٦ ) هو أبو الوليد البطليوسي، يعرف بالنحلي ويجيد الشعر ( المقري: نفح الطيب، ج3، ص234).

القرى"([١])، ويمكن الاستنتاج من خلال هذه الرواية بأن طبخ الدجاج لم يكن على لون واحد، بل كان يُشَكّل منه أنواعاً مختلفة من الطبخات، مما يوحي بتفنن الأندلسين في صناعة ألوان الطعام الفاخر، وخاصة في عهد الطوائف، ولا بد من الإشارة إلى أن عمليات التفنن في الطعام هي عمليات تراكمية ربما تعود لما قبل زرياب.

كما قام الشاعر الأندلسي المعروف ابن الزقازق([٢]) بنظم قصيدة طويلة وصف من خلال أبياتها كثيراً من أكلات الأندلس زمن الطوائف، والتي كان يشتهيها، مثل: " اللحم مع شحم، ومع طوابق الكبش الثني"([٣]) و"البيض في المقلاة بالزيت اللذيذ الدهن"، و "وجلدة الفروج مشوياً كثير السمن"، و"الثريد"، و"الأسفنج"، و"الأرز...باللبن"، و"الشواء، والرقاق([٤])" و"الجبن"، و"الكسكسو([٥])"، و"العصيدة([٦])"، و"البلياط بالزيت"، و"الزبزبن" و"التفين([٧])"([٨]).

وانتشر في عصر الطوائف من بين أطايب الطعام أنواع الفاكهة المختلفة والحلوى، والتي هي دليل على توفر مواد الترف في الطعام الأندلسي، ففي حضرة ابن ذي النون كان يجلس جماعة من خواصه ومنهم قاضيه أبو الوليد الوقّشي(ت489هـ=1096م)([٩])، وعندما قدم قدم لهم الحلوى والفاكهة انكبوا على الحلوى يأكلونها بشراهة، وقد عرف هذا النوع باسم آذان القاضي، وعرفت الفاكهة التي قدمها لهم بعيون البقر([١٠]).

---

١ ) المقري: نفح الطيب، ج4، ص 9.

٢ ) ذكره ابن حجة: بابن الدقاق ( ابن حجة: تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله التقي الحموي طيب المذاق من ثمرات الأوراق، تحقيق أبو عمار السخاوي، الشارقة، دار الفتح، 1997م، ص55)، وعاش في عهد الوزير أبي بكر بن عبد العزيز صاحب بلنسية وهو معاصر للمعتمد(ت 488ه=1095م) ( الزركلي: الأعلام، ج6، ص172).

٣ ) شاةٌ ثانِيَةٌ: بَيِّنَةُ الثِّنْي، تَثْني عُنُقَها لِغيرِ عِلَّةٍ ( ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، ج10، ص194).

٤ ) الرقاق : الخبز المنبسط الرقيق، ( ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، ج6، ص128).

٥ ) الكسكسو: طعام يَتَّخِذُه المَغَارِبَةُ من الدَّقِيق ( الزبيدي: تاج العروس، ج16، ص446).

٦ ) العَصِيدة – السَّمْن يُطْبَخ بالتمر ( ابن سيده: المخصص، ج1، ص428).

٧ ) البلياط بالزيت و الزبزبن والتفين: لم أجد وصفاً لهذه الأطعمة بحسب ما بين يدي من مصادر ، غير أنه بالإمكان القول بأنها عبارة عن أطعمة فاخرة، إذ وردت في سياق تعداد مجموعة من الأطعمة الفاخرة.

٨ ) المقري: نفح الطيب، ج3، ص300-302.

٩ ) هو هشام بن أحمد بن هشام بن خالد الكناني من ثغر وقشة في الأندلس، كان متوسعاً في المعارف، من أهل العلم، واعتنى بعلم الهندسة والمنطق والفقه والأثر والنحو والشعر والخطابة، والتاريخ، وهو جميل الصحبة مليح النادرة، كثير الدعابة (الرشاطي، وابن الخراط: الأندلس في اقتباس الأنوار ، ض91).

١٠ ) المقري: نفح الطيب، ج4، ص138.

وذكر الكاتب أبو عبد الله محمد بن مسلم([1]) المعاصر لملوك الطوائف، في إحدى رسائله رسائله

صنوفاً مختلفة من الأشربة وهي: المزر([2])، والدوشاب ([3])، ونبيذ الأزاذ ([4]) والداذ([5]) والتي كان يرغب أن يستعيض بها عن الخمر([6])، ومن الواضح أن هذه المشروبات كانت منتشرة في الأندلس، ولولا ذلك ما ذكرها أبو عبد الله، فإن الأندلس خُصت بطيب شرابها([7]).

وبعد دخول المرابطين للأندلس ومشاهدتهم لمظاهر الحياة فيها؛ بهرتهم حياة الترف التي عاشها حكام الطوائف في تلك البلاد، فأخذ الأمراء المرابطون في الانتقال إلى الأندلس، مصطحبين معهم بطانتهم ووزرائهم وكتابهم، وعاشوا حياة الترف وتأنقوا في المأكل كمظهر من مظاهر الترف([8]).

أما في العصر الموحدي فقد ذكر مؤلف معاصر لدولة الموحدين في كتاب الطبيخ في المغرب والأندلس أكثر من خمسمائة نوع من أنواع الطعام، لكل منها طريقة في صنعه، وهو ما يوحي بمدى الثراء والرفاهية التي عاشها هذا المجتمع([9])، وهذه إشارة إلى وفرة شتى أنواع الأطعمة المترفة المختلفة، ذات الجودة العالية، وذلك أثناء خضوع بلاد الأندلس لسلطة الموحدين.

---

١ ) هو أبو عبد الله محمد بن مسلم بن نبيل الكاتب –لم أجد له تاريخ وفاة– أديب شاعر بليغ من بيت كبير كان كاتبا من كتاب الإنشاء في دولة الأمير إقبال الدولة علي بن مجاهد (ت474هـ=1081م) صاحب دانية بالأندلس ( الإكمال، لابن ماكولا، ج7، ص255).

٢ ) المِزْرُ: نَبِيذُ الشعير والحنطة والحبوب وقيل نبيذ الذُّرَة خاصَّة، وهو ضَرْبٌ من الأَشربة ( ابن منظور: لسان العرب، ج5، ص172)

٣ ) الدوشاب: لم أجد لها فيما بين يدي من مصادر لغوية تعريف، غير أن ابن العماد قال: بأنها الدبس (شذرات الذهب، ج4، ص252).

٤ ) الأزاذ: كلمة فارسية معربة، وهي نَوْعٌ من التَّمْرِ، ( الزبيدي: تاج العروس، ج9، ص373).

٥ ) الداذ: نوع من الشراب، (ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم ج9، ص415).

٦ ) ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص433.

٧ ) ابن حزم وآخران: فضائل الأندلس،ج1، ص57.

٨ ) حسين، حمدي عبد المنعم محمد: التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، مصر، دار المعرفة الجامعية، 1997م، ص326.

٩ ) حسن، حسن علي: الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس (عصر المرابطين والموحدين)، مصر، مكتبة الخانجي، ط1، 1980م، ص432.

ويبدو أن دعوة الناس بعضهم لبعض إلى أطايب الطعام كانت موجودة ومنتشرة ، مما يشير إلى استمرار حياة التنعم والتَّرَفُّه في الطعام، ومن الأمثلة لذلك أن ابن خفاجة (ت533هـ=1128م) دعا صديقه القاضي أبا إسحاق بن ميمون[1] إلى طعام فراخ حمام يوماً عبر قصيدة نظمها له فقال فيها

بما حُزتَهُ من شَرِيفِ النِّظامِ　　　وأرهقتهُ من حواشي الكلامِ

تعالَ إلى الأنسِ في مجلسٍ　　　يهزّ به الشيخُ عطفيْ غلامِ

رطيبِ النسيـمِ كأنّ الصبـا　　　تجــرِّرُ فيـهِ ذيولَ الغمامِ

وعنـدي لمثلكَ من خاطـبٍ　　　بَنَاتُ الحَمـامِ وأُمّ المُـدامِ[2][3].

ومع سعي الموحدين للسيطرة على كامل التراب الأندلسي، تمكنت جيوشهم من هزيمة جيش محمد بن سعد بن مردنيش (ت567هـ= 1171م)[4]، وبدأوا يأخذون حصون شرق الأندلس حصناً إثر آخر، فكانوا يجدون في المناطق التي يدخلونها كثيراً من الأمتعة "حتى كثرت نعم الله بالمحلات المؤيدة من الأطعمة والأعناب والفواكه من الرطبة واليابسة"[5].

ويبدو أن الأندلسيين كان لديهم عادة في الطعام مبنية على كثرة الأكل في نهاية شهر شعبان؛ وذلك استعداداً منهم وتهيئة لأجسامهم لشهر رمضان، وكانت تدعى هذه الأكلات بالشعبانية، ويمكن الاستدلال على ذلك من حادثة اجتماع أبو الطاهر الخشني[6] مع مجموعة من أصحابه وكان من بينهم أبو عبدالله بن زرقون (ت586هـ =1190م)[7] في أواخر شعبان للأكل، فلما امتلأت بطونهم بالطعام أنشد أبو الطاهرقائلاً:

حمدتُ لشعبان المُبارك شبعـةً　　　تسـهّل عنـدي الجوع في رمضانِ

---

١ ) هو قاض أندلسي ( ابن بسام: الذخيرة، ج6، ص634).

٢ ) المدام والمدامة: الخمر ( الرازي، مختار الصحاح، ص90).

٣ ) ابن بسام: الذخيرة، ج6، ص634.

٤ ) هو الملك أبو عبد الله محمد بن مردنيش الجذامي الاندلسي، صاحب مرسية، وبلنسية ( الذهبي سير ، ج20، ص240).

٥ ) رسائل موحدية "مجموعة جديدة"، تحقيق أحمد عزاوي، القنيطرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط1، 1416هـ=1995م، ج1، ص90.

٦ ) هو أبو الطاهر إسماعيل بن مسعود الخشني ابن أبي ركب بفتح الراء وسكون الكاف من أهل جيان (الصفدي الوافي بالوفيات، ، ج9، ص134).

٧ ) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر.

كما حمدَ الصبُّ(1) المتيَّمُ زورةً          تحــمَّلَ فيــه الهجــرَ طــول زمانِ

فرد ابن زرقون قائلاً:

دَعَوْهـــا بشعبانيـــة ولَـــو أنّهُـــم          دعــــوها بشبعــانية لكفــاني(2)

وانتشرت في أواخر عهد الموحدين بالأندلس عادة صناعة وأكل المجبنات وكتبت في وصفها الأشعار كتلك التي ذكرها أبو علي الكتاني (ت633هـــ1236م)(3) يقول فيها:

شُغِفْتُ بحُبِ أبكارِ حُبـــالَى          ووُدّي لو بَنيتُ بها عَروساً

إذا لاحتْ بُدوراً في المَقالي          تراءت للعُيون بها شُموساً(4)

وكان من مظاهر الترف في الطعام المنتشرة في الأندلس وجود الأفران التي تصنع الخبز، وقد أشار السقطي وهو ممن عاش أواخر القرن السادس بدايات القرن السابع الهجري/أواخر القرن الثاني عشر بدايات القرن الثالث عشر الميلادي إلى جولات المراقبة التي يقوم بها المحتسب ليكتشف أي محاولة غش في الخبز(5)، ويمكن الاستدلال من ذلك بأن عادة شراء الخبز كانت منتشرة في الأندلس، وهو ما يوحي بأن النساء في البيوت كنَّ يستغنين عن صناعة الخبز في البيت، ويعتمدن في توفيره على تلك المخابز، وربما يكون ذلك نابعاً من رغبة النساء في الاستراحة من بعض الأعمال المنزلية، وذلك للاستمتاع بوقتهن في البيت.

لقد أشار دايفد وينز إلى ظهور كتابين في فن الطبخ أحدهما لابن رزين التجيبي (ت في القرن 7هـــ=13م)(6)، وآخر مجهول المؤلف، وقد ذكر بأن الكتابين عرضا مئات الوصفات لطرق إعداد الطعام في القرن السابع في الأندلس، مشيراً إلى احتمال كون هذه الوصفات امتداداً لطبخات مغربية وأندلسية ظهرت في القرنين الثالث والرابع الهجريين/التاسع والعاشر الميلاديين(7).

ويشير السقطي وهو محتسب مدينة مالقة، إلى وجود محلات في الأندلس يقوم عليها طباخون، وتقوم هذه المحلات بطبخ الطعام وبيعه، فمن المشترين من يتناول الطعام في المحل

---

1 ) الصب معناه في كلام العرب الذي به صبابة والصَّبابة رِقّة الشوق ( الأنباري: الزاهر في معاني كلمات الناس، ج1، ص134).

2 ) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج9، ص134؛ المقري: نفح الطيب، ج4، ص323-224.

3 ) أشار ابن الأبار إلى أنه من أهل مرسية ويعرف بالرفاء، وكان حلو النادرة، ممتعاً ( ابن الأبار: المقتضب من كتاب تحفة القادم، أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، القاهرة، دار الكتاب المصري، ط3، 1410هـــ=1989م، ص210).

4 ) ابن الأبار: المقتضب من كتاب تحفة، ص210.

5 ) السقطي: في آداب الحسبة، ص28.

6 ) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من المصادر.

7 ) وينز: فنون الطبخ في الأندلس، ج2، ص1019.

نفسه، ومنهم من يأخذه في جراب، أو وعاء ضيق، وكانت هذه المحلات تصنع الطعام وتبيعه ولائم للأعراس([1])، وبمعنى آخر تُشبه هذه المطابخ ما يعرف بالمطاعم في عصرنا، وهو أيضاً أمر تقتضيه أحوال الترف في المجتمعات.

واعتنى الأندلسيون بطعامهم واستخدموا لذلك طبَّاخات، وكانوا يختبرون مهارة الطباخة ببعض الطبخات وخاصة الأسفيداج، فكما يقول السقطي: "ويختبر الطباخة بالأسفيداج( [2])، فإن أبازيره([3]) كثيرة، وتسود مرقته، وحكمه أن يكون أبيض، وشرطها طيب العرف، وجودة المزاج، فإن زاد على ذلك جودة الصنعة وسرعة العمل؛ فهي غاية الأمل"([4]).

إن الإشارات المختلفة التي أوردها المؤرخون والكتاب حول الأطعمة الأندلسية تفيد إفادات واضحة متتابعة؛ بأن الأندلس تمتعت على مُدَد التاريخ الإسلامي، بترف موائدها واكتظاظها بأفضل أنواع الأطعمة والأشربة والمحليات.

---

١ ) السقطي: في آداب الحسبة، ص37.

٢ ) لم أجد لها معنى فيما بين يدي من معاجم اللغة.

٣ ) أبازير الطعام: التوابل ( مصطفى، إبراهيم، وآخرون: المعجم الوسيط، ج1، ص82).

٤ ) السقطي: في آداب الحسبة، ص53.

## المبحث الثاني
## الترف في الملبس

عرفت الأندلس نوعيات متعددة من الملابس بأشكال وبأنسجة مختلفة، فمنها ما هو مصنوع من الحرير، ومنها ما هو مصنوع من الكتان أو القطن وغيره، وهذا يشير إلى عادة تأصلت في المجتمع الإسلامي الأندلسي؛ وهي الترف في الملبس، وهو ما سأبيّنه خلال هذا المبحث.

ويؤكد ذلك ما ذهب إليه ابن خلدون عندما عد صناعة الحياكة والخياطة([١])، صناعتان ضروريتان لدى أهل الحضر، وهي من متطلبات الرفه في العيش([٢])، حيث أنهم عُرفوا بحسن اللباس؛ فثيابهم رفيعة ملونة مصنوعة من الصوف والكتان([٣])، كما انتشرت الملابس الحريرية؛ لأن أسواق الأندلس عرفت بيع الحرير فيها، إذ كان بائعو الحرير يجلسون في الأسواق لبيع مختلف أنواعه مما يستخدم في صناعة الملابس([٤]).

ويؤكد ذلك دويدار بالإشارة إلى مادة صناعة الملابس المستخدمة في الأندلس، حيث أنها تتنوع ما بين الكتان أو القطن أو الديباج([٥]) أو الحرير الموشى بخيوط ذهبية([٦])، وكانت هناك أنواع أخرى من الملابس تميزت بالفخامة([٧])؛ كالوشي([٨]) اليوسفي([٩]) والوشي الهشامي، وهي وهي ملابس الخلفاء والأمراء وبعض القضاة والعلماء([١٠]) وقد كانت هذه الأزياء تبهر أهل

---

١ ) الحياكة: هي نسج الغزل من الصوف والكتان والقطن ، أما الخياطة فهي لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد تفصل بالمقراض قطعا مناسبة للأعضاء البدنية (ابن خلدون: المقدمة، ص411).

٢ ) م.ن: ص411.

٣ ) القلقشندي: صبح الأعشى، ج5، ص261.

٤ ) السقطي: في آداب الحسبة، ص67.

٥ ) المجتمع الأندلسي، ص296.

٦ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص201؛ دويدار: المجتمع الأندلسي، ص296.

٧ ) دويدار: المجتمع الأندلسي، ص296.

٨ ) ثوب مُوَشّى إذا كان مُحَسَّناً بما فيه من النقوش وغيرها وإنما سُمي الوشي من الثياب وَشْياً لهذه العلة (الأنباري: الزاهر، ج2، ص247).

٩ ) ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف: المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق: محمود علي مكي، القاهرة، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1415هـ=1994م، ص161؛ دويدار: المجتمع الأندلسي، ص296.

١٠ ) دويدار: المجتمع الأندلسي، ص296.

المشرق الإسلامي، فقد كانوا إذا رأوها يتعجبون من حسن صنعتها( [١])، ويبدو أن الحكام كانوا يساعدون رعاياهم على التمتع بملابس حسنة، فقد كان من عادة بعض الحكام عند توليهم الحكم القيام بتوزيع عطايا من أموال، وملابس، وغيرهما([٢]).

وقد تحدث ابن الخطيب عن التنوع في ارتداء الملابس بين أهل قرطبة، واختلاف أنواعها حسب المقدرة المالية للشخص، وعن اختلاف ألوانها المشبه بالأزهار بقوله: " ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشي بينهم، الملف ([٣]) المصبوغ شتاء، وتتفاضل أجناس البز ([٤]) بتفاضل الجِدَة ([٥]) والمقدار، والكتان والحرير، والقطن، والم وعر([٦])، والأردية ([٧]) الإفريقية، والمقاطع([٨]) التونسية، والمآزر ([٩]) المشفوعة صيفاً، فتبصرهم في المساجد، أيام الجمع، كأنهم الأزهار المفتحة في البطاح الكريمة، تحت الأهوية المعتدلة"([١٠]).

فيما تحدث المقري عن غرناطة وبسطة( [١١]) مشيراً إلى ما عرف عن أهلهما من لباس الثياب الفاخرة، وهي " ثياب اللباس المحررة الصنف ؛ الذي يعرف بالملبد المختم ذو الألوان

---

١ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص201.

٢ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص139.

٣ ) المِلَفُّ: لِحافٌ يُلْتَفُّ بهِ ( الزبيدي: تاج العروس، ج24، ص372).

٤ ) البَزُّ ضرْبٌ من الثياب(الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد: كتاب العين، تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، بيروت، دار ومكتبة الهلال، د.ت.ط، ج7، ص353)

٥ ) جدة: غنى لا فقر بعده ( ابن منظور: لسان العرب،ج3/ص446)

٦ ) لم أجد لها فيما بين يدي من معاجم معنى لها، ويبدو أن تحقيق الكلمة غير دقيق، وهي المرعزي وليس الموعر فالمعز المرعزي: ذوات الأوبار المضاهية للحرير( القلقشندي: صبح الأعشى، ج5، ص338).

٧ ) الأردية: جمع رداء، والرِّداءُ الغِطاءُ الكبير ( ابن منظور: لسان العرب، ج14، ص316).

٨ ) المُقَطَّعُ من الثِّياب : كُلُّ ما يُفَصَّلُ ويُخَاطُ مِنْ قُمُصٍ وجِبابٍ وسَراوِيلاتٍ وغَيْرِهَا ( الزبيدي: تاج العروس، ج22، ص42).

٩ ) الإزارُ: بالكسر ، معروفٌ، وهو ( المِلْحَفَةُ ) ، وقيل ما يستُرُ أَسفلَ البَدنِ ، وهو غيرُ مَخيط، وقيل: هو ما تحتَ العاتِق في وَسَطِه الأسفل، وقيل هو ما يَستُر أَسفلَ ا لبدنِ ولا يكونُ مَخيطاً ، وكل ما قيل صحيح (الزبيدي: تاج العروس، ج10، ص43).

١٠ ) الإحاطة، ج1، ص35.

١١ ) بسطة: مدينة بالأندلس بالقرب من وادي آش، وهي متوسطة المقدار ، حسنة الوضع ، عامرة ، آهلة ، حصينة، ذات أسوار، وبها تجارات ومختلف الصناعات (الحميري: الروض المعطار، ص113).

العجيبة"([١])([٢])، وقد أشار دويدار إلى ملابس النساء، والتي تميزت بالرقة والأناقة والترف، فكن فكن يتفننّ في لبس المصبوغ من الملابس، والمذهب منها، ويبالغن في زينتهن([٣]).

وعند حديث المقري عن زيّ أهل الأندلس بعامة فإنه يقول: "وكثيراً ما يتزيَّا سلاطينهم وأجنادهم بزيّ النصارى المجاورين لهم"([٤])، ولعل في ذلك إشارة إلى أن سلاطين الأندلس وجنودها كانوا يبحثون عن أفضل الثياب، أو ما تعرف بثياب الترف حتى ولو كانت هذه الثياب من بلاد غير مسلمة، وما سيتطلبه هذا التشبه من تغير في شكل الملابس، وأنواع أقمشتها، والواضح أنه لا يمكن القول بأن الأندلسيين كانوا يبحثون عن ارتداء ثياب النصارى إلا من باب الزينة، والترف، وإظهار الفخامة، ولعل هذا الحديث يشير إلى مدة ضعف الدولة الإسلامية في الأندلس خصوصاً زمن الطوائف، والتي أدت لسقوط كثير من المدن في أيدي النصارى.

ولذلك فقد كانت ملابس الأندلسيين في بعض الأحيان علامة من علامات الكبر والخيلاء، مما حدا بابن جبير أن ينظم أبياتاً يذم فيها هذه الأزياء وفي ذلك يقول:

إياكَ والشّهرة في مَلبس ... والبسْ من الأثوابِ أسمالها([٥])

تواضُعُ الإنسانِ في نَفْسهِ ... أشرفُ للنفسِ وأَسْمى لها([٦])

ويَعُد ابن خلدون اتخاذ الأصناف المختلفة من المنسوجات على أنها نوعاً من الترف، فيقول: "اعلم أن من شارات الملك وترفه اتخاذ الأخبية([٧])، والفساطيط([٨])، والفازات([٩]) من ثياب ثياب الكتان والصوف والقطن ، بجدل الكتان والقطن، فيُباهَى بها في الأسفار ، وتُنوع منها الألوان ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة واليسار "([١٠])، وإذا كان الترف يقع في اتخاذ أقمشة راقية للخيام وأشباهها؛ فإن اتخاذه في الملابس يكون أيسر وأشد حاجة.

---

١ ) اللباس المحررة الصنف؛ والملبد المختم: لم أجد لها معاني فيما بين يدي من مصادر لغوية.

٢ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص201.

٣ ) دويدار: المجتمع الأندلسي، ص298.

٤ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص222-223.

٥ ) الأَسْمال: الأَخْلاق جمع سَمَلٌ وثوبٌ أخلاقٌ إذا أَخْلَق وثوبٌ أَسْمالٌ ( ابن منظور: لسان العرب ، ج11، ص345).

٦ ) المقري: نفح الطيب، ج2، ص485.

٧ ) خبا الخباء من الأبنية واحد الأخبية وهو ما كان من وبر أو صوف ولا يكون من شعر وهو على عمودين أو ثلاثة ( ابن منظور: لسان العرب، ج14، ص223).

٨ ) الفُسطَاطُ بيت من شعر ( الرازي: مختار الصحاح، ص211).

٩ ) الفازَةَ : مِظَلَّةٌ بعمودين ( الزبيدي: تاج العروس، ج15، ص275).

١٠ ) ابن خلدون: المقدمة، ص267.

كما عُرف عن الأندلسيين اعتناؤهم كثيراً بمظاهر ثيابهم ونظافتها، حتى أن بعضهم كان يفضل الجوع على أن يخرج بملابسه على هيئة لا تعجب الرائي، فكان يُضَحّي بقوت يومه من أجل أن يشتري صابوناً يغسل به ثيابه( [١])، وكان من مظاهر اعتنائهم بالنظافة وجمال المظهر لبسهم الطيالس([٢])، فكانوا يعتنون بطريقة لبسها إذ يلقونها على الكتف أو الكتفين مطوية بشكل جميل ظريف([٣]).

وكان من ترف حكام الأندلس في الملبس أن كتبوا أسماءهم على ملابسهم بالإضافة إلى جُمَل تشير إلى الفأل، وكانوا يُلْحِقون بقصورهم دور الطراز التي تنسج لهم أثوابهم، وكان لهذه الدور قائماً عليها يسمى صاحب الطراز؛ ومهمته متابعة شؤون الملابس من آلات الحياكة، وأمور الصباغ، ودفع رواتب العاملين في الدار، وتسهيل آلاتهم، ومباشرة أعمالهم، وكانوا يقلدون منصب صاحب الطراز لخواص دولتهم، وثقات مواليهم، وقد سارت الأندلس على هذه الحالة من دولة بني أمية، وحتى ملوك الطوائف من بعدهم، ومع بداية عهد الموحدين أهمل الموحدون هذا الترف والتفنن فيه مع بداية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وتورعوا عن لبس الحرير والذهب، ثم إن هذه الوظيفة عادت آخر دولتهم( [٤])، وفي هذا إشارة إلى أن الموحدين لم يستمروا على حياة التقشف التي عاشوها مع بداية دولتهم، بل لقد انجرفوا وراء حياة الترف في أواخر دولتهم.

ويمكن القول بأن التغير النوعي الذي طرأ على ثياب الأندلس حدث في عهد الإمارة الأموية، وقد تجلى ذلك الأمر مع قدوم زرياب (ت 230هـ=845م) للأندلس، فقد أدى قدومه إلى الأندلس لتطور ملابسهم ورقيّها، إذ كان له الفضل في تعليم الأندلسيين عادات مختلفة من اللباس، فأخذوا عنه طريقة ارتداء الملابس المناسبة لطبيعة المناخ خلال فصول السنة، ومنها ارتداء الملابس البيضاء خلال مدة الصيف، أما في بقية أشهر السنة فكانوا يلبسون ثياباً ملونة([٥])، وهو ما يعد تطوراً في الملابس خصوصاً العربية التي تعودت التقشف في اللباس حيث أن المعروف عنهم أنهم كانوا أهل بادية، ولا يلبسون إلا الخشن من الثياب.

وقد أشار حسن إلى ذلك بقوله: "في بلاد الأندلس تحكم زرياب في ابتداع الأزياء، وحث الناس على أن تكون مناسبة للفصول، وعلمهم أن يلبسوا ملابس بيضاء من أول يونية حتى نهاية سبتمبر، كما علمهم أن الربيع هو فصل الملابس الحريرية الخفيفة، والقمصان ذات الألوان

---

١ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص223.

٢ ) الطَّيْلِسَان: ضَرْبٌ من الأَكْسِيةِ ( ابن سيده: المحكم والمحيط، ج8، ص435).

٣ ) القلقشندي: صبح الأعشى، ج5، ص261.

٤ ) ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص267.

٥ ) المقري: نفح الطيب، ج3، ص128.

الزاهية، وأن الشتاء فصل الفراء والملابس الثقيلة، ومن مآثر زرياب أنه فتح في قرطبة معهد جمال كان يدرس فيه فن التجميل... وعلم أهل الأندلس أن يفرقوا شعرهم وسط الرأس"([١])، وتبدو الإشارة واضحة في النص إلى انتشار لبس الحرير بين الناس في العصر الأموي في الأندلس، وهو من لباس أهل النعيم والترف في فصل الربيع، وكذلك الأمر بالنسبة للفراء والملابس الثقيلة في الشتاء، هذا بالإضافة إلى التنوع في ألوان صباغة الملابس وذلك يشير إلى كثرة البدائل في الألوان لدى الأندلسيين، ولم يقتصر اهتمام زرياب باللباس، بل إنه اهتم كذلك بقصات الشعر والتنويع فيها كما يفهم من النص.

ولعل الترف في اللباس الذي أوجده زرياب في الأندلس بما يحويه من تأنق وفن قد أغرى الناس بالتشبه به، فقد كان يعد هو نفسه مثالاً للأناقة ونظافة الملبس على أوسع نطاق، وأصبح مضرب المثل في الأندلس، فتعلم الناس منه هذه العادات وهو ما يشبه دور الأزياء في عالمنا المعاصر([٢]).

ولم يخلُ الأمر من الحساد الذين نظروا لزرياب نظرة حقد وحسد، فكانت حياة الترف التي عاشها زرياب وخصوصاً في اللباس سبباً في حسدهم له، حتى قال قائلهم:

تبارك من أذل الخز([٣]) حتى ... تمعـك([٤]) فيه أفـواه الكلاب

ومن جعل الغوالي سائـلات ... على أصداغ([٥]) أسود كالغراب([٦]).

ولكن زرياب وجد قبولاً في أوساط عامة القرطبيين، ويعزو قجة تقبل القرطبيين للتطورات التي أحدثها زرياب في المجتمع الأندلسي زمن عبد الرحمن الأوسط؛ لاستعدادهم لتقبل ألوان الترف، نتيجة استقرار وازدهار الوضع الاقتصادي، وميل الناس لمظاهر الحبور والمتعة والفن([٧]).

---

١ ) تاريخ الإسلام، ج2، ص350.

٢ ) قجة، محمد حسن: محطات أندلسية، جدة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط 1، 1405هـ=1985م، ص84-85.

٣ ) الخز: نوع من الأقمشة لين الملمس ( ابن منظور: لسان العرب، ج 12، ص283)، من مزايا الألبسة السلطانية وهو ذو لون أخضر ( صبح الأعشى، للقلقشندي، ج5، ص137.

٤ ) المَعْكُ: الدَّلْكُ ( ابن منظور: لسان العرب، ج10، ص490).

٥ ) الصُّدْغُ، بالضَّمِّ : ما انْحَدَرَ مِنَ الرَّأْسِ إلى مَرْكَبِ اللَّحْيَيْنِ، وقيلَ: ما بَيْنَ العَيْنِ والأُذُنِ ، ويُقَالُ : ضَرَبَه في صُدْغِه، وهُوَ ما بَيْنَ اللِّحَاظِ وأصلِ الأُذُنِ ( الزبيدي: تاج العروس، ج22، ص524).

٦ ) الكتاني، محمد بن الكتاني الطبيب: كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الشروق، ط2، 1982م، ص271.

٧ ) قجة: محطات أندلسية، ص85.

وإذا كان العامة اهتموا بالملبس؛ فليس من الغريب أن يكون أهل الحكم أشد اعتناء به، ولذلك فإن الأندلسيين من ذوي الهيبة والسلطان من كبار رجالات الدولة؛ كانوا يُصدّرون مجالسهم بغلمان عليهم الملابس الحسنة، فقد أورد الحميدي أن الأمير محمد بن عبد الرحمن الأموي (273هـ=886م) دخل على صاحب الشرطة عاصم فوجد "بين يديه غلام حسن المحاسن جميل الزيّ"(1).

واتخذ حكام بني أمية في الأندلس في بيوتهم خياطين، وعينوا لهم عريفاً في القصر؛ مهمته حياكة الثياب للخليفة ومن شاء من أهل القصر، كما كانت الملابس توضع في خزانة مخصصة للملابس؛ كانت تسمى خزانة الكسوة(2).

ويبدو أن اللباس الحسن، والفخم المصنوع من أجود الأقمشة كان أمراً منتشراً، ولم يكن يقتصر على الكبار في السن دون الصغار، فإن أحمد بن عبد الملك بن شهيد وزير عبد الرحمن الناصر عندما كان طفلاً صغيراً سلبه أبوه ملابسه الحسنة(3)، واستبدلها بثياب من الكتان، وهذا ما يفهم من خلال ما يرويه أحمد بن عبد الملك في هذه الحادثة، فقد كان أبوه قشِفاً عازفاً عن الدنيا، ووصف ذلك بقوله: "إن أبي عبد مِنَنِكم لما بعد أمله، وبان خشوعه، وسالت دموعه، نكب عن طريق أهل الدنيا، ورمى مرمى من مرامي أهل الأخرى، فكسر همتي، وحلق لمتي (4)، وسلبني بزي (5)، وعراني من خزِّي، فكانت أفدح نازلة نزلت بصبوتي، وأقلق حادثة سلبت رونق بهجتي؛ وأنا ذاك ابن ثمان، قد هجنت (6) في مدارع(7) الكتان"(8)، ولما لقيه الوزير ابن ابن مسلمة(9) سأله عن حاله غير أن جوابه كان البكاء، فلما علم بذلك المظفر بن المنصور – وكان أبوه غائباً– استقدم ابن عبد الملك كما يروي هو نفسه قائلاً: " أمر بي فألبست ثياب الحرير"(10).

---

1 ) الحميدي: جذوة المقتبس، ص232.

2 ) ابن حيان: المقتبس، ص161-162.

3 ) يقول إحسان عباس أن هذه الملابس التي نزعها والد أحمد عنه، كانت من الخز والوشي( عباس، إحسان: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، بيروت، دار الثقافة، ط1، 1960م، ص217).

4 ) اللِّمّة شعر الرأس بالكسر إذا كان فوق الوَفْر ( ابن منظور: لسان العرب، ج12، ص547).

5 ) البَزُّ الثياب وقيل ضرب من الثياب ( ابن منظور: لسان العرب، ج5، ص311).

6 ) الهَجين – الذي ولَدته أَمَةٌ ( ابن سيده: المخصص، ج1، ص332).

7 ) المِدْرعُ ضرب من الثياب التي تُلْبَس وقيل جُبَّة مشقوقة المُقَدَّم ( ابن منظور: لسان العرب، ج8، ص81).

8 ) ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص194.

9 ) هو أبو عامر محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة الوزير ، أديب عالم شاعر من بيت أدب ورياسة، سكن إشبيلية، وله كتاب سماه: كتاب الارتياح، بوصف الراح ( الحميدي: جذوة المقتبس، ص59).

10 ) ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص195.

وقد وصف عبد الملك بن جهور([1]) الملابس الملونة في الأندلس، قائلاً:

أقبلتَ في ثوبٍ عليك بنفسجيّ كالسوسنِ الأرجِ النقيّ الأبهــجِ
الروضُ حُسناً قد تشرّبَ ماءَهِ فبدا به من حل كل حُسن مبهجِ([2]).

وبلغت الزينة في الملبس إلى من كان يعمل زامراً يزمر في البوق، حيث كان أحدهم ويدعى النكوري([3]) يزمر في أحد الأعراس في عهد عبد الرحمن الناصر وهو يلبس على رأسه رأسه قلنسوة وشي وثياب خز عبيدي([4]).

وقد تنوعت ملابس الترف في عهد الأمويين بالأندلس، بين ما يرتديه الإنسان من ملابس على جسمه أو ما يَعْتَمُّ به على رأسه، وقد ذكر ابن الفرضي هذه الملابس عندما تحدث عن السليماني عبد الملك بن محمد بن عبد الملك ([5]) بقوله: "قدم الأندلس نحو الستين والثلاث مائة، فتوسع له المستنصر بالله رحمه الله ، وأجرى عليه العطاء مع قريش ، وكان حليماً أديباً لبيساً للثياب يلبس الخز ويَعْتَمّ به"([6]).

وكانت الثياب في الأندلس أحياناً مجالاً للفخر والتباهي، ولذلك كتب أبو بكر محمد الزبيدي (ت380هــ990م)([7]) إلى أبي مسلم بن فهد أبياتاً من الشعر ينكر عليه افتخاره بثيابه ومركبه فقال:

أبـا مسـلمٍ إنَّ الفَتى بجَنانـهِ([8]) وقـولـهِ لا بالمراكـبِ واللـبسِ
وليست ثيابُ المرءِ تُغنِي قُلامةً([9]) إذا كان مقصوراً على قصرِ النَفَسِ([10]).

وفي أواخر العهد الأموي كذلك تميزت النساء بملابس مترفة تصف مفاتن الجسد، وفي هذه الثياب قال الشاعر ابن هذيل (ت389هــ=999م) شعراً إباحياً:

---

١ ) عبد الملك بن جهور أبو مروان، وزير جليل، أديب شاعر كاتب، في أيام عبد الرحمن الناصر (جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، للحميدي، ص100).

٢ ) الكتاني: التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، 138-139.

٣ ) غير واضح من النص إذا ما كان النكوري اسم أو لقب لمن يعمل في مهنة الزمر.

٤ ) الحميدي: جذوة المقتبس، ص126.

٥ ) يكنى أبو مروان، وهو مقدسي ( ابن الفرضي: تاريخ العلماء بالأندلس، ص318).

٦ ) ابن الفرضي: تاريخ العلماء بالأندلس، ص318.

٧ ) هو أبو بكر محمد الزبيدي، صاحب كتاب مختصر العين وغيره وكان مؤدب المؤيد هشام ( المقري: نفح الطيب، ج3، ص74).

٨ ) الجنان: القلب ( ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، ج7، ص212).

٩ ) قَلَم الظُفُر والحافر والعُود يَقْلِمُه قَلْماً وقلَّمه قطعَه بالقَلَمَيْن واسم ما قُطِع منه القُلامة ( ابن منظور: لسان العرب، ج12، ص490).

١٠ ) الحميدي: جذوة المقتبس، ص42؛ المقري: نفح الطيب، ج4، ص7.

مشينَ إلى الركابِ وقد أُنيختْ كما يمشي الأَسارى في القيودِ
تُغــازلُنا ملاءُ[1] الخزِّ عَمْداً بأطرافِ الروادفِ[2] والنهود[3][4].

ويبدو أن النساء كن يلبسن الخلاخل في أرجلهن، كما يمشي الأسارى في القيود ، حيث يشبه ابن هذيل الخلاخل في أرجل النساء بالقيود في أرجل الأسارى بسبب ما يصدر عنهم من صوت، كما أن النص يوحي بأن النساء كن يرتدين الملابس الضيقة، مما يشير إلى تراجع في المستوى الأخلاقي، والذي بدوره قد يساهم في نشر الرذيلة والانحلال.

ولقد حاول الأندلسيون تمييز أنفسهم بما يرتدونه من ثياب، فكان العجب منهم في اتخاذ اللون الأبيض لوناً للحزن، وقد أورد النباهي ذكراً لحادثة استسقاء في عهد المنصور ابن أبي عامر(ت393هـ=1003م)، حيث خرج ابن أبي عامر فيها لابساً ثيابه البيضاء "على شكل أهل المصايب بالأندلس قديماً"[5] إشارة للحزن وتذللاً لله طلباً للاستسقاء.

إن أهل الأندلس أنفسهم تعجبوا من ذلك، فقد قال بعض الشعراء في ذلك:

ألا يـا أهلَ أندلـسٍ فطنتُمْ بلطفكـمُ إلى أمــرٍ عجيبِ
لبستم في مآتمكم بياضـاً فجئتمْ منهُ في زيٍّ غــريبِ
صدقتم فالبياضُ لباسُ حزنٍ ولا حُزْنٌ أشدُّ من المَشيبِ[6]

ووصف ابن بسام ترف مبارك والمظفر موليا المنصور بن أبي عامر في اللباس أثناء موكبهما للجمعة "كان للنعماء الوارث لحجابة الخلافة، في فخر لباسهما، ووفور عدد أصحابهما، وحسن خدمتهم لهما، وأن كلاً منهما كان يظاهر الوشي على الخز، ويستشعر [7] الدبيقي[8]، ويتقلس[9] الوشي"[10].

ولم يكن الترف في الملبس الذي ساد الأندلس زمن الأمويين ليزول من الأندلس عند زوال دولتهم، فمن جاء بعدهم كانوا أشد منهم ترفاً، وأكثر بحثاً عن الزينة في الملبس، وقد أورد

---

١ ) المُلاَءَةُ: هي الإزار، وجمعها ملاء ( الزبيدي: تاج العروس، ج1، ص438).
٢ ) عَجُز كل شيئ مُؤَخَّره ( ابن سيده: المخصص، ج1، ص168).
٣ ) نَهَدَ الثَّدْيُ، إذا ارتفَعَ عن الصَّدْرِ وصارَ له حَجْمٌ ( الزبيدي: تاج العروس، ج9، ص242).
٤ ) الطبيب: التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، 139.
٥ ) النباهي: تاريخ قضاة الاندلس، ص79.
٦ ) المقري: نفح الطيب، ج3، ص440-441.
٧ ) استَشْعَر القَوْمُ: إِذَا تَدَاعَوْا بالشِّعَارِ في الحرب ( الزبيدي: تاج العروس، ج12، ص198-199)، ويبدو أن المقصود من ذلك أنهما كانا يتخذان شعارات على ملابسهما المعروفة بالدبيقي.
٨ ) الدَّبيقيُّ: ثياب معروفة تنسب إلى دَبيق في مصر ( ابن منظور: لسان العرب،ج10 ص94).
٩ ) التَقَلُّسُ: لُبْسُ القَلَنْسُوةِ ( الفراهيدي: كتاب العين ، ، ج5، ص79).
١٠ ) ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص18- 19.

المؤرخون كثيراً من الشواهد على ذلك، فهذا أحمد بن برد([١])، مولى أحمد بن شهيد أنشد شعراً في معشوق أهيف([٢]) القد([٣]) ممشوقاً بدا في ثوب جميل([٤]):

لمّــا بــدا فــي لازور     ديِّ الحريرِ وقد بهرْ
كبَّرتُ من فرْطِ الجمالِ     وقلتُ ما هـــــذا بشرْ
فأجـــابني لا تنكـــرنْ     ثوبَ السماء على القمرْ([٥]).

أما غاية الترف في الملبس فقد ظهر في عصر الطوائف، وكان أمراً غريباً لا يكاد يصدق، ألا وهو خروج أهل بلنسية ذات مرة لقتال عدوهم في وقعة بطرنة([٦]) سنة (456هــ=1064م) بثياب زينة مصنوعة من الحرير([٧])، ولقد تغنى الشعراء بهذه الحادثة منتقدين حالة الترف الطاغية، المتجاوزة لكل الحدود، فقال الشاعر أبو إسحاق الطرسوني([٨]) منشداً:

لبسوا الحديدَ إلى الوغَى ولبستمُ     حُللَ الحريرِ عليكمُ ألواناً
ما كانَ أقبحهمْ وأحسنكــمْ بها     لو لم يكنْ ببطرنةٍ ما كانا([٩])

حتى قيل أن العدو من النصارى قد حصّلوا من تلك الواقعة على ألف غفارة؛ من لباس أهل الرفاهية ممن قتل من المسلمين([١٠]).

---

١ ) هو أبو حفص أحمد بن محمد بن أحمد بن برد، الكاتب، كان مليح الشعر، بليغ الكتابة، من أهل بيت أدب ورياسة، وله رسالة في السيف والقلم، والمفاخرة بينهما، وهو أول من سبق إلى القول في ذلك بالأندلس، وقد توفي بعد عام (440هــ=1048م) ( الحميدي: جذوة المقتبس، ص101).

٢ ) الأَهْيَف: هو الضامر البطن ( ابن منظور: لسان العرب، ج9، ص351).

٣ ) القد: القامة ( ابن منظور: لسان العرب، ج3، ص343).

٤ ) المقري: في نفح الطيب، ج3، ص546.

٥ ) الحميدي: جذوة المقتبس، ص 101؛ ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص505-506 ؛ ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص61؛ ابن سعيد: المغرب ج:1 ص:90؛ المقري: في نفح الطيب، ج3، ص546.

٦ ) لم أجد لها فيما بين يدي من كتب الجغرافيا تعريف، غير أن محقق كتاب الذخيرة أشار إلى أنها قرية من عمل بلنسية ( ابن بسام: الذخيرة، حاشية ص 850).

٧ ) ابن بسام: الذخيرة، ج6، ص850.

٨ ) أبو إسحاق الطرسوني: إبراهيم بن معلى الطرسوني شاعر قدير اشتهر ذكره بمدح ملك الثغر المقتدر بن هود (ت475هــ=1082م) وجال على بلاد الأندلس ( ابن سعيد: المغرب،ج2، ص457).

٩ ) ابن بسام: الذخيرة، ج6، ص850 ؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص181.

١٠ ) ابن بسام: الذخيرة، ج6، ص850.

وإذا كانت هذه صفة خروج هذا الجيش الأندلسي لقتال عدوهم؛ فما بالنا بلباسهم خلال ممارستهم لحياتهم الاعتيادية؟، بالطبع لن تخلو هذه الحياة من لبس الملابس المترفة، والفخمة ذات الأشكال والألوان والأنسجة المختلفة.

وكانت الملابس في بعض الأحيان عنوان المهاداة والصداقة بين حكام الأندلس وغيرهم من الحكام، وبالطبع فإن هذه الملابس هي من النوع الفاخر، ويمكن استنباط ذلك من إشارة المراكشي لوفاة المعتضد بالله عباد عام ( 464هـ=1072م)، حيث أرجع سبب الوفاة لسم كان موضوعاً في ثياب أرسلت إليه من ملك الروم([١]).

ويبدو أن المناصب زمن الطوائف قد أغرت بعض أهل العلم، فنقلتهم من حياة التقشف والزهد في الملابس إلى حياة الترف والنعيم، ولذلك فإن القاضي محمد المعافري (ت481هـ=1088م)([٢]) كان زاهداً قبل توليه القضاء بقرطبة، ولا يبالي بما يستر به عورته من اللباس، ولكنه بعدما تولى القضاء أصبح يُرى " داخلاً على باب المسجد الجامع يوم الجمعة ؛ وعليه رداء معصفر، وفي رجله نعل صرارة ([٣])، وله جمة([٤]) مفرقة، ثم يقوم، فيخطب ويصلي ويصلي وهو في هذا الزي ، وبه كان يجلس للقضاء بين الناس ...، وأتاه رجل لا يعرفه ، فلما رأى ما هو فيه من زي الحداثة من الجمة المفرقة، والرداء المعصفر، وظهور الكحل، والسواك، وأثر الحناء في يديه توقف، وقال: دلوني على القاضي، فقيل له: ها هو، وأشير إليه، فقال: إني رجل غريب وأراكم تستهزئون بي، أنا أسألكم عن القاضي، وأنتم تدلونني على زامر، فصححوا له أنه القاضي ، فتقدم إليه ، واعتذر"([٥])، إن ما يفهم من هذا النص يشير إلى أن لبس ملابس الترف الملونة لم يكن من زي القضاة وأهل العلم، كما يوضح النص بأن من كان يعمل زامراً كان يرتدي الثياب الملونة المزركشة.

ولقد عاش ملوك الطوائف عيشة مترفة فتأنقوا في الملبس، فلما جاء الأمراء المرابطون وانتقلوا من المغرب إلى الأندلس استطابوا مثل هذه الحياة المترفة؛ بعد أن تذوقوها عقب وراثتهم لحكم الأندلس من ملوك الطوائف([٦]).

---

١ ) المراكشي: المعجب، ج1، ص101.

٢ ) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن بشير المعافري الصيرفي ، من أهل قرطبة ، كان رجلاً صالحاً، طلب الأدب، وكتب الحديث ، وحج بيت الله الحرام، وكتب بيده صحيح مسلم ( ابن بشكوال: الصلة ، ج3، ص812-813).

٣ ) الصَّرَّةُ: الضَّجَّة 0 ابن منظور: لسان العرب، ج4، ص450).

٤ ) الجمة: هي الشعر إذَا بَلَغَ المَنْكِبَيْنِ ( الزبيدي: تاج العروس، ج33، ص438).

٥ ) المقري: نفح الطيب، ج2، ص143-144.

٦ ) حسين: التاريخ السياسي، ص326.

وكان من عادة المرابطين عند الخروج للصلاة في يوم الجمعة التزين بالملابس الحسنة، ولذلك فإن يوسف بن تاشفين عندما جاز الأندلس لخوض معركة الزلاقة وأدركته صلاة الجمعة خرج بأصحابه "في ثياب الزينة للصلاة"([١]).

وكان من صنوف الملابس المختلفة التي انتشرت في الأندلس وخصوصاً في المرية في هذا العصر؛ تلك الملابس المصنوعة من الحرير، والديباج، والسقلاطون( [٢])، والأصبهاني، والجرجاني([٣]).

ويبدو أن عادة لبس الملابس الملونة كانت منتشرة في الأندلس زمن المرابطين، فزينة النساء في الملابس كانت بادية للعوام، وفي ذلك يقول ابن الصائغ ([٤]) متغزلاً بلابسة ثوب معصفر:

| | |
|---|---|
| وبيضاءَ في صفراءَ تحملُ نفحةً | تنفّس عنها المندَلُ([٥]) الرَّطبُ والجمرُ |
| خلعْتُ رداءَ الصبرِ فيها علاقةً | ويحسنُ إلا في هوى مثلها الصبرُ([٦]). |

واستمرت العناية بالمظهر من خلال الاعتناء بالملابس حتى أواخر العهد المرابطي في الأندلس، فقد وجد من القضاة من يبحث عن حسن الملبس، وجماله، وذكاء رائحته، ومن ذلك ما أشار إليه ابن بشكوال عند حديثه عن القاضي عبد الرحمن الجهني (ت525هـ=1131م)([٧]) قائلاً عنه: "عطر الرائحة، حسن الملبس"([٨]).

أما الموحدون فاستعملوا أنواعاً من الأنسجة الفاخرة في حياتهم، ويذكر ذلك المراكشي عن عادة الموحدين عند التوجه للمعركة، حيث كانوا يحملون معهم مصحفاً، ويزينونه بأفضل أشكال الزينة "وهذا المصحف... يحملونه بين أيديهم أنَّى توجهوا على ناقة حمراء ، عليها من الحلي النفيس وثياب الديباج الفاخرة ما يعدل أموالا طائلة ، وقد جعلوا تحته بردعة من الديباج الأخضر يجعلونه عليها، وعن يمينه ويساره عصيان، عليهما لواءان أخضران، وموضع الأسنة

---

١) المراكشي: المعجب، ج1، ص134.

٢) السَّقْلاطُون نوعٌ من الثّياب ( ابن منظور: لسان العرب، ج7، ص320).

٣) الحميري: الروض المعطار، ص538.

٤) ابن الصائغ: هو أبو بكر بن باجة الحكيم ، وكان عاملا على مرسية زمن علي بن يوسف بن تاشفين (ت537هـ=1142م) (الناصري: الاستقصا، ج2، ص65).

٥) المَنْدَلُ والمَنْدَليُّ : عُودُ الطِّيب ( ابن سيده: المحكم، ج9، ص334).

٦) ابن بسام: الذخيرة، ج6، ص632.

٧) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن موسى الجهني، والمعروف بالبياسي، وهو من أهل قرطبة، ولي خطة الأحكام بقرطبة، وتوفي وهو يتولاها (ابن بشكوال: الصلة، ج2، ص517).

٨) ابن بشكوال: الصلة، ج2، ص517.

منهما ذهب شبه تفاحتين ، وخلف الناقة بغل محلّى أيضا "(١)، وبالرغم من أن حديث المراكشي هنا عن الموحدين في المغرب؛ إلا أنه لا يمكن حصر هذه العادة في المغرب فقط، إذ أن الموحدين حكموا الأندلس إضافة للمغرب، وخاضوا فيها الكثير من المعارك الحاسمة؛ كمعركة الأرك عام ( 591هـ=1195م) وفيها انتصر جيش المنصور( ٢)، ومعركة العقاب سنة (609هـ=1212م) التي أسفرت عن هزيمة للموحدين(٣)، ولا بد أنهم مارسوا مثل تلك العادات العادات في حروبهم في الأندلس، وبالتأكيد أنهم استخدموا تلك الأنسجة في ملابسهم.

وكانت الوشي تستخدم في الفرش لمجالس الكبراء، والأمراء، وعلية القوم، فإن مجلس محمد بن سعد بن مردنيش (ت 567هـ=1171م) - مع ندمائه، وهم من أقاربه وفيهم ابن الأزرق(٤) وهو أحد قواده - كان يكسى بالوشي الحمراء، وغير ذلك من لوازم الترف في مجلس للشراب، وكان عقب انتهاء مجلسه يفرق هذه الوشي، وغيرها مما يوجد في المجلس على من كان معه من الندماء(٥).

وقد انتشر بيع ثياب الحرير في أسواق الأندلس مع بدايات القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي بشكل كبير، وكان التجار يستخدمون في بيعها الحيلة والخديعة لإغراء المشتري ودفعه لشراء الملابس الحريرية، فيقول السقطي: "وأما الجلاسون لبيع الحرير، ففي بيعهم وشرائهم ضرب من النجش(٦)، وذلك أنهم يبيعون ويشترون ويأخذون أجرتين، أجرة من البائع على البيع وأجرة من المشتري على الشراء، ويزيدون في أثمان الحرير أوان تسويقه، وما قصدهم إلا الشراء للغير لا لأنفسهم، وكذلك يفعلون في أثواب الحرير؛ يشترونها بالنقد والنسيئة(٧)(٨).

---

١ ) المراكشي: المعجب، ج1، ص253.

٢ ) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ، ج6، ص329-330؛ المراكشي: المعجب، ج1، ص282؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص443.

٣ ) ابن الأبار: التكملة، ج1، ص90.

٤ ) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من المصادر سوى ما ذكره ابن الخطيب ( الإحاطة، ج2، ص122).

٥ ) ابن الخطيب: الإحاطة، ج2، ص122-123.

٦ ) النجش: أن تَسْتام السلعةَ بأزْيد من ثمنها وأنت لا تُريد شراءها ليراك الآخر فيقعَ فيه (المطرزي، أبو الفتح ناصر الدين بن عبد السيد بن علي بن المطرز: المغرب في ترتيب المعرب ، تحقيق: محمود فاخوري، وعبد الحميد مختار، حلب، مكتبة أسامة بن زيد، ط1، 1979م، ج2، ص290).

٧ ) النسيئة بيع الشيء بالتأخير ( التوقيف على مهمات التعاريف، لمحمد عبد الرؤوف المناوي، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط 1، 1410هـ،ص698)، وهي خلاف النقد ( ابن سيده: المحكم والمحيط، ج 6، ص316).

٨ ) السقطي: في آداب الحسبة، ص61.

ويتبين من خلال النصوص التاريخية التي ذكرت، بأن عادة الترف في الملبس انتشرت في بلاد الأندلس منذ الفتح الإسلامي للأندلس وحتى نهاية الدولة الموحدية.

## المبحث الثالث

## الترف في المسكن

اهتم الأندلسيون بمساكنهم بشكل كبير، فتأنقوا فيها، وحسنوا بناءها، واستخدموا لذلك مهرة البنائين والمهندسين، وطلبوا احتياجاتهم من أحجار البناء من كل مكان استطاعت أن تصل إليه أرجلهم، شرقاً وغرباً، وذلك إمعاناً منهم في حياة مترفة وعيش رغيد، وهذا ما سيكون محور حديث الصفحات القادمة.

ولابن خلدون نظرية في البناء والعمران، فهو يرى أن مقدار العمران في البلد دليل على جودة الصنائع حيث أن الإنسان يسعى للتأنق فيها، ويطلب الجيد منها، فعند العمران تتوفر دواعي الترف والثروة، وهذا ما يكون في المدن وهو غير متوفر في البادية([1])، وهو يشير هنا إلى طبيعة المدن التي يعمرها الإنسان، فحيثما وجدت هذه المدن أوغل الإنسان في الترف والنعيم.

كما يرى ابن خلدون أن "الحضارة إنما هي تفنن في الترف، وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه؛ من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية، وسائر عوائد المنزل"([2]) المنزل"([2])

ويمكن القول بأن الوصف الغالب على الأندلس لدى المؤرخين يؤكد على كثرة العمارة والبناء، فعن الأندلس ككل يقول ابن سعيد: " وميزان وصف الأندلس أنها جزيرة قد احدقت بها البحار فأكثرت فيها الخصب والعمارة "([3])، ويوافقه في ذلك المقري عندما أشار إلى " تبحر العمران" بالأندلس([4])، وهذا الإدريسي يتحدث عن إحدى القرى القريبة من منطقة رابطة كشطالي([5]) بقوله: "قرية كبيرة، ويتصل بها عمارات"([6])، وعن مدينة سالم يقول: " ومدينة سالم هذه مدينة جليلة في وطاء من الأرض ، كبيرة القطر والعمارات "([7])، وفي مدينة مرسية يقول: "وبها من البساتين والأشجار والعمارات ما لا يؤخذ بتحصيل "([8])، وعن غرناطة يقول ابن

---

١ ) ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص401.

٢ ) م.ن: ص172.

٣ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص205.

٤ ) م.ن: ج1، ص126.

٥ ) تبعد عن نهر أبره 16 ميلاً إلى الغرب ( الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص555).

٦ ) م.ن: ج2، ص555.

٧ ) م.ن: ج2، ص553.

٨ ) م.ن: ج2، ص559.

الخطيب: "وكان لها من الشهرة والعمارة، ولأهلها من الثروة والعدة..." وقد خلفت غرناطةُ في عمارتها مدينة إلبيرةَ، وهي –غرناطة– متسعة العمارة([1])، أما قرطبة فإنها بلغت "عند انتهائها في التوسيع والعمارة واحد وعشرون ربضاً([2])"([3]).

وكانت هناك مبالغة من قبل الأسر الحاكمة في قرطبة، وكبار الملاك، والتجار، وعامة الناس في الترف في مساكنهم، فقد كانوا يختارون لبنائها المواقع المتميزة، وكان من بين المواقع التي اختاروها؛ تلك المساكن المطلة على شاطئ النهر العظيم([4]).

وقد عد رحالة المسلمين المنشآت العمرانية لوناً من ألوان الحضارة، ويبدو ذلك مفهوماً من خلال حديث الإدريسي عن مدينة مربلة([5])، ففيها يقول: " ومربلة مدينة صغيره متحضرة، ولها عمارات..."([6]).

وكانت بعض المدن تتميز بمجملها بجمال مبانيها، وهي موصوفة بذلك، ومن المدن التي وصفت بذلك مدينة إشبيلية "فمن محاسنها... حسن المباني"([7])، ولم يكن العرب في تفننهم بالبناء بالبناء بدعاً من الأمم، فقد اعتمدوا في فنون البناء على الأمم التي سبقتهم، إضافة لما لديهم من فنون([8]).

ولقد اشتهرت الأندلس بطابع فني ومعماري مميز في الأبنية المختلفة، سواء كانت دينية، أو مدنية، أو عسكرية، فقد اهتم الأندلسيون بتنميق العناصر المعمارية في النواحي الشكلية والزخرفية([9]).

وكان ما تميزت به العمارة في الأندلس من بناء المدن والقرى هو الطراز العربي الأصيل، وكان غاية في الجمال والأناقة، فالأحياء القديمة في قرطبة، وغرناطة، وإشبيلية، وطليطلة، وسائر المدن الأندلسية، وقراها، كبيرة كانت أم صغيرة؛ كانت تتمتع ببيوت لكل منها

---

١) ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص91.

٢ ) الرَّبَضُ نَواحِي الشيء ( ابن سيده: المحكم، ج8، ص196).

٣ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص465.

٤ ) ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج2، مج4، ص302.

٥ ) مربلة: مدينة صغيرة مسورة بقرب مرسى سهيل ومرسى مالقة (الحميري: الروض المعطار، ص534).

٦ ) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص570.

٧ ) ابن حزم وآخران: فضائل الأندلس، ص51.

٨ ) العقاد، عباس: أثر العرب في الحضارة الأوروبية، مصر، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.ط، ص63.

٩ ) العمير، عبد الله إبراهيم: صدرية رخامية من الأندلس، مجلة جامعة أم القرى للبحوث العلمية المحكمة، العدد15، السنة10، 1417هـ=1997م، ص318.

فناء داخلي، أو صحن يتوسطه بركة ماء، وتزينه أحواض النباتات والزهور، وإذا كانت الدار كبيرة كانت تحوي أكثر من فناء داخلي الواحد فيها أجمل من الآخر(١).

وكان التفوق على المستوى العمراني غالباً يظهر في مباني رجال الحكم، والأغنياء، وأصحاب رؤوس الأموال، ولذلك نرى أن الملوك من أشد الناس عناية بالمسكن، إذ كانوا يطلقون على قصورهم أسماء فخمة؛ دالة على ترف المعيشة فيها، وكانت تلحق بهذه القصور مجالس للمَلك وسمرائه(٢).

وكان رجالات الدولة يتشبهون في ذلك بالملوك، فإنهم أولعوا بترف البناء، كصاحب الأشغال الخراجية "صاحب الخراج"، فقد كان هذا المنصب أعظم من الوزارة، وأكثر أتباعاً وأصحاباً، وأجدى منفعة، وكان صاحب هذا المنصب في بعض الأحيان يستغل منصبه في كثرة البناء، مما كان يعرضه في مثل هذه الحالة إلى المساءلة والنكبة على يد السلطان(٣).

وتبعهم في ذلك الأثرياء من أهل الأندلس، والذين كانوا يفضلون السكن في البيوت المترفة بعيداً عن صخب المدن، فكانوا يسكنون في الريف في بيوت ذات حدائق(٤).

ولعله من الطبيعي أن يحاول عامة الناس التشبه بملوكهم، وهو ما أشار إليه ابن خلدون بأن "العامة على دين الملك ...، إذ الملك غالب لمن تحت يده ، والرعية مقتدون به ، لاعتقاد الكمال فيه؛ اعتقاد الأبناء بآبائهم، والمتعلمين بمعلميهم"(٥).

إن مظاهر البناء المترف التي أشرف عليها المهندسون المسلمون في الأندلس بهرت كل من رآها، حتى امتد تأثيرها شرقاً وغرباً، وأصبحت منهلاً خصباً، اقتبس منه فنانو أوروبا أعظم أعمالهم الفنية(٦)، فإذا كان هذا تأثيرها خارج الأندلس، فكيف سيكون تأثيرها على الأندلسيين أنفسهم، إن ذلك بالتأكيد سيكون دافعاً للعامة كي يتشبهوا في مساكنهم بمساكن الأغنياء.

وكان فتح الأندلس من أعظم الفتوحات التي تمت في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وقد عُرف عنه ولعه وشدة كلفه بالعمارات، والأبنية، واتخاذ المصانع، والضياع، وكان

---

١ ) الكزبري، سلمى الحفار: "محاضرات"، بصمات عربية ودمشقية في الأندلس، دمشق، منشورات وزارة الثقافة، 1993م، ص23.

٢ ) ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص274.

٣ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص217.

٤ ) ديورانت: عصر الإيمان، ج2، مج4، ص302.

٥ ) ابن خلدون: المقدمة، ص147.

٦ ) الكحلاوي، محمد: عرفاء البناء في المغرب والأندلس وأهم أعمالهم المعمارية، السجل العلمي لندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، القسم الثالث، الحضارة والعمارة والفنون، الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ط1، 1417هـ=1996م، ص199.

الناس في زمانه إذا التقوا سأل بعضهم بعضاً عن الأبنية، والعمارات[1]، ومن المؤكد أن الوليد كان سينقل طريقته في معالجة العمران إلى ما يسيطر عليه من الأرض، ولكن يبدو أن هذا الأمر لم يطل، فقد امتد عصر الولاة عقب فتح الأندلس قرابة نصف قرن إلا قليلاً، وكانت الصراعات خلال هذه المدة على أشدها، ولذلك لم يكن يُتوقع أن تعرف البلاد نمواً فنياً وعمرانياً، ولا ازدهاراً اقتصادياً[2]، هذا بالإضافة إلى كون هذا العهد يعد عهداً للفتوحات والتأسيس، ولذلك فإن المصادر أهملت الحديث عن الحياة العمرانية خلال هذه الحقبة، إذ أن المسلمين لم يكن بمقدورهم الاشتغال بالبنيان والعمران على حساب الجهاد والفتوحات[3]، مما جعل من الصعب الحصول على معلومات بهذا الشأن، على الرغم من أن الجيش الإسلامي كان يحوي عدداً من البنائين، الذين أسهموا في بناء بعض المساجد، كمسجد سرقسطة، والذي يُروَى بأن التابعي أبو رشدين حنش الصنعاني (ت100هـ=718م) هو الذي بناه[4]، وهو ممن دخل الأندلس مع موسى بن نصير[5].

ويعد عهد الدولة الأموية بالأندلس عصراً لإنشاء المدن الإسلامية والمنشئات العمرانية الأخرى، وهي السمة التي ميزت هذه المدة، فكان بناء القصور وغيرها بحثاً عن مظاهر الفخامة والترف[6]، وقد تميزت قصور حكام الأمويين في قرطبة بأبوابها الفخمة، وأعمدتها المشتقة من الرخام، وأرض مبلطة بالفسيفساء، وأسقف مُذَهبة تحتوي على نقوش جميلة، لا يمكن أن تكون إلا من إنتاج المسلمين[7].

ولتجميل بيوتهم سعى الأمويون لإحضار مستلزمات الفخامة والترف من البلدان الأخرى، فاستخدموا لبناء قصورهم الرخام بمختلف أنواعه، وجلبوه من شتى البقاع، كالرخام الأبيض من المرية، والمجزع[8] من رية، والوردي والأخضر من أفريقية[9].

---

١ ) ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت، دار صادر، د.ت.ط، ص127.

٢ ) قجة، محطات أندلسية، ص69.

٣ ) شتيوي، أشرف: الأندلس في عصر الولاة "رسالة ماجستير غير منشورة"، نابلس، جامعة النجاح الوطنية، 2004م، ص171.

٤ ) الحميري: الروض المعطار، ص317؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج13، ص125.

٥ ) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج13، ص125.

٦ ) مصطفى، خزعل ياسين: بنو أمية في الأندلس ودورهم في الحياة العامة "أطروحة دكتوراه"، الموصل، جامعة الموصل، 2004م، ص151.

٧ ) ديورانت: عصر الإيمان، ج2، مج4، ص302.

٨ ) مُجَزَّعٌ ، أَيْ مُقَطَّعٌ بِأَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ ( الزبيدي: تاج العروس، ج20، ص434).

٩ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص163.

ومع سيطرة عبد الرحمن الداخل وبعد توطيد حكمه في الأندلس عُرف عنه شروعه في تطوير قرطبة في جميع شؤونها، كتشييد المباني وبناء الأسوار، بالإضافة إلى بناء قصر الإمارة في قرطبة، مضافاً لذلك بناؤه لمدينة الرصافة( [١])، مع إنشاء قصر فخم فيها( [٢]) هو قصر الرصافة، وقد قام من جاء من بعده من الحكام بإضافة أجنحة أخرى، أطلقت عليها أسماء زاهية، كقصر الروضة، وقصر المعشوق، وقصر التاج( [٣])، كما توسع الداخل في عمران قصر قرطبة الكبير فبلغ تعداد الدور في القصر نفسه أكثر من أربعمائة وثلاثين، وعدد دور الرعايا مائة وثلاثة عشر ألف دار([٤]).

وقد وصف ديورانت قصور عبد الرحمن الداخل وصفاً يدل على العظمة والأبهة، فقال: "ويصف مؤرخو العرب هذه القصور وصفاً يجعلها تضارع في جمالها وترفها قصور نيرون في رومة"([٥]).

ويبدو أن الأمويين في الأندلس كانوا مولعين باتخاذ المدن الجديدة، سواء لسكنى العامة من الناس، أو لسكنى جنودهم وعمالهم، وذلك من باب التوسع في العمران، ويستشف ذلك من قيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم (ت 238هــ=852م) ببناء مدينة مرسية، مستخدماً في بنائها أحد رجالاته، وهو جابر بن مالك بن لبيد( [٦])، وكان ذلك عام ( 210هــ=825م)([٧])، وهي ذات ربض عامر آهل بالسكان([٨]).

وكان لإعلان الناصر الخلافة بريقاً خاصاً، دفعه لأن يرتقي إلى مصاف الخلفاء العظام، فشغف بالعمارة والبناء، ولذلك "اختط مدينة الزهراء، واتخذها منزله، وكرسياً لملكه، فأنشأ فيها من المباني ، والقصور "([٩])، وكان هذا الشغف هو الدافع الأكبر لبناء هذه المدينة، فصَوَّرت الزهراء وعلى مر العصور مظهر المُلك الباذخ، ولعل من بواعث الناصر على بناء الزهراء

---

١ ) أشار الدكتور أحمد فكري إلى أن الخلفاء الأمويين في الأندلس زادوا قصوراً إلى قصورهم بعضها كان داخل قرطبة وبعضها الآخر في ضواحيها، والتي عرفت عند الأندلسيين باسم المنى وكان أشهرها منية الرصافة التي بناها الأمير عبد الرحمن الداخل ( أحمد فكري: قرطبة في العصر الإسلامي "تاريخ وحضارة"، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1983م، ص182).

٢ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص546.

٣ ) ديورانت: عصر الإيمان، ج2، مج4، ص302.

٤ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص540.

٥ ) ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج2، مج4، ص302.

٦ ) هو والي كورة تدمير للأمير عبد الرحمن بن الحكم ( ابن الدلائي: نصوص عن الأندلس، ص6).

٧ ) ابن الدلائي: نصوص عن الأندلس، ص6؛ الحميري: الروض المعطار ، ص539.

٨ ) الحميري: الروض المعطار ، ص539.

٩ ) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج4، ص184-185.

رغبته في تمييزها عن المظاهر العامة لعاصمته المكتظة، فهو يريد إظهار فخامة الملك من وراء هذا البناء([1])، مما يؤكد بأن المباني التي عرفتها قرطبة كانت غاية في الفخامة والعظمة، وإلا لما عمل الناصر على بناء الزهراء بهذه العظمة لتمييزها عن بقية مناطق قرطبة.

ولإنجاز مشاريعه الإعمارية المترفة، التي تعد امتداداً لإنجازات أجداده في الأندلس؛ لم يقتصر اختيار الناصر على مهندسين من الأندلس، بل إنه استقدم عدداً من المهندسين من شتى الأرجاء، ويمكن استشفاف ذلك من خلال حديث ابن خلدون عن عبد الرحمن الناصر وأجداده في الأندلس من قبله، إذ يقول: " ولما استفحل مُلك الناصر ؛ صرف نظره إلى تشييد المباني ، والقصور، وكان جده الأمير محمد، وأبوه عبد الرحمن الأوسط، وجده الحكم قد اختلفوا في ذلك، وبنوا قصورهم على أكمل الاتفاق والضخامة ، وكان منها المجلس الزاهر ، والبهو الكامل ، والقصر المنيف، فبنى هو إلى جانب الزاهر قصره العظيم ، وسماه دار الروضة ، وجلب الماء إلى قصورهم من الجبل، واستدعى عرفاء المهندسين، والبنائين من كل قطر ، فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية "([2])، وجلب للمدينة عمال بناء من بلاد الروم، واقتص أحجارها من الجبل، وبناها مدورة، وجعل فيها ثلاثمائة برج، وشرفاتها من حجر واحد، وقسمها إلى ثلاثة أقسام، ثلث منها لقصوره، والثلث الثاني دور المماليك والخدم، وعددهم اثنا عشر ألفاً، والثلث الثالث من المدينة كان عبارة عن البساتين والجنات تحت قصوره، وصنع لنفسه فيها مجلساً يشرف من خلاله على البساتين، وصفّح أعمدته بالذهب، ورصعه بالياقوت والزمرد واللؤلؤ، وفرشه بالرخام المنقوش، وعمل أمامه بحيرة([3]) مستديرة ملأها بالزئبق، فكان النور ينعكس من خلالها إلى المجلس([4])، ويبدو أن الناصر كان يحاول بتنميقه لمجلسه محاكاة أوصاف الجنة التي وردت في الأحاديث النبوية، فقد كان هذا المجلس يسمى بمجلس الخلافة، وسمكه من الذهب والرخام، وقراميده من الذهب والفضة، وله ثمانية أبواب انعقدت على أقواس من العاج والأبنوس المرصع بالذهب ومختلف الجواهر([5]).

---

١ ) عنان، محمد عبد الله: دولة الإسلام في الأندلس، الخلافة الأموية والدولة العامرية، العصر الأول، ق2، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط4، 1417هـ=1997م، ص436.

٢ ) تاريخ ابن خلدون، ج4، ص184-185.

٣ ) أشار مؤلف مجهول إلى وجود صهريج كبير مملوء بالزئبق، وكان الزئبق إذا تحرك أعطى ضوءاً كضوء البرق خصوصاً عندما ينعكس على جدران المجلس المذهبة والمفضضة ( مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص164).

٤ ) الذهبي: سير ، ج8، ص267-268.

٥ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص164.

ومن صور الترف التي ظهرت في مدينة الزهراء إسراف الناصر على بناء صرح ممرد في قصر الزهراء، له قبة من قرميد مغطاة بالذهب والفضة، منفقاً في ذلك أموالاً ضخمة، حتى كانت تسلب الأبصار بأشعة أنوارها، فشهد له أعوانه بعدم وجود نظير لها بقولهم: " إنك لأوحد في شأنك كله، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأيناه، ولا انتهى إلينا خبره"(١)

وقد وصف المقري الخليفة الناصر مشيراً إلى شغفه بالعمران، حتى أنه ابتنى مدينة الزهراء بناءً شاع ذكره في الآفاق؛ بسبب ما بذله من الجهد في تزيين المدينة الجديدة، وإتقان قصورها وزخرفة مصانعها، وانهمك في عمرانها لدرجة أنه عطل صلاة الجمعة بالمسجد الجامع لثلاث جمع متوالية(٢)، فجاءت المدينة غاية في الإبداع، حتى كانت "من أنبل ما بناه الإنس، وأجله خطراً، وأغرب ما بُني في الإسلام، وأعجبه... وعدد ما أنفق في بنائها خمسة عشر ألف بيت مال، مبلغ ذلك بأكيل أحد وثمانون مدياً ونصف"(٣)، ومن غير الواضح ما هو المقصود ببيت المال في النص؛ غير أن المؤكد أن المبالغ التي أُنفقت في بنائها كانت مبالغ ضخمة.

واجتهد الناصر في تنميق مدينته على أفضل الطرز، فجلب لها الرخام الملون والمرمر الصافي، وكان يدفع على ثمن السارية زيادة في الأجر، وذلك ثواباً لمن أحضرها من غير الأجرة، وثمن الحمل، وكان يباشر الصناع في مدينته بنفسه(٤).

ويبدو بأن الناصر أصبح قدوة في ترفه، بحيث أصبحت قصور إشبيلية تضاهيها في الفخامة، فكانت إضافة لكونها مسكناً؛ عبارة عن حصون منيعة(٥).

أما في عهد الخليفة الحكم المستنصر، فقد قام ابن أبي عامر وهو فتى بصنع قصر من الفضة لصبح، وهي أم الخليفة الأموي هشام، وأبلغت الحكم بذلك، فأخذ الحكم يُحدّث بذلك خاصته قائلاً: "إن هذا الفتى قد خلب عقول حرمنا بما يتحفهن به "(٦)، وهذه إشارة إلى الروعة في البناء، عوضاً عن كون هذا البناء قد شيد بمعدن ثمين هو الفضة.

أما عهد المنصور بن أبي عامر فتشير بعض المصادر إلى أن دُور العامة في قرطبة خلال مدة حكمه بلغت عدداً ضخماً للغاية، حيث وصلت إلى مائتين وثلاثة عشر ألف وسبع وسبعين داراً، فيما بلغت دور الأكابر، والوزراء، والكتاب، والأجناد، وخاصة الملك حوالي

---

١ ) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص71؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج3، ص4.

٢ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص570.

٣ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص163.

٤ ) المقري: نفح الطيب، ج4، ص357.

٥ ) ديورانت: عصر الإيمان، ج2، مج4، ص302.

٦ ) المقري: نفح الطيب، ج3، ص88.

ستين ألف وثلاثمائة دار([1])، أي أن قرابة ربع دور قرطبة كانت عبارة عن دور للطبقة الغنية في المجتمع الأندلسي، وبالتأكيد فإن مظاهر الترف والأبهة ستكسو – على أقل تقدير– بيوت هذه الطبقة، التي تزيد بيوتها عن الستين ألف بيت، عوضاً عن التجار وأصحاب الأملاك الأخرى، ولذلك أينما توجه بصرك في قرطبة لن يُمنع بصرك من مشاهدة الدور الفاخرة المستجادة.

وكان من أعظم ما شيده المنصور ابن أبي عامر مدينة الزاهرة، فكان بناؤها على طريق المباهاة والفخامة([2])، وكان بها قصر يدعى قصر السرور، وكان غاية في الفخامة والترف، وآية في الإبداع من حيث التشييد والبناء، فقد تميز بارتفاع بنائه، حتى قال فيه الشاعر الأندلسي أحمد بن دراج([3]) قصيدة من إحدى قصائده ممتدحاً وممجداً هذا البناء:

| | |
|---|---|
| دار السرور المعتلي شرفاتهـا | فوق النجوم الزهر في استعلائها |
| وكأن ريحـان الحياة وروحهـا | مستنشق من نافحـات هوائهـا |
| فكأنما اصطفيت طلاقة بشـرها | من أوجه الأحبـاب يوم لقائها |
| قامت على عمد الرخام كمثل ما | نسقت نجوم النظم في جوزائها([4]) |

فيما كانت المنازل والضياع زمن عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر في الأندلس لا تعد ولا تحصى، وقد أشار ابن بسام لذلك بالقول: " وجميع أقطار الأندلس ضياعاً ودوراً، فات الناس إحصاؤها"([5]).

وبالقدر الذي تمتع فيه أرباب السلطة بالترف تبعهم كبار قادتهم ومعاونيهم، فسعوا للاستحواذ على ما استطاعوا من الضياع والدور فعيسى بن سعيد والمعروف بابن القطاع([6]) (ت397هـ=1006م) سار في هذا الاتجاه وفيه يقول ابن بسام: " وتبجبح عيسى بعد مهلك المنصور بن أبي عامر (ت392هـ) في دولة ابنه عبد الملك، فتناهى في الاكتساب بالحضرة وجميع أقطار الأندلس ضياعاً ودوراً، فات الناس إحصاؤها"([7]).

---

[1] ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص541.

[2] ) م.ن: ج1، ص585.

[3] ) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج المعروف بالقسطلي، ينسب إلى بلد تسمى قسطلة دراج، وهو معدود في الأندلس في جملة العلماء، والمتقدمين من الشعراء، والمذكورين من البلغاء ( ابن دحية، ذي النسبين أبي الخطاب عمر بن حسن: المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق إبراهيم الأبياري، وحامد عبد المجيد، بيروت، دار العلم للجميع، د.ت.ط، ص156).

[4] ) ابن الكتاني: التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، ج70.

[5] ) ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص124.

[6] ) وصفه ابن بسام بأنه " كان عيسى بن سعيد المعروف بابن القطاع قيم دولة ابن أبي عامر وحامل لوائها، والمستقل بأعبائها، ومالك زمام إعادتها وإبدائها" ( ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص123).

[7] ) ابن بسام: الذخيرة: ج1، ص124.

ومع تولي مظفر والمبارك موليا ابن أبي عامر الحكم نشطا في بناء القصور، واتبعا العادة السائدة في الأندلس، فألحقا بقصورهما بيوتاً لحريمهم عرفت بمنازل القصر([١]).

وفي عصر الطوائف ( 422-478هـ=1031-1085م) استمرت ظاهرة البحث عن المادة ومظاهر البذخ، وكانت الطبقة الحاكمة ومن يلوذ بها إضافة إلى بقية أفراد الطبقة الغنية تتفنن في بناء القصور، وابتداع ألوان الزخارف فيها، وكانت هذه القصور مثوى لكثير من صور الترف([٢]).

ولقد انصرف جهد ملوك الطوائف إلى الإنشاءات والتعمير؛ من أجل تخليد ذكراهم، على أن هذه العمائر والإنشاءات كان ينصرف معظمها إلى غاية الترفيه ولا حاجة أساسية لها([٣]).

كما سعى ملوك الطوائف إلى الاستزادة من مظاهر الترف في البناء والمظاهر المادية الأخرى لإظهار القوة والعظمة بين ملوك الطوائف الآخرين، كنوع من أنواع التنافس بينهم([٤]).

وكما اتخذ الأمويون مجالس بقصورهم، فإن ملوك الطوائف ألحقوا بقصورهم مجالس للسمر، كمجلس الذهب، وهو مجلس في قصر دار السرور في سرقسطة، من قصور المقتدر بن هود (475هـ=1082م)([٥]).

ويصف ابن خلكان قصور المعتضد وابنه المعتمد من بعده؛ مشيراً إلى أنها كانت في غاية الحسن والبهاء، وتوجد على جانب مدينة إشبيلية، ولا ينقص الإنسان فيها شيئاً من طعام وشراب ولباس وفراش، حتى أن أصحاب يوسف بن تاشفين حاولوا أن يلفتوا نظره إلى ما فيها من النعمة والإتراف([٦])، وكأنهم يطلبون منه مقارنة حياته مع حياة ملوك الطوائف، أو أنهم يريدون إبراز مدى المبالغة التي وصل إليها يوسف بن تاشفين من التقشف الذي عرف به.

وكان للمعتضد (ت 461هـ=1069م) قصراً من قصوره موصوفاً بالروعة، يسمى الكازار، وكان رمزاً للعظمة والأبهة والفخار، فأصبح اسم الكازار يطلق على جميع القصور الإسلامية في الأندلس فيما بعد([٧]).

---

١) م.ن: ج5، ص15.

٢) عويس عبد الحليم: التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس، القاهرة، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط 1، 1414هـ=1994م، ص19.

٣) كحيلة، القطوف الدواني، ص115.

٤) عويس: التكاثر المادي، ص19.

٥) ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص274.

٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص119.

٧) زبيب، نجيب: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، بيروت، دار الأمير للثقافة والعلوم، ط 1، 1415هـ=1995م، ج2، ص257.

وكانت النظرة إلى العلماء تبدو نظرة استثنائية، ففي بعض الأحيان كان العلماء يُلامون بسبب بساطة مساكنهم، وكأنه من الغريب أن يكون صاحب المكانة العلمية زاهداً، بل يجب عليه أن يسكن من البيوت أفضلها، ولعل طلب الوزير هاشم بن أبي رجاء الألبيري( [١] ) من الفقيه الزاهد أبي إسحق بن مسعود (ت460هـ=1068م)([٢])، دليلاً واضحاً على ذلك ، فهو يطلب من أبي إسحاق أن يتخذ منزلاً يكون عجباً في أعين الناظرين ليتناسب مع مكانته العلمية، غير أن أبا إسحاق وصف هذه الواقعة بأبيات من الشعر، رد من خلالها على ذلك الطلب، وفيها يقول:

| | |
|---|---|
| قالوا ألا تَستجِـيدَ بيتاً | تعجب من حُسْنهِ البيوتُ |
| فقلتُ ما ذاكمْ صوابٌ | حقيرٌ([٣]) كثيرٌ لمن يموتُ |
| لولا شِتاءٌ ولفحُ قيـظٍ | وخوف لصٍّ وحفظ قوت |
| ونسوةٌ يبتغين كِنـــاً([٤]) | بنيت بُنيـان عنكبـوت([٥]) |

وكان لولاة المدن زمن الطوائف نصيب من الترف في منازلهم؛ التي كانوا يتخذونها كمقرات لحكمهم داخل المدن التي يحكمونها، ويدل على ذلك أبيات من الشعر أنشدها أبو بكر بن عمار([٦]) عندما وجهه المعتمد (ت488هـ=1095م) إلى شلب([٧]) ليتفقد أحوالها، فقد كان أبو بكر والياً عليها في عهد أبيه المعتضد، وقد أعلن أبو بكر تشوقه إلى مسكنه، والمعروف بقصر الشراجب في شلب بقوله:

| | |
|---|---|
| ألا حَيِّ أوطاني بشلبٍ أبـا بكـرٍ | وسَلْهُنَّ هل عهدُ الوصالِ كما أدري |

---

١ ) هو الوزير أبو خالد هاشم بن أبي رجاء الإلبيري ، كان من عظماء أهل إلبيرة ( ابن الخطيب: الإحاطة، ج4، ص317).

٢ ) هو أبو إسحاق الألبيري، ينسب إلى كورة إلبيرة، ويعد من الشعراء الزهاد، وله في ذلك شعر ( الحميري: الروض المعطار، ص28).

٣ ) عند ابن سعيد حفش بدلاً من كلمة حقير(ابن سعيد: المغرب، ج 2، ص 133) والحفش هو البيت الصغير(الرازي: مختار الصحاح، ص 61)؛ وعند المقري: استخدم كلمة عش( نفح الطيب، ج 3، ص491).

٤ ) عند ابن سعيد أيضاً ستراً بدلا من كلمة كنا (المغرب، ج 2، ص133) ومثله المقري ( نفح الطيب، ج 3، ص491)، والكِنُّ، والكِنَّةُ، والكِنَانُ: وِقاء كل شيءٍ وسِتْرُه ( ابن منظور: لسان العرب، ج13، ص360).

٥ ) ابن الخطيب: الإحاطة، ج4، ص317.

٦ ) هو الوزير أبو بكر محمد بن عمار عصامي، أديب شاعر مجيد، وله ديوان تداوله الأندلسيون ( المراكشي: المعجب، للمراكشي، ص111).

٧ ) شلب: بكسر أوله وسكون ثانيه وآخره باء موحدة هكذا أهل الأندلس يتلفظون بها ، وقيل بفتح الشين، وهي مدينة بغربي الأندلس ، وبينها وبين باجة ثلاثة أيام ، وهي غربي قرطبة ( الحموي: معجم البلدان ، ج3، ص357).

وسلِّم علي قصرِ الشراجبِ عن فتىً   لـــه أبداً شوقٌ إلى ذلك القصـرِ([1])

وتعزيزاً لجانب الترف الفني في القصور، استخدم ملوك الطوائف في بناء قصورهم مهندسين متخصصين، أبدعوا في مجال الهندسة والعمارة، مما جعل المبالغة فيها محل انتقاد الشعراء، ويشير إلى ذلك ما فعله المأمون يحيى بن ذي النون (ت460هـ=1068م) صاحب طليطلة (تملكها عام 435هـ=1044م) حيث بنى قصراً له مبالغاً في الإنفاق عليه، والتأنق فيه، ووصف المقري عملية بنائه بقوله: " تأنق في بنائه، وأنفق فيه مالاً كثيراً، وصنع فيه بحيرة، وبنى في وسطها قبة، وسيق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها، محيطاً بها، متصلاً بعضه ببعض، فكانت القبة في غلالة ([2]) من ماءٍ سُكب لا يفتر، والمأمون بن ذي النون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل، فبينما هو فيها إذ سمع منشداً ينشد

أتبني بناء الخالديـــن وإنمـا   بقاؤك فيها لو علمــتَ قليلُ

لقد كان في ظلِّ الأراك([3]) كفاية   لمن كل يومٍ يعتريه رحيلُ([4])

وزاد في عهد الطوائف الإنفاق على بناء المنازل لدى العامة كذلك الأمر، حتى تجاوز ثمن الواحدة منها مائة ألف دينار، أو قاربتها، وقد صور ابن بسام ذلك بالقول: "فمنهم من قدرت نفقته على منزله مائة ألف دينار، وأقل منها، وفوقها حسب تناهيهم في سروها ([5]) من نضار الخشب، ورفيع العمد، ونفيس المرمر مجلوباً من مظانه، وجلب إليهم سني الفرش من سائر الحلي والحلل، فنفق سوق المتاع بعقوتهم ([6])، وبعثر عن ذخائر الأملاك لقصرهم، وضرب تجارها أوجه الركاب نحوهم، حتى بلغوا من ذلك البغية، وفوق ملء فؤاد الأمنية، فما شئت من طرف رائع، ومركب ثقيل وملبس رفيع جليل، وخادم نبيل، وآلات متشاكلة، وأمور متقابلة، تروق الناظرين، وتغيظ الحاسدين"([7]).

ومع دخول الأندلس تحت السيطرة المرابطية بهرت العمارة التي زينت الأندلس أعين أمراء المرابطين؛ من كافة المنشآت والقصور والمساجد والحمامات، مما حدا بهم لأن يستقدموا

---

١) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج2، ص133.

٢) الغَلَل: الماء الذي يَتَغلغل بين الشَّجر ( ابن سيده: المحكم، ج5، ص368).

٣) الأراك: شجرة طويلة خضراء ناعمة، كثيرة الورق والأغصان، خوارة العود، تنبت بالغور، تتخذ منها المساويك ( ابن منظور: لسان العرب، ج10، ص388).

٤) المقري: نفح الطيب، ج4، ص353.

٥) السَرْوُ سَخاءٌ في مُروءة، والسرو شجر، وهو جمع سروة ( ابن منظور: لسان العرب، ج14، ص377).

٦) العَقْوةُ والعَقَاةُ: الساحة وما حولَ الدارِ، والمَحَلَّة ( ابن منظور: لسان العرب، ج15، ص79).

٧) ابن بسام: الذخيرة، ج 5، ص17-18.

مهرة البناء الأندلسيين إلى المغرب، وقد فعل ذلك يوسف بن تاشفين ليستعين بهم في بناء مدينة فاس([1])، وخصوصاً بعد حث أصحاب يوسف له بأن يتأمل في النعيم الذي عاشه ملوك الطوائف([2]).

وفي هذا العصر أيضاً كانت العناية من قبل بعض الأندلسيين وخاصة كبار رجال الدولة بمساكنهم وما حولها فائقة، فجاءت غاية في الترف والنعيم، حيث أن الاهتمام كان يتجاوز حد جدران المنزل بتكوين حديقة أمام المنزل وحوله، وقد أشار الفتح بن خاقان إلى زيارة من قبل الأديب أبي عبد الله محمد بن عائشة([3]) إلى منية الوزير أبي بكر بن عبد العزيز([4])، وهو يصف يصف المنية أثناء حديثه عن الزيارة، قائلاً : "وخرج من بلنسية إلى منية الوزير الأجل أبي بكر بن عبد العزيز ، وهي من أبدع منازل الدنيا ، وقد مدت عليها أدواحها الأفيا ، وأهدت إليها أزهارها العرف والريا ، والنهر قد غص بمائه، والروض قد خص بمثل أنجم سمائه ، وكانت لبني عبد العزيز فيها أطراب تهيأ لهم فيها من الأيام آراب ، فلبسوا فيها الأُنس حتى أبلوه ، ونشروا فيها السرور وطووه"([5]).

لقد بلغت بيوت علية القوم في هذا العهد مبلغاً عظيماً من الترف، فكانت تزين بالفرش الوثيرة، وأنواع البسط الفاخرة، والستائر الجميلة؛ المصنعة من الديباج، إضافة لتغليف الحيطان بالحصر الفاخرة المبهجة للعيون، والأرض مغطاة بالفسيفساء([6]).

وبسبب هذا التفنن والعناية بالمسكن؛ فقد وُصف ولاة أمر المرابطين والموحدين على السواء بميلهم إلى دفع عجلة البناء والتعمير في شتى أرجاء البلاد، فمع قيام الدولة الموحدية شهدت البلاد اهتماماً بالغاً من خلفائها بالإنشاء والتعمير، سواء في المغرب أو في بلاد الأندلس([7])، فوصفهم ديورانت بأنهم كانوا من أكثر الحكام نشاطاً في العمارة([8]).

وكان الموحدون في بداية عهدهم وقبل أن يصبحوا ملوكاً يسكنون مساكن بسيطة، سرعان ما تحولت إلى منازل فخمة مترفة بعدما صاروا ملوكاً، ويبدو ذلك واضحاً من حديث

---

١ ) حسن: الحضارة الإسلامية، ص374-375.

٢ ) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج7، ص119.

٣ ) أبو عبد الله محمد بن عائشة : عاش في مدة حكم المرابطين وكان معاصراً للشاعر أبي ابن خفاجة(ت533هـ-1138م) ( ابن سعيد: المغرب، ج2، ص314).

٤ ) أبو بكر بن عبد العزيز : هو والي بلنسية، ولاه عليها القادر بن ذي النون، إلا أنه استبد بحكمها (ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص208).

٥ ) ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص199.

٦ ) دندش: الأندلس في نهاية عهد المرابطين، ص324.

٧ ) حسن: الحضارة الإسلامية، ص373.

٨ ) ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج2، مج4، ص329.

ابن خلدون بقوله: "كانت دولة الموحدين، وزناته التي أظلتنا كان سفرهم([1]) أول أمرهم في بيوت سكناهم قبل الملك من الخيام والقياطين ([2])، حتى إذا أخذت الدولة في مذاهب الترف ، وسكنى القصور وعادوا إلى سكنى الأخبية([3])، والفساطيط بلغوا من ذلك فوق ما أرادوه وهو من الترف الترف بمكان"([4]).

وفي عهد عبد المؤمن الموحدي (ت558هـ=1163م) تم بناء مدينة الفتح، وكانت في غاية الأناقة، حتى فاقت كثيراً من المدن حسناً وجمالاً، ويصف الحميري هذا الأمر بقوله: "وكان أحد خلفاء بني عبد المؤمن أمر ببناء مدينة على جبل طارق، فندب إليها البناة ، والنجارين، وقطاع الحجر للبنيان ، والجيار ([5]) من كل بلدة ، وخطت فيه المدينة ، وقدم إليها من المال ما يُعجز كثرة، واتخذ فيها الجامع وقصراً له، وقصوراً تجاوره للسادة بنيه، وتوالى العمل في ذلك، وأقطع أعيان وجوه البلاد فيه منازل ، نظروا في بنائها ، بعد أن حفروا في سفح الجبل مواضع نبع فيها الماء، وجمع بعضها إلى بعض، حتى سال منها جدول عم المدينة لأنفسهم وماشيتهم من أعذب الماء وأطيبه، يصب في صحن عظيم اتُخذ له، وأجري إلى الجنات المغترسة بها عن أمره، فللحين ما جاءت مدينة تفوت المدن حسناً وحصانة، لا يُدخل إليها إلا من موضع واحد؛ قد حصن بسور منيع من البنيان الرفيع، وسميت بمدينة الفتح"([6]).

وعندما توجه قائدا الجيش الموحدي للأندلس بهدف القضاء على تمرد ابن مردنيش (ت567هـ=1171م) دخلا مدينة بلس([7]) فوصفاها بالقول: "سقع([8]) كثير القرى والعمائر ،

---

[1]) رجلٌ سَفْرٌ وقومٌ سَفْرٌ وسافِرةٌ وأسْفارٌ وسُفَّارٌ : ذَوُو سَفَرٍ لِضِدِ الحَضَرِ (الفيروزآبادي، مجد الدين بن محمد بن يعقوب الشيرازي: القاموس المحيط، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3، 1398هـ،1978م، ج2، ص518).

[2]) لم أجد لها تعريف فيما بين يدي من مصادر لغوية.

[3]) الأخْبِية: بُيوتُ الأعْراب فإذا ضَخُم الخِباء فهو بَيت ( ابن سيده: المخصص، ج2، ص5).

[4]) ابن خلدون: المقدمة، ص268.

[5]) الجَيَّارُ: خُلط الرَّمادُ بالنُّورَةِ والجِصِّ ( ابن منظور: لسان العرب ، ج4، ص156)، والنُّورَةُ حجر الكلس (الفيومي المصباح المنير ، ، ج2، ص630).

[6]) الحميري: الروض المعطار، ص382.

[7]) ذكرها الحموي باسم مرية بَلَّش، وهي بلدة بالأندلس من أعمال رية ( الحموي: معجم البلدان ، ج5، ص120).

[8]) السُّقْعُ: ناحية من الأَرض ( ابن منظور: لسان العرب، ج8، ص159).

ونظر معدوم النظائر وفي حصون وقلاع سمت مبانيها باليفاع( [1]) وتناسقت الأعيان في الارتفاع"([2]).

أما الخليفة أبو يعقوب (ت580هـ=1184م) فكان مغرماً بالمشاريع الإنشائية العظيمة، فقد أنشأ عدداً من المنشآت العمرانية الهامة، ومن هذه المشاريع تلك القصور العظيمة في إشبيلية([3])، خارج باب جهور، وقصوره المعروفة باسم البحيرة، وقد أشرف على بناء هذه القصور عريف البنائين بالأندلس أحمد بن باسة، فجاءت غاية في الحسن، ومعجزة في الوصف، وبنى في موضع آخر قصوراً ودوراً، وأخذ من الناس مواضع أخرى في إشبيلية لبناء قصوره عليها، بعد أن عوضهم عوضاً مجزياً عما أخذ منهم من الأراضي([4]).

وعُرف عن الخليفة أبي يوسف (ت595هـ=1199م) ولعه الشديد بالبناء، كبناء القصور، أو حتى المدن، وقد أشار إلى ذلك المراكشي بالقول: " وكان عند رجوعه من السفرة التي استنقذ فيها مدينة شلب من أيدي الروم ...، أمر أن يُبنى له على النهر الأعظم نهر إشبيلية حصن، وأن تبنى له في ذلك الحصن قصور وقباب ، جارياً في ذلك على عادته من حب البناء ، وإيثار التشييد ، فإنه كان مهتماً بالبناء ، وفي طول أيامه لم يخلُ من قصر يستجده ، أو مدينة يعمرها"([5]).

وعند حديث ابن الخطيب عن المأمون إدريس الموحدي (ت629هـ =1232م) وصفه بكونه "اشتغل بما يشتغل به الملوك من تفخيم البناء، كبينان رياض السيد الذي على ضفة الوادي بمالقة المعروف باسمه... وكان عرفاء البنائين لا يتصرفون إلا بنظره"([6]).

وبالمجمل فإن الأندلس تمتعت بتقدم العمران فيها، خصوصاً في الأزمنة التي سبقت حكم الموحدين للأندلس، ففي عهد الموحدين "تراجع أمر الحضارة والترف بتراجع العمران"([7])، وهذا وهذا يعني أن الأندلس عرفت التقدم في العمارة على مدى القرون الخمسة التي سبقت عهد الموحدين، إضافة لكونها تأكيداً على أن الأندلسيين فرّغوا كثيراً من الوقت في سبيل إعمار

---

١ ) اليفاع المشرف من الأرض أو الجبل ( ابن سيده: المحكم، ج2، ص258).

٢ ) رسائل موحدية، ج1، ص91.

٣ ) عنان: دولة الإسلام في الأندلس (عصر الموحدين)، ج5، ص137.

٤ ) ابن صاحب الصلاة، عبد الملك: المن بالإمامة "تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين"، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط3، 1987م، ص372-376.

٥ ) المراكشي: المعجب، ج1، ص292.

٦ ) الإحاطة، ج1، ص411.

٧ ) ابن خلدون: المقدمة، ص421.

بلادهم، وذلك من أجل الحصول على أفضل المساكن والمرافق داخل الأندلس، الأمر الذي يؤكد بذخاً وترفاً واسعاً في إنفاق الأموال الطائلة من أجل تحقيق هذه الغاية.

## المبحث الرابع

## الترف في الأعراس والاحتفالات

تنوعت احتفالات الأندلسيين وتعددت في شتى الأرجاء الأندلسية وعلى مدار سني حكم المسلمين للأندلس، وأشاع فيها الأندلسيون مختلف ألوان المرح واللهو، حتى تركوا لهم آثاراً خالدة في هذا المجال؛ تشير إلى ما كانوا يفعلونه في احتفالاتهم، وقد عد ابن خلدون ما يتم في الأعراس والولائم، من آثار الدول الدالة عليها([١]).

ومن المعروف عن أهل كثير من الأندلس أنهم محبون للهو والترف والمجون، والاحتفال بأعيادهم، ومختلف المناسبات السعيدة التي يستحدثونها للاحتفال بالأعياد، فبخلاف احتفالهم بعيدي الأضحى والفطر، استحدثوا مناسبات أخرى للاحتفال بها منها: عاشوراء، ونصف شعبان، والسابع والعشرين من رمضان، وخميس أبريل، والعصير([٢])، الذي يقام عند جني المحصول الأساسي في البلد وهو العنب، فكانوا يقيمون عدة أيام يجمعون خلالها المحصول، ويرافق العمل جو من المرح والرقص والغناء([٣])، وتعد هذه الأعياد مناسبات للتزاور، وتبادل التحايا، واجتماع الأهل والأصحاب([٤]).

ويمكن لقارئ روايات المؤرخين عن قرطبة وأهلها أن يستشف أن مظاهر الترف والبهجة كانت هي السمة الغالبة عليها وعليهم، ومما لا شك فيه بأن الترف الذي كان يحصل عند استقبال الأمراء والخلفاء للسفراء؛ كان يجري مثله وأكثر في الأعياد والحفلات([٥])

أما أعراس الأندلسيين فقد عرفت كثيراً من ضروب اللهو والعربدة، كتواجد الراقصات اللواتي يرقصن حاسرات الرأس، كما كانت أعراسهم مجالاً لاختلاط الرجال بالنساء، وسبيلاً للإنفاق ببذخ، وكانت تعد مجالاً للمباهاة والفخر([٦])، وشاع فيها سماع الأغاني الشعبية والزجل([٧])، وكانت كلمات الأغاني تشير إلى سعادة الزوجين ومتعتهما بالالتقاء، وكانت هذه

هذه

---

١ ) المقدمة، ص178.

٢ ) دندش: الأندلس في نهاية المرابطين، ص324-325.

٣ ) العبادي، أحمد: الأعياد في مملكة غرناطة، مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، 1970م، مج، 15، ص140.

٤ ) دندش: الأندلس في نهاية المرابطين، ص324-325.

٥ ) فكري: قرطبة، ص261.

٦ ) دندش: الأندلس في نهاية المرابطين، ص331.

٧ ) عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، ص222.

الأغاني تغنى من قبل القوّالين([1])، ومنها:

| | |
|---|---|
| مشتاقةٌ طرقَتْ بالليلِ مُشتَاقــــــاً | أهلاً بمن لم يَخُنْ عهداً وميثاقا |
| يا زائراً زار من قُربٍ على بُعُـدٍ | آنستَ مُستوحشاً لا ذُقتَ ما ذاقا |
| يا ليلُ عَرّسْ على خِلَّينِ قد جعَـلا | بيضَ السواعدِ للأعناق أطواقا([2]) |

ومع انتشار الترف في الأعراس والاحتفالات؛ فإن مظاهر اللهو فيها كانت تمثل تحدياً أمام المحتسبين؛ لكونها تعمل على نشر المنكرات في الأفراح، ولذلك كان المحتسبون يعملون على منع ذلك من الأعراس([3]).

أما فيما يتعلق بالاحتفالات الدينية والتي كان منها الاحتفال بالمولد النبوي، فقد أشار المقري إلى أن ملوك المغرب كانوا يهتمون بالاحتفال في ليلة المولد النبوي الشريف، وكانوا لا يغفلون هذه الاحتفالات في مثل هذه المناسبة، وكانوا يقيمون في تلك الليلة مهرجاناً احتفالياً يدعى إليها خاصة الناس وعامتهم، وكان يستخدم لضيافتهم كل وسائل الترف المبهرة، من النمارق، والزرابي، والبسط، والوسائد، مغشاة بالذهب، والشموع، والموائد، والمباخر، وأنواع الأطعمة، وهو ما كان يتم بنفس القدر في الأندلس في مثل الاحتفالات في المناسبات المشابهة([4]).

ويشير أحمد فكري إلى أنه وبالرغم مما وصلنا من روايات للمؤرخين عن الاحتفالات في الأندلس؛ إلا أنها لم تأتِ لنا بتفاصيل حول هذه الاحتفالات كتلك الروايات التي تحدثت عن احتفالات القاهرة في العصر الفاطمي([5]).

ومع تولي الأمويين للحكم اتبعوا كثيراً من العادات المبهجة في أعراسهم واحتفالاتهم، فكانت الأعراس في عهدهم تضج بالأدباء والمُلهين، ويبدو أنهم كانوا يستغلون هذه الأعراس في المناقشات الأدبية، والتفكه، والسماع للمزامير، وقد أشار الحميدي إلى حادثة احتفاء بعرس وكان أبو عبد الله الفهري([6]) أحد المدعوين إلى هذا العرس، وهو نفسه الذي روى الحادثة قائلاً: "دعاني يوماً رجل من إخواني إلى حضور عرس له في أيام الشبيبة والطلب، ف حضرت مع

---

١) القوال: هو الفصيح جيد الكلام ( الزبيدي: تاج العروس، ج30، ص295).

٢) ابن بسام الذخيرة، ج7، ص110.

٣) ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة: تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955م، ص83.

٤) نفح الطيب، ج6، ص513.

٥) فكري: قرطبة، ص261.

٦) هو أحد تلاميذ الأديب إسماعيل بن القاسم المعروف بأبي علي القالي، والقالي دخل الأندلس عام 330هـ (الحميدي: جذوة المقتبس، ص145).

جماعة من أهل الأدب، وأحضر جماعة من الملهين وفيهم ابن مقيم الزامر، وكان طيب المجلس، صاحب نوادر، فلما اطمأن المجلس، واستمر السرور بأهله، انحرف ابن مقيم إلينا، وأقبل علينا، فقال: يا معشر أهل الإعراب واللغة والآداب ...، أريد أن أسألكم عن مسألة حتى أرى مقدار علمكم، وسعة جمعكم"(١)، وتظهر هذه الحادثة أن الأفراح لم تكن فقط تضج بالغناء بل كان فيها مجال للتسامر والنقاش في مسائل وقضايا علمية وربما غيرها من المسائل والقضايا.

ويبدو أن مظاهر البهجة والسرور التي سادت لدى الأندلسيين كانت مجالاً للتشبه بالحكام، فمن الاحتفالات المشهودة التي كانت تقام في الأندلس الاحتفال بتولي الخلافة، والتي كان لها تقاليد خاصة يتم من خلالها الانتهاء من دفن الخليفة المتوفى في مدافن خاصة، تختلف عن مدافن العامة، وأخذ البيعة لخليفته من بعده، فبعد وفاة الناصر وتولي ابنه الحكم المستنصر أمر الخلافة؛ رغب في أخذ البيعة لنفسه من أخوته( ٢)، وكان معروفاً عنه شدة حبه للاحتفالات حتى قيل "كانت أيامه كلها أعياداً"( ٣)، فأمر بجمع إخوته، وأعمامه في مدينة الزهراء، وكانوا ثمانية "فنزلوا في مراتبهم بفصلان (٤) دار الملك، وقعدوا في المجلسين الشرقي والغربي، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك في البهو الأوسط من الأبهاء المذهبة القبلية ، التي في السطح الممرد، فأول من وصل إليه الإخوة ، فبايعوه، وأنصتوا لصحيفة البيعة ، والتزموا الأيمان المنصوصة بكل ما أنعقد فيها ، ثم بايع بعدهم الوزراء ، وأولادهم ، وإخوتهم ، ثم أصحاب الشرطة، وطبقات أهل الخدمة، وقعد الإخوة والوزراء والوجوه عن يمينه وشماله، إلاّ عيسى بن فطيس(٥)، فإنه كان يأخذ البيعة على الناس ، وقام الترتيب على الرسم في مجالس الاحتفال المعروفة، فاصطاف في المجلس الذي قعد فيه أكابر الفتيان يميناً وشمالاً إلى آخر البهو ، كل منهم على قدره في المنزلة ...، فلما تمت البيعة أذن للناس بالانفضاض؛ إلاّ الإخوة والوزراء وأهل الخدمة، فإنهم مكثوا بقصر الزهراء ؛ إلى أن احتُمل جسد الناصر رحمه الله إلى قصر قرطبة؛ للدفن هنالك في تربة الخلفاء"(٦).

---

١ ) الحميدي: جذوة المقتبس، ص360-361.

٢ ) المقري، نفح الطيب، ج1، ص387

٣ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص173.

٤ ) لم أجد لها معنى فيما بين يدي من مصادر لغوية، غير أن محقق كتاب نفح الطيب ذكرها بأنها الحبة عند مدخل البيت وربما تكون على شكل رحاب وصحون متوالية تحددها هيئة الأعمدة (نفح الطيب، ج 1، حاشية ص387).

٥ ) هو الوزير عيسى بن فطيس أبو الأصبغ (ابن عبد الملك: السفر الخامس من كتاب الذيل، ج2، ص504).

٦ ) المقري: أزهار الرياض، ص201.

ومما جرت به العادة في احتفالات الحكام إحضار الشعراء والخطباء ليتحفوا الحاضرين بالخطب والقصائد في مديح السلطان ومناقبه، ومما يؤكد ذلك أن الناصر عند قدوم رسل ملك الروم إليه أمر "أن يقيم الخطباء والشعراء بين يديه بذكر جلالة مقعده ، ووصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة في دولته ، وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه ، وولي عهده بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء، ويقدمه أمام نشيد الشعراء ، فأمر الحكم صنيعته الفقيه محمد بن عبد البر الكسنياني (١) بالتأهب لذلك ، وإعداد خطبة بليغة ، يقوم بها بين يدي الخليفة ، وكان يدعي من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسعه، وحضر المجلس السلطاني، فلما قام يحاول التكلم بما رواه، بهره هول المقام وأبهة الخلافة؛ فلم يهتد إلى لفظة، بل غُشِيَ عليه، وسقط إلى الأرض"(٢).

وكان الخلفاء الأمويون يقيمون مراسم خاصة بهدف الاحتفال ببعض الأعمال العظيمة التي كانوا ينجزونها، فقد احتفل الناصر يوم أتم عمل شق القناة العجيبة، التي تصب في بركة قصر الناعورة في قرطبة؛ بدعوة العامة من الناس والمهندسين الذين قاموا على إنشاء هذه القناة، وأكرمهم، وأجزل لهم العطاء( ٣)، ولذلك يمكن القول بأن مواكب الأمراء في كثير من المناسبات كانت مجالاً لإشراك العامة في مظاهر الفرح والابتهاج(٤).

وكانت احتفالات الحكام بالزواج غاية في الترف، فكما يقول المقري بأن أعظم عرس قام في بلاد الأندلس هو عرس ابن أبي عامر (ت 392 هـ=1002م)، حين تزوج من أسماء بنت غالب صاحب مدينة سالم(٥).

وكان يُنْفَق في مثل هذه الأعراس أموالاً طائلة، وخصوصاً من قبل والد العروس "الزوجة"، فيبدو أن والدها هو من كان يتكلف نفقات العرس، ويتضح ذلك من خلال ما حكاه محمد بن أفلح غلام الحكم (٦) قال: "دُفعت إلى ما لا أطيقه من نفقة في عرس ابنة لي ، ولم يبق معي سوى لجام مُحلًى، ولما ضاقت بي الأسباب قصدته [ابن أبي عامر] بدار الضرب حين كان صاحبها، والدراهم بين يديه موضوعة مطبوعة ، فأعلمته ما جئت له ، فابتهج بما سمعه مني ،

---

١ ) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من المصادر.

٢ ) النباهي: تاريخ قضاة الاندلس، ص66.

٣ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص565.

٤ ) فكري: قرطبة، ص261.

٥ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص400.

٦ ) هو أبو عبد الله (ت385هـ=995م)، من أهل بجانة ، كان بصيراً، بالنحو حافظاً للفقه ، حسن الخط ، جيد الضبط، له حظ من الفقه، وكان حليماً أديباً ( ابن الفرضي: تاريخ العلماء بالأندلس، ج2، ص101).

وأعطاني من تلك الدراهم وزن اللجام بحديده وسيوره ، فملأ حجري وكنت غير مصدق بما جرى لعظمه، وعملت العرس، وفَضَلَتْ ليَ فضلةٌ كثيرة([1]).

ومن بين الاحتفالات المترفة التي أقامها الحكام كذلك حفلات الختان، كاحتفال ختان شنشول([2]) عام (380هـ=990م)، حيث تم إنفاق خمسمائة ألف دينار في ذلك اليوم([3]).

ولم يكتف الأندلسيون بالأعياد الدينية المعروفة، بل إنهم كانوا يقيمون كثيراً من حفلاتهم بغير مناسبة، وكان هدفها الترف والمتعة، فكانت مجالسهم تضج باللهو والشراب، وكان الحضور يتراقصون على التوالي، ويمكن لنا أن نستخلص ذلك من إحدى القصص الطريفة التي أوردها ابن بسام عن ابن شهيد (ت 393هـ= 1003م) وصاحبه البغدادي المعروف بالكك([4])، وكان ابن شهيد مصاباً بالنقرس، وكان يصلي كل صلواته جالساً بسبب النقرس، ولما سيطرت النشوة على المتسامرين، وجاء دور ابن شهيد في الرقص؛ نسي أوجاعه وقام يرقص كعادته، تعجَّب منه الكك قائلاً له: " لله درك يا وزير ، تصلي بالقاعدة، وترقص بالقائمة، فطاب المجلس بهذا الكلام، وتم حسنه أكمل تمام"([5]).

وعرفت الأندلس في احتفالات الزواج إقامة الولائم، فقد قام ابن القطاع ([6]) بتزويج ابنه ويكنى بأبي عامر من أخت عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر الصغرى عام (396هـ=1006م)، واحتفل لذلك بوليمة عظيمة([7]).

---

[1] ) المقري: نفح الطيب، ج3، ص88.

[2] ) شنشول: هو عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر صاحب الأندلس ( ابن حجر، أحمد بن علي بن محمد العسقلاني: نزهة الألباب في الألقاب، تحقيق عبد العزيز محمد بن صالح السديري، الرياض، مكتبة الرشد، 1409هـ=1989م، ج1 ، ص407).

[3] ) الذهبي: سير، ج17، ص128.

[4] ) يبدو أن الاسم فيه تصحيف أو تحريف، فقد ذكره ابن بسام في مواضع أخرى من كتابه باسم الفكيك وليس الكك ( ابن بسام: الذخيرة، ج 6، ص 674؛ ج 7، ص 368- ص 370- ص 371)؛ كما ذكره المقري وترجم له بأنه: من الوافدين على الأندلس من المشرق وهو أبو الحسن البغدادي الفكيك وكان حلو الجواب مليح التندر يضحك من حضر ولا يضحك هو إذا ندر وكان قصيرا دميما ( نفح الطيب، ج3، ص118).

[5] ) ابن بسام: الذخيرة، ج7، ص28.

[6] ) هو عيسى بن سعيد المعروف بابن القطاع، وزير المنصور بن أبي عامر، وقد بلغ غاية الغنى في عهد عبد الملك بن المنصور، فصاهر عبد الملك، حيث زوج ابنه من أخت عبد الملك الصغرى، وبلغ به الغنى أن أعجز الناس إحصاء دوره وضياعه، حتى كثر أعداءه، وكانوا يستغلون عدم حضوره مجالس الشراب عند عبد الملك، فيشون به، فوجد عبد الملك في نفسه من عيسى، إلى أن قتله في أحد مجالس شربه عام (397هـ=1007م) ( ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص123-127).

[7] ) م.ن: ج1، ص124.

وكان من المراسم التي ترافق الأعراس تلك الاحتفالات التي كانت تُسيّر في الشوارع [زفة العريس]، وكان يتخلل هذه الاحتفالات قيام شخص بالنفخ في الزامور، ويرتدي ملابس من أفضل الثياب، ويركب فرساً، ويزينه، وإلى جانبه مغنٍّ حسن الصوت يرافقه، وكان يغني بأغاني الأفراح المتداولة في ذلك الوقت، والتي كان منها ما هو من أشعار أحمد بن كليب (ت426هـ=1035 )(١) كما ذكر ذلك الحميدي عن حفل عرس حيث قال: " فلعهدى بعرس في بعض الشوارع بقرطبة، والنكوري الزامر قاعد في وسط الحفل، وفي رأسه قلنسوة وشي، وعليه ثوب خز عبيدى، وفرسه بالحلية المُحلاة يمسكه غلامه ، وكان فيما مضى يزمر لعبد الرحمن الناصر، وهو يزمر في البوق بقول أحمد بن كليب... ومغن محسن يسايره فيها"(٢).

أما عهد الطوائف فتميز بترف شديد في جميع الاحتفالات، فكانت احتفالاته مجالاً للمباهاة، وانتشرت أيضاً في هذا العهد الولائم والأعراس في بلاد الأندلس، وخاصة لدى أهل الملك، وذلك ما فعله المأمون بن ذي النون (ت460هـ=1068م) عندما أقام حفل زفافه(٣).

وتميزت حياة المأمون كلها بالترف الشديد حتى في كبره، ولعل الصورة التي رسمها ابن بسام لدعوة الطعام التي دعا لها ابن ذي النون لختان أحد أحفاده أبلغ دليل على ذلك، بقوله: "احتفل المأمون ابن ذي النون في مدعاة (٤) إعذار (٥) حفيده يحيى ، فحشد أمراء البلاد، وجملة الوزراء والقواد ...، وقد رسم لخدمته في توسيع مشارب هذا الإعذار، وإرغاد موائده، وتكميل وظائفه، وإذكاء مطابخه، رسوماً انتهوا فيها إلى حدّه، وشقق عليها جيوب أكياسه، وأمر بالاستكثار من الطهاة والإتآق(٦) للقدور، والإتراع(٧) للجفان(٨)... ولما بكرت أفواج علية الناس الناس إلى باب القصر مستبقين، وغشيته زمرهم وزرافاتهم (٩) مبتدرين، أنزلوا عن دوابهم عند باب المنصب الأول، فأذن لهم بالدخول على مراتبهم، فمشوا وقد حفهم سراة (١٠) الصقلب

١ ) هو أحمد بن كليب النحوي الأندلسي وهو شاعر مشهور الشعر؛ لا سيما شعره في أسلم بن أحمد بن سعيد قاضي الجماعة ، وقد اشتد حبه له، حتى أنه حبس نفسه في بيته حتى مات بسبب غياب أسلم ( السيوطي: بغية الوعاة، ، ج1، ص354).

٢ ) الحميدي: جذوة المقتبس، ص126.

٣ ) ابن خلدون: المقدمة، ص173-173.

٤ ) مدعاة: الدعوة للطعام ( الرازي: مختار الصحاح، ص86).

٥ ) الإعذار: طعام الختان ( ابن منظور: لسان العرب، ج4، ص551).

٦ ) الإتآق: شدَّة الامتِلاء ( م.ن: ج10، ص31).

٧ ) ترع الإناء بمعنى امتلأ ( الرازي: مختار الصحاح، ص32).

٨ ) الجفنة: كالقصعة ( م.ن: ص45).

٩ ) الزّرافات يعني الجماعات ( ابن منظور: لسان العرب، ج9، ص133).

١٠ ) سراة: أشراف ( م.ن: ج14، ص377).

الخصيان، وخواص الحشم والغلمان ...، فلما استقر فيه جمعهم ؛ خرجت تسمية من الأمير المأمون بإدخال القضاة والفقهاء والعدول، ومن يليهم من كبار الناس... ثم وصلوا إلى مجلس قد فرش بالديباج التستري المرقوم بالذهب، وسدلت فوق حناياه ستور من جنسه ، تكاد تلتمع الأبصار بنصاعة ألوانها ، وإشراق عقيانها (١)، وقد جلس لهم الأمير المأمون في جانب منه، وحفيده في جانب آخر، فأكبَّ الناس عليه يهنئونه ، ويلثمون أطرافه، ويتناغون فيما قد روَّوْا (٢) وابتدهوا(٣)، وهو يشملهم بإقبال طرفه، ويعمهم بإجمال رده، فيثنون منه إلى حفيده "(٤)، وكان طعام الإعذار هذا مضرب المثل في البذخ والترف عند أهل المغرب، وهو عند أهل المغرب بمثابة عرس بوران(٥) عند أهل المشرق(٦).

وقد كانت احتفالات الملوك الخاصة بهم – ربما تكون يومياً– تقام في مجالس مُطلة على الحدائق والأزهار، وكانت تُداول خلالها الأشعار وأقداح الشراب، وذلك مما كان يفعله المعتمد ابن عباد (ت488هـ=1095م)(٧)، والذي كان في أيام أنسه شديد الترف، فقد دخل عليه ابنه ذخر الدولة في دار المزينية، وكان بين يديه فتى يتمايل تمايل القضيب، وهو يلبس من الثياب أجملها وأرقها، وفي يديه كأساً يسقي به المعتمد، فأعجب المعتمد حسن منظر الفتى فقال فيه:

لله ساقٍ مهفهفٌ(٨) غنجٌ(٩) قد قامَ يسقي فجاء بالعجبِ

---

١ ) العِقْيَانُ: الذَّهَبُ ( ابن منظور: لسان العرب، ج13، ص288).

٢ ) رَوَّى في الأمر تَرْوِيَةً نظر فيه وفكر ( الرازي: مختار الصحاح، ج1، ص111).

٣ ) المُبادَهَةُ : المُباغَتَةُ ( الزبيدي: تاج العروس، ج36، ص337).

٤ ) ابن بسام: الذخيرة، ج7، ص128–130.

٥ ) اشتهر عند المؤرخين عرس الخليفة العباسي المأمون على بوران بنت الحسن بن سهل عام 210هـ، فقد كان كثير البذخ شديد الترف وكان عرساً لم ير مثله من قبل، فقد نثر المأمون العباسي الضياع والقرى والجواري والوصفاء والخيل والدواب فكانت تكتب أسماء هذه الأنواع في رقاع صغيرة وتجعل في بنادق المسك وتنثر على الناس فمن أخذ رقعة توجه بها إلى وكلاء الخليفة وكانت تصرف له، ثم نثر على الناس الدراهم والدنانير، وفأر المسك وقطع العنبر (للتفصيل المستفيض عن الحادثة : لأحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر، د.ت.ط، ج 2، ص459؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ج10، ص265؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص478؛ ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة: بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، د.ت.ط، ج5، ص2381؛ السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر: تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر، مطبعة السعادة، ط1، 1371هـ، ج1، ص308؛ السمعاني: الأنساب ج:3 ص:551).

٦ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص440.

٧ ) المقري: نفح الطيب، ج4، ص279.

٨ ) مُهَفَّفَة ومُهَفْهَفَةٌ: أي هَيْفاءُ ضامِرَةُ البَطْن، دَقِيقَةُ الخَصْرِ ( الزبيدي: تاج العروس، ج24، ص498).

٩ ) الغُنْجُ: في الجَارِيَةِ تَكَسُّرٌ وتَدَلُّلٌ ( م.ن: ج6، ص134).

أهدى لنا من لطيفِ حكمته    في جامدِ الماء ذائبَ الذهبِ[1]

ومن الأوصاف التي وصف بها مجلس للمعتمد عندما أرسل لطبيب الأديب أبي محمد المصري منشداً:

أيّها الصــاحبُ الذي فارقَتْ عيني    ونَفْسي منهُ السنا والسناءَ[2]

نحنُ في المجلس الذي يَهَبُ الراحةَ    والمسمـــعَ الغنى والغناء

نتعــاطى التي تُنَسِّي مــن الرقـةِ    واللذةِ الهــوى والهــواء

فـأْتِـــه تُلْفِ راحــةً ومحيَّـــا    قد أعدَّا لك الحيا والحياء

فلما أتاه وجد المجلس " وقد أتلعت [3] فيه أباريقه أجيادها وأقامت فيه خيل السرور طرادها[4] وأعطته الأماني انطباعها وانقيادها ، وأهدت الدنيا ليومه مواسمها وأعيادها ، وخلعت عليه الشمس شعاعها ، ونشرت فيه الحدائق إيناعها ، فأديرت الراح ، وتعوطيت الأقداح ، وخامر النفوس الابتهاج والارتياح ، وأظهر المعتمد من إيناسه ما استرق به نفوس جلاسه ...، فطرب حتى زحف عن مجلسه، وأسرف في تأنسه، وأمر ؛ فخلعت عليه خلع لا تصلح إلا للخلفاء، وأدناه حتى أجلسه مجلس الأكفاء، وأمر له بدنانير عدداً وملأ له بالمواهب يداً"[5].

وكان المعتمد في بعض احتفالاته يفضل الخلوة مع المغنيات، وقد فعل ذلك عندما انتقل بإحدى مغنياته إلى قصره المسمى بالزاهر ، وهو على نهر إشبيلية، وهذه الجارية كان قد أهداها إليه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين[6].

وعندما زال حكم الطوائف ودخل القادة المرابطون الأندلس واستقروا بها، عاشوا الحياة المترفة؛ كمن سبقهم من أهل الأندلس، وتأنقوا في اتخاذ مجالس السمر ، وأحضروا إلى هذه المجالس الشعراء والندماء[7]، كما تشبهوا بهم في الأخذ بأسباب التحضر ، والعمل على تزيين مجالسهم بما أزال معه بساطة الصحراء التي تعودوا عليها[8].

---

١ ) المقري: نفح الطيب: ج4، ص278.

٢ ) السَّنَا: ضوء البرق ، والسنا أيضا نبت يتداوى به ؛ والسَّنَاءُ من الرفعة ( الرازي: مختار الصحاح ، ج1، ص134).

٣ ) إِنَاءٌ تَلِعٌ: مَلآنُ ( الزبيدي: تاج العروس، ج20، ص398).

٤ ) الْطِراد بإظهار اللام وهو افْتِعالٌ من طِرادِ الخيل وهو عَدْوُها وتتابعها ( ابن منظور: لسان العرب ، ج8، ص218).

٥ ) المقري: نفح الطيب، ج4، ص281-282.

٦ ) م.ن: ج4، ص275-276.

٧ ) حسين: التاريخ السياسي والحضاري، ص326.

٨ ) عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ص31.

وفي هذه المدة من حكم الأندلس عرف الأندلسيون الرقص في الأعراس كمهنة بواسطة نساء امتهنّها، فكانوا عند إقامة أعراسهم يستقدمون إليها الراقصات، ويشير ابن سعيد إلى ذلك من خلال سياق قصة زواج أبو القاسم أحمد بن محمد بن الملح( [١] ) وفيه يقول: "نشأ على عفة وطهارة وزهد، فكان أبوه يلومه على إفراطه في الزهد والاقتصار على كتب المتصوفين، ويحضه على الأدب، إلى أن اشتهر في الانخلاع، وفر إلى إشبيلية، وتزوج هنالك عاهراً ترقص في الأعراس"( [٢] ).

وكان من عادة بعض ملوك الأندلس إقامة احتفالات دورية في كل أسبوع، وكان يتمثل في هذه الحفلات الترف بجلاء ووضوح، ففيها يكثر الأكل والشرب واللهو بحضرة المزامير والقيان، وباستخدام أفضل أدوات الضيافة المصنوعة من أثمن المعادن، ويستشف ذلك من نص أورده ابن الخطيب عن احتفالات محمد بن سعد مردنيش (ت567هـ=1172م)( [٣] ) المعاصر لدولة الموحدين، حين وصف هذا المجلس قائلاً: " وكان له يومان في كل جمعة؛ الاثنين والخميس، يشرب مع ندمايه فيهما، ويجود على قواده، وخاصته وأجناده، ويذبح البقر فيهما، ويفرق لحومها على الأجناد، ويحضر القيان بمزاميرهن وأعوادهن، ويتخلل ذلك لهو كثير، حتى ملك القلوب من الجند، وعاملوه بغاية النصح، وربما وهب المال في مجالس أنسه؛ ذكر أنه استدعى يوماً ابن الأزرق أحد قواده، فشرب معه ومع القرابة، في مجلس قد كساه بأحمر الوشي

---

١ ) ترجم له ابن الأبار باسم أحمد بن محمد بن إسحاق اللخمي من أهل شلب يكنى أبا القاسم ويعرف بابن الملح وولي الصلاة والخطبة ببلده وكان أديبا كاتبا شاعرًا روى عن أبيه و عن أبي بكر عاصم بن أيوب (تاريخ وفاة ابن أيوب عام 494هـ نقلاً عن كتاب بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي) وغيرهما ولم يذكر له تاريخ وفاة (ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة ، ج1، ص49) وتبدو الترجمة غير مناسبة للشخص المذكور في المتن، إلا إذا كان ذلك الانحراف الذي وقع فيه حدث بعدما كان تولى الإمامة والخطابة، وللأسف فإني لم أتمكن من الحصول على ترجمة تثبت هذا الاتجاه.

٢ ) ابن سعيد: المغرب، ج1، ص384.

٣ ) هو الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش صاحب شرق الأندلس: مرسية وما انضاف إليها، فمرض مرضاً شديداً ومات، وقيل إن أمه سقته السم، لأنه كان قد أساء العشرة مع أهله وخواصه وكبراء دولته، فنصحته وأغلظت عليه في القول فتهددها وخافت بطشه، فعملت عليه فقتلته بالسم، وكان موته في التاسع والعشرين من رجب سنة سبع وستين وخمسمائة باشبيلية، ومولده في سنة ثماني عشرة وخمسمائة في قلعة أعمال من طرطوشة يقال لها بنشكله، وهي من الحصون المنيعة. ولما مات محمد بن سعد جاء أولاده، وقيل إخوته، إلى الأمير يوسف ابن عبد المؤمن وهو باشبيلية فسلموا إليه جميع بلاد شرق الأندلس التي كانت لأبيهم وقيل لأخيهم ( ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج 7، ص131).

والوطئ، والآنية من الفضة وغيرها، وتمادى في لهو وشراب عامة اليوم، فلما كمل نهاره معهم، وهبهم الآنية، وكل ما كان في المجلس من الوشي أو غير ذلك"(١).

وكانت الاحتفالات في الأندلس في غاية الترف، ففيها يكثر أكل اللحم والشراب، ولذلك فقد كانت تدفع على مثل هذه الليالي من ليالي الملاهي والأعراس رسوماً خاصة، ومن يرفض الدفع كان يتعرض للعقوبة، ويفهم ذلك من الحادثة التي وقعت لأحد رعايا ابن مردنيش، واسمه محمد بن عبد الرحمن وهو شاطبي، حيث فر من شاطبة بسبب ظلم عمال ابن مردنيش وتوجه منها إلى مرسية، وعندما استقر في مرسية رأى بعض أقاربه قادمون من شاطبة، فسألهم عن حال أهله وأولاده، فأخبروه بأنهم بخير، وأن ضويعته التي تركها لهم ما زالت بأيديهم، فسُر الرجل سروراً عظيماً، ودعا أقاربه للمبيت عنده، واشترى لهم لحماً وشراباً، وقاموا في ليلتهم بضرب الدفوف، فلما أصبح الصباح، طرق رجل عليهم الباب فقالوا له: من أنت؟ فقال: " أنا الطرقون الذي بيده قبالة(٢) اللهو، وهي متفقة بيدي، وأنتم ضربتم البارحة الدف، فأعطنا حق العرس الذي عملت، فقلت له: والله ما كانت لي عرس؛ فأُخذت وسُجنت حتى افتُديت"(٣).

أما الموحدون فكان من عادة خلفائهم أيام الأعياد الجلوس في مجالسهم لتقبل التهاني من المهنئين، فأبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (ت580هـ=1184م) فعل ذلك في عيد الأضحى، حيث جلس للناس يستقبلهم في مجلس اليمن الموجود بقصره في قرطبة، وكان يجلس في أبهة وفخامة، ويدخل عليه المهنئون بحسب العادة، فأولاً وجوه الموحدين وكبراؤهم، ثم أبناء الجماعة ومن يليهم بحسب منازلهم ثم الفقهاء والقضاة والكتاب، ثم أهل الوفود ووجوه قرطبة، ويدخل معهم الشعراء والخطباء بما صاغوه من أشعار في المديح والتهنئة، فيلقوها على مسامع الحاضرين، في مشهد عظيم مهيب من الجلالة والفخامة(٤).

وكانت تقع مناسبات في أزمنة متفرقة، كمناسبة فتح مدينة أو بلد، وكانت تقام لتلك المناسبة احتفالات مرتجلة غير معدٍّ لها، وكان الهدف منها إعلام الناس بما تم إحرازه من نصر، وإقامة الأفراح احتفاء بذلك، ولذلك فإن الأمير الموحدي أبو يعقوب يوسف عقب فتح إشبيلية سنة (555هـ=1160م) وورود كتاب الفتح إليه؛ أمر أن يقوم الناس بحفظ بعض أبيات الشعر في

---

١ ) ابن الخطيب: الإحاطة، ج2، ص122-123.

٢ ) قَبَالة فأَنا به قَبِيل أَي كفيل ( ابن منظور: لسان العرب، ج11، ص534).

٣ ) ابن الخطيب: الإحاطة، ج2، ص124-125.

٤ ) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ص366-367.

هذه المناسبة، وأن يتغنوا بها([1])، ولما تسلم المدينة من أولاد ابن مردنيش وإخوته تزوج أختهم، وصنع لزواجه منها وليمة في مهرجان عظيم يقصر الوصف عنه([2]).

ولقد كانت الأعياد والأعراس وما بهما من مراسم تبعث في النفس السرور والهناء، وقد عبر ابن جبير(ت614هـ=1217م)([3]) عن مدى السرور الذي يكتنف الإنسان لدى قدوم العيد أو العرس، وذلك عندما زار غرناطة، وظهرت له بعض جبالها فقال:

وهل تعودنَّ أيامٌ رشفتُ بها سلافةَ([4]) العيشِ أحلى من جنى اللعسِ([5])

حيثُ انبسطنا مع اللذاتِ تنقلنا أيدي المسراتِ من عيدٍ إلى عرسِ([6])

ويبدو أن متعة الحاضرين في بعض الأعراس كانت فيها تقوم على شرب الخمور، ولذلك فإن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد ([7]) والمولود بغرناطة عام (610هـ=1213م)([8])، أنشد شعراً يصف فيه ذلك بقوله:

أَدِرْ كؤوسَكَ إن الأفقَ في عُرُسٍ وحسبنا أنت تَرْعَى حُسْنَكَ المُقَلُ([9]).

أما الاحتفالات الدينية في العهد الموحدي، فقد أشار لها أحمد العبادي عندما وصف احتفالات العامة بليلة المولد النبوي في غرناطة، إلا أن هذه الاحتفالات لم تكتس بالصبغة الرسمية إلا في أواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي( [10])، أي أن القرون السابقة للقرن السابع عرفت احتفال العامة دون الحكام بالمناسبات الدينية.

---

١) م.ن: ص74.

٢) الناصري: الاستقصا، ج2، ص150.

٣) ابن جبير: هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن جبير الكناني من أهل بلنسية ، نزل أبوه شاطبة وانتقل هو إلى غرناطة ، وقام بعدد من الرحلات حيث اشتهر بكونه رحالة ( ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج2، ص109-110).

٤) السُّلاَفَةُ : الْخَمْرُ، وهو أَوَّلُ ما يُعْصَرُ منها ، وقيل : مَا سَالَ من غَيْرِ عَصْرٍ ، وقيل : هو أَوَّلُ ما يَنْزِلُ منها ( الزبيدي: تاج العروس، ج23، ص457).

٥) اللعس: العض، وقيل هو سواد مستحسن في الشفة واللثة ( الزبيدي: تاج العروس، ج16، ص480).

٦) ابن الأبار: التكملة، ج3، ص98.

٧) هو علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد أبو الحسن الأندلسي الأديب النحوي المؤرخ من ذرية الصحابي عمار بن ياسر وله عدد من التآليف منها: المشرِق في أخبار المشرق، والمُغرب في أخبار المغرب، وغيرهما ولد عام(610هـ=1213م) ( السيوطي: بغية الوعاة، ج2، ص209).

٨) ابن سعيد: المغرب، ج2، ص172.

٩) م.ن: ج2، ص178.

١٠) العبادي: الأعياد في مملكة غرناطة، ص148.

ويمكن الاستنتاج عقب هذا المبحث إلى أن الاحتفالات في الأندلس تنوعت وتعددت أشكالها، وشملت جميع عناصر المجتمع الإسلامي الأندلسي؛ من قمة هرم السلطة في الأندلس إلى أدنى عنصر في القاعدة.

## المبحث الخامس
## الترف في أماكن العبادة "المنشئات الدينية"

لاقت المنشئات الدينية الإسلامية في الأندلس عناية خاصة ظلت مثالاً للترف على مدار العصور المتلاحقة، فاستخدموا لذلك كل ما في وسعهم، وأغدقوا في سبيل ذلك الأموال الطائلة، مما لو أنفق على فقراء المسلمين لأغناهم، ويبدو أن السبب في الاهتمام بهذه المنشئات يعود إلى رغبة الحكام المسلمين في التحبب من الناس، فجاءت العمارة لهذه الأماكن في غاية التأنق والإجادة، وتميزت بالترف الشديد، وهو ما سأتطرق له خلال هذا المبحث.

فمع قدوم صعصعة بن سلام (ت 192هـ=808م) للأندلس والذي ولي الصلاة بقرطبة سمح باستغلال المسجد الجامع في قرطبة لتزرع فيه الأشجار([١])، ومن ذلك الحين اتبع أمراء الأندلس هذا التقليد في بقية المساجد في الأندلس، وهو مذهب الإمام الأوزاعي، ويعد هذا الأثر هو الأثر الباقي من هذا المذهب في الأندلس؛ خصوصاً بعد انتشار المذهب المالكي([٢]).

ويشير حسين مؤنس إلى أن هذه الأشجار هي أشجار النارنج، وكانت تزرع في صحن المسجد، وقد لجأ الناس لزراعتها تجميلاً لهيئة المسجد، ورغبة في الاستظلال بها من حر الصيف([٣])، وكان رأي ابن عتاب([٤]) عدم السماح بغرس الأشجار في صحون المسجد ولم يُبْدِ سبباً لذلك المنع، فيما منع بعض الفقهاء مثل هذا الأمر بسبب عدم وجوده في مساجد الأمصار بالشام، ولا في غيرها([٥]).

أما بالنسبة لزخرفة العمارة فقد أجرى عبد الله العمير دراسة على صدرية رخامية أندلسية؛ توصل من خلالها إلى أن أمثال هذه الصدرية كانت تلبس بها الحوائط، وكان مثل هذه الصدريات في العادة يضاف إلى فتحات الأبواب، والنوافذ، والطاقات ،والمحاريب، وكانت تتميز أمثالها بكثرة عناصرها الزخرفية وتكدسها، وكانت تجمع هذه الصدريات بين الأغراض الزخرفية والفوائد البنائية، كما كانت تكسى بها واجهات الدخلات الصغيرة التي كانت تستخدم

---

١ ) ابن كثير: البداية والنهاية، ج10، ص209.

٢ ) دويدار: المجتمع الأندلسي، ص207.

٣ ) مؤنس: المساجد، ص78.

٤ ) هو أبو محمد عبد الرحمن ابن المحدث محمد بن عتاب بن محسن القرطبي ، شيخ علامة، محدث صدوق وهو مسند الاندلس ( الذهبي: سير، ج19، ص514).

٥ ) وثائق في شئون العمران في الأندلس مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى للقاضي أبي الأصبغ: دراسة وتحقيق محمد خلاف، مراجعة محمود علي مكي، ومصطفى كامل إسماعيل، القاهرة، المركز العربي الدولي للإعلام، ط1، 1983م، ص15.

لحفظ الأدوات، وبعض الاحتياجات الأخرى([1])، وفي ذلك تأكيد على اشتغال البنائين في الأندلس بتنميق المباني الدينية، واهتمامهم كثيراً بالنواحي الشكلية لتزيينها، وهو ما يتطلب زيادة كبيرة في الإنفاق على هذه المنشئات.

وربما يكون من المجدي البحث في عمارة المساجد للتدليل على وجود الترف، وهو ما تميزت به كثير من مساجد الأندلس، وكان من بين المساجد الجامعة التي تميزت بالترف في البناء المسجد الجامع في مدينة إقليش؛ وبلاطه من عجائب الأندلس([2])، وعن بلاطه يقول الحميري: "ومن العجائب البلاط الأوسط من مسجد جامع إقليش([3]) فإن طول كل جائزة من جوائزه مائة شبر وأحد عشر شبراً، وهي مربعة منحوتة مستوية الأطراف"([4]).

ويمكن الاعتماد على القول بترف الأندلسيين في عمارة المساجد بأن الهيئة التي جاء عليها مسجد قرطبة تعد كافية لإبراز مدى السرف والترف الذي ساد الأندلس؛ وبشكل خاص في المنشآت الدينية، ويتأكد ذلك بدراسة تاريخ جامع قرطبة، حيث أنه لم يُتَمَّ بنيانه في عهد حاكم واحد، بل لقد قام الخلفاء من بني أمية على التوالي بالزيادة فيه، فبدأ البناء فيه على عهد عبد الرحمن الداخل (ت172هـ=788م)، وبعد وفاته تمم بعضه ابنه هشام (ت 180هـ=796م)، ثم توالى الخلفاء من بني أمية على الزيادة فيه إلى أن كمل على يد نحو الثمانية من الخلفاء ، حتى أصبح مضرب المثل([5])، وعُد هذا المسجد الجامع من أفضل روائع العمارة الإسلامية([6])، ونظراً ونظراً لفخامة هذا المسجد وعظمة بنائه، فقد كان يعمل عند الشروع في بنائه في كل يوم ألف شخص من حذاق الصناع، منهم ثلاثمائة في البناء، ومائتي نجار، وخمسمائة من الأجراء، واستمر حتى تم بناؤه الأول خلال مدة مقدارها ثمانية وأربعين يوماً([7])، وكان له من العظمة والضخامة والكبر والسعة ما يحتاج بسببها إلى مئات الموظفين لخدمته، فبلغ عدد السدنة

---

١ ) العمير: صدرية رخامية، ص318-319.

٢ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص158.

٣ ) إقليش مدينة لها حصن في ثغر الأندلس، وهي قاعدة كور شنتبرية وهي محدثة بناها الفتح بن موسى بن ذي النون وفيها كان ظهوره في سنة ستين ومائة، ولم يرد ذكر للسنة التي بني فيها المسجد، ويعتقد الباحث أن بناء هذا المسجد واكب بناء المدينة لحاجة سكانها الجدد لمسجد من أجل الصلاة فيه (الحميري: الروض المعطار، ص51).

٤ ) الحميري: الروض المعطار، ص51-52.

٥ ) المقري: نفح الطيب ج1، ص545.

٦ ) أولغ غرابار: نظرتان متضاربتان إلى الفن الإسلامي في شبه الجزيرة الإسبانية (نظرة عامة)، من كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1998م، ج2، ص847.

٧ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص564.

والمؤذنين والوقادين ثلاثمائة رجل( [١] )، فبلغ الإنفاق على المسجد ما يزيد على خمسة وثلاثين ألف دينار( [٢] ).

وهو مسجد شديد الشبه بالجامع الأموي بدمشق، إذ يعد الجامع الأموي نموذجاً احتذته المساجد الجامعة في العالم الإسلامي بشكل عام؛ وفي الأندلس بشكل خاص، ومن المهم الإشارة إلى أن عمارة مسجد قرطبة الجامع جاءت على نسق مشابه لذلك المسجد الأموي( [٣] )، وهو كما يقول الحميري المسجد الذي شاع ذكره من حيث الجمال، وكبر المساحة، وإحسان الصنعة( [٤] )، وكان عبد الملك بن حبيب( [٥] ) يقول في هذا المسجد: "أفضل بيت يكون بالأندلس، وقد سمعت أنا أبا سليمان بن حوط الله (ت 612هـ=1215م)( [٦] ) شيخنا يقول : لو كان لي حكم على أهل الأندلس؛ لألزمتهم زيارة جامع قرطبة"( [٧] ).

وكانت الأعمدة الرخامية والتي مثلت إحدى روائع العمارة في هذا المسجد تُشترى جاهزة، وكان التجار يجلبونها من الأبنية القديمة، وتعد الأعمدة البديعة الموجودة فيه مثالاً لذلك، فقد اشتراها خلفاء بني أمية( [٨] ).

ويبلغ طول الجامع مائة باع( [٩] ) مرسلة، وعرضه ثمانون باعاً، وهو مقام على عدد ضخم ضخم من السواري يبلغ تعدادها ألف سارية( [١٠] )، وكلما اجتمعت منه أربع سواري شكلت رأساً

---

١ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص183.

٢ ) م.ن: ص171.

٣ ) خليل المعيقل: أثر الجامع الأموي بدمشق على عمارة المسجد الجامع بقرطبة، السجل العلمي لندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، القسم الثالث، الحضارة والفنون والعمارة، الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ط1، 1417هـ=1996م، ص179.

٤ ) الحميري: الروض المعطار، ص456.

٥ ) عبد الملك بن حبيب: أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون ، كان بإلبيرة، وسكن قرطبة، وقد رحل في طلب العلم، ثم عاد للأندلس بعد أن أحرز علماً عظيماً، فحفظ الفقه على مذهب المدنيين نبيلاً فيه وله مؤلفات في الفقه والتواريخ والأداب كثيرة ( ابن الفرضي: تاريخ العلماء، ج1، ص212-313).

٦ ) هو داود بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن سليمان بن عمر بن حوط الله الأنصاري الحارثي، من بيت علم وعفاف، أصله من أندة، وهو حصن بشرقي الأندلس، وكان حافظاً للقراءة، عارفاً بإقراء القرآن بها، أتقن ذلك عن أبيه، ثم أخيه الكبير أبي محمد ، وكان عارفاً بطرق الحديث، حسن الخلق، من أهل العدل والفضل ( ابن الخطيب: الإحاطة، ، ج1، ص503-504).

٧ ) ابن الأبار: التكملة، ج4، ص151.

٨ ) مؤنس: المساجد، ص126.

٩ ) الباع: عند الحنفية: 1,855م، وعند المالكية: 2,12م، وعند الشافعية والحنابلة: 2,473م ( علي جمعة محمد: المكاييل والموازين الشرعية، ص97).

١٠ ) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص575؛ الحميري:الروض المعطار، ص 457.

واحداً، ثم صف رخام منقوش بالذهب واللازورد في أعلاه( [١])، وللمسجد تسعة عشر باباً، تحيط بها عقود على شكل حذوة الفرس( [٢])، وقيل أن عدد أبوابه عشرون باباً مصفحة بصفائح النحاس([٣]).

وللمسجد صحن مكشوف طوله ثلاثة وأربعون ذراعاً، وعرضه واحد وأربعون ذراعاً([٤])، وهو للهواء( [٥])، وأرضه مفروشة بالرخام الخمري، ويتوسطه فوارة يجري فيها الماء([٦]).

وفيه ثلاث عشرة ثريا للوقيد، الكبيرة منه تحمل ألف مصباح، والصغيرة تحمل اثني عشرة مصباحاً([٧])، ويبلغ مجموع هذه المصابيح حوالي سبعة آلاف قنديل من الزيت المعطر، تستمده من خزانات مصنوعة من نواقيس نصرانية مقلوبة معلقة هي الأخرى في السقف( [٨])، وسقفه عبارة عن سماوات مصنوعة من خشب مُسمّر، أحضر من أخشاب شجر الصنوبر الطرطوشي، وكل سماء من هذه السماوات لا تشبه الأخرى، وكل منها جاءت على أجمل ترتيب وأبدع الألوان، وقد تعددت ألوانها مما يسر الناظرين من الألوان، وتعددت الألوان ما بين "الحمرة الزنجفرية ([٩])، والبياض الإسفيذاجي ([١٠])، والزرقة اللازوردية ([١١])، والزرقون الباروقي([١٢])، والخضرة الزنجارية ([١٣])، والتكحيل النقسي ([١٤])" والأعمدة التي أقيمت عليها هذه الأسقف ذات قواعد ورؤوس رخامية وتحت كل سقف إزار من خشب زُيّن بآيات من القرآن

---

١ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص545.

٢ ) ديورانت، قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج2، مج4.

٣ ) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص578.

٤ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص564.

٥ ) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص575؛ الحميري:الروض المعطار، ص 457.

٦ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص564.

٧ ) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص575-576.

٨ ) ديورانت، قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج2، مج4.

٩ ) الزُّنْجُفْر: صِبْغٌ أَحمرُ يَكتَب ويُصبَغ به ( الزبيدي: تاج العروس، ج11، ص458).

١٠ ) الإسفيذاج: رماد الرصاص والآنك (الحسيني، عبد القادر: فلك القاموس ، تحقيق إبراهيم السامرائي، بيروت، دار الجيل، 1414هـ 1994م، ج1، ص50).

١١ ) اللازورد: صبغ يصبغ به ( ابن منظور: لسان العرب، ج10، ص277).

١٢ ) لم أجد لها تعريف فيما بين يدي من مصادر لغوية

١٣ ) زِنْجارٌ بالكسر: ضَرْبٌ من السَّمَكِ ( الفيروزأبادي: القاموس المحيط، ج2، ص41).

١٤ ) النقس: المداد ( ابن سيده: المحكم، ج6، ص238).

الكريم([1])، وللمسجد عدد كبير من النوافذ، ومما قيل فيها أنها تقرب من ثلاثمائة وستين نافذة؛ بعدد أيام السنة، وبأن الشمس تدخل كل يوم من إحدى هذه النوافذ، ثم تنتقل للتي تليها، ولا تعود لها إلا في العام التالي([2]).

أما المنبر فيشير الإدريسي بأنه لا يوجد على الأرض مثله، فهو مصنوع من خشب الأبنوس، وقد صنع على يد ستة رجال عدا من يعاونهم، واستمر الصناع في صناعته مدة سبع سنين نجارة ونقشاً([3])، وتمت صناعته من سبعة وثلاثين ألف قطعة صغيرة من العاج والأخشاب والأخشاب الثمينة، كالأبنوس والأترج وعود الند، والصندل([4]) الأحمر والأصفر، مثبتة بمسامير بمسامير من الذهب والفضة، مطعمة بالجواهر([5]).

وكان جامع قرطبة مفخرة المسلمين في الأندلس من حيث ما أنفق عليه من مال، وما كُسي به من جمال، وفي ذلك أنشد بعض الشعراء:

| | |
|---|---|
| وأبرزَ في ذاتِ الإلهِ ووَجْهِــهِ | ثمانين ألفاً من لُجَينٍ وعَسْجَــدِ |
| وأَنْفَقَها في مسجــدٍ زانَــهُ التُّقَى | وقَرَّ بهِ دينُ النبي محمَّــــــدِ |
| ترى الذهب الوهَّاج بين سموكه([6]) | يلوحُ كلمـــــح البارق المتوقدِ([7]) |

وفي مدة البناء أشار ديورانت إلى أن عمليات الإضافة لهذا المسجد استمرت حوالي قرنين من الزمان([8])، ويشير شكيب أرسلان بأن الزيادة التي كانت تضاف لهذا المسجد كانت نتيجة لازدياد أعداد سكان قرطبة، فكلما زاد عددهم كلما عمل حكام الأندلس على الزيادة فيه، حتى أصبحت مساحة المسقوف من المسجد وصحنه يتسعان لثمانين ألف مصلٍ([9]).

---

١ ) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص575-576.

٢ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص519.

٣ ) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص577.

٤ ) الصَّنْدَل: خَشَبٌ أحمر ومنه الأصفر وقيل الصَّنْدَل شجر طَيِّب الريح ( ابن منظور: لسان العرب ، ج11، ص386).

٥ ) ديورانت، قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج2، مج4.

٦ ) سَمَكَ الشيء يَسْمُكُه سَمْكاً فَسَمَكَ رَفَعَهُ فارتفع والسَّمَاكُ ما سُمِكَ به الشيءُ ( ابن منظور: لسان العرب ، ج10، ص443).

٧ ) المقري: نفح الطيب، ج3، ص55.

٨ ) ديورانت، قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج2، مج4.

٩ ) أرسلان، شكيب: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، مصر، المطبعة الرحمانية، ط 1، 1355هـ=1936م، ج1، ص213.

وكان البناؤون والمهندسون يخصصون جزءاً من المساجد عند البناء كمصلى للنساء وهو ما لم يحدث في عهد عبد الرحمن الداخل( [١] ) عند أمره ببناء المسجد الجامع بقرطبة، وإنما تم ذلك في عهد خليفته وولي عهده ابنه هشام الرضا، والذي أمر ببناء سقائف النساء داخل المسجد([٢])، وبالتأكيد أن من حق النساء الصلاة في المساجد، ولكن قيام بعض الأمراء ببناء هذه الأماكن الإضافية في المساجد سيثقل من كاهل خزينة الدولة، إذ أن ذلك يحتاج إلى تكاليف إضافية زائدة، ولأن المسجد جاء تحفة فنية رائعة فمن المؤكد أن مصلى النساء فيه لن يكون بأقل هيبة وترفاً، مما قد يسمح بانتقاده في الشكل.

ولقد تغنى الشعراء بعظمة مسجد قرطبة وأبهته، مما يشير إلى إضافات مهمة أضافها عبد الرحمن بن الحكم "الأوسط" (ت238هــ=852م)، فقال ابن المثنى([٣]) فيه عندما زاد في المسجد: المسجد:

بَنَيْــتَ للهِ خَيْــــرْ بَيْتٍ    يَخْرَسُ عن وَصْفِهِ الأَنَامُ

حَــجَّ إليــهِ بكــلِ أَوْبٍ    كأنَّهُ المسجِــدُ الحــرَامُ

كأنَّ مِحْـــــرَابَـهُ إذا ما    حُفَّ بِهِ الركنُ والمقــامُ([٤])

وللمسجد قبلةٌ تُعجز الوصف لشدة إتقان العمل فيها، وجمال تنميقها، وهي مزينة بالفصوص المذهبة والملونة، استقدمها الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر(ت 350هــ961م) من القسطنطينية، ويتكون وجه المحراب من سبعة أقواس مزججة، وكل ذلك مزين بالذهب واللازورد، ومنقوش بأبدع أنواع النقش( [٥] )، وعلى جانبي المحراب أربعة أعمدة من الرخام، اثنان أخضران، واثنان زرزوريان( [٦] ) لا يُقَدَّرون بثمن، ورأس المحراب متوج بقطعة من الرخام([٧]).

---

١ ) يشار إلى أن أعداد المساجد في قرطبة بلغت في عهد الداخل حوالي أربعمائة وتسعين مسجداً، ثم زادت بعد عهده كثيراً ( الحميري: الروض المعطار ، ، ص458؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص540).

٢ ) السيد عبد العزيز سالم: أضواء على مشكلة تأريخ بنيان المسجد الجامع بقرطبة، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد15، عام 1970، ص62.

٣ ) هو أبو المطرف ابن المثنى، ذكره القلقشندي كأحد الكُتّاب ( صبح الأعشى، ج6، ص523).

٤ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص348.

٥ ) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص576.

٦ ) الزُّرْزُور : ( طائرٌ ) كالقُنبَرة ( الزبيدي: تاج العروس، ج11، ص423).

٧ ) الحميري: الروض المعطار، ص457؛ الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص577.

ويبدو أن الناصر كان مولعاً بعمارة المساجد على طُرُز رائعة، فقد بنى في مدينة قرمونة مسجداً([١])، وصفه الحميري بأنه "جامع حسن البناء، فيه سبع بلاطات على أعمدة رخام، وأرجل صخر"([٢]).

وبالعودة إلى جامع قرطبة فقد قام الحكم المستنصر(ت 366هـ=976م) ببناء أربع ميضئات في كل جانب من جانبي المسجد الشرقي والغربي، اثنتان كبيرتان للرجال، ومثلهما صغيرتان للنساء، وأجرى لهم الماء من سفح جبل قرطبة، وهو لا ينقطع في ليل أو نهار، وكانت أحواض هذه الميضئات مصنوعة من رخام أحضره من مقطع المنستير بسفح قرطبة أيضاً، وكانت تتسم هذه الميضئات بالصورة البديعة([٣]).

كما أنشأ المنصور ابن أبي عامر ميضأة في المسجد، وتعد هذه الميضأة من أبدع الميضئات فقد أنشأها في جانب من صحن الجامع بقرطبة، وجلب لها الماء من الجبل في قنوات تحت الأرض، وأنشأها على هيئة جوسق([٤]) صغير ذي تسع قباب زخرفية([٥])، ولعل هذه الأوصاف توحي بمدى التقدم الذي وصل إليه الأندلسيون في النواحي التقنية.

وفي هذا الإطار يرى حسين مؤنس بأن ابتكار الميضئات في المساجد هي شيء من الترف غير المبرر، ويؤكد بأن الميضأة هي أقل عناصر المسجد لزوماً، إذ أنها تقلل من هيبته، معللاً ذلك بأن المسلم يجب عيه أن يذهب إلى المسجد طاهراً متوضئاً، لا أن ينظف نفسه ويتوضأ في المسجد([٦])، ويتفق الباحث هنا إلى حد ما مع حسين مؤنس، فمن الأفضل أن يتوجه الإنسان للمسجد متنظفاً ومتوضئاً، ولذلك فوجود الميضأة في حق المقيم من أبناء البلد يُعد شيء من الترف، وخاصة عند المبالغة في التأنق في إنشائها، غير أن وجود مثل هذه المنشأة داخل المسجد أمر مهم للقادمين من خارج المدينة، وحتى المرضى من المصلين المقيمين؛ الذين لا يستطيعون المحافظة على وضوئهم بسبب المرض.

كما وجد في الجهة الشمالية من مسجد قرطبة صومعة([٧]) عجيبة جميلة الشكل، طول ارتفاعها حوالي مائة ذراع؛ يقف عليها المؤذن، ولها درجين مفترقين يلتقيان عند القمة، والبناء

---

١ ) م.ن: ص466.

٢ ) م.ن: ص461.

٣ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص555.

٤ ) الجوسق: هو القصر ( الفراهيدي: العين، ج5، ص 243).

٥ ) مؤنس: المساجد، ص128.

٦ ) مؤنس، حسين: المساجد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1981م، ص79.

٧ ) يوحي سياق النص للناصري بأن المقصود بالصومعة هي المئذنة.

الخارجي للصومعة مزوق ومنقوش بالكتابة([١])، وللصومعة ستة عشر مؤذناً يؤذنون بالتناوب في كل يوم مؤذنان([٢])، ولعل عدد المؤذنين يوحي بعظمة بناء المسجد وفخامته، ومدى الترف الذي بلغه أمراء بني أمية عند العمارة في هذا المسجد.

وهذا المسجد لا يوجد بمساجد المسلمين شبيهاً له سواء كان في البناء أو التنميق أو الطول والعرض([٣])، فقد عمل المنصور على توسعته بنحو النصف عام ( 381هـ=991م) واستقدم للبناء فيه عمال من فرسان الجلالقة، والإفرنج وهم مصفدين في الحديد إلى أن كمل بناؤه([٤])، حتى بلغت سعته في زمنه حوالي 742 في 472 قدماً([٥])([٦]).

وفي العهد الذي سيطر فيه المرابطون على الأندلس عرف جامع قرطبة بعض الإضافات التي تشير إلى الزيادة في الترف؛ عندما تم بناء حمام في المسجد على يد عبد الرحمن بن مالك المعافري ([٧]) سنة (509هـ=1115م)، وهو نفسه من زاد في سقف صحن المسجد، واستبدل أرجل القسي بأعمدة من الرخام، وأحضر ما يلزم لذلك من قرطبة( [٨])، وإن كانت الإشارات قليلة على مدى الترف في العمارة الإسلامية زمن المرابطين؛ إلا أنه يمكن الاستدلال ببناء مثل هذا الحمام داخل المسجد الجامع على وجود حركة معمارية نشطة في مجال الأبنية الدينية زمن المرابطين.

أما في العهد الموحدي فقد برز احتراف أهل الأندلس لأعمال الترف والرفاهية وخبرتهم في معالجة الصناعات الدينية الثمينة، فوجد فيها المتخصصون في فنون الصناعات والتزويق، والذين استعان بهم عبد المؤمن الموحدي (558هـ=1163م) في تنميق المصحف العثماني الموجود في قرطبة وذلك عند قيام عبد المؤمن بنقله من قرطبة إلى مراكش، ويشير الناصري

---

١ ) الحميري: الروض المعطار، ص457.

٢ ) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج:2 ص:579.

٣ ) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص575؛ الحميري: الروض، ص456.

٤ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص182.

٥ ) القدم: وحدة قياس توازي ثلث ياردة ( إبراهيم مصطفى، وآخرون: المعجم الوسيط ، ج2، ص720)، والياردة مقياس طولي يقدر بنسبة 32 إلى 35 من المتر ( مصطفى، إبراهيم، وآخرون: المعجم الوسيط ، ج2، ص1062).

٦ ) ديورانت، قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج2، مج4.

٧ ) هو أبو محمد عبد الرحمن بن مالك المعافري أحد وزراء الأندلس ، وهو كثير الصنائع، جزل المواهب عظيم المكارم، سار على سنن عظماء الملوك، وأخلاق السادة لم يُرَ بعده مثله في رجال الأندلس ، ذاكراً للفقه والحديث، بارعاً في الآداب، شاعراً مجيداً، وكاتباً بليغاً، كثير الخدم والأهل ( المقري: نفح الطيب، ج3، ص232).

٨ ) ابن الخطيب: الإحاطة، ج3، ص524؛ المقري: نفح الطيب، ج3، ص232.

لذلك بأن عبد المؤمن أراد تعظيم المصحف الذي ينسب خطه إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، واستقدم لذلك الصناع من شتى مدن الأندلس والمغرب، " فحشر الصناع المتقنين ممن كان بالحضرة وسائر بلاد المغرب والأندلس ، فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة من المهندسين ، والصواغين، والنظامين ، والحلائين ، والنقاشين ، والمرصعين ، والنجارين ، والزواقين ، والرسامين، والمجلدين، وعرفاء البنائين، ولم يبق من يوصف ببراعة ، أو ينسب إلى الحذق في صناعة؛ إلا أحضر للعمل فيه ، والاشتغال بمعنى من معانيه ، وبالجملة فقد صنعت له أغشية ؛ بعضها من السندس ، وبعضها من الذهب والفضة ، ورصع ذلك بأنواع اليواقيت ، وأصناف الأحجار الغريبة النوع والتشكل، العديمة المثال، واتخذ للغشاء محمل بديع ؛ مما يناسب ذلك في غرابة الصنعة وبداعة الصبغة، واتخذ للمحمل كرسي على شاكلته، ثم اتخذ للجميع تابوت يصان فيه على ذلك المنوال "([1])، وليس من الحكمة النظر إلى اهتمام الموحدين بالمنشئات الدينية على أنه اقتصر فقط على المغرب، بل أنه لمن المؤكد بأنهم اهتموا بمثل هذه المنشئات في الأندلس كذلك.

ومصحف عثمان هذا أصلاً كان ضمن الموجودات في مسجد قرطبة الجامع، وفيه أربعة أوراق بخط عثمان، وعليه نقط من دمه، وكان موجوداً على يسار المنبر في بيت مع عدد من طسوت الذهب والفضة والحسك([2])، وكلها لوقيد الشمع في كل ليلة السابع والعشرين من رمضان، وكان يُخرج هذا المصحف صبيحة كل يوم بواسطة رَجلين لثقله، وكان مغشى بغشاء بديع الصنعة؛ منقوش بأروع ما يكون من النقش، وله عند المصلى كرسي يوضع عليه، ويقرأ منه الأمام نصف حزب ثم يرد إلى موضعه([3]).

ومما يؤكد ما ذهبت إليه بأن الموحدين اهتموا بالترف في المنشئات الدينية في الأندلس؛ قيام أمير الموحدين يوسف بن عبد المؤمن ببناء المسجد الجامع في مدينة إشبيلية عام (567هـ=1172م)([4])، حيث حشد لذلك عرفاء البنائين؛ من إشبيلية، وكافة مدن الأندلس، ومن مراكش، وفاس، غير أنه توفي قبل تمامه([5])، فلما جاز ابنه المنصور الموحدي إلى الأندلس؛

---

١ ) الناصري: الاستقصا، ج2، ص128.

٢ ) الحَسَكُ : من أَدَوات الحَرْب ؛ رُبَّما يُتَّخَذُ من حديدٍ فيُلْقَى حَولَ العَسكر ، ورُبَّما اتُّخِذَ من خَشَب فنُصِبَ حولَ العسكر ( الفراهيدي: كتاب العين، ، ج3، ص59).

٣ ) الإدريسي: نزهة المشتاق، ج2، ص577-578.

٤ ) الناصري: الاستقصا، ج2، ص151.

٥ ) سالم، السيد عبد العزيز: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ط 2، 1982م، ص768-769.

وعقب انتصاره في موقعة الأرك([1])، احتل مدينة إشبيلية وشرع بإتمام بناء مسجدها([2]) الأعظم([3])، وعمل على تشييد مناره([4]) العظيم([5])، حتى قيل أنه ليس في بلاد الإسلام أعظم منه([6])، وعمل للمنار تفافيح([7]) من أعظم ما يكون، وعنها يقول ابن أبي زرع: "غير أني لا أعرف لها قدراً؛ إلا أن الوسطى منها لم تدخل على باب المؤذن حتى قلع الرخام من أسفله، ووزن العمود الذي ركبت عليه أربعون ربعاً([8]) من حديد ...مُوِّهَت تلك التفافيح بمائة ألف دينار دينار ذهباً"([9])، وتميز البناء في هذا المسجد بالغلو في الزخرفة، وهو ما كان يعرف به الفن الأندلسي، وقد بُني من الآجر، والجيار، والجص، والأحجار، وكانت دعائمه ممتدة في جوف الأرض وقارب بسعته مسجد قرطبة الجامع([10]).

ويبدو أن المنصور بهذه التفافيح يحاكي تلك التفافيح التي كانت مرفوعة فوق صومعة المسجد الجامع في قرطبة، وكانت ثلاثة منها اثنتان مصنوعتان من ذهب إبريز، والثالثة من الفضة، وتحت كل واحدة من التفافيح وفوقها سوسنة صنعت على أبدع صورة([11]).

وقد أشار الدكتور حسين مؤنس إلى تميز الطراز الأندلسي في عمارة المساجد بالسعة، وكثرة الأعمدة الرخامية، والتفنن في هيئات المحاريب واتجاهاتها، والتوسع في استعمال السقوف الخشبية المزخرفة، والاهتمام بتزيين جدران المسجد بالقاشاني والفسيفساء، وخصوصاً في مساجد الموحدين(١٢).

---

١ ) الأرك: هو حصن منيع بمقربة من قلعة رباح بالأندلس، وهناك وقعت معركة الأرك بين المسلمين والنصارى عام( 591هـ=1195م) عندما توجه لها المنصور يعقوب بن يوسف من مراكش ، فانهزم النصارى، وقتل منهم زهاء ثلاثين ألفاً، فيما استشهد من المسلمين أقل من خمسمائة ( الحميري: الروض المعطار، ص27).

٢ ) ابن ابي زرع، روض القرطاس، ص229.

٣ ) الناصري: الاستقصا، ج2، ص195.

٤ ) المَنَارَةُ: التي يُؤذَّن عليها. ( الرازي: مختار الصحاح، ص285).

٥ ) ابن ابي زرع، روض القرطاس، ص229.

٦ ) الناصري: الاستقصا، ج2، ص195.

٧ ) تفافيح: مفردها تفاحة ( الزبيدي: تاج العروس، ج6، ص328).

٨ ) الربع: جزء من أربعة أجزاء ويطلق عرفا على مكيال يسع أربعة أقداح ( إبراهيم مصطفى، وآخرون: المعجم الوسيط، ج1، ص324)؛ ومقدار القدح 2,0625 لتراً ( علي جمعة محمد: المكاييل والموازين الشرعية، ص96).

٩ ) ابن ابي زرع، روض القرطاس، ص229.

١٠ ) سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص768-769.

١١ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص547.

١٢ ) مؤنس: المساجد، ص86.

وتجدر الإشارة في ختام هذا المبحث إلى أن ما تم ذكره من منشئات إنما هي عينات محدودة، وهي تمثل جزءاً من حياة الترف التي عمت أرجاء الأندلس في المنشئات الدينية، ويكفي إيراد الأمثلة السابقة، وذلك للاختصار.

## المبحث السادس
## مظاهر الترف ووسائل الترفيه

إن الحياة المترفة التي تحياها أمة ما؛ لا تقتصر على الشئون المادية المحسوسة من الحياة، فوسائل الترفيه التي تتبعها هذه الأمة للترويح عن نفسها تعد جزءاً من حياة الترف، وخصوصاً إذا كان أفراد هذا المجتمع يتمتعون بمستوى عالٍ في معيشتهم، وقد عرفت الأندل س مظاهر مختلفة ومتنوعة من الترف توزعت على مختلف جوانب الحياة الاجتماعية، فأعطت صبغة واضحة لا يمكن أن تطمس المشهد العام لمدن الأندلس، والذي كان جزء كبير منه غارقاً في الترف.

ولعل أبرز هذه المظاهر وجود الحمامات والتي اشتهرت بها الأندلس بشكل كبير، وقد أشار ابن خلدون إلى أن بناء الحمامات إنما تدعو إليه حياة الترف والغنى من التنعم، فهي لا توجد إلا في الأمصار ذات العمران المتسع([١]).

والحمامات في بلاد الأندلس منتشرة، وبالرغم من ذلك تفاوت عدد الحمامات من مدينة إلى أخرى، فبعض هذه المدن يوجد بها عدد ضخم من الحمامات، والبعض الآخر عدد حماماتها محدود، فكانت قرطبة من المدن كثيرة الحمامات([٢])، والتي بلغ تعدادها حوالي سبعمائة حمام، وقيل ثلاثمائة، وقيل تسعمائة، وقيل تسعمائة وأحد عشر حماماً([٣])، وكورة إشبيلية ذات الحمامات الحمامات الضخمة([٤])، فيما مدينة المرية يبلغ عدد الحمامات مع الفنادق فيها قرابة الألف([٥])، أما أما مدينة الجزيرة ففيها ثلاث حمامات([٦])، ومدينة قرمونة كذلك بها حمامات([٧]).

ويتكون الحمام من ثلاثة أو أربع غرف مغطاة بأقباء، بهدف الاستحمام ومقابل هذه الغرف في نهاية الجهة المقابلة حجرات الوقود، وبعدهما صحن صغير مغطى، وبعد الصحن بيت بارد يخلع فيه المستحمون ملابسهم، وكانت بعض الحمامات الأكثر ترفا تتميز بوجود غرفة أخرى لخلع الملابس قبل البيت البارد([٨])، وكانت في بعض الأحيان تزين ببعض التماثيل،

---

١ ) ابن خلدون: المقدمة، ص377.

٢ ) المقري: نفح الطيب، ج1 ص460.

٣ ) م.ن: ج1، ص540.

٤ ) ابن سعيد: المغرب ج1، ص293.

٥ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص163.

٦ ) الحميري: الروض المعطار، ص223.

٧ ) م.ن: ص461.

٨ ) دندش: الأندلس في نهاية المرابطين، ص322.

كالتمثال الذي في حمام بإقليم طالقة من أقاليم إشبيلية، وهو مصنوع من المرمر لامرأة تحمل صبياً وكأنَّ حية تريده( [١])، وقد جسد التمثال المرأة بكل تفاصيلها الجسدية مصوراً أعضائها بدقة([٢]).

واستخدم الأندلسيون خَدَمة للحمامات للاعتناء بنظافة الناس فقد كانوا يبيتون الآلات التي يستخدمونها لتنظيف أرجل مرتادي الحمامات ([٣])

وكان من غرائب حياة الترف في الأندلس اعتناء الأندلسيين بمقابرهم أشد الاعتناء، حتى غدت جناناً تسحر العيون، ولذلك فقد اتخذها الأندلسيون متنزهات لهم ولولاتهم، وقد أشار ابن سعيد لذلك عند حديثه عن مدينة إشبيلية فقال فيها: " ومقابرها حسنة في نهاية من الأخذ بالقلوب والفرجة وولاتها تتردد عليها من إشبيلية"([٤]).

ومن الأمور التي تفنن بها الأندلسيون استخدام قوة المياه في تحريك الطواحين لطحن الحبوب، ومنها طاحونة بمدينة طركونة – على البحر المتوسط- وقد ذكر ذلك المقري عن ابن غالب قوله: "منها ما كان من جلبهم الماء من البحر الملح إلى الأرحي التي بطركونة على وزن لطيف وتدبير محكم، حتى طحنت به وذلك من أعجب ما صنع"([٥]).

ويبدو أن مدينة وادي آش القريبة من غرناطة، والمطلة على النهر القادم إليها من جبل شلير؛ قد عرفت وجود الطواحين التي تعمل بقوة الدفع بالمياه، فكان لها أرحاء ملتصقة بسورها([٦])، وكذلك مدينة غرناطة كان فيها أرحى( [٧])، وهذه الإشارات توحي بالتقدم في الجانب الجانب المادي من الحضارة، مما يوحي بالازدهار الاقتصادي والترف.

ومن مظاهر الترف استخدام الأندلسيين للقطط في بيوتهم، فكانوا يهتمون بها وبجمالها كنوع من المتعة المتوفرة في بيوت الأندلسيين حتى أن بعض أصحابها كانوا يخشون عليها عند سفرهم فكانوا يودعونها عند بعض أصحابهم، ويشير إلى ذلك رسالة كتبها أبو عبد الله بن صاحب الصلاة([٨]) من قرطبة لصاحب له في وصف قط كان قد استودعه عنده، وهو يصف في

---

١ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص158.

٢ ) الحميري: الروض المعطار، ص381.

٣ ) السقطي: في آداب الحسبة، ص67.

٤ ) ابن سعيد: المغرب، ج1، ص321.

٥ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص202.

٦ ) الحميري: الروض المعطار، ص604.

٧ ) القلقشندي: صبح الأعشى، ج5، ص207.

٨ ) أشار محقق كتاب رسائل أندلسية إلى أن هناك تراجم عديدة لمن يلقبون بابن صاحب الصلاة وهو لقب لمن يؤم الناس، ولذلك لم يتمكن المحقق من التحقق من اسم كاتب الرسالة.(ص71).

في هذه الرسالة جمال القط وهدوءه في الوضع الطبيعي، فيما يصف حاله عند ثورته وذلك إن شاهد كلباً أو فأراً أو حتى قطاً مثله( [١])، مما يشير إلى أن هذه القطط كانت تستخدم لحماية البيوت من الحيوانات الأخرى ولتنظيف البيوت من الفئران إضافة لكونها تقتنى للمتعة والرفاهية.

وكان من عادات الترف اقتناء أصحاب المالية للإناث من الأفراس كركوبة لهم يحيطونها بالعناية، حتى أصبحت هذه الأفراس محط الأنظار من قبل ذوي السلطة والمكانة العالية، ومما يشير إلى ذلك وجود رجل في مدينة جيان "من أهل المالية، وكان له فرس أنثى من عتاق الخيل؛ على عادة أولي المالية ...، وشهرت هذه الفرس، في تلك الناحية، وبعث الطاغية ملك الروم في ابتياعها"([٢])

ومن مظاهر الترف كذلك اتخاذ مربيات للأطفال في البيوت، واللواتي يتم انتخابهن من بين الجواري المشتريات، وكانت جواري النوبة توصف لهذه المهنة فإن "أحسن الربايات للأطفال النوبة، لأن عندهن رحمة وحنيناً للأطفال"([٣])

ومن مظاهر الترف عند الأندلسيين استخدام أدوات مصنوعة من معدن الفضة الخالص، وكانوا يسمونها فضة منبوتة، ولذلك انتقد لهجتهم أبو بكر الإشبيلي وقال بل هي فضة خالصة ومحضة([٤])، وكانوا يصيغون بعض أدواتهم على هيئة الطيور كالطاووس مثلاً([٥]).

وكان من ترف الأندلسيين استخدامهم لأسلحة ولجم حُلّيت وزينت، وكانوا يقولون عنها باللهجة العامية عندهم "سيف مُحَلِّيّ ولجام مُحَلِّيّ"( [٦])، وإذا كانت الأدوات المستخدمة للحيوانات بهذا الترف فمن المؤكد أن ما يستخدمه الإنسان سيكون أكثر ترفاً وأشد فخامة.

ومن مظاهر الترف الأخرى في الأندلس انتشار القناطر على الأنهار، واستخدامها للمرور من فوقها بدل الإبحار بالمراكب عبر الأنهار، ومن هذه القناطر تلك القنطرة الموجودة في مدينة تدعى جزيرة الشقر وتقع بين مدينة بلنسية ومدينة شاطبة( [٧])، وقنطرة السيف([١]) وهي

---

١ ) كتاب رسائل أندلسية، تحقيق: فوزي عيسى، ص71، وما بعدها.

٢ ) ابن الخطيب: الإحاطة، ج3، ص93.

٣ ) السقطي: في آداب الحسبة، ص53.

٤ ) الزبيدي، أبو بكر محمد بن حسن الأشبيلي: الزيادات على كتاب إصلاح لحن العامة بالأندلس، دراسة ونصوص عبد العزيز الساوري، دبي، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ط 1، 1415هـ=1995م، ص37.

٥ ) سويدان، طارق: الأندلس "التاريخ المصور"، الكويت، مطابع المجموعة الدولية، ط 1، 1426هـ=2005م، ص228.

٦ ) الزبيدي: الزيادات على كتاب إصلاح لحن العامة بالأندلس، ص36.

٧ ) المراكشي: المعجب، ص370.

وهي قريبة من ماردة([٢])، وقنطرة لبلة غربي الأندلس([٣]) وقنطرة طليطلة المطلة على نهر تاجه التي يعجز الواصفون عن وصفها، وكان طولها ثلاثمائة باع وعرضها ثمانون باعاً([٤]) وقنطرة مدينة إستجة([٥])، وقنطرة ياقوه([٦])، وقنطرة ماردة([٧])، وقنطرة مرسية([٨])، وقنطرة اشكابة([٩])، وقنطرة سرقسطة([١٠])، و قنطرة طليطلة؛ وهي من عجائب البنيان([١١])،وقنطرة قرطبة([١٢])، وتعرف بالجسر الأعظم الذي لا يعرف في الدنيا مثله([١٣]) فهي عديمة النظير([١٤])وتتكون من سبعة عشر قوساً([١٥])وهي إحدى أعاجيب الدنيا([١٦]) والذي بناها مبعوث عمر بن عبد العزيز للأندلس السمح بن مالك الخولاني عام (100هـ=718م)([١٧])([١٨])، وفيها قال بعض علماء الأندلس:

بأربع فاقت الأمصار قرطبة    منهن قنطرة الوادي وجامعها([١٩])

---

١ ) ابن الأبار، التكملة، ج1، ص246.

٢ ) الحميري: الروض المعطار، ص 473.

٣ ) الحميري: الروض المعطار، ص507- 508.

٤ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص162.

٥ ) ابن حيان: المقتبس، ص146؛ الحميري: الروض المعطار، ص53.

٦ ) الحميري: الروض المعطار، ص523.

٧ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص203.

٨ ) الحميري: الروض المعطار، ص539.

٩ ) م.ن: ص540.

١٠ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص171

١١ ) الحميري: الروض المعطار، ص393.

١٢ ) ابن بسام: الذخيرة، ج2، ص611.

١٣ ) الحميري: الروض المعطار، ص458.

١٤ ) الزبيدي: تاج العروس، ج13، ص486.

١٥ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص559

١٦ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص480.

١٧ ) هو السمح بن مالك الخولاني الحياوى، أمير الأندلس استشهد في الأندلس يوم عرفة عام (100هـ=718م)، وكانت مدة ولايته على الأندلس سنتين وثمانية أشهر ( ابن الفرضي: تاريخ العلماء بالأندلس، ج1، ص230).

١٨ ) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص152.

١٩ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص153.

ويبدو أن هذه القنطرة غير تلك التي بناها المنصور على نهر قرطبة حيث ابتدأ بناءها عام (378هـ=988م) وانتهى منها عام (379هـ=989م) وأنفق فيها مائة وأربعين ألف دينار([١])، وهذا المبلغ المنفق في إنشائها إضافة إلى المدة الطويلة التي استغرقتها دليل واضح على مدى عظمة وفخامة بناء هذه القنطرة.

وكان اهتمام الخلفاء الأمويين بالقناطر اهتماماً بالغاً فكانوا يعملون على ترميمها دائماً للمحافظة عليها، ولذلك فإن الحكم المستنصر بعد قيامه بغزو بلاد الجوف عام (354هـ=965م) أرسل بالأموال للولاة من أجل إصلاح قناطر الأندلس وابتدأها بقنطرة سرقسطة([٢]).

وفي عهد الموحدين فإن المنصور الموحدي سار على خطى الأمويين في الأندلس من حيث اهتمامهم بإنشاء القناطر، ومن المعروف بأنه كان أكثر خلفاء الموحدين ولعاً بالعمارة والبناء-، فبنى جسراً يصل بين مدينة إشبيلية وربضها القبلي طريانة، وكانت تبنى قنوات مياه محمولة على القناطر من قلعة جابر إلى باب قرمونة من أبواب إشبيلية([٣]).

إن المتتبع لمجموع الإنشاءات العمرانية خاصة القناطر والحمامات التي وقعت في الأندلس على يد الحكام، يجد أنه لم يكن لها هدف سوى نشر مباهج الحياة في شتى الأنحاء الأندلسية، بقصد إراحة المواطنين وتهيئة ظروف حياة ممتعة لهم.

وللحق فإن الحُكم الأموي بمجمله كان في غاية الترف، فكما يقول ابن خلدون كان لخلفاء الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية (ت 172هـ=788م) في الأندلس "ملك ضخم ودولة ممتعة"([٤]).

ومن مظاهر الترف في العهد الأموي ما بهر علية القوم فاستكثروه لشدة السرف فيه، ومن ذلك أن الخليفة الأموي عبد الرحمن الأوسط (ت238هـ=852م) أمر ذات مرة لجارية من جواريه بعقد من الجواهر بلغت قيمته عشرة آلاف دينار، مما بهر الحضور من الوزراء والخاصة وحاولوا ثنيه عن ذلك لأن هذا العقد كان مدخراً للنائبات، فرد عليهم عبد الرحمن بقوله: "إن لابس العقد أنفس خطراً، وأرفع قدراً، وأكرم جوهراً، ولئن راق من هذه الحصباء منظرها، ولطف إفرندها، لقد برأ الله من خلقه البشري جوهراً تعشى منه الأبصار وتتيه الألباب،

---

١) م.ن: ج1، ص408.

٢) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص171.

٣) سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، ص750-751.

٤) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص156.

وهل على الأرض من شريف جوهرها، وسنى زبرجها([1])، ومستلذ نعيمها، وفاتن بهجتها، أقر لعين، أو أجمع لزين، من وجه أكمل الله حسنه، وألقى عليه الجمال بهجته"([2]).

وقد طلب عبد الرحمن من شاعره وجليسه عبد الله بن الأشمر أن يقول شعراً في هذه الحادثة فأنشأ يقول:

| | |
|---|---|
| أتقرن حصباء اليواقيت والشذر | إلى من تعالى عن سنا الشمس والبدر |
| إلى من برت قدما يد الله خلقه | ولم يك شيئاً غيره أحد يبري |
| فأكرم به من صيغة الله جوهراً | تضاءل عنه جوهر البر والبحر |
| له خلق الرحمن ما في سمائه | وما فوق أرضيه ومكن في الأمر([3]) |

ومن مظاهر وصور الترف في المجتمع الأندلسي قيام الأثرياء في المجتمع بتنميق قبورهم وتشييدها تشييداً يخالف قبور الفقراء ويميزها عن قبورهم، وهو ما كان ممجوجاً من قبل بعض الشعراء، حتى قال في ذلك شاعر الأندلس يحيى بن الحكم البكري الجياني الملقب بالغزال (ت250هـ=864م) منكراً على الأغنياء فعلهم:

| | |
|---|---|
| أرى أهل اليسار إذا توفوا | بنوا تلك المقابر بالصخور |
| أبوا إلا مباهاة وفخراً | على الفقراء حتى في القبور |
| فإن يكن التفاضل في ذراها | فإن العدل فيها في القعور |
| رضيت بمن تأنق في بناء | فبالغ فيه تصريف الدهور |
| ألما يبصروا ما خربته الدهور | من المدائن والقصور |
| لعمر أبيهم لو أبصروهم | لما عرف الغني من الفقير([4]). |

ولعل المقصود بالصخور في الأبيات هو استخدام أحجار رخامية في بناء القبور، حيث كان الأثرياء يكتبون على قبورهم اسم المتوفى على لوح من الرخام، كما فعل ذلك أحمد بن عبد الملك بن شهيد([5]).

ولقد كان لخلفاء بني أمية مدافن خاصة بهم، حتى لا تختلط قبورهم بقبور العامة لتمييزها، فمثلاً وجد في قصر قرطبة مدفناً خاصاً بملوكهم واسمه روضة الخلفاء([6]).

---

١ ) هكذا في المصدر، وربما يكون المقصود بها زبرجدها.

٢ ) ابن الأبار، الحلة السيراء، ج1، ص116.

٣ ) م.ن: ج1، ص117.

٤ ) المقري: نفح الطيب، ج2، ص256.

٥ ) ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص333.

٦ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص173.

وكان من ترف الأندلسيين كذلك صناعة أحواض المياه – تشبه النافورة– ومن ذلك ما قام به الناصر(ت 350هـ=961م) من اتخاذ حوضين أحدهما منقوش مذهب والآخر أخضر صغير وفيه نقوش وتماثيل على هيئة بشر، فأمر الناصر بنصب اثني عشر تمثالاً آخرين من ذهب مرصعين بالجواهر النفيسة تمج الماء من أفواهها، واشتملت هذه التماثيل على تجسيد لعدد من الحيوانات والطيور وهي أسد وغزال وتمساح وثعبان وعقاب وحمامة وشاهين وطاووس وديك ودجاجة وحدأة ونسر(١)، ويبدو أن هذه التماثيل لها علاقة بقنوات المياه والبرك التي صنعها الناصر، فقد أشار المقري إلى ذلك عندما ذكر إحدى القنوات المائية التي مدها المهندسون وصنعوا عند نهايتها بركة ماء، حيث أجريت المياه في هذه القناة من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة "في المناهر(٢) المهندسة والحنايا المعقودة يجري ماؤها بتدبير عجيب وصنعة محكمة إلى بركة عظيمة" ويدخل هذا الماء إلى البركة عن طريق أسد مصنوع من ذهب وعيناه صنعتا من الجواهر فيدخل هذا الماء في عجزه ويخرج من فمه ومما تستخدم له هذه المياه سقاية حدائق القصر(٣).

ومن مظاهر الترف التي برزت على يد الناصر في مدينة الزهراء إنشاء مجموعة من الأبواب للمدينة وعددها خمسة عشر باباً، منها الصغير ومنها الكبير وجميع هذه الأبواب كانت ملبسة بالحديد والنحاس المموه بالذهب(٤).

ويبدو أن عهد الناصر كان عهداً للترف والمتعة في الأندلس، فيبدو أن عهده شهد بروز متخصصين في مجال تعليم الزرازير(٥)، فقد أورد الناصري والمقري قصة تشير إلى ذلك عندما أراد الناصر الفصد يوماً فاستدعى الطبيب وعندما أخرج الطبيب شفرته للفصد إذ بزرزور يطل ويركب على حافة إناء من ذهب في مجلس الخليفة وأخذ يغني ويقول:

أيها الفاصد مهلاً بأمير المؤمنينا إنما تفصد عرقا فيه محيا العالمينا

فسُر الخليفة وسأل عمن علم هذا الزرزور ذلك الغناء، فأخبر أنها السيدة مرجانة أم ولي عهده الحكم المستنصر فوهبها ما يقرب من ثلاثين ألف دينار(٦).

---

١) م.ن: ص163.

٢) المنهرة: فضاء بين أفنية القوم (الزبيدي: تاج العروس، ج14، ص316).

٣) المقري: نفح الطيب، ج1، ص564-465.

٤) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص163.

٥) الزرزور طائر كالقنبرة (الزبيدي: تاج العروس، ج 11، ص423)، كما أورد ابن بسام في الزرزور قولاً: " فيا للعجب العجيب ولسان هذا الزرزور النجيب أنطقه فضل الوزير بلسان نقله من نوع الزرازير إلى نوع الإنسان" (ابن بسام: الذخيرة، ج3، ص354).

٦) ابن العماد: شذرات الذهب، ج3، ص3-4؛ المقري: نفح الطيب، ج1، ص360-361.

ومن مظاهر الترف التي عرفت عن الحكام في الأندلس ولعهم باقتناء الدواب وإيجاد حظائر لها، كالمنصور بن أبي عامر الذي كان يزرع كل عام ألف مدي من شعير طعاماً لدوابه، وكان له موظف مسئول أمامه عن الاعتناء بها([1]).

ويمتاز عصر الطوائف بمظاهر الرخاء والبذخ والإسراف في شتى مجالات الحياة المتنوعة([2])، فقد عرف عن ملوك الطوائف أنهم كانوا يقتنون بعض المقتنيات للزينة وليس من أجل استخداماتها الطبيعية والتي صنعت من أجلها، فكان عندهم أسلحة وآلات كأدوات للزينة وليست للحرب، وقد ذكر ابن الخطيب ذلك عند حديثه عن مبارك ومظفر موليا المنصور بن أبي عامر فقال عنهما: "فبلغا الغاية من اقتناء الأسلحة والآلات الملوكية، والخيل المغربات، ونفيس الحلى والحلل، وإشادة البناء للقصور"([3]).

كما أن هناك بعض الأدوات التي كان يستخدمها الأندلسيون في حياتهم ميزها الترف الشديد، فإن أبا الطاهر الخشني([4]) كان جالساً مع بعض طلبة العلم فمر بهم رجل ومعه محبرة أبنوس تجمّل في صنعتها وأخبر الطلبة بأنه يريد أن يتوجه بها إلى بعض الأكابر وطلب منهم أن يقولوا فيها شعراً يقوله عند تقديمها للأكابر فارتجل أبو الطاهر أبياتاً بحق المحبرة، ثم غاب يسيراً وعاد إليهم وفي يده قلم مصنوع من النحاس مذهب فقال: أعددت هذا أيضاً لأقدمه مع هذه المحبرة، فقولوا فيه شعراً كذلك، فارتجل أبو الطاهر من جديد أبياتاً بحق القلم المذهب([5])

ومن مظاهر الترف التي برزت في الأندلس مهاداة ملوك المسلمين لملوك النصارى فإنه عندما تولى حسام الدولة بن رزين([6]) أهدى ألفنش "هدية جليلة من الحلي والحلل والخيل والبغال والبغال وتحف الملوك يعجز عنها الوصف"([7]).

---

١ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص584.

٢ ) ابن سعد الخير: القرط على الكامل، ص2(نقلاً عن المكتبة الشاملة، الإصدار 3,28).

٣ ) ابن الخطيب: الإحاطة، ج3، ص293.

٤ ) لم أعثر له على تاريخ وفاة فيما بين يدي من المصادر، غير أن الصفدي يشير إلى أن أبا الطاهر هو أخو أبي بكر النحوي ( الوافي بالوفيات، ج 9، ص134)، فيما أشار السيوطي إلى تاريخ وفاة أخيه أبي بكر بأنها كانت في عام 544هـ (السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، صيدا، المكتبة العصرية، د.ت.ط، ج1، ص244).

٥ ) المقري: نفح الطيب، ج4، ص323.

٦ ) هو يحيى بن عبد الملك بن هذيل، من آل رزين، ولقبه حسام الدولة: ثالث أصحاب " شنتمرية الشرق ( ت بعد497هـ=بعد1104م) ( الزركلي: الأعلام، ج8، ص155).

٧ ) أرسلان: الحلل السندسية، ج2، ص103.

ومن عجائب حوادث الترف التي وقعت في بلاد الأندلس، أن اعتماد الرميكية([١]) زوجة المعتمد بن عباد (ت 488هـ) شاهدت ذات مرة بعض نساء إشبيلية القادمات من البادية يبعن اللبن في القِرَب وهن كاشفات عن سوقهن ويمشين في الطين، فقالت الرميكية للمعتمد أشتهي أن أفعل مع جواريَّ مثل فعل هؤلاء النساء، فما كان من المعتمد إلا أن أمر بعجن العنبر والمسك والكافور بماء الورد، حتى أصبح كالطين، ومده في القصر وصنع لها قرباً وحبالاً من الذهب، فخرجت هي وجواريها تمشي في الطين المصنوع، فيقال: " إنه لما خلع وكانت تتكلم معه مرة فجرى بينهما ما يجري بين الزوجين ، فقالت: له والله ما رأيت منك خيراً ، فقال: لها ولا يوم الطين تذكيراً لها بهذا اليوم الذي أباد فيه من الأموال ما لا يعلمه إلا الله تعالى ، فاستحيت وسكتت"([٢]).

ويعقب المقري على هذه الحادثة بقوله: ولعل المعتمد أشار في أبياته الرائية إلى هذه القضية حيث قال في بناته

يطأن في الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكا وكافورًا

ويحتمل أن يكون أشار بذلك إلى ماجرت به عادة الملوك من "ذر الطيب في قصورهم حتى يطؤوه بأقدامهم زيادة في التنعم"([٣]).

وعرف عهد الطوائف نوعاً من الترف ربما يكون منقولاً عمن سبقهم في حكم الأندلس ألا وهو استخدام المراوح التي تخفف من شدة الحر أيام الصيف، ومن هذه الأنواع المراوح الجلدية، ولذلك طلب ألفنش من ابن عباد أن يرسل له من عنده بمراوح يروح بها عن نفسه ويطرد بها الذباب، فرد عليه ابن عباد بأنه سيرسل عليه مراوح من جلود لمطية يروح بها عن نفسه في إشارة إلى تهديده باستدعاء المرابطين([٤]).

أما العهد المرابطي فإن أيام دولتهم وصفت بأنها أيام دعة ورفاهية ورخاء وعافية وأمن، وكثرت الخيرات في بلادهم([٥]).

---

١ ) الرميكية: كانت سرية المعتمد وقد اشتراها أيام أبيه المعتضد من شخص يدعى رميك بن حجاج فنسبت إليه فأفرط في الميل إليها ولأن اسمع اعتماد فقد اختار لنفسه لقباً يناسب اسمها وهو المعتمد وتوفيت اعتماد قبل زوجها المعتمد بأيام فقط ( ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج4، ص428).

٢ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص440.

٣ ) م.ن: ج4، ص273.

٤ ) الحميري: الروض المعطار، ص 288؛ المقري: نفح الطيب، ج4، ص358؛ الناصري: الاستقصا، ج2، ص38.

٥ ) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص167.

وعرف عهد الموحدين كثيراً من أشكال الترف فاتخذوا المراكب الفارهة واستخدموا الشموع للإنارة والزجاج للشراب، ويظهر ذلك من حادثة اعتقال أبي جعفر بن عبد الملك بن سعيد العنسي وهو وزير بمالقة في عهد الخليفة الموحدي عبد المؤمن، فدخل عليه ابن عمه فبكى لما رآه مكبلاً فقال له: " أعليّ تبكي بعدما بلغت من الدنيا أطايب لذاتها ، فأكلت صدور الدجاج ، وشربت في الزجاج ، ولبست الديباج ، وتمتعت بالسراري والأزواج ، واستعملت من الشمع السراج الوهاج وركبت كل هملاج"([١]).

أما بالنسبة لأدوات الترفيه فبلا شك أن الحياة المترفة التي عاشها الكثيرون في الأندلس وخاصة علية القوم؛ قد اقترنت بفراغ كبير، فمنهم من استغل هذا الفراغ بالعمل الجاد والعلم النافع، ومنهم من شغله في ألوان مختلفة من اللهو والتسلية([٢]).

ففي بعض الأحيان كان الترف بما يترتب عليه من الإسراف واللهو والتسلية يأخذ بعض الحكام الأمويين عن أعمالهم، ويشغلهم عن خدمة الناس، ومن بين هؤلاء الحكام الأمير الأموي الحكم بن هشام (ت 206هـــ=821م)، فقد كان في صدر ولايته منهمكاً في ملذاته( [٣])، و"كان كثير التشاغل باللهو والصيد والشرب، وغير ذلك مما يجانسه"([٤])، وكان طاغياً مسرفاً([٥])، وكان وكان من جبروته يخصي كل من يشتهر بالجمال من رعاياه، وذلك من أجل أن يدخلهم في قصره([٦]).

ومن بين مظاهر الترف التي عرفها هذا العهد في الأندلس إيجاد برك الماء للاستجمام فيها، فقد كان عند الحكم المستنصر بركة ماء، وكان يستخدمها في الحر بالنزول فيها، وفي ذات يوم قدم عليه القاضي منذر بن سعيد (ت 355هـــ=966م)([٧]) عقب صلاة الجمعة، وشكا له من شدة الحر؛ إذ الوقت وقت الظهيرة، فأمره الحكم بالتخفف من الثياب، ولكن ذلك لم يخفف من

---

١ ) ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص218، 219؛ المقري: نفح الطيب، ج4، ص204.

٢ ) دويدار: المجتمع الأندلسي، ص311.

٣ ) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج4، ص161.

٤ ) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص413؛ النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق : مفيد قمحية وآخرون، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 1، 1424هـــ=2004م، ج23، ص217.

٥ ) المراكشي: المعجب، ص19.

٦ ) ابن سعيد: المغرب، ج1، ص44.

٧ ) هو منذر بن سعيد بن عبد الله البلوطي، تولى قضاء الجماعة والصلاة في جامع الزهراء في عهد الناصر عام(339هـــ=950م)، وأقره ابنه الحكم على عمله، وكان صلباً صارماً غير جبان (ت 355هـــ=966م) (قضاة قرطبة، وعلماء أفريقية، لأبي عبد الله محمد بن حارث بن أسد الخشني، تحقيق: السيد عزت العطار الحسني، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط2، 1415هـــ=1994م، ص175-176).

شدة الحر التي كان يعاني منها، فأمره الحكم أن يغمس نفسه بالماء، فاستحيا من ذلك، فأمر الحكم حاجبه وكان يحسن السباحة بالنزول للماء في البركة؛ لكي يسهل الأمر على القاضي، فتشجع القاضي لذلك، ونزل إلى البركة بعد خلع ملابسه واتزر، ولكنه لم يسبح فساجله الحاجب، عساه يباريه فلم يفعل، فقال الحكم إنما فعل هذا لأجلك، فقال القاضي: " يا سيدي: الحاجب سلمه الله مطلق، لا هوجل معه، وأنا بالهوجل الذي معي، يعقلني ويمنعني من الإعماق في الصهريج يريد بمقالته أنثييه وأن جعفراً [الحاجب] مجبوب(١)، فاستفرغ الحكم ضحكاً من نادرته، ولطف تعريضه"(٢).

كما عرفت الأندلس بعض وسائل الترفيه الشاذة والغريبة، كأن يقوم بعض الرجال من المبهرجين(٣) والمهذرين(٤) بتجميع الناس حولهم في الشوارع؛ ويأخذون في محادثتهم بغث الكلام وتوافهه(٥)، حتى أشير إلى مدينة قرطبة على أنها تحوي أصحاب فنون الهزل(٦)، وهو ما يمكن تشبيهه بما يعرف في عصرنا بالبهلوانات أو الأراجوز.

ويمكن القول بأن أمثال هذه العادات التي عرفتها الأندلس قد نجمت عن حب الأندلسيين للمرح والضحك، فالفكاهة خصلة معروفة من خصال الأندلسيين، وروح الدعابة عندهم معروفة ومشهورة عنهم، وتشمل جميع شرائح المجتمع بلا استثناء، وفي ذلك يقول المقري: " ولأهل الأندلس دعابة وحلاوة في محاوراتهم، وأجوبة بديهية مسكتة، والظُرف فيهم والأدب كالغريزة؛ حتى في صبيانهم ويهودهم، فضلاً عن علمائهم وأكابرهم "(٧)، وكانت بعض المدن مخصوصة بهذا الوصف، كمدينة إشبيلية فإن أهلها " أخف الناس أرواحاً، وأطبعهم نوادر، وأحملهم لمزاح بأقبح ما يكون من السب، قد مُرِّنوا على ذلك، فصار لهم ديدناً، حتى صار عندهم من لا يتبذل فيه، ولا يتلاعن ممقوتاً ثقيلاً"(٨)، والواضح أن حياة الترف والمتعة التي أفرزت هذا الواقع في الأندلس أدت لتقبل الناس لسماع الكلمات البذيئة.

وإذا كانت الإشارات سابقة الذكر هي أوصاف عامة لحياة اللهو والترف في التاريخ الأندلسي، فإن العصر الأموي قد عرف كثيراً من هذه المظاهر، فقد كان الحكام يعتمدون في

---

١ ) المجبوب: الخصي (ابن منظور: لسان العرب، ج1، ص249).
٢ ) النباهي: تاريخ قضاة الاندلس، ص72؛ المقري: ج2، ص18-19.
٣ ) كلامٌ بَهْرَجٌ ، وعَمَلٌ بَهْرَجٌ : رَدِىءٌ ( الزبيدي: تاج العروس، ج5، ص433).
٤ ) رجل مهذر كثير السقط ( ابن سيده: المخصص، ج1، ص214).
٥ ) السقطي: في آداب الحسبة، ص67.
٦ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص457.
٧ ) م.ن: ج3، ص381.
٨ ) ابن حزم وآخران: فضائل الأندلس، ص51؛ المقري: ج3، ص212.

نزهاتهم على اتخاذ مضحكين للترويح عنهم، فكانوا يصحبونهم معهم في حلّهم وترحالهم، مثل شنجول (ت 399هـ=1009م)([١]) حيث كان في جولاته التنزهية يخرج من متنزه إلى آخر، ويصطحب معه هؤلاء المضحكين([٢]).

وعلاوة على ما سبق فقد انتشرت أشكال أخرى من الترفيه في الأندلس، حيث انتشرت لديهم لعبة الشطرنج ولعبة النرد؛ كوسائل للترفيه عن النفس([٣])، و ألعاباً أخرى كالقرق([٤]) والأزلام([٥])، وكان بعض من يلعبون هذه الألعاب يلعبونها على سبيل القمار، فتشغلهم عن الفرائض([٦])، ويضاف إلى هذه الألعاب لعبة اللطمة والمقرع([٧])، وهي ألعاب يبدو أنها تعتمد على المخادعة والكذب فهي تعلم النفاق والهرج([٨]).

وبالنسبة للعبة الشطرنج، فإن علية القوم من الأندلسيين كانوا يلعبونها، وهم في لعبها في غاية الإتقان، ففي عهد الطوائف انتشرت هذه اللعبة بشكل كبير وعلى مستوى رفيع، وممن لعبها الوزير الكاتب أبو أحمد بن عباس([٩]) وزير زهير الصقلبي([١٠]) ملك المرية([١]).

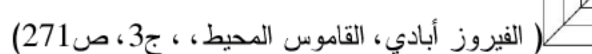
---

١) شنشول، ويقال شنجول وهو الأصح، كان مدبراً لدولة المؤيد بالله، فعتا وتمرد وفسق، وأجبر لمؤيد بالله حتى خلع نفسه من الخلافة وفوضها إلى شنشول ( الذهبي: سير أعلام النبلاء، ، ج17، ص125).

٢) ابن عذاري، أبو عبد الله محمد المراكشي: البيان المغرب في أخبار أهل الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج.س. كولان، وليفي بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، ط3، 1983م، ج3، ص39.

٣) ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص274.

٤) القرق: هو لَعِبُ السُّدَّرِ، حيث يُخط أربَع وعشرون خَطّاً ويَصُفُّونَ فيه حُصَيَّاتٍ على النحو التالي:



( الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ، ج3، ص271)

٥) الأزلام: جمع زَلَمٍ وهو القِدْح، وكانت العربُ في الجاهلية يكتبون عليها الامْرَ والنَهْيَ، ويضعونها في وعاءٍ، فإذا أراد أحدُهم سفَراً أو حاجةً أدخَل يدَه في ذلك الوعاء، فإن خَرَج الأمرُ مضى، وإن خَرج الناهي كَفَّ، ( المغرب في ترتيب المعرب، للمطرزي، ج1، ص367).

٦) ثلاث رسائل: تحقيق ليفي بروفنسال، ص53.

٧) اللطمة والمقرع: لم أجد للمفردتين تعريف يوحي بكيفية لعبهما فيما بين يدي من مصادر لغوية.

٨) ثلاث رسائل: تحقيق ليفي بروفنسال، ص52.

٩) هو الوزير الكاتب أبي جعفر أحمد بن عباس ، وقد وصف بأنه سبق الناس في أربعة أمور وهي: المال، والعجب، والبخل، والكتابة ( ابن بسام: الذخيرة، ج2، ص643-645).

١٠) تولى حكم المرية عقب وفاة خيران العامري عام ( 419هـ=1028م) ( تاريخ ابن خلدون، لابن خلدون، ج4، ص208)؛ وقد أشار المقري إلى أنه قدم إلى قرطبة في عهد أبي عامر بن شهيد ( المقري: نفح الطيب، ج3، ص610).

كما كان ابن عمار (477هـ=1084م)([٢]) وهو وزير للمعتمد بن عباد في غاية الإجادة لهذه اللعبة، حتى أن الأدفنش أراد غزو إشبيلية وقرطبة وأعمالهما في جيوش عظيمة، فخافه الناس، وامتلأت نفوسهم رعباً منه، فلجأ ابن عمار إلى حيلة ماكرة حيث قام بصناعة سفرة شطرنج في غاية الإتقان والإبداع، لم يُرَ مثلها، وصنع أحجارها من الأبنوس والعود الرطب والصندل، وحلاها بالذهب، وجعل أرضها في غاية الإتقان، وقام ابن عمار بإظهار هذه السفرة أمام خواص الأدفنش، والذي كان شديد الولع بالشطرنج، ولما تقابل الأدفنش مع ابن عمار سأله الأدفنش عن تلك السفرة التي أخبره بها خواصه، وطلب منه أن يباريه فيها، فقال له ابن عمار بواسطة الترجمان: أنا آتيك بها؛ فإن غلبتني فهي لك؛ وإن غلبتك فلي ما أشاء، فأحضرها ابن عمار، فلما رآها الأدفنش قال ما ظننت أن إتقان الشطرنج يبلغ هذا الحد، ثم قال لابن عمار: أعد علي شروط المباراة، فأعادها عليه، فقال الأدفنش لا أستطيع أن ألعب معك على حكم مجهول لا أدري ما هو، فقال ابن عمار: أنا لا ألعب إلا بهذه الشروط؛ وأمر بالسفرة فطويت، غير أن الأدفنش تعلقت نفسه بالسفرة، وضعف أمام نصائح خاصته باللعب، ووافق على شروط ابن عمار، فطلب ابن عمار شهوداً من رجال الأدفنش على ذلك، وأخذا يلعبان، فهزم ابن عمار الأدفنش، وكان شرطه أن يرجع الأدفنش من حيث أتى، وعندها لام الأدفنش خاصته على تشجيعهم إياه لكي يلعب([٣])، إن إصرار ابن عمار على مباراة الأدفنش في الشطرنج دليل على ثقة عالية بالنفس عند ابن عمار وهذه الثقة لا تتأتى إلا بالممارسة المستمرة لهذه اللعبة، وهو ما يمكن الاستدلال من خلاله على أن أهل الأندلس كانوا متمرسين ومتمكنين فيها، ولذلك فقد قيلت في هذه اللعبة الأشعار، ومنها قول أبي بكر الداني(ت491هـ=1098م):

ونحن من لعب الشطرنج في يده ⁂ وربما قمرت([٤]) بالبيدق([٥]) الشاة([٦]).

وقد استمر لعب الشطرنج حتى في عهد المرابطين الذين عرفوا بتقشفهم ([٧]).

---

١ ) المقري: نفح الطيب، ج3، ص535.

٢ ) هو أبو بكر محمد بن عمار، المهري الأندلسي الشلبي ، الشاعر المشهور ذو الوزارتين ؛ كانت ملوك الأندلس تخاف منه لبذاءة لسانه، وبراعة إحسانه، لاسيما حينما استعمله المعتمد على الله بن عباد صاحب غرب الأندلس ( وفيات الأعيان، لابن خلكان، ج4، ص425).

٣ ) المراكشي: المعجب، ص119-120.

٤ ) قَمَرْتُ الرجل أَقْمِرُه: قَمْراً إذا لاعبته فغلبته ( ابن منظور: لسان العرب، ج5، ص113).

٥ ) البيدق: هو الجندي الراجل جمعها بيادق وبيادقة ومنه بيدق الشطرنج ( المعجم الوسيط، لإبراهيم مصطفى وآخرون، ج1، ص78).

٦ ) ابن بسام: الذخيرة، ج6، ص696.

٧ ) بوتشيش: المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص95.

وكان من أنواع الترفيه الأخرى ترويض الخيول، وهو ما انتشر في العصر الأموي وكانت الحكام تمارسه، حيث كان بعض الحكام يتَلَهَّوْنَ بتربية الخيل وركوبها، فالحكم المستنصر (ت366هـ=976م) كان له من الخيل المتواجدة في رحاب قصوره قرابة عشرين ألف جواد([1])، فيما كان للمنصور ابن ابي عامر حلبة للخيل؛ بها مختلف أنواع وألوان الخيول([2]).

وفي عصر المرابطين اعتنى الأندلسيون بالخيول، وتربيتها، وتسميتها، والتعرف إلى أصواتها، ويبدو ذلك من خلال رسالة بعث بها أبو الطيب بن منّ الله القروي (ت493هـ=1100م) إلى أبي عامر بن غرسية يبكته فيها ويعيره بما عند العرب وليس عند العجم من اعتزازه بتسمية الخيول مستعملاً نصاً منقولاً عن عبد الله بن الزبير فقال في جزء من رسالته "وإنك لتعلم أن خيلهم – العرب – أشهر من ملوككم أسماء وألقاباً، وأطهر من نسوانكم أنساباً وأعقاباً، قالوا: بنات أعوج وآل الوجيه ولاحق، وبنات العسجدي وآل ذي العقال، وداحس والغبراء، والجرادة والخنفاء، والنعامة والشماء، وحافل والشقراء، والزعفران والحرون، ومكتوم والبطين، وقرزل والصريح، والربد والوحيف، وأسماؤها كثيرة، وألقابها شهيرة "([3])، وليس النص بحاجة إلى تعقيب سوى أن هذا الفخر بما يوليه العرب من اهتمام بالخيل وأنسابها وأصواتها نابع من عراقة العرب وقدرتهم على ترويض وتربية الخيول ومن الطبيعي أن اعتزاز أبو الطيب بن منّ الله بذلك نابع من استمرار العرب في الأندلس على سنة آبائهم في الاعتناء بالخيل وتربيتها.

وهو ما كان واضحاً لدى أهل غرناطة، فقد لعب الغرناطيون الكثير من الألعاب، مثل ألعاب الفروسية، ومصارعة الوحوش، وأقاموا حفلات الصيد([4])، واهتموا بتهجين سلالات من الخيول العربية والإسبانية، أدت في محصلتها إلى ظهور عينات جديدة من الجياد الأصيلة، التي كان يمتطيها فرسان العرب والأسبان([5])، ولعل اتخاذ هذه الخيول لم يكن كركوبة فقط بل كان من باب الزينة والمباهاة، ودليلاً على الجاه والسلطان والغنى، أو اتخاذها للتسابق في حلبات أُعدت لذلك.

وكان مما أنشده الحجاري في فرس سباق:

| | |
|---|---|
| ومُستبِقٍ يحار الطَّـرْفُ فيـهِ | ويسلم في الكفاحِ مِن الجماحِ |
| كـأَنَّ أَدِيمَــهُ ليـلٌ بهيـــمٌ | تَحَجَّلَ باليسير من الصبـاحِ |

---

[1]) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص172.

[2]) الناصري: الاستقصا، ج2، ص197.

[3]) رسائل أندلسية: تحقيق فوزي عيسى، ص201-202.

[4]) العبادي: الأعياد، مج15، ص141.

[5]) ديورانت: قصة الحضارة، عصر الإيمان، ج2، مج4، ص293.

إذا احتَدَمَ التسابقُ صار جِرماً(١)     تقلّبَ بينَ أجنحةِ الريـاحِ(٢)

وكان من بين وسائل الترفيه والتسلية التي اتبعها الأندلسيون هواية الصيد واستخدام الطيور الجارحة من أجل تحصيل صيد ثمين، فقد كان محمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف (ت589هـ=1193م) وهو من نسل عمار بن ياسر مشتهراً بالصيد، وكان مما قيل فيه

كما بزاتك لم تترك بأرضهم     وحشاً يفر ولا طيراً بلا وجل(٣).

وبالرغم من أن النص يشير إلى قوة شكيمة محمد بن عبد الملك(٤) في النزال إلا أنه يشير إلى عادة من عادات اللهو والتسلية هي رياضة الصيد والتي عرفتها الأندلس في هذا العصر.

وكان بعض الأندلسيين عند خروجهم للصيد يصحبون أهل اللهو والمغنين كما كان يفعل ابن همشك(٥)، حيث كان ماهراً في الصيد وقد خدم الموحدين في هذا المجال(٦).

وكان لأهل الأندلس "في الترف، والنعيم، والمجون، ومداراة الشعراء خوف الهجاء محل وثير المهاد"(٧)، ولذلك فإن كثيراً من المدن الأندلسية تميزت بتوفير مثل هذه الأجواء المرحة كمدينة أبدة(٨)، والتي اشتهرت بمختلف أصناف الملاهي، ويبدو أنه كان يوجد بها ما يشبه في أيامنا لاعبو السيرك، فعرفت هذه المدينة " أصناف الملاهي، والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة، فإنهن أحذق خلق الله تعالى باللعب بالسيوف، والدك، وإخراج القروى(٩)(١٠).

وإن جاز تسمية ذلك بالسيرك، فإنه يمكن القول بأن هذه المتعة لم تكن تخلو من خطر كبير في بعض الأحيان، فقد وصف ابن الأبار هذه الملاعب والتي عرفتها الأندلس وصفاً دقيقاً،

---

١ ) الجِرْمُ: بالكسر، الجسد، والجمع أَجْرَامٌ (الفيومي: المصباح المنير، ج1، ص97).

٢ ) المقري: نفح الطيب، ج3، ص572.

٣ ) ابن الخطيب، الإحاطة، مج3، ص213-214.

٤ ) للمزيد من ترجمته ابن الخطيب، الإحاطة، مج3، ص213-15.

٥ ) م.ن: ج1، ص299.

٦ ) م.ن: ج1، ص297.

٧ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص190.

٨ ) أُبدَّة: بالضم ثم الفتح والتشديد اسم مدينة بالأندلس من كورة جيان تعرف بأبدة العرب، اختطها عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية وتممها ابنه محمد بن عبد الرحمن (الحموي: معجم البلدان، ج1، ص64).

٩ ) القروى: العادة والطبيعة والطريقة الأولى (إبراهيم مصطفى، وآخرون: المعجم الوسيط، ج2، ص732).

١٠ ) ابن حزم وآخران: فضائل الأندلس، ص55-56؛ المقري: نفح الطيب ج3، ص217.

حيث وصف أحد هذه الملاعب، مبيناً أنه كان يحوي أربعة أسود ونمرين مع مروّض في حلبة، فيلقي إليهم المروض كرة كبيرة من الخشب تحجزه عنهم، ويكون بيده حدائد طوال، وعند شعور الأسود والنمرين بالمروض؛ فإنهم يثبون على الكرة، في حين أن المروض إذا شعر بخطورة الوضع وخشي من هجوم السباع عليه؛ يقوم بإلقامها تلك الحدائد، ويدحرج الكرة عليهم، فيبعدهم عنه، فيمجون الدم، وأحياناً يجهز عليهم بالحدائد إذا شعر بخطورة على حياته، وكانت مداعبة هذه الحيوانات فرجة ممتعة للناظرين، حيث مشاهدة الأسود وسماع زئيرها([١])، وقد وصف ابن الأبار هذه اللعبة، وما يفعله مروض الوحوش وصفاً رائعاً بأبيات من الشعر([٢]).

ويبدو أن الأندلسيين كانوا يمارسون مثل هذه الألعاب في ملاعب خاصة، ومن الممكن أن يكونوا قد استخدموا تلك الملاعب التي ورثوها عن الأمم السابقة التي سكنت الأندلس، فقد أشار الحميري إلى وجود ملعب في حصن مربيطر([٣])([٤])، مع أن المقري ذكره لكنه لم يفصح عن ماهية هذا الملعب أو لأي الألعاب يستخدم([٥]).

وعرفت الأندلس في العهد الموحدي عمليات مصارعة الوحوش، فكان من غاية الترف أن تكون المخاطرة من أجل الحصول على المتعة هي إحدى وسائل الترفيه عن الأندلسيين، ولعل ذلك يفهم من خلال الرواية التي أوردها ابن الأبار عن حضور أبي جعفر أحمد الوقّشي وزير ابن همشك (572هــ=1176م) لحفلة قتل أسد أمام ناظريه وهو في هذه الحادثة يصف حال الأسد في هذا المشهد بقوله:

| | |
|---|---|
| حيـــــاً إن تبســـــم هبتـــــــه | ومن العجـــائب هيبـــة المتبســـم |
| ويقال كل الصيد في جوف الفرا | وأرى الفراء لديه بعض المطعم |
| وكأنمـــا هـــو ناظر عن زئبق | وكأنما هو كاشـــر عـــن مخدم |
| وكـــأن لبدتـــه بقيــــة فـــروة | قصرت على طول الزمان الأقدم |
| لمـــا تمـــرد في العرينة فتحت | أبوابها فانســـاب مثـــل الأرقـــم |
| وعـــلا زئيـــر منـــه حتى خلته | كالفحـــل يهـــدر عنـــد شول هيم |

---

١ ) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج2، 262-263.

٢ ) لمطالعة هذه الأشعار : الحلة السيراء، لابن الأبار، ج2، ص263.

٣ ) مربيطر: بالضم ثم السكون وباء مفتوحة وياء ساكنة وطاء مفتوحة، مدينة بالأندلس بينها وبين بلنسية أربعة فراسخ ، وقد أشار الحموي إلى أن فيها الملعب وهو من أعجب العجائب وذلك أن الإنسان إذا صعد فيه نزل وإذا نزل فيه صعد ( الحموي: معجم البلدان، ج5، ص99).

٤ ) الحميري: الروض المعطار، ص540.

٥ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص203.

وظننت أن الرعد من حيث الحيـا    حتى سمعت اليـوم رعدا من فم

وتناولت زرق الأسنـة زرقـه    حتى بـدا في شكلـه كالشيهم([1])

ويمكن في ختام هذا المبحث الإشارة إلى تعدد وسائل الترفيه التي عرفتها الأندلس، ما بين الاستمتاع بالطبيعة الخلابة وما بين الألعاب التي قد يكون الأندلسيون هم من ابتكروها أو ورثوها عن الأمم الغابرة، ولذلك فإن المجتمع الأندلسي كان مجتمعاً للمتعة بامتياز، ويكفي ذلك إشارة لشدة الترف في هذا المجتمع.

---

١ ) ابن الأبار الحلة السيراء، ج2، ص261-262.

# الفصل الرابع

## أثر الترف في الانحرافات السلوكية في المجتمع الأندلسي

المبحث الأول: الولع بالموسيقا والغناء

المبحث الثاني: شيوع الخمر

المبحث الثالث: الولع باقتناء الجواري

المبحث الرابع: الانحرافات الأخلاقية والفكرية في المجتمع الأندلسي

المبحث الخامس: الصراع الداخلي والتساهل في سفك الدماء.

المبحث السادس: الاستعانة بالنصارى والاحتماء بهم

## المبحث الأول

## الولع بالموسيقا والغناء

كان من العسير عليّ أن أصنف الغناء والموسيقا على أنهما ترف أو من نتائج الترف، ولكني أعتقد أن المسألة تحتمل الوجهين، أما الوجه الأول فيمكن القول بأن الغناء والموسيقا في حد ذاتهما ترف؛ إذ هما متعة للإنسان يطرب ويسعى إليهما في كثير من الأحيان، ولعل ذلك من طباع الإنسان، أما الوجه الآخر فيمكن من خلاله تصنيف الغناء والموسيقا على أنهما من نتائج الترف، إذ أن كثيراً من أسباب انتشار هاتين الظاهرتين إنما يعود لتنعم الناس ورفاهيتهم، فلولا يسر الحال وارتفاع مستوى المعيشة فلن يكونا هما الهم الأكبر للإنسان، بل سيبحث عن أمور أهم، ولكن وحيث أن المجتمع الأندلسي كان ينعم بكافة الوسائل المادية، فإن ذلك كان العون الأكبر لاتجاه المجتمع نحو هذا التوجه، وعليه فقد وجدت أن الأصوب يكون بتصنيف الغناء والموسيقا على أنهما من نتائج الترف.

ويبدو أن ميل المسلمين نحو الغناء نابع من اختلاف الفقهاء في حكمه، فمنهم من أباحه ما لم يكن معه منكر، ومنهم من حمله على الكراهة، ومنهم من أباحه من غير الكراهة([1])، ولذلك فإن القدح في المجتمع الأندلسي من هذا الباب غير وارد، ولكن يمكن القول بأن انتشار الغناء بشكل جاوز الحد يعد مظهراً خطيراً من مظاهر الترف التي تسبب الانحلال والميوعة، فالموسيقا لا تصنع رجالاً قلوبهم معلقة بالآخرة، بل معلقة بالدنيا، وهذا الأمر له تأثير بالغ في تراجع النواحي القيمية والرجولية وبالتالي النفوذ الإسلامي في الأندلس، وتساقط مدنها، وهو ما سأشير إليه لاحقاً.

ولقد أشار ابن خلدون (ت 808هـ=1406م) إلى ما وجد في عهده من بقايا التراث الأندلسي في مجال الغناء وذكر بأن هذا التراث لم يكن وليد عصره بل هو امتداد لتاريخ مسلمي الأندلس الطويل في تلك البلاد، وفي ذلك يقول: " وما ذاك إلا لأن أحوال تلك القديمة العمران ، مستحكمة راسخة بطول الأحقاب ، وتداول الأحوال ، وتكررها... وهذا كالحال في الأندلس لهذا العهد، فإنا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو إليه عوائد أمصارها، كالمباني، والطبخ، وأصناف الغناء واللهو من الآلات، والأوتار، والرقص"([2]).

---

١ ) ابن قدامة: أبو محمد عبد الله بن أحمد المقدسي، المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، بيروت، دار الفكر، ط1، 1405هـ، ص12، ص42.

٢ ) ابن خلدون: المقدمة، ص402.

ويبدو أن حياة الترف التي عاشها الأندلسيون قد عملت على ظهور المغنيات والراقصات، وهو ما أشار إليه ابن عذاري بوجود بعض المغنيات اللاتي كنّ إلى جانب كونهن محسنات في مجال الغناء بجمال أصواتهن، محسنات كذلك في الرقص بخفة حركتهن، بالإضافة إلى إجادتهن الرقص بالرماح والسيوف والخناجر[1].

وقد ظهر الاهتمام بهذا الفن في الأندلس في مرحلة مبكرة من دخول المسلمين إليها، فقد فتحت أبوابها لفن الغناء على وجه الخصوص، وربما دل على ذلك استقدام زرياب عام (206هـ=821م) من العراق إلى الأندلس[2]، وكان فن الغناء في الأندلس قبل تولي الأسرة الأموية الحكم – عصر الولاة – على ضربين، فإما أن يكون من صنف غناء النصارى، أو من صنف حداء الجمّالين العرب، وهنا لم تكن له قواعد يستند إليها، إلى أن جاءت الأسرة الأموية وحكمت الأندلس[3]، فلما جاء الأمويون للأندلس أولعوا بالغناء والموسيقا وأجزلوا العطايا للمغنين والموسيقيين[4].

ويعد المغنيان عَلّون وزُرقون[5] أول من دخل بلاد الأندلس من المغنين وقد دخلوها في عهد الأمير الأموي الحكم بن هشام( 180-206هـ=796-821م)، غير أن نجمهما أفل بسبب سطوع نجم زرياب وتفوقه عليهما في الغناء[6].

وعندما رحل زرياب(ت نحو 230هـ=845م) من المشرق إلى المغرب، أرسل زرياب للحَكَم رسالة يعلمه فيها برغبته في القدوم للأندلس، ويخبره بعمله في صنعة الغناء، فسُر الحكم من ذلك وأظهر استعداده لاستقباله، ولذلك اجتاز زرياب بحر الزقاق نحو الجزيرة الخضراء، وعند نزوله فيها علم بوفاة الحكم، فهمّ بالرجوع إلى المغرب وكان معه منصور اليهودي المغني[7]، وهو رسول الحكم لزرياب، فعمل منصور على ثني زرياب عن عزمه، وأخبره بأن رغبة خليفة الحكم فيما عند زرياب من موهبة لا تقل عن سلفه، وكتب لعبد الرحمن بذلك،

---

١ ) ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص308.

٢ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص344.

٣ ) خوان فيرنيت: فضل الأندلس على ثقافة الغرب، ترجمة نهاد رضا، دمشق، إشبيلية للدراسات والنشر، ط1، 1997م، ص416؛ عبد العزيز بن عبد الجليل: الموسيقا الأندلسية المغربية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1988م، ص10.

٤ ) حسن: تاريخ الإسلام، ج2، ص338.

٥ ) لم أجد لهما ترجمة فيما بين يدي من مصادر سوى ما ذكره المقري عنهما بأنهما مغنيان نبغا في عهد الحكم ابن هشام (ينظر نفح الطيب، ج3، ص130).

٦ ) المقري: نفح الطيب، ج3، ص130.

٧ ) لم أجد له ذكراً في المصادر التي بين يدي، سوى عند المقري في النفح، حيث لم يذكر عنه إلا أنه مغنٍّ يهودي (ج3، ص124-125).

فأرسل عبد الرحمن كتاباً إلى زرياب "يذكر تطلعه إليه، والسرور بقدومه عليه، وكتب إلى عماله على البلاد أن يحسنوا إليه ، ويوصلوه إلى قرطبة ، وأمر خصياً من أكابر خصيانه أن يتلقاه ببغال، ذكور وإناث وآلات حسنة ، فدخل هو وأهله البلد ليلاً صيانة للحرم ، وأنزله في دار من أحسن الدور، وحمل إليها جميع ما يحتاج إليه ، وخلع عليه، وبعد ثلاثة أيام استدعاه ، وكتب له في كل شهر بمائتي دينار راتباً وأن يجرى على بنيه الذين قدموا معه وكانوا أربعة ، وهم عبد الرحمن وجعفر وعبيد الله ويحيى ، عشرون ديناراً لكل واحد منهم كل شهر ، وأن يجرى على زرياب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار ، منها لكل عيد ألف دينار ، ولكل مهرجان ونوروز خمسمائة دينار، وأن يقطع له من الطعام العام ثلاثمائة مدي ، ثلثاها شعير، وثلثها قمح، وأقطعه من الدور والمستغلات ([1]) بقرطبة وبساتينها ومن الضياع ما يقوّم بأربعين ألف دينار "([2])، والواضح أن زرياب كانت لديه خشية من قدومه إلى الأندلس عندما علم بوفاة الحكم، لاعتقاده أن خليفة الحكم لن تكون له من الحماسة تجاه زرياب ما لأبيه، غير أنه وجد العكس، فإن ما منحه عبد الرحمن لزرياب يعد في دائرة الترف الشديد، حيث الإنفاق ببذخ، ولربما يكون ذلك أكثر بكثير مما توقعه زرياب نفسه، حيث بولغ في استقباله وإكرامه هو وأبناؤه على السواء، وما سبق فيه إشارة جليّة على ولع بعض الحكام الأمويين بحياة الترف التي لا تستقيم عندهم من غير مجالس اللهو والغناء.

وقد فرض زرياب نفسه على كل المجتمع القرطبي، وليس فقط على الطبقة الحاكمة، من خلال إبداعه في فن الغناء([3])، وهو نابغة الموسيقا في عصره([4])، حتى أنه كان يدّعي بأن الجن الجن كانت تعلمه كل ليلة، فكان يهب من نومه سريعاً، ويدعو جاريتيه، وكان لكل واحدة منهما عوداً، فتأخذانهما، ويأخذ هو عوده، ويطارحهما ليلته في الغناء([5]).

ولقد عمل زرياب على نشر فنّه، حتى غدا كمدرسة متنقلة في الأندلس، وكان ممن علمهم الغناء جاريته المسماة بمتعة، والتي كانت تغني لعبد الرحمن بن الحكم، والجارية مصابيح، إذ عُرف عنها جمال الصوت([6])، وبذلك يمكن القول بأن زرياب لم يحتكر هذا الفن

---

١ ) الغلّة: الدَّخْل من كراء دار وأَجْر غلام وفائدة أَرض والغَلَّة واحدة الغَلاَّت ، واستِغْلال المُسْتَغَلاَّت أَخْذُ غَلّتها (ابن منظور: لسان العرب، ج11، ص499).

٢ ) المقري: نفح الطيب، ج3، ص124-125.

٣ ) حسن: تاريخ الإسلام، ج2، ص340.

٤ ) الزركلي: الأعلام، ج5، ص28.

٥ ) المقري: نفح الطيب، ج3، ص125.

٦ ) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج4، ص243.

لنفسه مما يشير إلى تمكنه منه بشكل كبير ، بل لقد قام بافتتاح معهد الموسيقا في قرطبة بهدف تدريس التلحين والغناء والعزف([١]).

وكان زرياب في بعض الأحيان يحصل على مكافآت من غير الراتب الذي كان يحصل عليه ، فقد استمع عبد الرحمن الأوسط مرة لزرياب وهو يغني فأطرب من هذا الغناء فما كان منه إلا أن أعطى زرياب ثلاثة آلاف دينار([٢])، وهنا يلاحظ مدى الترف في الإنفاق على أمور لا طائل منها، إضافة لكونها تساهم في نشر الخلاعة والمجون في المجتمع الإسلامي الأندلسي.

وقد بنى عبد الرحمن الأوسط داراً عرفت بدار المدنيات، وهي دار بالقصر تنسب إلى جارية تدعى فضل المدينة، لأنها قدمت من المدينة المنورة في عهد الأمير عبد الرحمن([٣])، ويبدو أن عبد الرحمن صنع تلك الدار بتأثير من زرياب([٤]).

وقد بلغ زرياب من الحظوة لدى عبد الرحمن الأوسط ما جعله يُعيّن بعض الموظفين في الدولة بوساطة منه، كتعيين الكاتب عبد الملك بن الحسن زونان (ت232هـ=846م)([٥])، الذي "ولاه بوسيلة من زرياب المغني"([٦]).

ولم يكن لزرياب أثر على الحكام وحدهم، بل كان له أثر كبير على المجتمع الأندلسي ككل، واستمر هذا التأثير لما بعد وفاته، حتى أُلّفت في مجهوداته الفنية كتباً، ككتاب طرائق غناء زرياب وأخباره للشاعر الأديب أسلم بن عبد العزيز (317هـ=929م)([٧])([٨])، ولذلك يمكن القول بأن زرياب أحدث ثورة هائلة في مجال الغناء في الأندلس حتى ولو لم يكن هو مخترعه، إلا أنه عمل على تطويره ونشره في أرجاء الأندلس.

وقد عمل كثير من الأندلسيين على إقامة مجالس خاصة للطرب، لما لفن الغناء عندهم من قيمة، وكان يسعى إلى هذه المجالس أهل الرغبة فيها، حتى ألجأهم ذلك في بعض الأحيان

---

١ ) قجة: محطات أندلسية: ص83.

٢ ) ابن سعيد: المغرب، ج1، ص51.

٣ ) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج4، ص241.

٤ ) العبادي: الأعياد، مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مج15، ص144.

٥ ) هو أبو مروان عبد الملك بن زونان، الأندلسي، شيخ معمر فقيه، وكان يفتي على مذهب الأوزاعي ثم تحول إلى الإفتاء بمذهب مالك ( الصفدي: الوافي بالوفيات، ج19، ص110).

٦ ) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج1، ص114.

٧ ) هو أبو الجعد أسلم بن عبد العزيز الأموي الأندلسي المالكي قاضي الجماعة ، وهو من أبناء التسعين ، وكان نبيلاً رئيساً كبير الشأن ، رحل بقي بن مخلد مدة فقد بصره بآخر عمره وضعف من الكبر ( ابن العماد: شذرات الذهب، ج2،ص281).

٨ ) ابن حزم الأندلسي: طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1987م، ص258.

إلى التذلل والاستجداء، رغبة منهم في سماع الأغاني، ويروي ابن الأبار أن سيد الجارية مصابيح – التي علمها زرياب – واسمه أبلحفص عمر بن قبليل (١) منع أبا عمر بن عبد ربه (ت328هـ=940م)(٢) من سماعها يوماً فكتب له أبو عمر يقول:

يا من يضن بصوت الطائر الغرد ... ما كنت أحسب هذا الضـن من أحـد

لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة ... أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد

فخرج أبو حفص حافياً لأبي عمر، وأدخله للمجلس، وسمح له بحضور المجلس، والسماع لها(٣).

وكانت بعض الأشعار الأندلسية تغنى في سهرات الشراب والرقص، فأشار الشاعر سعدون بن عمر الريي(٤) المعاصر لعبد الرحمن الناصر (ت350هـ=961م)، إلى ذلك في إحدى قصائده قائلاً:

ولا أبرزَتْهنّ المُدام لنشوةٍ ... وشَدو كما يشدو القيانُ على الشربِ(٥).

وكان من المثير للانتباه انجرار بعض الفقهاء في الأندلس وراء حياة مترفة، فبعض القضاة كان يستسيغ سماع الغناء، كقاضي الجماعة أبي بكر محمد بن إسحاق بن السليم (ت367هـ=977م)، والذي استمع لجارية الشيباني وهي تتلو القرآن وتنشد، فلم يكن منه إلا أن استحسن ذلك منها، وترك لها عشرين ديناراً تحت الفراش(٦).

وقد أولى بعض الحكام الأندلسيين المغنيات مكانة كبيرة، في تجسيد واضح لحياة الترف، وصلت إلى حد التزوج منهن في بعض الأحيان، حيث أن عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر (ت399هـ=1008م) قد تزوج من مولاته المغنية بنات الجنان وكانت قد تعلمت الغناء من محسنات قيانه(٧)، وهذا يشير إلى كثرة المغنيات في هذا العصر، بالإضافة إلى قيام هذه المغنيات مقام المدرسة، فهن يقمن بتدريب وتعليم غيرهن هذا الفن المنتشر في الأندلس.

---

١ ) (هو أحد الكتاب، وهو ذكره المقري بلبي حفص عمر بن قلهيل (نفح الطيب، ج3، ص131).

٢ ) هو أحمد بن عبد ربه ابن حبيب بن جرير بن سالم أبو عمر القرطبي مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي، صاحب كتاب العقد الفريد، كان من الفضلاء المكثرين، والعلماء بأخبار الأولين والمتأخرين ( ابن كثير: البداية والنهاية، ، ج11، ص193).

٣ ) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج4، ص243-244.

٤ ) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر، سوى ما ذكره عن الحميدي.

٥ ) الحميدي: جذوة المقتبس، ص208.

٦ ) الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، ص40.

٧ ) ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص124.

ومما يشير إلى انتشار الغناء في الأندلس والولع الشديد لكثير من الأندلسيين، ما ذكره ابن بسام من أن سليمان بن الحكم (ت407هـ=1016م) كان قد أهدى عدة قينات مسلمات إلى شانجة(١)، وذلك أيام إمارته على قرطبة، وقد شهد ابن الكتاني (٢) المتطبب مجلساً لهؤلاء القينات وكان يتردد على النصارى في الفتنة، فأومأت بنت شانجة – ملك البشكنس وهي زوجة شانجة بن غرسية – إلى جارية من الجواري المسلمات بالغناء، فأخذت الجارية العود، وأخذت في الغناء، فأحسنت، وأجادت فلما فرغت من الغناء، سألها عن أهلها، فعلم أنها بنت سليمان بن مهران السرقسطي (٣)(٤)، وفي الحادثة دليل على معرفة المغنيات المسلمات بلغة النصارى، بمعنى أنهن غنّين بالعربية وغيرها من اللغات.

وكان بعض المغنين يقيمون حفلات غناء خاصة بهم في بيوتهم، حيث أنهم كانوا هم وأبناؤهم وغلمانهم يجيدون الغناء، وينقل المقري عن كتاب قطب السرور للرقيق القيرواني (ت425هـ=1034م) أن معاصره الحاجب عبد الوهاب بن حسين بن جعفر (٥) كان من هؤلاء الناس، فكان عالماً بالطرب، وكان أعلم الناس بضرب العود وابتكار الألحان، وكان يقيم احتفالاته الخاصة بأسرته عندما لا يكون عنده في البيت من يزوره، فيحضر ابنه وابن أخيه، وكلهم يغني ويجيد، ويأخذون في الغناء بين يديه حتى يطرب، فيأمر بعوده ويأخذ في الغناء، وكان عنده شخص يعمل زامراً، واسمه بشارة، وكان حاذقاً في الزمر، فكان يزمر لهم أثناء الغناء(٦)، ويستشف من هذا الأمر بتعدد آلات الطرب، مثل العود والمزمار، والتي عرفها الأندلسيون وأجادوا التعامل معها، كما أنه يمكن القول بأن بيوتاً بأكملها كانت تمتهن الغناء.

وكانت القينات يبعن ويشترين في الأندلس بغرض الطرب والإمتاع، وكانت تُقطع المدن الكبيرة في سبيل الظفر بمغنيات ملهيات، يُمَتّعن السامع، وعليه فقد أرسل المظفر بن الأفطس(٧)صاحب بطليوس إلى قرطبة لهذا الغرض، ويصور ابن بسام هذه الظاهرة بقوله:

---

١ ) هو شانجة بن غرسية بن فرذلند ملك قشتالة ( ابن بسام: الذخيرة، ج7، ص84).

٢ ) ابن الكتاني: هو أبو عبد الله محمد بن الحسن المذحجي ، له باع في الأدب والشعر، وعلوم الطب، والمنطق، وعاش بعد عام (400هـ=1010م) بمدة ( الحميدي: جذوة المقتبس، ص44).

٣ ) هو سليمان بن مهران السرقسطي، أديب شاعر مشهور، له جلالة وقدر؛ وكان ينشد أشعاراً له في مجلس الوزير أبي الأصبغ عيسى بن سعيد ( الحميدي جذوة المقتبس، ، ص198).

٤ ) ابن بسام: الذخيرة، ج5، ص318.

٥ ) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر سوى ما ذكره المقري

٦ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص194.

٧ ) المظفر بن الأفطس: هو محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلمة تولى الحكم بعد وفاة أبيه عام (437هـ=1045م)، وكان فاضلاً عالماً شجاعاً فارساً (ابن الخطيب، لسان الدين: أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، المسمى "تاريخ إسبانيا الإسلامية"، ، بيروت، دار المكشوف، ط 2،

"رسول المظفر... يلتمس شراء وصائف ملهيات يأنس بهن... فنقب له رسوله عن ذلك، وكنّ قد عدمن بقرطبة يومئذ، فوجد له صبيتين ملهيتين عند بعض التجار لا طائل فيهما، فاشتراهما له"([1])، ولا يبدو واضحاً من خلال الرواية سبب انعدام المغنيات في قرطبة في هذه المدة بالذات، غير أن المؤكد أن حكام الأندلس دفعوا لشرائهن مبالغ طائلة، وربما يكون السبب في ذلك انشغال كثير من الأندلسيين بالصراعات بين المسلمين أنفسهم، وبين النصارى، وهو ما سيكون محور مبحث لاحق من الفصل الرابع.

وقد كان المأمون بن ذي النون (ت460هـ=1068م) قريباً من هذا العهد، وكان مما عرفت به مجالسه ازدحامها بالمغنين، وبآلات الموسيقا المستعملة لذلك، وفي ذلك وصف لابن حيان يصف فيه تفاصيل بعض مجالس المأمون بقوله: " وذهب المأمون إلى تتميم تكريم زواره من رجال الأمراء ، الذين استحضرهم يومئذٍ لشهود فرحته بمشاهدة مجلس خلوته ، وتنعيم أسماعهم بلذات أغانيه ...، فاحتفل لهم في مجلسٍ قد نضد ([2])، وأحضر فيه جميع آلات الأنس ، فلما استوى بالقوم مجلسهم ...، وقد مدت ستارة الغناء لأهل الحجاب ، ونظمت نوبة المغنين زمراً([3])، فهاجوا الأطراب، واستخفوا الألباب، ونقلوا الطباع، فجاءوا بأمرٍ عجاب، بذهم([4]) فيه سابق حلبتهم ، المحسد من جماعتهم، الإسرائيلي ذي الزائد إحسانه على إبراهيم الموصلي، صديق إبليس، الظريف في فتنته، وتخايله بالماخوري([5]) المكنون ، الذي اغتدى في باطله نسيج وحده، يزدهي ([6]) العيدان ([7]) جسه ([8])، ويخرس الأطيار شجوه، قاتله الله من آخذ بالقلوب ، فطربوا، وطرب المأمون ليلتئذ على وفور حلمه ، وكان الذي غناه فيها ذي صوتاً شجياً ...، فطمح بابن ذي النون الإطراب ، حتى حن حنين الناب ([9])، وخلع لوقته عليه ثوباً من التستري الأخضر، مطرزاً بالذهب ، ووصله بمائتي دينار ذهباً ، ثم فض الصلات والخلع في سائر

---

1956م، ص183هـ).

[1] ) ابن بسام: الذخيرة، ج3،ص35-36.

[2] ) النَّضْد: ضمُّ المتاع بعضه إلي بعض متَّسِقاً ، أو مركوماً ( المطرزي: المغرب في ترتيب المعرب ، ، ج2، ص308).

[3] ) الزُّمْرة: الجماعة من الناس ( ابن سيده: المخصص، ج1، ص315).

[4] ) بَذَّ القائلين: أي سَبَقَهم وغَلَبَهم (الزبيدي: تاج العروس،ج9، ص374).

[5] ) المَاخُورِيُّ: نوع من أنواع الغناء (الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني، تحقيق سمير جابر، بيروت، دار الفكر، ط2، ج1، ص171).

[6] ) ازْدَهَاهُ استخفه وتهاون به ( الرازي: مختار الصحاح، ج1، ص117).

[7] ) العيدان: جمع عود (الزبيدي: تاج العروس، ج8، ص436).

[8] ) الجَسُّ: المَسُّ باليَد، وقد جَسَّهُ بيدِه، واجْتَسَّه ، أي مَسَّه ولَمَسه (الزبيدي: تاج العروس، ج15، ص499).

[9] ) الناب: الناقة المسنة ( ابن سيده: المحكم والمحيط، ج10، ص502).

الطبقات"(١)، وفي هذا النص إشارة صريحة بتعدد آلات الطرب، وفيه شرح لطبيعة الحفلات التي كانت تقام في مجالس الملوك.

وبلغ الولع بالغناء مبلغاً عظيماً، حتى أن بعض الحكام الأندلسيين طلبوه على فراش مرض الموت، فالمعتضد بن عباد (ت461هـ=1069م)(٢) " أصابته علة الذبحة ، فلم تطل مدتها، ولما أحس بتداني حمامه استدعى مغنياً يغنيه "(٣) ويعرف بالمغني السوسي(٤)(٥) ليجعل ليجعل ما يبدأ به فألاً، فأول ما غنى:

نطوي الليالي علما أن ستطوينا فشعشعيها(٦) بماء المزن واسقينا

فتطيّر من ذلك ، ولم يعش بعده سوى خمسة أيام ، وقيل انه ما غنى منها إلا خمسة أبيات(٧).

وبرعت الكثير من المغنيات في الضرب على العود، فكانت الإجادة منهن مجالاً لمدح الشعراء، وقد أنشد النحلي(٨) في إحداهن عندما أعجبته في طريقة ضربها على العود فقال:

ولاعبة الوشاح كغصن بان(٩) لها أثر بتقطيع القلوب
إذا سوت طريق العود نقراً وغنّت في محب أو حبيب(١٠).

ويبدو أن العرب كانوا أكثر معرفة وتطوراً في مجال الغناء من النصارى في الأندلس، ففي رسالة ابن منّ الله القروي (ت493هـ=1100م) التي يخاطب فيها ابن غرسية، يعيره بما

---

١ ) ابن بسام: الذخيرة، ج7، ص135-136.
٢ ) هو أبو عمرو المعتضد عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد، صاحب إشبيلية ، أمير إشبيلية، ابن قاضيها أبي القاسم، حكم إشبيلية بعد وفاة أبيه (ينظر الوافي بالوفيات، للصفدي،ج16، ص351-352).
٣ ) ابن العماد: شذرات الذهب، ج3، ص317.
٤ ) لم يذكره أي مصدر من المصادر التي رجعت إليها، سوى المقري، ولم يذكر له ترجمة.
٥ ) المقري: نفح الطيب، ج4، ص96.
٦ ) شَعْشَعَ الشيءَ : خَلَطَ بَعْضَه ببعض (الزبيدي: تاج العروس، ج21، ص277).
٧ ) المقري: نفح الطيب، ج4، ص96؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج3، ص317-318.
٨ ) أبو الوليد النحلي : شاعر من القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي غفلت عنه التراجم الأندلسية فندرت لذلك أخباره وقلت التفاصيل عن حياته وقد عاصر المعتمد بن عباد وابن صمادح (ينظر تراجم شعراء الموسوعة الشعرية نقلاً عن الشاملة، ج1، ص336).
٩ ) البانُ شجرٌ يَسْمُو ويَطُول، وليس لخَشَبه صلابةٌ، واحدتُه بانةٌ شديدُ الخُضْرة وينبت في الهِضَب وثمرتُه تُشبه قُرونَ اللُّوبياء وله ثمرة تُرَبَّبُ بأَفاويه الطيِّب ثم يُعْتَصر دُهْنها طِيباً وجمعها البانُ ولاسْتِواء نباتِها ونباتِ أَفنانِها وطُولِها ونَعْمَتِها شبَّه الشُّعَراءُ الجاريةَ الناعمة ذاتَ الشَّطاطِ بها ، فقيل كأَنها بانةٌ وكأَنها غُصْنُ بانٍ (ابن منظور: لسان العرب، ج13، ص62).
١٠ ) المقري: نفح الطيب، ج3، ص445.

عند العرب وليس عند النصارى من فن الموسيقا، والغناء، فيقول له: " ولغة العرب واسعة العبارات، ناصعة الإشارات، لها الشعر الموزون، والنظم المكنون، والكلام المنثور، والسجع المأثور، والرجز المشطور، والمزدوج المبتور، والموشح والأطواق، والقلائد في الأعناق، والمخمسات والمربعات، والكوامل والمقطوعات، ولعبيدها في كل ذلك اللحون الشجيات المطربات والمشوقات، والتغايل والتقايل والأهزاج والأرمال، وغير ذلك من الأعمال، كالركباني والأعرابي، والنصريبي(١)...، وهي كثيرة أثيرة"(٢)، ويبدو من خلال النص أن الغناء لم يكن على على نوع واحد أو نوعين بل كان على أنواع عدة، مما يشير إلى التطوير المستمر الذي كان يوليه العرب وخصوصاً عرب الأندلس لتطوير فن الغناء مستغلين غزارة الإنتاج الشعري لشعرائهم، مما يوحي بتفرغ العديد من المتخصصين في هذا المجال من أجل إنتاج الأنواع المختلفة من الأغاني، وربما الأشعار كذلك، وبالتالي كان الغناء علامة بارزة في حياة الأندلسيين دلّت على تمتعهم بحياة مترفة مليئة بالمتع والسرور.

وقد عرفت الأندلس ظاهرة غريبة في حفلات الغناء، خصوصاً في عهد المرابطين، تمثلت في تمزيق المستمع ملابسه لشدة طربه مما يسمع، فقد ذكر بعض الشعراء هذه الظاهرة من خلال تصويرها بأشعارهم، فالوزير أبي محمد المعافري (ت518هـ=1124م)(٣) وهو والي غرناطة في عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كان يجلس في مجلس غناء، وأطربه ما سمع فيه من غناء فشق ثيابه(٤) ونظم أبياتاً يقول فيها:

لا تلُمني إذا طربت لشجوٍ يبعث الأنس فالكريم طروبُ

ليس شقّ الجيوبِ حقاً علينا إنما الحق أن تشقّ القلوبُ(٥).

ويذكر ابن خلدون عن ابن باجة (ت 533هـ=1138م)(٦) أنه حضر يوماً مجلساً عند ابن تيفلويت(٧)، فألقى موشحة على بعض قيناته، حتى طرب لها ابن تيفلويت أشد الطرب فاندفع

---

١ ) الركباني والأعرابي والنصبي عرفها محقق المخطوط بأنها ضروب من الغناء(ينظر حاشية كتاب رسائل أندلسية: تح: فوزي عيسى، ص210).

٢ ) رسائل أندلسية: ص210-211.

٣ ) هو أبو محمد عبد الرحمن بن مالك المعافري أحد وزراء الأندلس كثير الصنائع جزل المواهب عظيم المكارم على سنن عظماء الملوك وأخلاق السادة (ينظر نفح الطيب، للمقري، ج3، ص232).

٤ ) ابن سعيد: المغرب، ج2، ص117.

٥ ) ابن سعيد: المغرب، ج2، ص117؛ المقري: نفح الطيب،ج3، ص232.

٦ ) ابن باجة: هو أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ، وكان عالماً، متميزا في العربية والأدب حافظا للقرآن، وله باع في الطب، والموسيقى، جيد اللعب بالعود (ينظر عيون الأنباء، لابن أبي أصيبعة، ص515).

٧ ) ذكره الناصري بأبي بكر بن إبراهيم بن تافلوت وهو ممدوح بن خفاجة، وكان عاملاً على مرسية، فعهد إليه

فاندفع يشق ثيابه، ويقول: "ما أحسن ما بدأت وختمت، وحلف عليه بالأيمان المغلظة؛ لا يمشي ابن باجة إلى داره إلا على الذهب فاحتال بلِّن جعل ذهبا في نعله و مشى عليه"([١]).

ومما يذكر عن ابن باجة أنه عمل لبضع سنوات مع قينات بارعات، توصل خلالها إلى مزج غناء النصارى بغناء المشرقيين، وهو الذي ابتكر صنف الزجل بالأندلس، حتى مال ذوق الأندلسيين إلى هذا الفن، وانصرفوا عن غيره من الفنون([٢])، بسبب ما شهده هذا الفن من تطور في هذا العصر، فقد بلغ ذروته([٣])، ولذلك فإن ابن تيفلويت أولى ابن باجة عناية خاصة، فاستوزره، إذ عرف بأنه "فيلسوف الأندلس وإمامها في الألحان"([٤])، ولعل ذلك دليلاً على مدى التراجع في المستوى التقشفي الذي اتبعته الدولة المرابطية منذ نشأتها، فبعض عمال المرابطين خصوصاً في أواخر العهد المرابطي اندمجوا في حياة الترف، التي كانت سائدة لدى كثير من الأندلسيين.

وقد كانت للأندلسيين يد طولى في مجال تلحين الأغاني، وكان ممن عرف من الملحنين أبو الصلت الإشبيلي([٥])([٦])الداني([٧]) (ت520 وقيل 536هـ=1126-1141م)([٨])، وقد بلغ من العمر ستين سنة، منها عشرون في بلده إشبيلية، وعشرون في أفريقيا عند ملوكها الصنهاجيين، وعشرون حُبس فيها في خزانة الكتب بمصر، وكان على درجة عالية من المتانة في التلحين،

---

إليه

أمير المسلمين علي بن يوسف بلنسية وطرطوشة وما والاهما (الاستقصا، ج2، ص65).

١) ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص584.

٢) فيرنيت: فضل الأندلس، ص416-417.

٣) بوتشيش: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، بيروت، دار الطليعة، 1997م، ص115.

٤) ابن سعيد: المغرب، ج2، ص119.

٥) المقري: نفح الطيب، ج2، ص104.

٦) هو الحكيم أبو الصلت المغربي أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت ، متمكناً من قول الشعر والنثر، تعلم الأدب والفلسفة، وطاف في عدد من البلدان (ينظر أخبار العلماء بأخبار الحكماء، للقفطي، أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي، تحقيق محمد أمين الخانجي، مصر، مطبعة السعادة، 1326هـ، ص57).

٧) حسين: التاريخ السياسي، ص342.

٨) ابن الأبار: المقتضب، ص56.

وله في ذلك من الكتب ما يشهد بفضله في هذا المجال، حتى عرف بالأديب الحكيم، وهو الذي لحن الأغاني الأفريقية، وإليه تنسب إلى الآن(١).

وفي العهد الموحدي تميز فن الغناء باستعمال كثير من آلات الطرب وأدوات اللهو، فكان من الآلات الموسيقية الأندلسية المستخدمة في هذا العهد: "الخيال، والكريج، والعود، والروطة، والرباب، والقانون، والمونس، والكثيرة، والفنار، والزلامي، والشغرة، والنورة وفيها مزماران: الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه، والبوق"(٢)

ويبدو أن العود كان أكثر هذه الآلات استخداماً من قبل المغنين والمغنيات، فيذكر المقري بأن أبا عامر بن ينق (ت547هـ=1153م)(٣) دعا جارية لأ بي محمد عبد الله بن مسلمة الشاطبي(٤) تدعى هند لتغني له بعودها في مجلسه(٥).

كما برز في هذا العصر محمد بن سعد بن مردنيش (ت567هـ= 1171م)، حيث كان مولعاً بالمغنيات والسهر معهن، فكان كما قال صاحب الإحاطة : " يحضر القيان بمزاميرهن وأعوادهن، ويتخلل ذلك لهو كثير"(٦)

وقد طرأ تطور على نوعية الغناء المتداول في الأندلس، حيث ابتكر الأندلسيون فن الموشح، فيذكر ابن خلدون بأن الموشح فن من فنون الشعر، استحدثه المفتخرون من أهل الأندلس، وهو فن استظرفه الناس بجملتهم، عامتهم وخاصتهم(٧)..

مع أن محمد عناني يشير إلى أنه من الصعب تحديد الزمن الدقيق لظهور فن الموشحات، حيث أن الموشحات مرت بطور مجهول إلى أن جاءت أواخر القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، حيث بدأ شعراء معروفون يخوضون غمار هذا الفن(٨).

---

١ ) المقري: نفح الطيب، ج2، ص104، 105.

٢ ) المنوني، محمد: حضارة الموحدين، الدار البيضاء، دار توبقال، ط1، 1989م، ص161.

٣ ) هو أبو عامرَ محمد بن يحيى بنَ يَنَّق، من شاطبة، رحل إلى قرطبة، ولازم أبا العلا بن زهر بإشبيلية، وأخذ عنه علمه وبرع في الطب والأدب: (ابن الأبار: المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، ، ص162).

٤ ) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر.

٥ ) المقري: نفح الطيب، ج4، ص293.

٦ ) ابن الخطيب: الإحاطة، ج2، ص122.

٧ ) ابن خلدون: المقدمة، ص583-584.

٨ ) عناني، محمد زكريا: الموشحات، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1980م، ص68.

وحتى لو لم يكن التوشيح فناً أندلسياً، فإن من المؤكد أن أقدم الوشاحين الذين تم الاحتفاظ بموشحاتهم قد عاشوا في الأندلس، وإن هذا النوع من الفنون إنما تطور وترعرع في بلاد الأندلس؛ أكثر بكثير من غيرها من البلاد([١]).

ويعد مقدّم بن معافر الفريري([٢]) وهو من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني (ت300هـ=912م) هو مخترع هذا الفن بجزيرة الأندلس، وأخذ عنه هذا الفن ابن عبد ربه الأندلسي، غير أنهما كما يقول ابن خلدون: " لم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر، وكسدت موشحاتهما، فكان أول من برع في هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز ([٣]) شاعر المعتصم بن صمادح([٤])...، وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمن الطوائف"([٥]).

وقد غنى الأندلسيون الموشحات من شعر المديح([٦]) والغزل والنسيب([٧])، ويُعد محمد بن بن محمود القبري الضرير (ت399هـ1009م) أول من صنع أوزاناً للموشحات([٨])، بمعنى أنها أنها كانت موجودة ومعروفة في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، ولأن الموشحات كانت تتطرق إلى الغزل والنسيب فمن الممكن القول بأنها كانت سبباً من الأسباب التي غذت كثيراً من الانحرافات السلوكية والأخلاقية التي سادت في الأندلس.

وكان أبو بكر عبادة بن ماء السماء (419هـ=1028م)([٩]) ممن عمل على تطوير الموشحات في الأندلس، فقد كانت قبل عهده " غير مرقومة([١]) البرود، ولا منظومة العقود ،...،

---

١ ) فيرنيت: فضل الأندلس، ص414.

٢ ) لم أجد له ترجمة سوى ما ذكره ابن خلدون.

٣ ) ذكره ابن بسام بلأديب أبي عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز، وهو من مشاهير الأدباء الشعراء وأكثر ما اشتهر اسمه في أوزان الموشحات التي كثر استعمالها عند أهل الأندلس (ينظر الذخيرة، لابن بسام، ج2،ص801).

٤ ) هو أبو يحيى محمد بن معن بن محمد بن أحمد بن صمادح التجيبي، صاحب المرية وبجاية، كان جده محمد بن أحمد بن صمادح صاحب مدينة وشقة وأعمالها، وذلك في أيام المؤيد هشام بن الحكم الأموي (ينظر وفيات الأعيان، لابن خلكان، ج5، ص39).

٥ ) ابن خلدون: المقدمة، ص584.

٦ ) م.ن: ص583.

٧ ) النسيب هو الانتساب في الشعر إلى المرأة بذكر العشق، (ينظر التعاريف، للمناوي، ج1، ص696).

٨ ) ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص469.

٩ ) هو أبو بكر عبادة بن عبد الله بن محمد بن عبادة بن ماء السماء المالقي، أديب وشاعر مشهور، وهو من أعلام الأدباء، وله موشحات تضرب بها الأمثال (ينظر أعلام مالقة، لأبي عبد الله بن عسكر، وأبي بكر بن خميس، تحقيق عبد الله المرابط الترغي، بيروت، دار الغرب، ط1، 1420هـ=1999م، ص281).

فكأنها لم تسمع بالأندلس إلا منه، ولا أخذت إلا عنه، واشتهر بها اشتهاراً غلب على ذاته، وذهب بكثير من حسناته"(٢).

وقد اشتهر بالموشحات الموشح أبو بكر الأبيض(٣) وهو معاصر لصاحب التلاحين المعروفة أبي بكر ابن باجة وعاشا في زمن ابن تيفلويت(٤).

وقد أشارت بعض المعلومات التي أوردها بعض المؤرخين عن فن الموشحات بإقامة مسابقات في هذا المجال الفني، ويورد ذلك ابن خلدون بقوله: "وذكر غير واحدة من المشايخ: أن أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون: أن جماعة من الوشاحين اجتمعوا في مجلس بإشبيلية ، و كان كل واحد منهم اصطنع موشحة ، و تأنق فيها ، فتقدم الأعمى الطليطلي (٥) للإنشاد، فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله:

| | |
|---|---|
| ضاحكٌ عن جمانٍ | سـافر عن در |
| ضاق عنه الزمان | وحواهُ صدري |

صرف(٦) ابن بقي (ت540هـ=1145م)(٧) موشحته و تبعه الباقون"(٨)

وقد جذبت الموشحات كل من سمعها، لذلك لم تقف عند حدود الأندلس، وإنما تجاوزتها إلى غيرها من البلدان، فإن موشحات أبي بكر بن زهر (ت 595هـ=1199م)(٩) قد شرّقت وغرّبت، وقد اشتهر بعده عدد من الوشاحين، وفي مختلف المدن الأندلسية(١٠)، ومن الواضح

---

١ ) كتاب مرقوم : أي قد بينت حروفه بعلاماتها من التنقيط (ابن منظور: لسان العرب، ج12، ص248)، والمقصود من النص أن الموشحات قبل ابن ماء السماء لم تكن بلغت التمام.
وكتاب مرقوم أي قد بينت حروفه بعلاماتها من التنقيط

٢ ) ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص469.

٣ ) ترجم له ابن الأبار بأبي بكر الأبيض الأديب ( التكملة لكتاب الصلة، ج1، ص72).

٤ ) ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص584.

٥ ) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر.

٦ ) صَرْفُ الحَديثِ: تَزْيينُه والزِّيادةُ فيه ( ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، ج8، ص 303).

٧ ) هو أبو بكر يحيى بن عبد الرحمن بن بقي الاندلسي القرطبي، شاعر، من أهل قرطبة ، اشتهر بإجادة الموشحات ( الزركلي: الأعلام، ، ج8، ص152).

٨ ) ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص584.

٩ ) هو أبو بكر محمد بن عبدالملك بن زهر بن عبدالملك بن محمد بن مروان بن زهر، الايادي، الاشبيلي ، ويعد جالينوس زمانه، له دراية بالطب واللغة والأدب والشعر، وتوفي بمراكش ( الذهبي: سير ، ج21، ص325-326).

١٠ ) المقري: نفح الطيب، ج7، ص9-10.

بأن تعدد هؤلاء الوشاحين في المدن دليلاً واضحاً على اتساع رقعة هذا الفن، وإقبال الناس عليه، وهو دليل على تمتع كثير من الأندلسيين بحياة مترفة تسودها المتعة.

ويبدو أن العمل في مجال التواشيح كانت فيه منافسة حادة في المجتمع الأندلسي، مما أدى إلى تحاسد بعض هؤلاء الوشاحين، وقد أشار الأعلم البطليوسي (637هـ=1240م)[١] إلى: "أنه سمع ابن زهر يقول ما حسدت قط وشاحاً على قول إلا ابن بقي حين وقع له:

أما ترى أحمد — في مجده العالي لا يلحق

أطلعه المغرب — فأرنـا مثله يا مشـرق[٢]

وقد ترك الأدب الأندلسي أثراً عميقاً في الثقافة الإسبانية من خلال قراءتهم للتراث الأندلسي، حتى أخذوا يستلهمونه في أشعارهم، وكتاباتهم، وعمدوا إلى طرح نظريات جديدة في مجال النقد تختلف عن تلك المطروحة في أوروبا، والفضل في ذلك يعود للتراث الإسلامي الأندلسي[٣] ولعل السبب يعود في ذلك إلى متانة العلوم الأدبية والشعرية في الفن الإسلامي الذي الذي عرفته إسبانيا طيلة المدة التي حُكمت من خلالها بواسطة المسلمين.

وقد وصف إحسان عباس الغناء بأنه كان شاملاً، لدرجة أن أحداً لم يجد فيه حرجاً، كما أنه من العسير إثبات أن أهل العلم الديني كانوا يكرهون الغناء أو يشددون فيه على سبيل المنع[٤]، ولعل هذا الانتشار للغناء علامة توحي بمدى الضعف الذي بلغته الأندلس، خصوصاً في عصور المسلمين الأخيرة فيها، وهو ما أنتج جيلاً من الأندلسيين لاهٍ يبحث عن المتعة أنّى وُجدت، دون الالتفات إلى هموم الأمة، أو ما كانت تعانيه المدن الأندلسية من سقوط وضياع.

---

١ ) هو أبو إسحاق إبراهيم بن قاسم الأعلم البطليوسي ، وهو أديب نحوي، ومؤرخ له عدد كبير من المؤلفات يصل إلى خمسين مؤلفاً (ينظر نفح الطيب، للمقري، ج3، ص451).

٢ ) ابن خلدون: المقدمة، ج1، ص584.

٣ ) لوبيث، لوثي – بارالت: أثر الإسلام في الأدب الإسباني، ترجمة: حامد أبو أحمد، وعلي البمبي، القاهرة، مركز الحضارة العربية، ط1، 2000م، ص16.

٤ ) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، ص40.

## المبحث الثاني
## شيوع الخمر

بالرغم من أن أهل الأندلس افتتحوا حياتهم فيها بالجهاد في سبيل الله، إلا أن النواحي الروحية والإيمانية انحدرت في العصور التالية للفتح، حتى استمرأ كثير من أهل الأندلس في بعض هذه العصور ارتكاب المحرمات كشرب الخمر، وغيرها من الموبقات، والتي ترتبت على الحياة المنعمة المترفة، التي عاشها الأندلسيون، وهو ما أشار إليه بوتشيش بأن شرب الخمور يرمز إلى حياة الترف والبذخ والتفسخ الأخلاقي الذي عم بلاد الأندلس([١]).

ولذلك فقد عرف كثير من الأندلسيين بولعهم الشديد بشرب الخمر، حتى شاع شربه بين كثير من طبقات الخاصة والعامة، وعمت مجالس الشراب كثيراً من أنحاء الأندلس، فكان وصف الخمر من الموضوعات التي اشتغل بها كثير من شعراء وزجالي الأندلس، وكان انتشارها معجزاً لمن أراد من الحكام منعها([٢])، وكانت مجالسها تعقد في الليل، فقد أورد ابن سعيد أبياتاً على لسان أحد الشعراء يشير فيها إلى ذلك:

هذا النهار قد أضحى ... يبكي لفقد المدام([٣])

ولم يكن من الغريب أن ترى بعض مدن الأندلس وقد انتشرت فيها الخمور، وترنح في شوارعها السكارى، دون أن ينهاهم أحد عن فعلهم، فقد كان الحكام يكتفون بكف أذى السكارى عن العامة فقط، فعلى نهر إشبيلية "شرب الخمر فيه غير منكر، لا ناهٍ عن ذلك، ولا منتقد؛ ما لم يؤدِّ السكر إلى شر وعربدة، وقد رام من وليها من الولاة المظهرين للدين قطع ذلك، فلم يستطيعوا إزالته"([٤])، بالرغم من أن السلطات الحاكمة كانت تعرف بيوتاً بعينها في الأندلس تشتهر بالخمر، والفسق، والسفه([٥]).

---

١) بوتشيش: المغرب والأندلس، ص98.

٢) دندش: الأندلس في نهاية المرابطين، ص333.

٣) ابن سعيد: المغرب، ج1، ص428.

٤) ابن حزم وآخران: فضائل الأندلس، ص51.

٥) الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1401هـ=1981م، ج2، ص411.

وقد وردت إشارات مختلفة من بعض المؤرخين تشير إلى بعض أصناف الفواكه التي كانت تصنع منها الخمور، فلم تكن فاكهة العنب هي المادة الخام الوحيدة لصناعة الخمر، فلقد صنعها الأندلسيون من فواكه أخرى([١])، كالتين وغيره([٢])، وبالإضافة لذلك فقد كان الأندلسيون يطيلون الزمن في صناعتها، واشتهروا بتعتيقها([٣]).

ولقد توسع بعض الأندلسيين في شرب الخمر، حتى أن كثيراً من الشعراء في الأندلس كانوا أعلاماً في هذا المجال، ولم يسلموا من هذا الانحراف، فكان ممن شربها الشاعر عبد الرحمن بن بكر بن حماد التيهري ([٤])، وجاء إليها من مدينة القيروان ويقول فيه ابن الفرضي: "كان ينسب إلى مقارفة الشراب"([٥])

كما عرف بعض ولاة الأمر في الأندلس معاقرة الشراب في مجالسهم، فيذكر ابن الفرضي بأن رجلاً كان يدعى سعيد الخير الكبير ([٦])، يشرب الخمر مع الأمير هشام (ت182هـ=798م)، أو الحكم (ت 206هـ=821م)([٧])، وقد أشار سعيد للأمير بأن لديه في البيت نوعاً من الشراب، فأمر أن يأتي به، فأرسل سعيد غلاماً يأتي بالشراب من بيته، فلما جاء الرسول بالشراب لقيه والي السوق أبي قرعوس العباس بن قرعوس بن حميد (ت 220هـ= 835 م) أثناء خروجه من المسجد فلما علم بما في يدي الرسول أمر به فأُخذ، فقال له: إن مولاي عند الأمير وبعثني بهذا الشراب، فأمر أبو قرعوس بكسره وإهراقه وضرب الرسول ضرباً موجعاً، وكان يضرب ضرباً شديداً، ويشتد على أهل الريب([٨])، وتشير الحادثة إلى وجود وجود أنواع مختلفة من الخمر في الأندلس، والتي منها الجيد ومنها الرديء بحسب رغبة الشاربين، وعلى ذلك فإن اهتمام سعيد الخير بإحضار الشراب الموجود في بيته دليل على جودته، كما تشير الحادثة إلى أن هذه العادة السيئة وجدت من يعارضها، ويعمل على معاقبة

---

١ ) ابن حزم وآخران: فضائل الأندلس، ص53.

٢ ) الحميدي: جذوة المقتبس، ص19.

٣ ) المقري: نفح الطيب، ج3، ص408.

٤ ) لم أجد له تاريخ وفاة.

٥ ) ابن الفرضي: تاريخ العلماء بالأندلس، ج1، ص311.

٦ ) هو سعيد الخير بن الأمير عبد الرحمن بن معاوية عم الأمير الأموي الحكم، وكان الحكم يعظمه (ينظر تاريخ قضاة الاندلس، للنباهي، ص48).

٧ ) يستبعد الباحث أن يكون هشام ممن شرب الخمر أو سامر أهلها، فقد وصفه ابن خلدون بأنه كان من أهل الخير والصلاح، وكان كثير الغزو والجهاد ( ابن خلدون: تاريخ، ج 4، ص160)، وقد يكون الحديث هنا عن الحكم أقرب للصواب، فقد عرف أنه كان طاغياً مسرفاً، وله آثار سوء قبيحة (ابن سعيد: المغرب، ج1، ص19).

٨ ) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ج1، ص414.

شاربيها، حتى وإن كانوا مقربين من الحكام، كما أن في الحادثة إشارة إلى تمتع الفقهاء بسطوة شديدة، ربما كانت تستند إلى احترام الناس لمكانتهم، مما شجعهم على التصدى لمظاهر الفساد التي ظهرت نتيجة لحياة الترف.

وكان لبعض الحكام دوراً واضحاً في محاولة منع انتشار الخمور، كالأمير عبد الرحمن الأوسط (ت238هـ=852م) الذي أمر بهدم الأماكن التي يباع فيها الخمر ([١])، بمعنى أن أماكن بيع الخمور كانت معروفة للأمراء، واشتهرت بذلك بعض المدن الأندلسية، وقد عرف منها مدينة مالقة([٢]).

وعمل بعض شعراء الأندلس على إيجاد ركن خاص للخمر "الخمريات" في أشعارهم، وهو ما يدل على انتشار شرب الخمر والولع به، واستمراء بعض شرائح المجتمع له، ولعلهم افتتنوا في ذلك بأشعار أبي نواس، والتي كان لها أثراً واضحاً في أشعارهم، كأشعار الغزال (ت250هـ=864م) وابن شبلاق الأشبيلي (413هـ=1022م)([٣])([٤]).

وقد أشار الغزال(ت250هـ=864م) من خلال خمرياته إلى وجود حانات لبيع الخمور، ويبدو أنها كانت معدة للتسامر والتسلية، فأنشد في هذه الحانات أبياتاً من الشعر توضح حالها، وحال من يقوم على خدمة رواد الحانة، فيقول:

| | |
|---|---|
| وكنت إذا ما الشرب أكدت([٥]) سماؤهم | تأبطت([٦]) زقي([٧]) واحتضنت عنائي |
| ولما أتيت الحان نبهت أهله | فهب خفيف الروح نحو ندائي |
| قليل هجوع الليل إلا تعلة([٨]) | على وجل مني ومن نظرائي([٩]). |

وقد كانت لبعض شعراء الأندلس جرأة عجيبة في مدح الخمور، ويبدو بأن هذه الجرأة لم يكن لها أن تبرز لو لم يكن شرب الخمر منتشراً بكثرة في المجتمع الأندلسي، حتى لقد كان بعض الشعراء ينشد الخمريات على الدوام، ففي ترجمة أحمد بن محمد الجياني([١٠]) وشعره

---

١ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص139.

٢ ) ابن حزم وآخران: فضائل الأندلس، ص57.

٣ ) ذكره ابن ماكولا بابن شبراق، وهو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد الحضرمي الإشبيلى الأديب الشاعر (الإكمال، ج5، ص104).

٤ ) إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، ص96-97.

٥ ) أكد: أمسك وبخل ( إبراهيم مصطفى، وآخرون: المعجم الوسيط، ، ج2، ص779).

٦ ) تَأَبَّطَ الشَّيءَ: وَضَعَه تَحتَ إبْطِهِ (ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، ج9، ص209).

٧ ) الزق: هو الذي ينقل فيه الخمر (م.ن: ج6، ص108).

٨ ) التَّعِلَّةُ والعُلالة ما يُتَعَلَّل به ( ابن منظور: لسان العرب، ج11، ص467).

٩ ) الحميدي: جذوة المقتبس، ص201.

١٠ ) أحمد بن محمد الجياني: شاعر أندلسي ماجن يلقب بتيس الجن "بعد الثلاثمائة" ولم يذكر ابن حجر إن كان

في الخمر يقول الحميدي: "لم أجد من شعره شيئاً إلا فيها" ومنه قوله:

امزجي يا مدام كأس المدام قد مضى وانقضى ذمام الصيام
وأبي العيد أن ندين بدين غير دين الصبا ودين المدام
حبذا ميتة تعود حياة بين غض البهار والنمام(١)(٢)

إن كثيراً من روايات المؤرخين تؤكد أن عادة شرب الخمر كانت فاشية في الأندلس، وهو الأمر الذي أزعج علماء الأندلس وفقهاءها، فعملوا على محاربتها من خلال نصح الأمير الحكم المستنصر (ت366هـ=976م)، فكرهوا له شرب الخمر(٣)، ولا يفهم من هذا الأمر أن الخليفة الحكم كان يشرب الخمر، فقد كان ورعاً من أهل الدين والفضل، ومن أعدل الملوك، وأتقاهم، وأعلمهم، وأحسنهم سيرة، ولعل اختياره لمنذر بن سعيد البلوطي ليكون قاضياً له دليل على ذلك، حيث عرف البلوطي بزهده وورعه وإجابة دعوته(٤).

وقد حاول الحكم منع الناس من شرب الخمر في جميع الأندلس، فأمر بإراقتها، وتشدد في ذلك، حتى عنّت له فكرة استئصال شجرة العنب من الأندلس، ولكنه لم يطبقها(٥)، والسبب كما أراه هو كثرة صنوف الخمر، حيث صنع من العنب والتين وغيرهما وهو ما أشرت إليه سابقاً.

ولقد نظم الشاعر يوسف بن هارون(٦) قصيدة أبدى حزنه من خلالها على شاربي الخمر، لما ألمّ بهم جراء قرار الحكم المستنصر القاضي بمنعها، وقد قال في قصيدته:

بخطب الشاربين يضيق صدري وترمضني(٧) بليتهم لعمري
وهل هم غير عشاق أصيبوا بفقد حبائب ومنوا بهجر
أعشاق المدامة إن جزعتم لفرقتها فليس ملكان صبر
سعى طلابكم حتى أريقت دماء فوق وجه الأرض تجرى
تضوع(٨) عرفها شرقاً وغرباً وطبق أفق قرطبة بعطر(١).

---

ذلك تاريخ ولادته أو وفاته ( ابن حجر: نزهة الألباب في الألقاب، ج1، ص149).

١ ) النمام: يطلق على نوع من السعتر ( إبراهيم مصطفى، وآخرون: المعجم الوسيط، ج2، ص956).

٢ ) الحميدي: جذوة المقتبس، ص101.

٣ ) ابن حزم وآخران: فضائل الأندلس، ص53.

٤ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص168-169.

٥ ) النويري: نهاية الأرب، ج23، ص234.

٦ ) هو الشاعر أبو عمر يوسف بن هارون الرمادي، من أهل قرطبة، وهو شاعر مشهور مقدم في الشعراء (ت403هـ=1012م) (ابن بشكوال: الصلة، ج3، ص969).

٧ ) رَمِضَ الرجلُ: إذا احترقت قدماه في شدة الحر (ابن منظور: لسان العرب، ج7، ص160).

٨ ) الضَّوْعُ تَضَوُّعُ الريحِ الطيبةِ أي نَفْحَتُها وضاعتِ الرائحةُ ضَوْعاً وتَضَوَّعَت كلاهما نَفَحَتْ (ابن منظور:

ولا تقتصر الأبيات السابقة على الأسف على الشاربين فقط، بل تُعد وصفاً للخمر برائحتها العطرة، ومدحاً وتمجيداً لها.

وعلى الرغم من أن بعض حكام الأندلس عملوا على محاربة الخمر؛ إلا أن البعض الآخر سعى لطلبها في مجالسه، فكان لعبد الملك بن المنصور بن أبي عامر(ت 399هـ=912م) مجلساً للشراب، وكان وزيره عيسى بن سعيد لا يحب الشراب، فما كان من عبد الملك بن المنصور إلا أن "استعفاه من ذلك لضعف شربه"(٢).

وكما سبق ذكره فإن شرب الخمر انتشر عند العوام، ولذلك فقد كان المخمورون في بعض الأحيان يترنحون في الشوارع نتيجة سكرهم، وهذا يدل على أنهم كانوا يخرجون لأماكن مخصوصة يسكرون بها، وليس في بيوتهم، بالرغم من أنهم كانوا يتعرضون لعقوبة الجلد، فيروي ابن سعيد بأن فتى حسن الهيئة كان ماراً بأحد شوارع قرطبة، يترنح سكراً، فرآه صاحب شرطة قرطبة عبد الله القرطبي (ت 403هـ1012م)(٣) فأمر بحده، فقال له الفتى متبجحاً، ومصراً على معصيته أنشدك الله من الذي يقول:

إذا عابَ شُرْبَ الخمر في الدَّهرِ عائبٌ فلا ذاقها من كان يوماً يَعيبُها(٤)

وهذه إشارة أخرى إلى أن المجتمع الأندلسي لم يخل من المحاربين للخمر والعاملين على منعها.

وبالرغم من أن الخمر هي أم الخبائث(٥) إلا أنه عرف من أطباء الأندلس في عهد الطوائف من يصف الخمر كدواء للمرضى، فقد اعتل ابن ذي الوزارتين أبي عامر بن الفرج(٦) وزير المأمون بن ذي النون (ت460هـ=1068م) فوصف له الخمر دواءً، وعلم إثر ذلك بأن أحد الغلمان يوجد عنده خمرٌ، فطلب منه عبر أبيات من الشعر أن يهديه منها فقال:

ابعث بها مثل وُدِّكْ أرقَّ مـن مـاء خـدِّكْ

---

لسان العرب، ج8، ص228).

١ ) الحميدي: جذوة المقتبس، ص19.

٢ ) ابن بسام: الذخيرة، ج1 ، ص125.

٣ ) هو عبد الله بن حسين بن عاصم بن كعب بن محمد بن علقمة قرطبي، ولي أبوه شرطة محمد بن عبد الرحمن أما جده عاصم فقد عرف بالعريان لأنه أول من عبر نهر قرطبة مع عبد الرحمن الداخل عرياناً فلزمه اللقب، (ابن حيان: المقتبس، ص212).

٤ ) ابن سعيد: المغرب، ج1، ص101.

٥ ) ينظر سنن البيهقي الكبرى، للبيهقي، ح 17116، ج8، ص287.

٦ ) أبو عامر بن الفرج ذو الوزارتين كان من بيت شرف فقد خدمت أسرته وقومه بني ذي النون في طليطلة (ابن الأبار: الحلة السيراء، ج2، ص171).

شقيقة النفس فانضحْ     بها جوى[١] ابنِي وعبدِك[٢].

وقد استخدمت الخمر كذلك دواءً في أواخر عصر المرابطين، وعلى الرغم من أن الأطباء هم أكثر من يعرف مضار الخمر، إلا أن بعضهم شربها، وسعى في طلبها، فكان ممن شربها وطلبها من الأطباء، الطبيب أبي حاتم الحجاري( [٣]) فقد كان طبيباً وشاعراً وخطيباً وجندياً[٤]، وله من الشعر ما يستهدي به الخمر[٥] ويمتدحها وفي ذلك يقول:

يا سيدي والنهارُ تُبْصِـرُهُ     مُنْسَجِـمَ الدمــعِ مُطْبَـقَ الأُفُق

وعنديَ البدرُ قد خَلَوْتُ به     وفـوق خديـه حُمْــرَةُ الشفـق

جاذبْتُهُ الجُلَّ فاستقادَ وَكَـمْ     جَريْتُ خلف الجَمُوحِ في طَلَـق

والخمر نعم العتادُ جامعـةً     لشاربيهــا مسكيَّـــة العَبَـــق

وقد هَزَزْنَاكَ كي تجودَ بها     في الشعر هزَّ الغصونِ في الوَرَق[٦].

وبالرجوع إلى المأمون بن ذي النون، فقد كان إذا علم أن أحداً بمجلسه يهوى الشراب أتى له به، ومن ذلك أنه كان يوماً في أحد مجالسه، وكان عنده من الضيوف " من يرخص في النبيذ[٧]، ولا يسوغ له نعيم دونه ، فاحتمل المأمون حرج ذلك، مبالغةً في تأنيسهم "[٨]، وهو مؤشر على زيادة الانحراف في هذا العهد من تاريخ المجتمع الأندلسي.

وبالرغم من انتشار الخمر في عصر الطوائف أكثر من غيره من العصور؛ إلا أن المجتمع شهد محاولات من قبل بعض الحكام المعروفين بالصلاح، كابن جهور

---

١ ) الجَوَى: شِدَّةِ الوَجْدِ من عشق أو حزن (ابن منظور: لسان العرب، ج14، ص157).

٢ ) المقري: نفح الطيب، ج3، ص408.

٣ ) أبو حاتم الحجاري: هو سليمان بن أحمد الحجاري يعرف بابن القزاز يكنى أبا حاتم أصله من وادي الحجارة وسكن قرطبة، وكان من أهل الأدب والعربية شاعرا مطبوعا ومال إلى علم الطب وهو من شيوخ أبي الوليد بن خيرة ( ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج4، ص89) لم يذكر له تاريخ وفاة فيما بين يدي من مصادر، فيما ذكر ابن بسام بأنه عقب زوال ملك الطوائف سكن في قرطبة بمعنى أنه مات زمن المرابطين أو ما بعده (الذخيرة، ج6، ص656).

٤ ) ابن سعيد: المغرب، ج2، ص36-37.

٥ ) ابن بسام: الذخيرة، ج7، ص362.

٦ ) ابن سعيد: المغرب، ج2، ص36-37.

٧ ) النبيذ: وهو ما يعمل من الأشربة من التمر والزبيب والعسل والحنطة والشعير وغير ذلك يقال نبذت التمر والعنب إذا تركت عليه الماء ليصير نبيذاً (ابن منظور: لسان العرب، ج3، ص511)، ويبدو من النص أن المقصود بالنبيذ هنا هو الخمر، فلو لم يكن المقصود به الخمر لما تحرّج المأمون من إحضاره.

٨ ) ابن بسام: الذخيرة، ج7، ص135.

(ت462هـ=1070م) الذي حارب انتشار الخمر في الأندلس، وعزم على إهراقها، فأمر بكسر دنان الخمر، فامتدحه الشعراء لصلاحه، فقال ابن زيدون (463هـ= 1071م)([1]) فيه:

أباحَ حِمَى الخمرِ الخبيثةِ حائطاً حِمَى الدينِ من أن يُستَباحَ لهُ حدّ
فَطَوَّقَ باستئصالِها المِصرَ منةً يكادُ يُؤدي شكرَها الحجرُ الصَّلْدُ([2])

كما امتدحه أيضاً بمثل ذلك الشاعر عبد الرحمن بن سعيد المصغر([3]) بشعرٍ قال فيه:

كسرت لجبر الدين أوعية الخمر فأحرزت خصل السبق في الكسر والجبر
عمدت إلى الشر الذي جمعوا له ففرقت منه فاسترحنا من الشر([4]).

والملفت للأنظار مدة حكم الطوائف أن الشراب لم يكن مقصوراً على الرجال دون النساء، فإن بعض نساء الأندلس شربن الخمر، فقد أورد ابن زيدون حادثة له مع امرأة تدعى ولادة([5]) حيث أنهما كانا يتناولان الشراب معاً، وقد وقع بينهما سوء تفاهم منعهما من الاستمتاع بالشرب واللهو، وقد ذكر ذلك ابن زيدون بقوله: " فبتنا على العتاب في غير اصطحاب ودم المدام مسفوك ومأخذ اللهو متروك"([6])، وهنا لا يمكن الجزم بكثرة الشاربات للخمر، غير أن هذه هذه الحادثة تؤكد بأن بعض النساء استسغن شربه، وأنهن مارسن هذه العادة.

وليس ذلك فحسب، بل إن بعض الزهاد كانوا يشهدون مجالس الخمر دون إنكار لها، فكان من العجيب أن ترى في مجالس الشرب بعض الزهاد، إذ ليس من طباعهم اتخاذ تلك المجالس، وفي ذلك أورد المقري حادثة تشير إلى تواجد الوزير المتزهد أبي الحسن بن الحاج اللورقي([7]) في مجلس شراب للقائد أبي عيسى بن لبون([8])، وقد روى هذه الحادثة الوزير أبو

---

[1] ) هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن احمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي القرطبي الشاعر والأديب المشهور، آخر شعراء بني مخزوم. وكان من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة، وقد انتقل عن قرطبة إلى إشبيلية عند المعتضد عباد، فجعله من خواصه، وتوفي بها (ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص139-140).

[2] ) ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن احمد بن غالب : ديوان ابن زيدون، دراسة وتهذيب: عبد الله سنده، بيروت، دار المعرفة، ط1، 1426هـ=2005م، ص230.

[3] ) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر.

[4] ) ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص389-390.

[5] ) هي ولادة بنت محمد المستكفي بن عبد الرحمن كانت من أعلام زمانها في الأدب، وكان لها مجلس يرتاده أهل الأدب، وكان الوزراء والكتاب والشعراء يتسابقون على مجالستها (الكتبي، محمد بن شاكر: فوات الوفيات، تحقيق علي بن محمد بن يعوض الله، وعادل أحمد عبد الموجود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2000م، ج4، ص251-252).

[6] ) م.ن: ج1، ص431.

[7] ) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر.

[8] ) هو أبو عيسى لبّون بن عبد العزيز بن لبّون كان من جملة أصحاب القادر يحيى بن ذي النون وواليا على

عامر بن بشتغير([1]) فقال فيه: "في يوم سفرت فيه أوجه المسرات، ونامت عنه أعين المضرات، وأظهرت سقاته غصوناً، تحمل بدوراً، وتطوف من المدام بنار مازجت من الماء نوراً، وشموس الكاسات تطلع في أكفها كالورد في السوسان ، وتغرب بين أقاحي نجوم الثغور ، فتذبل نرجس الأجفان، وعنده الوزير أبو الحسن ابن الحاج اللورقي ، وهو يومئذ قد بذل الجهد في التحلي بالزهد، فأمر القائد بعض السقاة أن يعرض عليه ذهب كاسه ، ويحييه بزبرجد آسه ، ويغازله بطرفه، ويميل عليه بعطفه، ففعل ذلك عجلاً، فأنشد أبو الحسن مرتجلاً:

ومهفْهَفٍ([2]) مَزَجَ الفتورَ([3]) بشدّة ... وأقـام بينَ تبــذُّلٍ وتمنُّـــعِ
يَثْنِيهِ من فعلِ المدامــةِ والصَّبـا ... سكـران سكــرُ طبيعةٍ وتطبُّعِ
أومــا إلـيَّ بكـأسِـهِ فكففتُهــا ... وَرَنا فشفَّعهــا بلحــظٍ مُطْمِـعِ
والله لولا أن يقالَ هــوى الهوى ... منهُ بفضـلِ عزيمــةٍ وتـورُّعِ
لأخذتُ في تلك السبيلِ بمأخذي ... فيما مضى ونزعتُ فيها منزعي"([4]).

إن المتمعن في الأبيات لا يرى إقراراً من أبي الحسن على مايرى من المنكر فقط، بل إنه يشتهي الشرب غير أن زهده فيها يمنعه من شربها.

وكان بعض مدمني الخمور يصفون بشعرهم مدى ولعهم بالخمر، وحالة الإدمان التي يحيونها جراء تعلقهم بها، فأبي الإصبغ القلمندر([5]) كان موصوفاً بمعاقرة الخمر، وملازمة الندماء الذين قاسمهم هذا المجون، وكان له في إدمانه شعراً يقول فيه:

جَرَتْ مِنِّيَ الخمرُ مَجْرَى دمي ... فجلُّ حياتيَ من سكرها
ومهما دَجَتْ ظلماتُ الهمــوم ... فتمزيقهــا بسَنَا بَدْرِها([6]).

ومن ملوك الطوائف من لم يسلم من رذيلة مدح الخمر والتفاخر بها كالمعتمد بن عباد (ت488هـ=1095م) الذي أنشد في الخمر شعراً قال فيه:

---

مربيطر وهي من أعمال بلنسية (ابن الأبار: الحلة السيراء، ج:2 ص:167)، ويحيى بن ذي النون تولى حكم طليطلة عام(467هـ=1075م) (القلقشندي: مآثر الإنافة، ، ج1، ص168).

[1] ) هو يحيى بن سعيد اللخمي أبو عامر ، المعروف بابن بشتغير ، من أهل لورقة ، وسكن مرسية ، وكان من أهل النباهة وهو من أفاضل ذلك عصره ( ابن الأبار: المعجم، ، ص309).

[2] ) هَفْهَفَ الرَّجُلُ : مَشَقَ بَدَنَه، فصارَ كأنَّهُ غُصْنٌ يَميدُ مَلاحةً (الزبيدي: تاج العروس، ج24، ص498).

[3] ) فتر الشرابُ الجسمَ: جعله خامداً خاملاً (إبراهيم مصطفى، وآخرون: المعجم الوسيط، ج2، ص672).

[4] ) المقري: نفح الطيب، ج3، ص259–260.

[5] ) لم أجد له تاريخ وفاة فيما بين يدي من المصادر، غير أنه كان معاصراً للمظفر بن الأفطس والذي أمر بقطع لسانه بسبب أشعاره ( ابن سعيد المغرب، ج 1، ص 369)، والمظفر بن الأفطس توفي بعد عام (470هـ=1077م) ( الذهبي: سير ، ج18، ص596).

[6] ) ابن سعيد: المغرب، ج1، ص369.

هذي المدامُ وهذا النقلُ من جَسَدي غنّ لنفسكَ أشعاري بألحاني([1]).

وهذا ابن أبي الصلت الإشبيلي (ت520 وقيل 528هـ=1126-1134م) يمتدح الخمر وساقيها ويتغزل به، ويقرن متعة النظر إلى وجه ساقيها بها فيقول فيهما:

ومهفهفٍ شَرِبَتْ محاسنُ وجههِ ما مَجَهُ في الكاسِ من إبريقِهِ

ففعالهـا من مقلتيـهِ ولونُهـا من وجنتيه وطعمُها من ريقِهِ([2])

ومن شعراء العصر المرابطي ابن الزقاق ([3]) الذي توفي صغيراً وهو دون الأربعين (528هـ=1134م)([4])، وقد مدح الأكابر وكان جيد النظم وهو من الذين أفاضوا في مدح الكؤوس فقال:

وأَغْيَدَ([5]) طافَ بالكئوسِ ضُحىً وَحَثَّها والصباحُ قد وضَحَا

والرَّوْضُ أَهْـدَى لـنا شقائقَـه وآسُهُ([6]) العنبريّ قد نَفحَـا

قلنا وأينَ الأقحـاحُ؟([7]) قال لنـا أَوْدَعْتُه ثَغْرَ مَنْ سَقَى القَدَحَا

فظلّ سـاقي المُدَامِ يَجْحَدُ مـا قال فلمـا تبسَّـم افتضحـا([8]).

ولم يكن غريباً في هذا العصر أن يشرب الخمر بعض الصفوة من الناس، وخاصتهم في المجتمع الأندلسي، فقد شربها الكاتب المشهور أبي نصر الفتح بن علي بن أحمد بن عبيد الله المعروف بابن خاقان(ت 529هـ=1135م)، وهو صاحب كتب مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، وقلائد العقيان، وحديقة المآثر ([9])، ولعل معاقرة الفتح للخمر قد أنقصت من قدره حتى ساء ذكره، فترجم له لسان الدين ابن الخطيب وذكر إدمانه الخمر قائلاً: " لا يمل من المعاقرة والقصف([10])، حتى هان قدره، وابتذلت نفسه، وساء ذكره... وكان معاصراً للكاتب

---

١ ) ابن بسام: الذخيرة، ج8، ص643.

٢ ) المقري: نفح الطيب ج2، ص107.

٣ ) ابن الزقاق: هو الشاعر المُجيد أبو الحسن علي بن إبراهيم بن عطية (ابن سعيد: المغرب،ج2، ص323).

٤ ) الكتبي: فوات الوفيات، ج2، ص109.

٥ ) أَغْيَدُ : مالَتْ عُنُقُه، ولانَتْ أَعطافُهُ (الزبيدي: تاج العروس، ج8، ص474).

٦ ) الآسُ شجرٌ ورقُهُ العِطْر ( الفراهيدي العين، ، ج7، ص331).

٧ ) الأقحوان: البابونج أو القراص واحدته أقحوانة ويجمع على أقاح (ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، ج3، ص457).

٨ ) ابن سعيد: المغرب، المغرب ج2، ص324؛ الكتبي: فوات الوفيات، ج2، ص109.

٩ ) ابن عبد الملك: السفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة، ج2، ص530.

١٠ ) القَصْفُ: من اللَّهْوِ واللَّعِبِ (الزبيدي: تاج العروس، ص24، ص261).

أبي عبد الله بن أبي الخصال (ت537هـ=1142)([1])، إلا أن بطالته أخلدت به عن مرتبته"([2])، مرتبته"([2])، ولذلك فإن القاضي عياض (ت544هـ=1149م)([3]) أقام حد الخمر على الفتح بن خاقان (ت529هـ=1135م)، وذلك عندما قصد مجلسه مخمورًا، فشم بعض شهود المجلس منه رائحة الخمر، وأعلموا القاضي بذلك، فاستثبت ذلك عن طريق شم فمه([4])، وهذا الأمر يؤكد بأن بأن العصر المرابطي شهد محاولات جادة للحد من تفشي ظاهرة شرب الخمر، ففرضوا رقابة على الحانات، وتابعوها ابتغاء منع بيع الخمور، وأمروا قضاتهم بتشديد تنفيذ العقوبة بحق شاربيها([5])، وفي رسالة أرسلها أمير المسلمين تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين (ت539هـ=1144م) إلى واليه على بلنسية، وإلى قاضيها أبي محمد بن جحاف (ت551هـ=1156م)([6])، وإلى سائر فقهائها والوزراء يقول فيها: "والخمر نزهكم الله من خبائث الأمور، التي هي جماع الإثم والفجور، والباب المفضي إلى سواكن الفسق والشرور، فاجتهدوا في شأنها، وأوعزوا في جميع جهاتكم بإراقة دنانها"([7]).

وعلى الرغم من ذلك، فإن شرب الخمر استمر في الأندلس دون انقطاع، فإن هناك من الأندلسيين من عاش عمراً مديداً، وكان يحن في شيخوخته لأيام الشراب، وتحسر عليها، فالشاعر ابن خفاجة (ت533هـ=1138م) كان بعد بلوغه الستين ينشد أشعاراً من هذ القبيل([8])، القبيل([8])، فقال في ذلك:

| | |
|---|---|
| ألا ساجلْ دموعي يا غمامُ | وَطارِحْنِي بشجوكَ يا حمامُ |
| فقد وفيتُهـــا ستيــنَ حَوْلاً | ونادَتْنِي وَرَائِي هلْ أمـــامُ |

---

[1] ) هو أبو مروان عبد الملك بن مسعود بن فرج ابن أبي الخصال المغربي ، الغافقي الكاتب. عاش في قرطبة، وكان أديباً ، حاذقاً ، فصيحاً ، مفوهاً ، بليغاً ، وله رسائل بديعة. استعمله الأمراء في الكتاب ة ( الصفدي: الوافي بالوفيات، ، ج19، ص141).

[2] ) ابن الخطيب: الإحاطة، ج4، ص249.

[3] ) هو أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد ابن موسى بن عياض اليحصبي، القاضي المحدث الحافظ استقر أجداده في حمة بسطه ، ثم انتقلوا منها إلى مدينة فاس ، ثم إلى سبتة، وبها ولد، وسمع من مشيختها وتفقه ببعضهم ورحل إلى الأندلس فأخذ بقرطبة للتعلم واشتهر بالأندلس ( ابن الأبار: المعجم، ص294-295).

[4] ) الونشريسي: المعيار المعرب، ج2، ص410.

[5] ) دندش: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، ص333.

[6] ) كان حميد السيرة شديداً في الحق شديد الفطنة، وله في ذلك أخبار محفوظة ( ابن الأبار: المعجم، ص213).

[7] ) رسائل أندلسية: تحقيق فوزي عيسى، ص59-60.

[8] ) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج1، ص125.

وكنتُ ومن لُباناتي لُبَيْنى[١]    هناكَ ومِنْ مَرَاضِعِي المُدَامُ[٢]

كما عرفت الأندلس بعض الحوادث التي يعفو فيها القضاة عن بعض شاربي الخمر، حيث عفا القاضي ابن حمدين (ت 508هـ=1114م)[٣] عن رجل رفعته العامة إليه لشربه الخمر[٤].

وكان لبعض المتمرسين في السياسة والقيادة حظ من شرب الخمر، واتضح ذلك بوقوع الفتنة على المرابطين في الأندلس، حين قدَّم أهل مدينة لورقة عليهم رجل يدعى أبو محمد عبد الله بن جعفر بن الحاج [٥] ليقودهم ويسوسهم، وكان من شاربي الخمر، فلما علم بتقديم أهل المدينة له كره ذلك خوفاً من سوء العاقبة، فاختبأ من الناس حتى عزموا على خلعه، غير أنه ظهر لهم، وعاد إلى طبيعته من معاقرة الخمر[٦]، وفي هذه المدة، وخصوصاً عقب زوال دولة المرابطين تولى أمر شرق الأندلس رجل صالح هو عبد الرحمن بن عياض[٧] وعندما حضرته الوفاة أشار الناس عليه بتقديم ابنه فرفض ذلك لأنه سمع بأن ابنه كان يشرب الخمر[٨].

وقد أشار ابن بسام إلى أن العصر الموحدي شهد تأنقاً وتفنناً في صناعة كؤوس الخمر فهي على هيئات وأشكال مختلفة، ومنها الشكل الصنوبري، وهي منجمة بالذهب، وكانت عندما تملأ بالخمر تغري الناظرين إليها من مدمنيها، حتى قال أبو بكر بن بقي (ت 540 أو545هـ=1145-1150م)[٩] فيها:

وكأس منَ الليْلِ مَخلوقَة    تبدَّت من التبرِ فيها نجومُ

---

١ ) التَّلبُّن: من اللُّبانة، يقال لي لُبانةٌ أَتلبَّنُ عليها أي أتمكَّثُ، وتَلَبَّنْتُ تَلبُّناً، ويقال هل لُبَيْنَى من هَوَى التَّلبُّن (ابن منظور: لسان العرب، ج13، ص372).

٢ ) ابن خفاجة، إسحاق إبراهيم: ديوان ابن خفاجة، مصر، المطبعة الخاصة بجمعية المعارف، 1869م، ص112؛ ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج1، ص125.

٣ ) هو أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد العزيز بن حمدين التغلبي قاضي الجماعة بقرطبة، وكان من أهل التفنن في العلوم والافتنان بها وبمذاكرتها. وكان حافظاً ذكياً فطناً أديباً شاعراً لغوياً أصولياً، توفي على أجمل أحواله (ابن بشكوال: الصلة، ج3، ص831).

٤ ) الونشريسي: المعيار المعرب، ج2، ص410.

٥ ) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر سوى ما ذكره ابن سعيد.

٦ ) ابن سعيد: المغرب،ج2، ص276.

٧ ) هو رجل من أعيان الجند وهو من خيار الناس وصلحائهم، فكان مجاب الدعوة، وهو من أرق الناس قلباً وأسرعهم دمعة، وكان في القتال لايقف أمامه أحد، فكان النصارى يعدونه بمائة فارس (المراكشي: المعجب، ص209).

٨ ) المراكشي: المعجب، ص209-210.

٩ ) هو شاعر أندلسي قرطبي اشتهر بالموشحات (ابن الوردي: تاريخ، ج2، ص45).

تضَمَّــنَ باطنُها قَهْــوَةً إذا مرد الهمّ فضَّت رُجُوم([1]).

ومع أن الخمر كان منتشراً، من غير حرج في كثير من مدن الأندلس؛ إلا أنه كان عائقاً أمام بعض بني عبد المؤمن عند توليهم الأمر، فلما توفي عبد المؤمن الموحدي عام (558هــ=1163م) كان قد عهد لابنه الأكبر محمد، غير أنه لم يتم له ذلك الأمر، والسبب في ذلك يعود إلى أنه كان مدمناً على شرب الخمر([2]).

وعرف من الأندلسيين محمد بن سعد بن مردنيش (567هــ=1171م) بكثرة شربه للخمر، فكان له يومان في الأسبوع، يجتمع مع ندمائه فيهما على الشراب([3]) وكان من ندمائه أبو أبو جعفر أحمد السلمي([4])، وله في وصف مجلس خمر ابن مردنيش:

أَدِرْ كؤوسَ المُدام والدَّزِّ([5]) فقد ظَفِرْنَا بدولةِ العِزِّ([6]).

وكان من مدمني الخمر الكاتب أبي الحسن رضي الله بن رضا المالقي ([7]) عاش في مدة ولاية الناصر الموحدي (ت 610هــ=1213م)، وكان يكتب عن ملوك بني عبد المؤمن وعرف عنه شدة إدمانه للخمر حتى قيل أنه لم يكن يكاد أن يصحو منها، وله في شربها شعراً يشير إلى مدى ولعه بالشراب فيقول:

اشْربْ على البحرِ بَحْرًا والثُمْ على الزَّهرِ زهراً
وانظر لِـدهــر بأَتـَّي فـكـم تَشَكَّيْتُ دهرَاً
ولا تَمِــلْ لمُمِيـــل لا يقبلُ الدهــــر عُذْرًا
خَلَعْتُ في الكأسِ عُذْري فاخلـعْ فديتـُكَ عُذْرًا([8]).

وفي الوقت الذي كان فيه بعض مثقفي الأندلس يشربون الخمر، فقد حارب مثقفون آخرون هذه الظاهرة بما أتيح لديهم من سلاح، كالهجاء بأبيات من الشعر لمن يدمن الخمر، وللكاتب أبي عامر أحمد بن دريد( [9]) موقف يشير إلى ذلك، فقد سمع أن رجلاً يلقب بالفار( [10]) تاب عن شرب الخمر فنظم في حقه أبياتاً يتهمه فيها بسوء النية تجاه توبته من الخمر فقال:

---

[1] ) ابن بسام: الذخيرة، ج6، ص795.

[2] ) المراكشي: المعجب، ص236.

[3] ) ابن الخطيب، الإحاطة، ج2، ص122.

[4] ) أشار ابن سعيد إلى أنه كان لكاتبًا عن ابن مردنيش وعن ابن همشك، وكان فيه لطف وخفه روح يرقيانه إلى منادمة الملوك، ولذلك نادمه ابن مرذنيش (ابن سعيد: المغرب، ج2، ص255).

[5] ) لم أجد لها تعريفاً في المصادر اللغوية المتوفرة بين يدي.

[6] ) ابن سعيد: المغرب، ج2، ص255.

[7] ) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر.

[8] ) ابن سعيد: المغرب، ج1، ص426.

[9] ) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر.

أتَاني عن الفـارِ الحقيـر بأنَّه　　　تَحَرَّجَ عنْ شُرْبِ الكئوس الدوائرِ

فقلْتُ لهم سرٌّ جهلتـمْ مُـرادَهُ　　　وإني لعَـلَّامُ بِغَيْـبِ السـرائـر

فما عاب شُرْبَ الخمر إلا لأنها　　　تلوحُ بأعلاها عيـونُ السَّنانـر[٢][٣]

ويمكن القول من خلال ما ورد من وقائع تاريخية تأكيد انتشار الخمر في كثير من أرجاء الأندلس وعلى عدة مستويات، فقد شربها بعض الحكام والمثقفين والعوام ، كما شاركت بعض النساء الرجال في شربها، مما يؤكد استشراء الانحراف الناجم عن الترف الذي تمتعت به بلاد الأندلس.

---

١ ) الفار: هو شخص عاش في الأندلس مرافقاً للفقيه والمؤرخ والأديب أبي الحجاج يوسف بن محمد البياسي (ت653هـ) (المقري: نفح الطيب، ج3، ص316).

٢ ) السَّنور: الهِرُّ (ابن سيده: المخصص، ج2، ص295).

٣ ) ابن سعيد: المغرب، ج2، ص78.

## المبحث الثالث

## الولع باقتناء الجواري

لعل أول مظاهر الترف التي عرفها المسلمون في الأندلس كانت ظاهرة الاستكثار من اتخاذ الجواري، وقد سبقت الإشارة في المبحث الثالث من الفصل الثاني إلى عظم ما حصّله المسلمون من الغنائم في الأندلس إثر عمليات الفتح، التي قام بها الجيش المسلم الفاتح، ومن البديهي بأن وجود أسرى وسبايا من النساء والغلمان كان أمراً متوقعاً ضمن الغنائم، وعليه فإن مسلمي الأندلس عرفوا اقتناء الجواري منذ أن وطئت أقدامهم الأرض الأندلسية، وهذا دليل على توفر هذا المظهر خلال مدة حكم الولاة، وهذا عدا عمن أُحضر مع الجيش الفاتح من جواري، وقد أشار المقري إلى بعض من دخل الأندلس من النساء وكان منهن عابدة المدنية([1])، وهي جارية سوداء من رقيق المدينة([2]).

ومع تنعم أفراد المجتمع الأندلسي وتمتعهم بالترف شيئاً فشيئاً عبر تاريخهم في الأندلس، أخذوا بالتوسع في اقتناء الجواري، فكان البحث في الأندلس في كثير من الأحوال عن جواري أعجميات، ذات حسن وجمال فائقين، ولسان يتقن الأعجمية، وزي رومي([3])، وهو ما نقله حسين مؤنس عن خليان ريبيرا حيث أنه أثبت عبر مجموعة من الوثائق نصوصاً تؤكد إقبال العرب على شراء الجواري الجليقيات، والقطلونيات، وغيرهن([4]).

ويبدو أن كثرة الجواري في المجتمع الأندلسي أفرزت لديهم خبرة كبيرة عن أجناسهن، فلم يكن هذا المجتمع يقتصر على نوع واحد من الجواري، بل كنّ كثيرات، ومن أجناس مختلفة، وكنّ يُسقن إليها من مختلف البقاع كالهند، والمغرب، والأمصار العربية المختلفة، وكانت تختلف النظرة الأندلسية لكل نوع منهن، وكان لكل جنس منهن ميزة ترغّب المشتري فيها، وقد صنف السقطي هؤلاء الجواري على هذا الأساس فقال: "وقد تكلم الناس في المماليك، وأصنافهم، وصورهم، وأخلاقهم، وما يصلح له كل نوع منهم، وخاضوا في ذلك كل خوض، وقالوا: الخادم البربرية للذة، والرومية لحيطة المال والخزانة، والتركية لإنجاب الولد، والزنجية للرضاع،

---

١ ) هي أم ولد حبيب بن الوليد المرواني، الملقب بدحون، وكانت جارية سوداء حالكة من رقيق المدينة، تروي عن مالك بن أنس وغيره من علماء المدينة ، وهبها لدحون في رحلته إلى الحج محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك ابن عمه، فقدم بها الأندلس، وقد أعجب بعلمها وفهمها واتخذها لفراشه فولدت له ابنه بشربن حبيب ( ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ، ج4، ص240).

٢ ) المقري: نفح الطيب، ج3، ص139.

٣ ) السقطي: في آداب الحسبة، ص54.

٤ ) مؤنس: فجر الأندلس، ص458.

والمكية للغناء، والمدنية للشكل، والعراقية للطرب والانكسار"( [١])، وهذا النص يشكل إشارة واضحة على أن اقتناء الجواري كان بهدف التنعم، والمتعة، والترف في الحياة، وهو ما ميز حياة كثير من الأندلسيين على مدار تاريخهم في بلادهم.

ويبدو أن اليهود كان لهم يد طولى في مسألة تجارة الجواري والرقيق، ويشير ابن سعيد إلى حادثة طريفة وقعت ليهودي أحضر معه جواري من جليقية، وفيهن جارية فائقة الجمال، فأحبها الأمير محمد بن الأمير عبد الرحمن الثاني (273هـ=886 م) في عهد إمارة أبيه وأراد أن يشتريها، فغالى اليهودي بثمنها، فغصبها منه الأمير محمد، فقام اليهودي بالشكوى للقاضي سليمان بن أسود([٢])، فأنكر الأمير محمد وجودها عنده، فقام القاضي بالتوجه إلى قرطبة نحو والد الأمير محمد يشكوه، فردها الأمير محمد حينئذٍ إلى اليهودي، ولذلك طلب القاضي من اليهودي أن يبيعها للأمير بما شاء، مقابل استجابة الأمير محمد للحكم([٣]).

وقد أولع بعض الناس كثيراً بحب الجواري لما يتمتعن به من جمال فائق، وقد أشار ابن الأبار إلى ذلك عند حديثه عن الشاعر سعيد بن جودي (ت284 هـ=897م)([٤]) وهو معاصر للأمير الأموي محمد بن عبد الرحمن والد الناصر، حيث أنه سمع جارية تغني بقرطبة للأمير محمد، فهام بها، واشترى جارية وسماها باسمها جيجان، غير أن ذلك لم يخفف من شدة وجده عليها، وله شعر قاله في جارية أخرى جيء بها إليه من قرطبة، وقد أعرضت عنه فقال:

أمائلةَ الألحاظِ عني إلى الأرضِ ... أهذا الـذي تُبدين ويحكِ مـن بُغضي

فإن كان بُغْضاً لستُ والله أهلَـه ... ووجهي بذاك اللحظ أولَى من الأرض([٥]).

وعرف عن حكام الأندلس – فضلاً عن العامة – ولعهم بهذه الشهوة، وكان من بينهم عبد الرحمن الناصر(ت 350هـ=961م)، حيث كان له عدد من الجواري المشهورات، وكان أشهرهن طروب وفجر والشفاء وفضل المدينة وقلم ومتية([٦])، "وهو معدود في جملة من عشق جواريه"([٧])، لدرجة أنه كان يستأثر بكل جارية جميلة ينتهي إليها سمعه، ولذلك فإن الوزير أبا

---

١ ) السقطي: في آداب الحسبة، ص49.

٢ ) هو أبو أيوب سليمان بن أسود بن يعيش بن سليمان بن جشبيد بن المعلى بن إدريس بن محمد بن يوسف الغافقي، من أهل قرطبة، استقضاه الأمير محمد رحمه الله بقرطبة مرتين وبقي قاضيا إلى أن توفي محمد ( ابن الفرضي: تاريخ العلماء بالأندلس، ، ج1، ص218).

٣ ) ابن سعيد: المغرب، ج1، ص151.

٤ ) سعيد بن جودي: هو سعيد بن سليمان بن جودي السعدي، وكان فارساً جواداً شاعراً، قتل على أيدي جماعة من أصحابه غدراً (ابن سعيد: المغرب، ج2، ص105-106).

٥ ) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج1، ص:157-158.

٦ ) الحايك، سيمون: عبد الرحمن الأوسط، لبنان، المطبعة البولسية، د.ت.ط، ص127-128

٧ ) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص117.

عامر بن شهيد (ت426هـ=1035م) "أهديت إليه جارية من أجمل نساء الدنيا، فخاف أن ينهى ذلك إلى الناصر فيطلبها"([١]).

وإلى جانب انتشار الجواري عرفت الأندلس كثرة العبيد، وقد كان باعة العبيد يزينونهم بغية الترغيب في بيعهم([٢])، ولم يكن السيد أو السيدة يمتلك عبداً واحداً، إذ إن البعض امتلك العديد من العبيد، فحفصة بنت حمدون([٣]) عاشت في القرن الرابع قالت في شعر تذم فيه عبيدها: عبيدها:

يا ربّ أنّي من عبيدي على ... جمرِ الغضا ما فيهمُ مِن نَجيبْ

إمّا جهــولٌ أبلهـةٌ متعــبٌ ... أو فطنٌ من كيــده لا يُجيــبْ([٤])

وقد أوجد الأندلسيون ما يشبه النظرية في أصناف العبيد، فقد صنفوهم بحسب الحاجة إليهم، فقالوا: "أما الذكور فالهند والنوبة لحفظ النفس والأموال، والزنج والأرمن للكد والخدمة ومعها العطاء، والترك والصقالبة للحرب والشجاعة"([٥]).

وكان الافتخار بمزايا الجواري أمراً ظاهراً في الأندلس، فمن ملك جارية ذات مواهب معينة كان يتحين الفرصة المؤاتية لكي يبرز مواهبها، وقد روي أن القاضي أبابكر بن السليم (ت367هـ=978م) ألجأه المطر إلى دهليز رجل يعرف بالشيباني، فرحب الشيباني بالقاضي، وانتهز فرصة تواجده في منزله ليعرض عليه أن يستمع من جاريته لما يرغب، سواء كان سماع القرآن، أو سماع الغناء([٦]).

وعرفت الأندلس من يقول الشعر حنيناً لجاريته، ك أبي بكر محمد الزبيدي (ت380هـ990م)([٧]) والذي كان يحب جاريته ويعشقها، وكان قد استأذن الحكم المستنصر في العودة إلى إشبيلية فلم يأذن له، فكتب أبو بكر لجاريته سلمى يأسف على عدم استطاعته العودة إليها بقوله:

ويحك يا سَلْمُ لا تُراعي ... لا بُدَّ للبَيْنِ([٨]) من زَمَــاعِ([١])

---

١ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص349.

٢ ) السقطي: في آداب الحسبة، ص56.

٣ ) هي حفصة بنت حمدون بن حيوة ، من أهل وادي الحجارة ، وكانت أديبة وعالمة وشاعرة ( ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة ، ، ج4، ص248).

٤ ) المقري: نفح الطيب، ج4، ص285.

٥ ) السقطي: في آداب الحسبة، ص49-50.

٦ ) الحميدي: جذوة المقتبس، ص39-40.

٧ ) هو أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي، وكان من بطانة الحكم المستنصر ( المراكشي: المعجب، ، ص30).

٨ ) البَيْنُ: الفرقة (ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، ج10، ص503).

| | |
|---|---|
| لا تَحْسَبِيني صبرْتُ إلا | كصبر مَيْتٍ على النِّـزاعِ |
| ما خلق اللهُ من عــذاب | أشَـدَّ من وَقْفَـةِ الـوداعِ |
| ما بينها والحِمام فـرقٌ | لولا المناحاتُ والنواعــي[٢][٣] |

وكان اعتراض الجواري في الشوارع أمراً ممكناً لدى بعض الأندلسيين، فقد حدّث الحميدي عن حادثة وقعت لرجل يدعى يوسف بن هارون (ت403هـــ=1012م)[٤]، حيث خرج للتنزه في أحد الأيام عقب صلاة الجمعة متجاوزاً نهر قرطبة، ويقول في ذلك أبو عمر: " فإذا جارية لم أر أجمل منها، فسلمت عليها، فردت، ثم حادثتها، فرأ يت أدباً بارعاً، فأَخَذَت بمجامع قلبي، فقلت لها: سألتك بالله أحرة أم أمة؟ فقالت: بل أمة، فقلت: ما اسمك بالله؟ قالت: خلوة، فلما قرب وقت صلاة العصر انصرَفَتْ، فجعلت أقفو أثرها، فلما بلغت القنطرة قالت: إما أن تتأخر، وإما أن تتقدم، فلست والله أخطو خطوة وأنت معي، فقلت لها: أهذا آخر العهد بك؟ قالت: لا ، فقلت لها فمتى اللقاء؟ قالت: كل يوم جمعة في هذا الوقت في هذا المكان، قلت لها: فما ثمنك إن باعك من أنت له؟ قالت: ثلاث مائة دينار ، قال: فخرجت جمعة أخرى ، فوجدتها على العادة الأولى، فزاد كلفي بها، ورحلت إلى عبد الرحمن بن محمد التجيبي صاحب سرقسطة [٥]، ومدحته بالقصيدة الميمية المشهورة فيه، وذكرت في تشبيبها[٦] خلوة، وحدثته مع ذلك بحديثي، فوصلني بثلاث مائة دينار ذهباً ثمنها، سوى ما زودني عن نفقة الطريق مقبلاً وراجعاً، وعدت إلى قرطبة فلزمت الرياض جُمَعاً لا أرى لها أثراً، وقد انطبقت سمائي على أرضي، وضاق صدري إلى أن دعاني يوماً رجل من إخواني ، فدخلت إلى داره، وأجلسني في صدر مجلسه ، ثم قام لبعض شأنه، فلم أشعر إلا بالستارة المقابلة لي قد رفعت، وإذا بها، فقلت: خلوة؟ فقالت: نعم، قلت: لأبي فلان أنت مملوكة؟ قالت: لا والله، ولكني أخته، قال: فكأن الله تعالى محا حبها من قلبي"[٧]، وبصرف النظر عن أنها لم تكن جارية إلا أن الحادثة تعطينا صورة واضحة عن

---

١ ) أَزْمَع المسيرَ: عزم عليه (ينظر المغرب في ترتيب المعرب، للمطرزي، ج1، ص367).

٢ ) الناعي الذي يأتي بخبر الموت ( ابن منظور: لسان العرب، ج15، ص333).

٣ ) الحميدي: جذوة المقتبس: ص44.

٤ ) هو أبو عمر يوسف بن هارون الرمادي ، من أهل قرطبة؛ كان شاعر الأندلس المشهور، والمقدم على الشعراء، وكان يلقب بأبي جنيش فنقل إلى الرمادي ، وتوفي فقيراً معدماً ودفن بمقبرة كلع ( ابن بشكوال: الصلة، ج3، ص969).

٥ ) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر.

٦ ) تَشْبِيبُ الشِّعْر: تَرْقِيقُه بذكر النساءِ (ابن منظور: لسان العرب، ج1، ص480).

٧ ) الحميدي: جذوة المقتبس، ص334-335.

شغف المجتمع الأندلسي بالجواري، وحب اقتنائهن بأي ثمن كان، لدرجة أن البعض كان يعمل على اعتراضهن في الطرقات.

وكانت لبعض الجواري علاقات مع بعض أبناء الملوك خارج نطاق الملكية، فكانت تجري بين بعضهم مراسلات ومكاتبات، وكانت الجواري تحتفظ بتلك الرسائل، وقد روى القاضي يونس بن عبد الله (ت 419هـ=1028م)([١]) قصة تشير إلى ذلك، فقال: " أذكر في الصبا جارية في بعض السدد ، يهواها فتى من أهل الأدب من أبناء الملوك وتهواه ، ويتراسلان، وكان السفير بينهما والرسول بكتبهما فتى من أترابه كان يصل إليها، فلما عرضت الجارية للبيع؛ أراد الذي كان يحبها ابتياعها، فبدر الذي كان رسولاً فاشتراها ، فدخل عليها يوماً، فوجدها قد فتحت درجاً لها تطلب فيه بعض حوائجها ، فأتى إليها وجعل يفتش الدرج ، فخرج إليه كتاب من ذلك الفتى الذي كان يهواها مضمخاً([٢]) بالغالية، مصوناً مكرماً ، فغضب وقال : من أين هذا يا فاسقه؟ قالت: أنت سقته إليّ ، فقال: لعله محدث بعد ذلك الحين، فقالت: ما هو إلا من قديم تلك التي تعرف؛ قال: فكأنما ألقمته حجراً، فسقط في يده وسكت"([٣]).

كما تمتعت بعض الجواري بحظ عظيم ونصيب وافر من اشتهار أبنائهن، فقد عرف يحيى بن نجاح (ت422هـ=1031م)([٤]) الواعظ الأندلسي بغزارة علمه، وكان عندما يمتدحه الناس يحدث نفسه قائلاً: " كان والدي عبداً لفلان، وأمي جارية ، اشتريت بكذا وكذا ديناراً ، فلا يغرك يا يحيى مدح هؤلاء"([٥]).

وقد كان حب الجواري في عهد الطوائف دافعاً قوياً لدى ملوكها لإنفاق الأموال ببذخ وقد كان ملك شنتمرية هذيل بن خلف بن لب بن رزين البربري (ت 436هـ=1044م)([٦]) من أكثر

---

١ ) يونس بن عبد الله: هو الفقيه القاضي يونس بن عبد الله بن مغيث قاضي الجماعة بقرطبة، فاضل ورع زاهد ناسك خاشع، عالم متميز، وله تصانيف في الزهد والتصوف، وبعض الأشعار ( ابن خاقان: مطمح الأنفس، ، ص141).

٢ ) الضَّمْخُ لطخ الجسد بالطيب (ابن منظور: لسان العرب، ج3، ص36).

٣ ) ابن حزم: طوق الحمامة، ص214.

٤ ) يحيى بن نجاح: هو أبو الحسين يحيى بن نجاح المعروف بابن القلاس، مولى جعفر الحاجب الفتى الكبير؛ مولى أمير المؤمنين الحكم بن عبد الرحمن ، من أهل قرطبة: يكنى: أبا الحسين، ويعرف: بابن القلاس ، نشأ بقرطبة، وخرج في مدة المظفر عبد الملك بن أبي عامر إلى المشرق وقضى فريضة الحج، واستوطن مصر، وكان من أهل العلم والورع والزهد ( ابن بشكوال: الصلة، ، ج3، ص955).

٥ ) السلفي: أخبار وتراجم أندلسية، ص34.

٦ ) هو أبو محمد هذيل بن خلف بن لب بن رزين المعروف بابن الأصلع ، كان من أكابر برابر الثغر، ورث ذلك عن والده ( ابن بسام: الذخيرة، ، ج5، ص109).

هو أبو محمد هذيل بن خلف بن لب بن رزين المعروف بابن الأصلع ، كان من أكابر برابر الثغر، ورث ذلك

الملوك همة في اقتناء القينات، وقد اشترى جارية الطيب أبي عبد الله الكناني( [١]) بثلاثة آلاف دينار، كما "اشترى كثيراً من الجواري الحسنات، المشهورات بالتجريد( [٢])، طلبهن في كل جهة"([٣]).

وبرزت عادة في الأندلس تمثلت في التهادي بالجواري، فكان التهادي بين ذوي الشأن يحدث أحياناً بإهداء الجواري لبعضهم بعضاً، كما حدث ذلك بين مجاهد العامري (ت436هـ=1044م) وبين المعتضد عباد، حيث أهدى الأول للثاني جارية عرفت بالعبادية، وكانت أديبة، ظريفة، كاتبة، شاعرة([٤]).

كما أُتيَ المعتصم بن صمادح (ت 443هـ=1051م) بجارية نبيلة تسمى غاية المنى وهي جارية أندلسية متأدبة تقول الشعر وتحسن المحاضرة([٥]).

ولم يقتصر حب الجواري على كبار السن من البالغين، فقد كان بعض المراهقين يحبون الجواري، ويتغزلون فيهن، وكان من هؤلاء ابن حزم (ت456هـ=1064م) الذي كان يقول الشعر قبل بلوغه الحلم، وأكثر شعره كان تغزلاً قاله قبل بلوغه العشرين في جارية له، واسمها "نعم"، ولما فقدها حزن عليها حزنا شديداً ورثاها( [٦])، وهذا دليل واضح على أن حب الجواري مثّل داءً تفشى في المجتمع الأندلسي لم يترك شريحة عمرية إلا وصل إليها.

وقد بلغ حب الجواري واقتنائهن مبلغاً كبيراً، وصل في بعض الأحيان إلى أن يقوم بعض الأندلسيين بمحاولة الانتحار من أجل جارية، فيروي ابن حزم (ت456هـ=1064م) بأن رجلاً أندلسياً باع جارية له لرجل من الأندلس بسبب فقر أصابه، وكان يحبها حباً شديداً، ولم يكن البائع يعرف أنه يحبها هذا الحب، فلما انتقلت من عنده للأندلسي، كادت روحه تخرج من نفسه، فأراد أن يسترجع جاريته مقابل المال الذي دفعه، غير أن المشتري رفض ذلك، فالتجأ البائع للملك، وشرح له حاله، فحن له الملك، وأمر بإحضار المشتري، الذي أظهر للملك من الرغبة والوله بالجارية كما في نفس البائع، فاحتار الملك وأمر بدفع مبلغ كبير من المال للمشتري، غير أنه رفض ذلك الأمر، ولم ير الملك وسيلة سوى ذلك فتعذر للبائع، فلما رأى البائع ذلك جمع يديه إلى رجليه وألقى بنفسه من علٍ، فارتاع الملك، وقال له: ما حملك على

---

عن والده (م.ن: ج5، ص109).

١ ) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من المصادر.

٢ ) التَّجْرِيدُ: التعرية من الثياب ( الرازي: مختار الصحاح، ج1، ص42).

٣ ) ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص308.

٤ ) المقري: نفح الطيب، ج4، ص283.

٥ ) المقري: نفح الطيب، ج4، ص286.

٦ ) عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، ص260.

هذا، فقال له: لا سبيل إلى الحياة بعدها، وهمّ أن يرمي بنفسه ثانية، فقال الملك للمشتري إن فعلت كما فعل تكون أشد حباً لها، وإن لم تفعل فإنك لا تحبها كحبه، فامتنع الرجل عن ذلك فحكم الملك بها للبائع( [١])، ولعل ابن حزم يعطي صورة واقعية واضحة عن المجتمع القرطبي في عصره من خلال كتابه طوق الحمامة، وهو كتاب في بعض جوانبه يبحث النواحي النفسية للأندلسيين، وذلك بوصف ما يعرف بظاهرة الحب العذري([٢]).

وعرفت الأندلس أشخاصاً يبحثون عن الشهوة فقط في اقتناء الجواري، فمن الأندلسيين من كانوا يشترون الجواري، ويقتنوهن، فإذا قضوا منهن حاجتهم باعوهن، ويصف ابن حزم (ت456هــ=1064م) بعضاً من طباع محمد بن أبي عامر( [٣]) بقوله: " ولقد كان أبو عامر المُحَدّث عنه يرى الجارية فلا يصبر عنها، ويحيق به من الاغتمام والهم ما يكاد أن يأتي عليه حتى يملكها، ولو حال دون ذلك شوك القتاد ([٤]) ، فإذا أيقن بتصيرها إليه عادت المحبة نفاراً، وذلك الأنس شروداً والقلق إليها قلقاً منها ، ونزاعه نحوها نزاعاً عنها ، فيبيعها بأوكس الأثمان ، هذا كان دأبه، حتى أتلف فيما ذكرنا عشرات ألوف الدنانير عدداً عظيماً"([٥]).

كما واشتهر المعتضد عباد (ت461هــ=1069م) بأنه كان شديد الولع بالنساء "فاستوسع في اتخاذهن، وخلط في أجناسهن، فانتهى في ذلك إلى مدى لم يبلغه أحد من نظرائه "([٦])، ولذلك كان كثير النسل، حيث بلغ عدد أبنائه أربعون، ما بين ذكر وأنثى( [٧])، وقيل أنه ترك بعد وفاته نحواً من سبعين جارية، سوى زوجته بنت مجاهد العامري([٨]).

ويشير إحسان عباس إلى أن اقتناء الجواري كان له علاقة بطبيعة الترف في قصور الأمراء، وبيوت الأثرياء، فكانوا يغالون في أثمانهن إذا تمتعت الجارية بفنون تميزها عن غيرها من الجواري( [٩])، ويستدل على ذلك بما ذكره ابن بسام في الذخيرة من أن المعتضد

---

١ ) ابن حزم: طوق الحمامة، ص265-266.

٢ ) عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، ص283.

٣ ) محمد بن أبي عامر: كان أحد أصدقاء ابن حزم (ابن حزم: طوق الحمامة، ص112).

٤ ) القتاد: شجر له شوك أمثال الإبر (ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، ج6، ص298).

٥ ) ابن حزم: طوق الحمامة، ص199.

٦ ) ابن بسام: الذخيرة، ج3، ص29؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج3، ص317.

٧ ) ابن العماد: شذرات الذهب، ج3، ص317.

٨ ) ابن بسام: الذخيرة، ج3، ص29.

٩ ) عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، ص52.

(461هـ=1069م) حرص على شراء قينة([1]) لوزير يدعى عبد الحليم بعد وفاته، حيث وصفت وصفت هذه الجارية بالحذق في صنعتها([2]).

وفي بعض الأحيان كانت تقع بنات حكام الأندلس سبياً في يد الأعداء، فكنَّ يُبَعْنَ ويُشترَين كالعبيد، وهو ما جرى لبثينة بنت المعتمد بن عباد، حين أحيط بأبيها وتعرض قصره للنهب، فسبيت بثينة، وكان مصيرها أن اشتراها أحد تجار إشبيلية على أنها جارية، وأهداها لابنه، فلما أراد الدخول عليها أخبرته بنسبها، وامتنعت عنه حتى يكتب عليها بعقد النكاح( [3])، وهذه إشارة إلى أن شراء الجواري في الأندلس كان بهدف التمتع بهن، واستيلادهن بهدف الإكثار من الذرية.

ومع السيطرة الموحدية على الأندلس تواصلت عادة اقتناء الجواري بشكل واضح، وقد عرف عن محمد بن سعد بن مردنيش (ت567هـ=1172م) اتخاذ جملة من الجواري([4]).

ولقد أحدث الولع بالجواري صراعات كان مؤداها القتل، فأصبحت ساحات للمعارك( [5])، للمعارك([5])، فقد كانت نهاية ابن هود أن اغتيل على يد عامله على المرية محمد بن عبد الله الرميمي([6])

وكان ذلك في عام (635هـ=1238م) بسبب التنافس على جارية أسبانية فائقة الجمال([7]).

وكان شراء الجواري في الأندلس والتسري بهن مخرجاً لمن لم يكن يريد الزواج في بعض الأحيان، وقد أورد السقطي ما يشير إلى ذلك بقوله: "اتفق لرجل من أهل مدينة ألبيرة حلف على ترك التزويج بالأندلس يميناً لم يجد لها مخرجاً، فتوجه إلى قرطبة، وهي إذ ذاك حضرة الأندلس، دار الملك وقاعدة العلم، واشترى بها جارية لم يكن يرى الراؤون مثلها بعجة([8]) وجمالاً"([9]).

---

١ ) القينة : الأمة ، مغنية كانت أو غير مغنية (ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، ج6، ص509).

٢ ) ابن بسام: الذخيرة، ج3، ص36.

٣ ) المقري: نفح الطيب، ج4، ص284.

٤ ) ابن الخطيب: الإحاطة، ج2، ص123.

٥ ) الصلابي، علي محمد محمد: دولة الموحدين، المنصورة، مكتبة الإيمان، ط1، 2004م، ص278.

٦ ) هو محمد بن عبد الله بن أبي يحيى بن الرميمي ، خطب لابن هود، وصار وزيره ثم غدر بابن هود فقتله (ابن سعيد: المغرب، ج2، ص199).

٧ ) العاوور، وسيسالم: محاضرات، ص629؛ الصلابي: دولة الموحدين، ص278.

٨ ) لم أجد فيما بين يدي من مصادرلغوية أي معنى يتماشى مع السياق، وقد أورد الزبيدي معنى قال فيه، امْرَأَةٌ بَعِيجٌ: أي شقّت بَطْنَهَا لِزَوْجِها ونَثَرَتْ (الزبيدي: تاج العروس، ج5، ص424).

٩ ) السقطي: في آداب الحسبة، ص54.

وكانت الكثير من هذه الجواري رائدات في الشعر والأدب، ويبدو أن هذا كان سبباً من أسباب الإقبال على مثل تلك الجواري، ويدل على ذلك أن أبا محمد عبد الله بن مسلمة الشاطبي(١) كانت له جارية أديبة شاعرة تسمى هند(٢)، وهي أديبة شاعرة كان يراسلها أبو عامر بن ينق (547هـ=1153م)(٣).

ولقد كان الأندلسيون يرغّبون مشتري الجواري فيهن بعرضهن في صورة يرضى عنها المشتري، وكان أهل الأندلس يستخدمون عدة حيل للتلاعب في شكل الجارية، مما يعطيها جمالاً على أساس اللون، فكانوا يُزيِّنون بعضهن لتصبح بيضاء اللون، وبعضهن الآخر كانوا يزينونهن لتصبح الواحدة منهن ذات لون ذهبي، كما كانوا يحمرون الخدود، ويجملون أوجه السودان، ويسودون الشعر ببعض النباتات، وينقون البدن من الشعر، ويسمنون الأعضاء الهزيلة، وينعمون الأطراف الخشنة ببعض الدهون الطبيعية، ويطلون النمش ببعض الغسول، ويزيلون الكلف، ويجلون الأسنان، وغير ذلك من أصناف التجميل التي يتبعونها لإعطاء الجارية صورة حسنة، ومظهراً جميلاً يغري المشتري فيسرع إلى شراء الجارية(٤)، ولعل هذه الأوصاف التي ذكرها السقطي تشير إلى مواصفات عامة للمظاهر الحسنة للنساء في المجتمع الأندلسي، والتي يمكن القول من خلالها بأن حرائر الأندلس اتبعنها كذلك، بحثاً عن الجمال والزينة، مما يزيد في التأكيد على توسع رقعة الترف في المجتمع الأندلسي، وهذا الأمر يؤكد بأن الذين كانوا يشترون الجواري إنما كانوا يشترونهن بحثاً عن الجمال ورغبة في المتعة.

وقد تمتع بائعو الجواري بخبرة واسعة في طرق تسويق جواريهم ، حيث أنهم كانوا يعرفون رغبات المشتري، فيجهزون الجارية كما يرغب المشتري ويشتهي، فكانوا يوصون جواريهم ببعض التصرفات حتى يسلبن لب المشتري: "ومن وصاياهم لهن أن يتبرجن ويختفين للمشتري، تارة وتارة، ويسلبن المبتاع، والنافرين بطبائعهم، ويتمشين على الثياب، وينكسرن لهم، ويتمنعن عليهم، فإن في ذلك هلاكاً للقلوب، ويُلبسون الجواري البيض الألوان من الثياب الشفافة والموردة، ويلبسون السود الفلافل(٥) الحمر والصفر(٦)، ويشير هذا الوصف الذي أورده أورده السقطي إلى بروز عدة مظاهر للانحلال في المجتمع الأندلسي اتبعتها الجواري، ولا يمكن القول من خلال ذلك بأن هذه التصرفات التي تعد تصرفات منحرفة هي خاصة بالجواري

١ ) لم أجد له ترجمة فيما بين يدي من مصادر.
٢ ) المقري: نفح الطيب، ج4، ص293.
٣ ) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج4، ص259.
٤ ) السقطي: في آداب الحسبة، ص50-51.
٥ ) ثوب مُفَلْفَل إذا كانت دارات وَشْية تحكي استِدارة الفُلْفُل (ابن منظور: لسان العرب، ج11، ص530).
٦ ) السقطي: في آداب الحسبة، ص53.

وحدهن، إذ من الممكن أن تكون صفة الجارية مدعاة لاختباء بعض الحرائر خلفها، والتصرف بخلاعة على الشكل الذي يوصي أرباب الجواري جواريهم به.

## المبحث الرابع
## الانحرافات الأخلاقية والفكرية في المجتمع الأندلسي([1])

كان من نتائج حياة الترف والبذخ التي عاشها الأندلسيون أن انتشرت الخلاعة، وساءت أخلاق العامة والخاصة، وفسد المجتمع الأندلسي، وانغمس بعض الشعراء والكتاب في حمأة الدعارة، ونطقت ألسنتهم بأفحش الأقوال، ومما زاد الطين بلة أن الأمراء كانوا يشجعونهم على ذلك، حتى بلغ بهم الأمر أن يقيموا مجالس اللهو في ليلة السابع والعشرين من رمضان( [2])، ويبدو بأن كل الظروف كانت مهيأة لتحقيق هذا الوصف الذي وصفه ابن سعد الخير للمجتمع الأندلسي، خصوصاً في عهدي الطوائف وأواخر العهد الموحدي، كما سيتبين لاحقاً.

ويعزو أحد شعراء الأندلس سقوط المدن الأندلسية وخاصة مدينة طليطلة، إلى ما حصل لأهل الأندلس من الفسق والفجور، فقال:

أنأمَــنُ أن يحــلَّ بنا انتقــام ... وفينا الفسق أجمع والفجــورُ
وأكْلٌ للحرامِ ولا اضطــرار ... إليهِ فيسْهُــلَ الأمْرُ العسيرُ
ولكن جــرأةٌ في عُقْــر دار ... كذلك يفعــلُ الكلبُ العَقورُ([3])
يزول السترُ عن قومٍ إذا ما ... على العصيان أُرخِيَتِ الستورُ([4])

ولقد انغمس كثير من الأندلسيين في شهواتهم، واستسلموا للدعة والترف واللهو، وعاشوا في غنى واسع، وحياة عابثة وماجنة، واتبعوا أهواءهم من ألوان الترف الفاجر، حتى ذهبت أخلاقهم وهووا في درك الانحلال والميوعة([5]).

وكانت كثير من أماكن النزهة عبارة عن أماكن مشبوهة يرتادها في كثير من الأحيان الخلعاء والمتبرجات من الناس( [6])، ويؤكد ذلك قول الحجاري عن مدينة شريش( [1]) بأن أهلها يظهرون الرفاهية، فلا "تكاد ترى بها إلا عاشقاً ومعشوقاً"([2]).

---

١ ) يرى الباحث بأن الغناء وشرب الخمر والولع بالجواري من مظاهر الانحراف السلوكي والتي يغذيها الانحراف الفكري، غير أنه أفرد لكل واحد من هذه الأمور مبحثاً خاصاً به، بسبب انتشار تلك العادات بشكل واسع في الأندلس، فاستحقت كل عادة أن تفرد بموضوع مستقل، ورأى الباحث أن يفرد لبعض العادات المتفرقة مبحثاً يجمعها تحت عنوان الانحرافات السلوكية في المجتمع الأندلسي.

٢ ) ابن سعد الخير: القرط على الكامل، ص3 (تم الكتاب عام 658هــ1260م).

٣ ) يقال لكل جارحٍ أو عاقرٍ من السباع كلب عَقُور (ابن منظور: لسان العرب، ج4، ص591).

٤ ) المقري: نفح الطيب، ج4، ص484.

٥ ) الصلابي: دولة المرابطين، ص118-119.

٦ ) ثلاث رسائل أندلسية: تحقيق ليفي بروفنسال، ص57.

ويرى ابن خلدون بأن الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها إنما يكون بسبب كثرة الترف، وهو ما ينعكس على التفنن في كافة الشهوات الإنسانية كالمأكل والمشرب والمسكن، مما يؤدي إلى فساد النوع(٣).

ويشير ابن بسام إلى قضية عشق الغلمان في المجتمع الأندلسي، حيث انقسم الناس فيها إلى فريقين، وخصوصاً من الشعراء، فأحدهما يذم أهل تلك العادة، والثاني يمتدح هذه العادة، وفي ذلك يقول ابن بسام: " وأما صفات المعذرين من الغلمان، فقد جرت خيول فرسان هذا الشان، بهذا الميدان، وتفننوا في ذلك نثراً ونظماً، وتطاردوا فيه مدحاً وذماً"(٤).

وقد عُرفت خطيئة عشق الغلمان لدى بعض الحكام في العهد الأموي، فقد كان الخليفة الأموي محمد بن هشام بن عبد الجبار، والملقب بالمهدي(ت400هـ=1010م) يعشق غلاماً من غلمانه، وكان الغلام في أحد المجالس أهدى المهدي قضيباً من آس فقال المهدي فيه:

أهديت شبه قوامك المياس(٥) غصناً رطيباً ناعماً من آس(٦)

وكأنما يحكيك في حركاته وكأنما تحكيه في الأنفـاس(٧).

ولعل الأغرب من ذلك هو وقوع بعض الفقهاء فريسة لظاهرة عشق الغلمان الخطيرة، والتي تنم عن سلوك غير محمود، فهذا ابن حزم (ت456هـ=1064م) كان يسير يوما بسكة الحطابين مع صديق له، يقال له أبو عمر في مدينة إشبيلية، فلقيهما شاب جميل الوجه، فأبدى ابن حزم إعجابه بجماله، فقال له أبو عمر: لم نرَ غير الوجه، وربما يكون ما تحت الثياب غير ذلك(٨)، فأنشده ابن حزم:

وذي عَذَلٍ(٩) فيمن سَبَانيَ حُسْنُهُ يُطِيلُ مَلامي في الهَوَى ويقولُ

أَمِنْ أجلِ وَجْهٍ لاحَ لم تَرَ غَيْرَهُ ولم تَدْرِ كيف الجِسمُ أنت عَلِيلُ

فقلتُ له: أَسْرَفْتَ في اللومِ فاتَّئِدْ فعنديَ رَدٌّ لو أَشَــاء طويـلُ(١)

---

١ ) شريش: من كور شذونة بالأندلس، بينها وبين قلشانة خمسة وعشرون ميلاً، وهي على مقربة من البحر، وبين المغرب والقبلة من شريش حصن روطة على شاطئ البحر، بينهما ستة أميال (الحميري: الروض المعطار، ص340).

٢ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص184.

٣ ) ابن خلدون: المقدمة، ص373.

٤ ) ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص144.

٥ ) غُصْنٌ مَيَّاسٌ مائلٌ (ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، ج8، ص591).

٦ ) الآس: البَلَحُ، والآسُ ضرب من الرياحين (ابن منظور: لسان العرب، ج6، ص17).

٧ ) المقري: نفح الطيب، ج1، ص577

٨ ) المقري: نفح الطيب: ج2، ص83-84.

٩ ) العَذْلُ: اللَّومُ (ابن منظور: لسان العرب، ج11، ص437).

ويبرر الذهبي هذه الحادثة وما بدر فيها من ابن حزم بأنها على سبيل الدعابة( [٢])، ولكن حتى لو كان ذلك على سبيل المداعبة، فإن على ابن حزم أن يترفع عن مثل هذه الدعابات، التي تقلل من شأنه، وتخفض من مكانته العلمية، والدينية المحترمة والرفيعة، فقد قال النووي في شرحه على صحيح مسلم بأن النظر إلى وجه الأمرد إذا كان حسن الصورة حرام، سواء كان بشهوة، أو بغير شهوة، وسواء أمن الفتنة، أم لم يأمنها( [٣])، ولذلك فلا حجة لمن يحتج بأن ذلك من صغائر الذنوب، فمن الممكن أن تجر هذه النظرة إلى جريمة عظيمة مستقذرة؛ هي جريمة اللواط.

مع العلم أن ابن حزم في طوق الحمامة يشير إلى ضرورة الابتعاد عن مثل هذه المناظر، فيقول: " والصالح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق ، ولا يتعرض إلى المناظر الجالبة للأهواء، ولا يرفع طرفه إلى الصور البديعة التركيب؛ والفاسق من يعاشر أهل النقص وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة، ويتصدى للمشاهد المؤذية، ويحب الخلوات المهلكات"([٤])، ويبدو في هذا الكلام تناقضاً مع تصرفات ابن حزم التي وردت آنفاً، وربما يكون التبرير الوحيد لمثل هذه التصرفات – في اعتقادي – أن ابن حزم قد فعلها في صباه، وقبل أن يبلغ المكانة العلمية التي وصل إليها.

ويبدو أن تأثر بعض الفقهاء كابن حزم بالانحرافات الواقعة في المجتمع الأندلسي قد أثرت عليهم، مما جعلهم يقعون في أخطاء العامة وانحرافاتهم، فبالرغم من المكانة العلمية والفقهية التي يتمتع بها ابن حزم إذ هو فقيه فقهاء الأندلس وصرف جزءاً كبيراً من حياته في المجادلات الفقهية العنيفة؛ إلا أنه ألف كتابه طوق الحمامة في الحب( [٥])، وقد أشار هو نفسه في كتابه بأن هذا الكتاب قد يحتوي ذنوباً، ولكن هذه الذنوب صغيرة وليست كبيرة، فيقول: " وأنا أستغفر الله تعالى مما يكتبه الملكان ، ويحصيه الرقيبان من هذا وشبهه، استغفار من يعلم أن كلامه من عمله؛ ولكنه إن لم يكن من اللغو الذي لا يؤاخذ به المرء ؛ فهو إن شاء الله من اللمم المعفو، وإلا فليس من السيئات والفواحش التي يتوقع عليها العذاب، وعلى كل حال فليس من

---

١ ) ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص 133؛ ابن سعيد: المغرب، ج 1، ص356؛ المقري: نفح الطيب، ج 2، ص83-84.

٢ ) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج18، ص207.

٣ ) النووي أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (شرح النووي على مسلم)، بيروت، دار إحياء التراث العربي ط2، 1392هـ، ج4، ص31.

٤ ) ابن حزم: طوق الحمامة، ص270-271.

٥ ) عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، ص282.

الكبائر التي ورد النص فيها"(١)، وقد استغل ابن حزم كتابه هذا في ذكر أشعاره الغزلية الخاصة به(٢)، ومن الصعب أن أنتقد شخصاً بمكانة ابن حزم، غير أن ابن حزم نفسه يقر بأنه سيجد من ينتقده لكتابته هذا الكتاب، فقال: "وأنا أعلم أنه سينكر عليّ بعض المتعصبين على تألفي لمثل هذا ويقول: إنه خالف طريقته، وتجافى عن وجهته؛ وما أحل لأحد أن يظن في غير ما قصدته "(٣)، ويمكن الاستدلال بهذا الأمر على أن أحوال العشاق وأفعالهم كانت مكشوفة لدى العلماء والفقهاء وذوي السلطان، وكانت تجري على أعينهم، بالرغم مما فيها من انحرافات سلوكية أخلاقية وفكرية.

وبالعودة إلى ظاهرة عشق الغلمان، فهي من أخطر ظواهر الانحراف السلوكي، وهي أكثر خطورة من الزنا، والمؤسف أن هناك من تغنى بفعلته الفاحشة، ونظم فيها أشعاراً يشرح جريمته، كعبيد الله بن جعفر الإشبيلي(٤)، ولعل الدارس لتاريخ الأندلس يعجب من بروز مثل هذه الانحرافات في مجتمع إسلامي، وخاصة إذا كانت هذه الانحرافات في صفوف بعض المثقفين، والأغرب من ذلك والأعجب هو المجاهرة بتلك المعاصي والتباهي بها على سبيل الفخر.

ويبدو أن مدة الطوائف بالأندلس قد تركت تأثيراتها على العهد المرابطي، خاصة في مسألة عشق الغلمان حيث برزت بشكل كبير في أواخر هذا العهد، ويشير بوتشيش إلى أن هذه العادة كانت منتشرة كثيراً في الحقبة المرابطية، خصوصاً عند الترجمة لأعلامها وفقهائها بواسطة كتب السير والتراجم(٥)، ومن هذه الحوادث عشق الأديب أبو عبد الله بن محمد بن عائشة(٦) لأحد الغلمان، إذ كان جالساً معه ذات ليلة فأنشد فيه أبياتاً يقول فيها:

| | |
|---|---|
| للهِ ليلٌ باتَ عنـــدي بهِ | طوعَ يدي مَنْ مُهجتي في يديهْ |
| وبتُّ أسقيه كؤوس الطّلا(٧) | ولم أزل أسهــرُ شوقاً إليــهْ |
| عاطيتهُ حمراء ممزوجةً | كأنّها تُعْصَـرُ من وجنتـيهْ |

وله شعر آخر يقول فيه:

---

١) ابن حزم: طوق الحمامة، ص308.

٢) عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، ص282.

٣) ابن حزم: طوق الحمامة، ص308.

٤) يعف الباحث عن ذكر هذه الأبيات لما فيها من مبالغة فاضحة في المجون وتصوير لمراحل فعل الفاحشة بدقة، ولكن للاستزادة يمكن مراجعة المقري: نفح الطيب: ج4، ص61.

٥) بوتشيش: المغرب والأندلس، ص99.

٦) سبقت ترجمته وهو أديب معاصر للشاعر ابن خفاجة.

٧) بعضُ العرب يسَمِّي الخَمْرَ الطِّلاء (ابن منظور: لسان العرب، ج15، ص10).

إذا كنت تهوى خده وهو روضة　　　به الورد غض والأقاح مفلج(١)
فزد كلفاً فيه وفرط صبابة(٢)　　　فقد زيد فيه من عذار بنفسج(٣).

كما كان الأديب أبو الحسن البرقي (ت522هـ=1128م)(٤) يحب الغلمان، وكان يعشق يعشق فتى من إشبيلية يعرف بابن المكر: " صار به طريحاً بين أيدي الفكر ، وما زال يقاسي هواه، ويكابد جواه، حتى اكتسى خده بالعذار، وانمحت عنه بهجة آذار"(٥).

كما أن الأدباء كان لهم نصيبب من عشق الغلمان قولاً وعملاً، فابن خاقان يصف الأديب أبي جعفر بن البني(٦) بأنه "كان أليف الغلمان، وحليف كفر لا إيمان، وما نطق متَشَرَّعاً، ولا رمق متورِّعاً، ولا اعتقد حشرًا، ولا صدّق بعثاً ولا نشراً، تنسك مجنوناً وفتكاً باسم التقى... وسمى فتى كان يعشقه بالحمى، وكان لا يتصرف إلا في صفاته، ولا يقف إلا بعرفاته، ولا يؤرقه إلا جواه، ولا يشوقه إلا هواه"(٧).

ولقد تواصلت في عهد الموحدين هذه العادة، ولذلك فإن ابن بسام (ت 542هـ=1147م) عيّر معاصره الوزير أبي محمد عبد المجيد بن عبدون (ت520هـ=1126م)(٨) بسبب هيام رجل به في صباه وعشقه له يقال له ابن مناذر(٩).

كما طالت هذه الظاهرة في هذا العصر الفقهاء حيث انحرف بعضهم، واتجهوا نحو عشق الغلمان كأبي جعفر أحمد بن يحيى الحميري الوزغي (١٠) (ت610هـ=1213م)(١)(٢)،

---

١ ) الفَلَجُ في الأَسنانِ : تَباعُدُ ما بينَ الثَّنَايَا والرَّبَاعِيَاتِ (الزبيدي: تاج العروس، ج6، ص156).

٢ ) الصَّبابة: الشَّوْقُ، وقيل رقته وحرارته، وقيل رقة الهوى، صَبِبْتُ إليه صَبَابة : فأَنا صَبٌّ أَي عاشق مشتاق (ابن منظور: لسان العرب، ج1، ص515).

٣ ) ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص346-347.

٤ ) هو أبو الحسن علي بن علي نحوي شاعر (الصفدي: الوافي بالوفيات، ج1، ص145)، وهو أديب أصله من بلنسية، ورحل إلى إشبيلية سنة (475هـ=)، واتصل بابن زهر (ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص356).

٥ ) ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص356-357.

٦ ) وصفه الجزري بأنه شاعر أندلسي مشهور (الجزري، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني: اللباب في تهذيب الأنساب، بيروت، دار صادر، 1400هـ=1980م، ص182) مع العلم أني لم أجد له تاريخ وفاة فيما بين يدي من مصادر.

٧ ) ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص369-372.

٨ ) عبد المجيد بن عبدون: هو أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الفهري؛ كان أديباً شاعراً كاتباً، عالماً بالخبر والأثر ومعاني الحديث ( الكتبي فوات الوفيات، ج2، ص388).

٩ ) ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص144.

١٠ ) ابن سعيد: المغرب، ج1، ص220.

وكان خطيباً لجامع قرطبة يقرئ فيه النحو وفنون الأدب وكان يعشق غلاماً اسمه عيسى، فجاءه غلام يقرأ عليه واسمه محمد، فأعجب به ومال إليه، وقال في حقه:

تبدلتُ من عيسى بحبِّ محمــدٍ هديت ولولا الله ما كنت أهتدي

وما عن ملالٍ(٣) كان ذاك وإنما شريعة عيسى عطلت بمحمــد(٤).

ويشير النص أيضاً إلى انحراف فكري يتمثل بتشبيه هذين الغلامين بنبيي الله عيسى ومحمد عليهما السلام، لا لشيء إلا لأنه عشقهما فقط.

كما عُرف في بعض مناطق الأندلس بعض العادات المنحرفة، مثل التستر بالدين والعبادات، ويتضح ذلك من خلال نازلة أوردها الونشريسي حيث يقول: "وسئل شيوخ الأندلس عن رجل أحدث مسجداً، وأن أهل الشر يختلفون إليه مع متبرجات من النساء، قد جعلوه ذريعة لذلك"(٥)، ويستنتج من هذه النازلة بالإضافة إلى وجود من يأخذ من الدين ستاراً لأعمال الفجور التي يرتكبها، بأنه كانت توجد في الأندلس ظاهرة خروج النساء متبرجات، وذلك من الانحرافات السلوكية التي عرفتها الأندلس والتي كانت تغذيها حياة الترف والرفاهية.

ومن الانحرافات السلوكية في الأندلس تعامل البعض بالرشوة، إذ يبدو بأن هناك من الفقهاء من استغلوا مناصبهم لحاجة الناس لهم، وعظم لذلك أمرهم، فقد كثرت أموالهم، واتسعت أرزاقهم(٦)، وربما تكون هذه الإشارة من المراكشي للتعبير عن وجود رشاوى كان يتقاضاها بعض الفقهاء تتعلق بعملهم، أو أن المجتمع الأندلسي كان يضج بالمشاكل التي كانت تستدعي تدخل القضاء فيها، وفي كلا الحالتين يمكن القول بوجود انحرافات سلوكية، عرفها المجتمع الأندلسي.

وكان الناس عند تعرضهم لشدة ما فإنهم يلتجئون إلى التوبة عن معاصيهم، وما يبدر منهم من جرائم وفواحش، ففي عام (307هـ=919م) تعرضت الأندلس لوباء وطاعون، أعجزا الناس عن دفن موتاهم، وكانت فيها ريح شديدة سوداء "قلعت الأشجار، وهدمت الديار، فتاب

---

١ ) هو خطيب جامع قرطبة المصدر به لإقراء النحو وفنون الأدب، وهو مشهور بالظرف واللطافة (ابن سعيد: المغرب، ج1، ص220).

٢ ) الذهبي: سير، ج22، ص27.

٣ ) تَمَلَّتُ: منَ المَجاز؛ تَمَلَّلَ الرَّجُلُ، وتَمَلْمَلَ: تقلَّبَ، من مرضٍ أو نحوهِ كأنَّه على مَلَّةٍ (الزبيدي: تاج العروس، ج30، ص423).

٤ ) ابن سعيد: المغرب، ج1، ص220.

٥ ) الونشريسي: المعيار المعرب، ج7، ص218.

٦ ) المراكشي: المعجب، ص171.

الناس وخافوا، ولزموا المساجد، وارتدعوا عن الفواحش"( [١] )، والحديث واضح هنا عن انتشار الفواحش بشكل كبير داخل المجتمع الأندلسي.

وكانت الرغبة في الترف جارفة لدى ذوي النفوذ من موظفي الدولة، فلم يبالوا بجمع المال رغبة في الاستكثار منه والحصول على حياة مرفهة، فمحمد بن السعيد المعروف بابن السليم وهو أحد ولاة الخليفة الناصر(ت 350هـ=961م)، كان قد جمع أموالاً كثيرة جراء تصرفه بكبريات الولايات لمدة طويلة، حتى أن الناصر نفسه وهو الخليفة قد عرض عليه أن يقاسمه في هذه الأموال، ويصف ابن عذاري هذه الحادثة بالقول: "كان محمد بن سعيد المعروف بابن السليم قد احتجن([٢]) أموالا كثيرة بتصرفه في كبار الولايات في المدة الطويلة؛ فعلم ذلك منه الناصر؛ فعرض له مراراً في أن يساهمه فيه عن طيب نفس منه، وهو ملكه، ولو شاء لأخذه منه، ولكن أبى ذلك كرم طبعه. فقال في مجلسه يوماً: ما بال رجال من خاصتنا ، توسعوا في دنيانا، فطفقوا يحتجزون الأموال، ويضيعون تعمدنا، وهم يرون غليظ مئونتنا في الإنفاق على شؤوننا التي بقدرتنا عليها صلاح أحوالهم ، ورفاهية عيشهم...، فسكت ابن السليم عنه ، وغالطه في تعريضه كأنه يعني غيره، فازداد الناصر حنقاً عليه وغيظاً؛ ... وشق تفاحة بسكين في يده [وقال]: وددت أن أشق هكذا رأس من أعرف له مالاً كثيراً غله دوننا، ولم يسهم بيت المال منه، فطار عقل ابن السليم، ولم يختلجه الشك في أنه المعنيّ به"([٣]).

وقد نظر الناس إلى تقارب بعض الفقهاء من الملوك نظرة ارتياب، وظنوا فيهم ظن السوء، حتى وإن بدا منهم الصلاح، وفعل الخيرات، فقد كان للمنصور محمد بن أبي عامر قاضياً هو محمد بن يبقى بن زرب (ت381هـ=991م)([٤])، اتُّهم من قبل عامة الناس بالركون إلى ابن أبي عامر، وطعنوا في دينه، وعابوا عليه قبوله لبعض هدايا المنصور، وعدوا هذه المعصية –على حد زعمهم– سبباً لمنع نزول المطر، حتى هموا به أن يضربوه، ففر منهم، ولم يتمكن من النجاة إلا بعد أن استعان بصاحب المدينة الذي أمده بالشرطة، ومما كان يعاب عليه أنه لا يجلس للقضاء قبل أن يأكل([٥]).

ولقد انحدرت الأندلس في أواخر عهد الأمويين إلى منحدرات الفساد والرذيلة، وانتشار المحسوبية والواسطة، غير أن المنصور بن أبي عامر نظم البلد، وأعادها إلى وضع الأمن،

---

١ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس: ص161.

٢ ) احْتَجَنَ المالَ: احْتِجاناً إِذا ضَمَّه إِلى نفْسِه (الزبيدي: تاج العروس، ج34، ص399).

٣ ) ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، ص225-226.

٤ ) محمد بن يبقى بن زرب: هو القاضي أبو بكر محمد بن يبقى بن زرب قرطبي، عنى بالرأي، وتقدم فيه وتفقه، وكان أحفظ أهل زمانه لمذهب مالك (ابن فرحون: الديباج المذهب، ج1، ص268).

٥ ) النباهي: تاريخ قضاة الاندلس، ص79.

وأقام للقانون سلطة، حتى على أقربائه، وفي ذلك يقول ابن عذاري: " فسد باب الشفاعات، وقمع أهل الفسق والذعارات (١)، حتى ارتفع البأس، وأمن الناس، وأمنت عادية المتجرمين (٢) من حاشية السلطان؛ حتى لقد عثر على ابن عم له يعرف بعسقلاجة؛ فاستحضره في مجلس الشرطة وجلده جلداً مبرحاً كان فيه حمامه(٣)؛ فانقمع الشرُّ في أيامه جملة؛ واستخلف ابن أبي عامر على المدينة ابن عمه عمرو بن عبد الله بن أبي عامر؛ فسلك في أهل الشر سبيله، بل أربى عليه في ذلك"(٤).

وبلغت الأندلس في هذه المدة حداً كبيراً من ضعف الأمن، وتكرار السرقات، حتى غدا المرابطون على الثغور أقل خوفاً ممن يعيش في المناطق الداخلية من الأندلس، وقد صور ابن عذاري هذه الحالة إبان تسلم محمد ابن أبي عامر الشرطة فقال فيه: "فضبط محمد المدينة ضبطاً أنسى أهل الحضرة من سلف من أفراد الكفاة ، وأولى السياسة، وقد كانوا قبله في بلاء عظيم، يتحارسون الليل كله، ويكابدون من روعات طراقه ما لا يكابد أهل الثغور من العدو "(٥)، ويبدو من ذلك أن في الأندلسيين من كانوا يسعون للحصول على الأموال بشتى السبل وفي مقدمتها السرقة لتحقيق حياة مترفة، ومما يجدر ذكره أن هذه المدة كانت مدة صراعات، انشغل فيها الحكام بصراعاتهم في أواخر العهد الأموي، وهو ما سيكون محور الحديث في المبحث القادم.

وفي الإطار نفسه قام المظفر بن المنصور بن أبي عامر بمحاسبة أصحاب الثروات وجامعيها، حيث كانت المناصب في بعض الأحيان سبيلاً لجمع الأموال، وطريقاً لبناء الثروات الطائلة، وموطناً لجلب الشبهة، وخصوصاً بما أضفاه أصحاب هذه المناصب على أنفسهم من الهيبة والجلال، باتخاذ حاشية السوء، فنكب المظفر وزيره عيسى بن سعيد القطاع (397هـ=1006م) لهذا السبب، حيث اتخذه المظفر وزيراً عندما كان فقيراً معدماً لا يملك شيئاً، ثم بعد أن ولي الوزارة أصبح يملك الأموال، ويحيط نفسه برجال يصطفيهم لنفسه(٦).

وبلغ الترف غايته في الموت حتى اهتم بعض الأندلسيين بمظاهر الموت، وغالوا فيها، كما يفهم ذلك من نازلة لأبي الإصبغ، حيث أن امرأة أوصت بأن تباع بعض أملاكها، وأن يشترى بثمنها كفن تكفن فيه، وأن تضرب على قبرها قبة، وهو ما رآه بعض قضاة قرطبة

---

١ ) الذَّعر بالفتح: التخويف (الزبيدي: تاج العروس، ج11، ص371).

٢ ) تجرم عليه: بمعنى ادعى عليه ذنبا لم يفعله ( الرازي: مختار الصحاح، ص43).

٣ ) حِمامُه: قَدَرُهُ وموتُه (ابن منظور: لسان العرب، ج12، ص150).

٤ ) ابن عذاري: البيان المغرب، ج2، 266-267.

٥ ) م.ن: ج2، ص266.

٦ ) ابن بسام: الذخيرة، ج1، ص121.

مظهراً من مظاهر السرف، فنقل الفتوى عن الإمام مالك بعدم جوازه، كما أن المرأة نفسها طالبت بأن يستأجر من يقرأ لها القرآن على قبرها بعد الموت مقابل المال([1]).

ومع انفراط عقد الخلافة الأموية، وقدوم ملوك الطوائف للحكم ساد الانحلال وانتشر الفساد بشكل موسع([2])، واستهزئ بالعلماء، ويمكن القول بأن نظرة الناس للفقهاء عقب انتثار عقد الخلافة الأموية قد ظهرت على حقيقتها، حيث أمن الناس سطوة فقهائهم، وانقلبوا عليهم، وركبوهم بالسخرية في كل مكان، مما أفقدهم مكانتهم الرفيعة التي كانوا يتمتعون بها([3])، ولا يوجد لديّ تفسير لذلك إلا أن هؤلاء الناس قد تقيدت شهواتهم وتأثر عندهم مستوى الترف والرفاهية، وحرموا من ذلك بسبب مراقبة العلماء وتشددهم في متابعتهم، ولذلك كانت فرحتهم عارمة بزوال سطوة العلماء.

وكان الوزير أبو عامر بن شهيد (ت426هـ=1035م) من المولعين بحب صنف النساء، ولم يكن يخفي ذلك حتى نظم الشعر بما يدور في نفسه من حب، وكيف أن طعم الحب أقوى من طعم الموت

كلفت بالحب حتى لو دنا أجلي ... لمـا وجدت لطعم المـوت من ألم

وعاقني كرمي عمن ولهت بـه ... ويلي من الحب أو ويلي من الكرم([4]).

ولقد عرفت الأندلس حوادث زنا كسلوكيات منحرفة، نجمت عن ترف بعض الأندلسيين، ويبدو أن ما شجع على ذلك خروج النساء والجواري الجميلات كاشفات الوجه، ويؤكد ذلك ذكر ابن حزم لقصة وقعت مع أحد أصدقائه، الذي أحب امرأة ذات جمال بارع، فأرادها لنفسه فتمنعت، وطال الأمر به مدة من الزمن، حتى نذر نذراً بأنه إذا نال منها مراده يتوب إلى الله توبة صادقة، ومع مرور الزمن حصل له ما يريد، وقد أخبر هذا الرجل ابن حزم بالحادثة([5])، وعلى الرغم من أن ابن حزم يروي هذه القصة إلا أنه لم يذكر أنه نصح هذا الرجل بالتوبة والرجوع عن فعلته ولم ينكر عليه فعلته التي فعلها في صباه كما يقول، بل إن ابن حزم ضحك

---

١ ) أبو الإصبغ: عيسى بن سهل بن عبد الله الأسدي الجياني: ديوان الأحكام الكبرى (الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام)، تحقيق يحيى مراد، القاهرة دار الحديث، 1428هـ=2007م، ص159-160.

٢ ) عبد الحكيم الذنون: آفاق غرناطة "بحث في التاريخ السياسي والحضاري العربي، دمشق، دار المعرفة، ط1، 1408هـ=1988م، ص36-37.

٣ ) مؤنس: حسين، سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 1420هـ=2000م، ص22.

٤ ) ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص44.

٥ ) ابن حزم: طوق الحمامة، ص270.

لما علم بوفاء هذا الرجل بنذره([١])، وهذا أيضاً أمر مستغرب من ابن حزم، فإن أقل الإيمان في مثل هذه الحوادث أن ينكر هذا الأمر بقلبه، بحسب حديث النبي صلى الله عليه وسلم: " مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ"([٢]).

كما كان البحث عن حياة الترف والمتعة سبيلاً لظلم الناس من قبل ولاتهم، كما يبدو ذلك من شعر ليحيى السرقسطي([٣]) يشير فيه إلى أن الظلم كان منتشراً في عهده عند الناس، فهو يتهمهم به ويبرر ظلم حكامهم لهم بقوله:

نسبتم الظلمَ لعمالكـم ... ونمتُم عن قبح أعمالكـمْ

والله لو حكمتم ساعةً ... ما خطر العدلُ على بالكمْ([٤]).

وكان الترف سبيلاً سهلاً لارتكاب الآثام والمعاصي، وانتشار الخلاعة والمجون في المجتمع الأندلسي، فـالسميسر (ت نحو 480هـ= نحو1087م)([٥]) اشتهر بالهجاء([٦])، وعرف بشدة الخلاعة والمجون، فقال فيه ابن بسام: " كان أحد المخنثين قد تسربل المجون، وعبد البطالة والجنون، حتى مح([٧]) شبابه، وأقصر أترابه، ولم يدع عاراً إلا ركبه، ولا أثماً إلا ارتكبه"([٨]).

وكان من مظاهر الانحراف الصراع لأتفه الأسباب، والذي كان يدور في العلن، مثل الصراع على حب امرأة، والتنافس على الظفر بها، كالصراع الذي دار بين الشاعر ابن زيدون (ت463هـ=1071م)، وبين ابن عبدوس على حب ولادة (484هـ=1091م)([٩]).

وكان من بين الانحرافات التي عرفها بعض الأندلسيين بسبب وفرة المال ظاهرة الإسراف، فقد وردت على قاضٍ أندلسي مسألة ليفتي فيها، ألا وهي أن امرأة اشتكت من أن ابنها الذي بلغ رشده مبذر لماله مسرف فيه([١٠]).

ولقد كانت الفواحش في بعض الأحيان ترتكب على علم من الأهل، ولم يكن للأهل سبيل لعلاجها إلا بالنصيحة، وأحياناً بالهجاء، بالرغم من أنهم من ذوي السلطة، كالوزير أبي بكر بن

---

١ ) م.ن: ص270.

٢ ) مسلم: صحيح مسلم، ح 186، ج1، ص50.

٣ ) معاصر للحاجب ابن هود وأبو الفضل حسداي (المقري: نفح الطيب، ج 4، ص152)، وأبو الفضل حسداي يهودي سرقسطي كان حياً سنة 458هـ=1066م (ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص499).

٤ ) المقري: نفح الطيب، ج4، ص159.

٥ ) الزركلي: الأعلام، ج2، ص311.

٦ ) ابن سعيد: المغرب، ج2، ص100.

٧ ) المح: الثوبُ الخَلَقُ البالي وأَمَحَّ يُمِحُّ إذا أَخْلَقَ (ابن منظور: لسان العرب، ج2، ص589).

٨ ) ابن بسام: الذخيرة، ج2، ص894.

٩ ) نجيب زبيب: الموسوعة العامة، ج2، ص248.

١٠ ) أبو الإصبغ: ديوان الأحكام الكبرى، ص112.

الملح([1])، الذي كان ابنه مسرفاً على نفسه في المعاصي كالزنا، وشرب الخمر([2])، ويشير ابن سعيد إلى أن هذا الشاب واسمه أحمد كان من أهل الزهد والتنسك، فكان أبوه يلومه على إفراطه في الزهد، وكان يحضه على الأدب، حتى أصبح خليعاً وفر إلى إشبيلية، وفيها تزوج من عاهرة ترقص في الأفراح([3])، فلم يملك الوزير سوى الندم على كونه أباً لهذا الولد العاصي قائلاً له:

| | |
|---|---|
| يا سُخْنَـةَ العيـنِ يا بُنَيّا | ليتكَ ما كنتَ لي بُنَيَّـا |
| أبكيتَ عيني أطلتَ حزني | أمتَّ صيتي وكان حيّاً |
| حططتَ قدري وكان أعلى | في كلّ حالٍ من الثريا |
| أما كفـاكَ الزنا ارتكابـاً | وشربُ مشمولة الحُميا |
| حتى ضربتَ الدفوفَ جهراً | وقلتَ للشرّ جيء إليّـا |
| فاليومَ أبكيـكَ مـلء عيني | لو كانَ يُغني البكاءُ شيّاً |

فرد عليه ابنه بجحود فاق كل عقوق ملقياً باللوم عليه في تربيته، ويعيد السبب الذي أدى به للانحراف إلى أبيه قائلاً:

| | |
|---|---|
| يا لائم الصبّ في التَّصابي([4]) | ما عنكَ يُغني البكاءُ شيّاً |
| أَوْجَفْتَ خيلَ العتابِ نحوي | وقبـلُ وَثّبتَهـا إليّـا |
| وقلتَ عُمْرُ الهَنـا قصيـرٌ | فاربحْ من العيش ما تَهَيّا |
| قد كنتُ أرجو المتابَ مما | فُتِنتُ جهــلاً بـه وغيَّا |
| لولا ثـلاثٌ شيوخ سـوء | أنتَ وإبليسُ والحُميّـا([5]). |

وبناء على ذلك يمكن القول بوجود عادة تدليل الأبناء – على الأقل لدى علية القوم – وهي ما تُنتج تربية شاذة، تشجع الأبناء على الجنوح إلى الملاهي والمفاسد، وهي مخاطر لا يمكن علاجها إذا استفحلت لدى أهلها، لأنهم يكونوا قد أدمنوها، وكذلك فإن اتباع الأدب الأندلسي يؤدي للانحراف لما فيه من مجون، وتفصيل لقصص العاشقين والماجنين.

إن حياة الترف والمجون والدعة في نهاية عهد المرابطين لم تكن خاصة فقط بذوي السلطان والنفوذ أو المقربين منهم فحسب، حيث أن بعض الشعراء عاش هذه الحياة وهو بعيد عن أهل السلطة، ولذلك يشير إحسان عباس إلى أن حياة الشاعر الأندلسي المعروف ابن خفاجة

---

١ ) أبي بكر بن الملح: يشير المقري إلى أنه من جلساء المعتمد بن عباد (ت 488هـ=1095م)( نفح الطيب، ج4، ص263).

٢ ) المقري: نفح الطيب، ج4، ص148-149.

٣ ) ابن سعيد: المغرب، ج1، ص384.

٤ ) الصَّبْوَة: جَهْلَة اللَّهْوِ من الغَزَل ومنه التَّصابي (ابن منظور: لسان العرب، ج14، ص449).

٥ ) المقري: نفح الطيب، ج4، ص148-149.

(ت533هـ=1138م) قد انقسمت إلى مرحلتين، الأولى كانت حياة مجون ولهو وترف بالرغم من أنه كان بعيداً عن ذوي السلطان، والمرحلة الثانية مرحلة التوبة والنسك([1]).

وتعد المدة الأخيرة من عهد المرابطين بالأندلس مدة ركود في ميدان الجهاد، حيث انشغلوا عنه وتركوه ملتفتين إلى ترف الحياة الدنيا وشهواتها، ويعطي المراكشي صورة عامة عن أحوال الأندلس، ويبين فيها حالهم آنذاك، فيقول: "فأما أحوال جزيرة الأندلس فإنه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف (ت 537هـ=1142م)اختلت أحوالها اختلالا مفرطاً، أوجب ذلك تخاذل المرابطين وتواكلهم، وميلهم إلى الدعة، وإيثارهم الراحة، وطاعتهم النساء، فهانوا على أهل الجزيرة، وقلوا في أعينهم، واجترأ عليهم العدو، واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم"([2])، وهذا النص الواضح الصريح للمراكشي يؤكد بأن الترف كان هو السبب الرئيس لسقوط كثير من ثغور الأندلس في يد النصارى.

وبلغ الانحراف ببعض حكام الأندلس أن يعاشر مجموعة من النساء على فراشه في وقت واحد، وهو ما قيل عن محمد بن سعد بن مردنيش (ت567هـ= 1171م) حيث "كان عظيم الانهماك في ميدان البطالة، واتخذ جملة من الجواري ، فصار يراقد منهن جملة تحت لحاف واحد"([3]).

وكان للغش والمخادعة من أجل الحصول على المال مكانة في معاملات بعض الأندلسيين، وهو ما وردت به النوازل، ومن ذلك مثلاً أن يدفع الرجل بالعبد إلى رجل آخر ليبيعه لرجل ثالث، فيقوم الرجل الثاني ببيع العبد للرجل الثالث، بشرط ألا يحلف يميناً على هذا البيع، وبعد أن يتم البيع يكتشف المشتري بأن العبد فيه عيب([4]).

وقد برز هذا الأمر زمن الموحدين بهدف كسب المال، وخصوصاً للمشترين القادمين من خارج المدينة، فإن النخاسين كانوا يبيعون نوعاً من العبيد والجواري على أنه نوع آخر، كما ويضاف لذلك قيامهم بعمليات تجميل على الشكل الخارجي للجواري بحيث تبدو في أبهى صورة وأجمل هيئة، وما يلبث المشتري إلا قليلاً حتى يكتشف أنه تعرض لعملية غش أذهبت ماله، فيندب هذا المشتري على ما خسر من المال في بضاعة تالفة([5]).

---

١ ) عباس: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، ص206.

٢ ) المراكشي: المعجب، ص208.

٣ ) ابن الخطيب: الإحاطة، ج2، ص123.

٤ ) م.ن: ص153.

٥ ) السقطي: في آداب الحسبة، ص49-56.

كما عرفت الأندلس في هذا العهد ظاهرة التنافس على عشق بعض النساء، فأحمد بن عبد الملك بن سعيد (ت 559هـ=1164م)([١]) كان مغرماً بالشاعرة حفصة بنت الحاج الركوني (ت580 أو 581هـ=1184 أو 1185م) واشتد بها هيامه، وكانت بينهما منادمات ومغازلات، وكان قد تنافس على حب هذه الشاعرة كل من أحمد بن عبد الملك ووالي غرناطة أبي سعيد([٢]).

ولقد نظم الشعراء والكتاب من الأشعار ما يشرحون من خلاله حالة الفساد والتردي التي وصل إليها المجتمع الأندلسي، حتى بلغ الأمر بالقضاة إلى التهاون في أحكام الإسلام، وعدم تطبيقها، بل تجاوز الأمر هذا الحد إلى أن وصل إلى حد الإباحة لأفحش الأفعال، وقد صاغ الكاتب أبو بكر عبد الرحمن بن مغاور (587هـ=1191م)([٣]) أبياتاً تصور هذه الحال بقوله:

الحمـد لله بلغْنَـا المُنَـى ... لا حدَّ في الخمرِ ولا في الغِنَا

قد حلّلَ القاضي لنا ذا وذا ... وإن شكـرناهُ أحـلَّ الزنـا([٤])

وعرف من أهل الخلاعة والمجون في الأندلس الوزير الكاتب أبو جعفر أحمد بن طلحة([٥]) من جزيرة شقر([٦])، وكان كاتباً لولاة بني عبد المؤمن، ثم كتب لابن هود، وكان أبو جعفر بن طلحة ممن يستهتر بحرمات الله، ولا يقيم حدود الله ولا يلتزم بالفرائض، كثير الطيش شديد التهور، فقد ضبط في نهار رمضان مفطراً، وهو بمدينة سبتة، وكان واليها أبو العباس الينشتي([٧]) وهو يقول:

يقولُ أخو الفضولِ وقـد رآنـا ... على الإيمانِ يَغْلبنا المجونُ

أتَنْتَهِكـون شهـرَ الصـومِ هلَّا ... حماهُ منكـمُ عقلٌ وديـنُ

فقلتُ اصْحَبْ سوانا نحـن قوم ... زنادقـةٌ مذاهبنـا فنـونُ

---

١) هو أحمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن خلف ، ويصل نسبه إلى عمار بن ياسر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان طالباً للعلم، له حظ في الشعر والأدب ( ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص214-215).

٢) ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص215، 217.

٣) هو عبد الرحمن بن محمد بن مغاور بن حكم بن مغاور السلمي من أهل شاطبة ، روى الحديث عن جلة من العلماء، وكان أديباً بارعاً، وله كتاب من أشعاره يسمى نور الكمايم وسجع الحمايم ( ابن الأبار: المعجم في أصحاب القاضي الصدفي، ص243).

٤) ابن سعيد: المغرب، ج2، ص386.

٥) لم أجد له ترجمة سوى ما ذكره المقري ج3، ص307-310.

٦) جزيرة بالأندلس، قريبة من شاطبة و بلنسية ( الحميري: الروض المعطار، ص349).

٧) ينسب إلى حصن ينشته القريب من منطقة جنجالة، وهو صاحب سبتة، بدأ حكمه لها عام (630هـ=1233م) ، ولقب نفسه بالموفق(ينظر الحميري: الروض المعطار، ص622).

ندينُ بكلِّ دينٍ غيرِ دينِ الرعاع[١] فمــا بـه أبداً نـديـــنُ
بحيَّ على الصَّبوح[٢] الدَّهرَ نَدعو وإبليسٌ يقـولُ لنا أمـيـنُ
فيــا شهــرَ الصيــامِ إليك عنَّــا إليك ففيك أكفر ما نكونُ

فأرسل الينشتي إليه من يقتله عام (631هـ=1234م)[٣].

إن وفرة النعيم الذي تمتعت به شرائح كثيرة من الأندلسيين وانسياقهم خلفه أدى بكثير منهم إلى الانحراف عن الجادة كما هو واضح من خلال الصفحات السابقة.

---

١ ) الرَّعَاعُ: بالفتح السّفلةُ من الناس، وهي جمع "رَعَاعَةٌ"، ويقال هم أخلاط الناس ( الفيومي: المصباح المنير، ج1، ص230).

٢ ) الصَّبُوح ما أُكِلَ وشُرِبَ وحُلِبَ صَباحاً (ابن سيده: المخصص، ج2، ص390).

٣ ) نفح الطيب، ج3، ص307-310.

## المبحث الخامس

## الصراع الداخلي والتساهل في سفك الدماء

تعد السلطة والنفوذ داخل الدولة جزءاً مهماً من حياة الترف التي يحياها رجال الحكم والسلطة، وكان هؤلاء يلجأون في كثير من الأحيان إلى وسائل عنيفة، تصل إلى زهق الأرواح في سبيل حماية مناصبهم، أو إلى شن الحملات العسكرية، أو إقامة الحروب الطاحنة من أجل الحفاظ على حياة الترف، التي كانت ترافق الحكام في دولتهم، ولعل السمة المشتركة التي غلبت على الأندلس طيلة المدة قيد الدراسة، هي كثرة الصراعات وتشابكها، وهو ما سأوضحه من خلال هذا المبحث.

بدأ الصراع على السلطة في الأندلس بعد مدة يسيرة من استقرار المسلمين فيها، وتأججت الصراعات بين العرب والبربر، وخصوصاً بعدما انتقضت أفريقية على والي الدولة الأموية([1])، ففي عهد الولاة ( 91-138هـ=711-756م) وقعت الكثير من الأحداث التي أزهقت فيها الأرواح، ويبدو أن بداية الصراعات التي عرفتها الأندلس تمثلت في انتقال القبائل العربية إليها، فانتقلت معهم عصبياتهم وتقاليدهم القبلية وخصوماتهم الحزبية( [2])، ولذلك أخذت الفتن تعصف بالأندلس في هذا العصر([3])، وكان مما تميز به هذا العصر نشوب الخلافات على السلطة، بين العرب والبربر وتجدد الخلافات بين عرب الحجاز وعرب اليمن([4]).

وتعود جذور هذه الصراعات إلى مدة تولي هشام بن عبد الملك الخلافة، والذي أمّر على إفريقية عبيد الله بن الحبحاب، حيث كان مسئولاً عن تعيين ولاة الأندلس، فعين عليها عقبة بن الحجاج السلولي([5]) عام (110هـ=728م)، وبقي والياً عليها إلى أن ثارت البربر بطنجة([6]) بسبب سوء سيرة واليها عمر بن عبد الله المرادي، وتعديه في الصدقات والعشر، وعزمه على تخميس أرض البربر، على عكس فعل الولاة الذين كانوا يخمسون من لم يُجب الإسلام( [7])،

---

١ ) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج4، ص242.

٢ ) زبيب: الموسوعة العامة، ج2، ص74.

٣ ) سويدان: الأندلس التاريخ المصور، ص73.

٤ ) أسعد حومد: محنة العرب في الأندلس، ص 65، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 2، 1988م.

٥ ) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص51.

٦ ) ابن القوطية:، تاريخ افتتاح الأندلس، ص39.

٧ ) ابن عذاري: البيان المغرب، ج1، ص51-52.

فأحس البربر "بأنهم طعمة للعرب"([1])، وعندما علم الأندلسيون بثورة البربر بطنجة ثاروا على واليهم عقبة بن الحجاج([2])، وخلعوه، وتولى الإمارة زعيمهم عبد الملك بن قطن الفهري([3])([4])، الفهري([3])([4])، وقد ذكر ابن عذاري بأن هذه المرحلة من الاضطرابات بدأت منذ عام (122هـ=740م)([5])، وتوصف بأنها مدة الصراع بين الأحزاب والعشائر، وكان الزعماء الذين الذين يطمعون في الاستيلاء على السلطة هم من يذكي نار الصراع، وهم من يتآمر على الولاة([6])، وهذا يشير إلى أن العامل المتحكم في تصرفات دعاة الفتنة من العرب والبربر كان الرغبة في السلطة والعصبية القبلية، وليست روح الإسلام، فالصراع كان على السلطة والحكم في هذه المنازعات، مما يشير بأن السعي كان وراء الحياة المترفة وليس غير ذلك، مع مراعاة أن الفئة المترفة المنتفعة من هذا الصراع، هي فئة محدودة في هذا الوقت من تاريخ الأندلس.

ويرجع السبب في حياة الفوضى والصراعات التي عاشتها الأندلس في عهد الولاة إلى تلك الأزمات التي عاشتها الدولة الأموية في المشرق، والتي كانت المغرب إحدى ولاياتها، وليس أدل على ذلك من اتفاق جند الأندلس فيما بينهم على اقتسام الإمارة بين المضرية واليمنية بالتداول، سنة بعد الأخرى لكلا الطرفين([7])، ولكن لم يتم الالتزام بهذ الاتفاق، فقد استبد المضرية بحكم الأندلس بقيادة يوسف بن عبد الرحمن الفهري سنة (129هـ=747م)، وتنكبوا لوعودهم لليمنية بإعطائهم الولاية عقب انتهاء السنة، وبقيت اليمنية تُضمر تلك الخديعة للمُضرية، إلى أن قدم عبد الرحمن الداخل([8]).

ومع تسلم الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل لزمام السلطة في الأندلس عام (138هـ=755م) فإن الصراعات لم تتوقف، حيث أن الداخل نفسه استمال كثيراً من أهل

---

١ ) الناصري: الاستقصا، ج1، ص162.

٢ ) ولاه عبيد الله بن الحجاب على الأندلس، فأقام خمس سنين محمود السيرة، مجاهداً، مظفراً، حتى بلغ سكنى المسلمين أربونة ، وصار رباطهم على نهر رودنة ، ثم قام عليه عبد الملك بن قطن الفهري سنة (121هـ=738م)، وقتله ( المقري: نفح الطيب، ج1، ص236).

٣ ) هو عبد الملك بن قطن بن عصمة بن أنيس الفهري، أمير الأندلس، وليها سنة ( 115هـ=733م) بعد عبد الرحمن العكي، من قبل أمير أفريقية، وقتل في الأندلس عام ( 125هـ=743م) ( الضبي: بغية الملتمس، ج2، ص496-497).

٤ ) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص39،.

٥ ) البيان المغرب، ج1، ص51-52.

٦ ) فكري: قرطبة، ص16.

٧ ) إن مجرد اتفاق الطرفين العربيين على ذلك، دليل واضح على تجاهل والي أفريقية، والذي كان هو المسئول عن تعيين الولاة في الأندلس.

٨ ) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص154.

الأندلس؛ حتى تغلب على واليها يوسف الفهري([1])، وقتله، وبعدها تملك الأندلس، وسكن قرطبة واتخذها عاصمة له([2])، ولا يشير فرار عبد الرحمن الداخل من المشرق للأندلس إلى رغبة في الفرار من الموت على يد العباسيين فقط، بل إن قدومه للأندلس كان يوحي برغبة جامحة في السيطرة على السلطة، وإقامة ملك أجداده المسلوب في المشرق، وقد أشار ابن خلدون إلى ما يوحي بذلك بقوله: " وكان قومه يتحينون له ملكاً بالمغرب ويرون فيه علامات لذلك ...فكان يحدث نفسه بذلك فخلص الى المغرب"([3]).

ويبدو أن رغبة البعض في البحث عن الغنى والأموال طمعاً في حياة مترفة كان سبباً في سفك كثير من الدماء، فقد أوقع الحكم بن هشام ( 180-206هـ=796-822هـ) بأهل طليطلة عام ( 191هـ=806م) لأنهم طمعوا في الأمراء، وخلعوهم مرة إثر مرة؛ لما كان للطليطليين من غنى في أموالهم([4])، وحصانة في بلدهم([5])، وسبَّب هذا النزاع فتنة أدت إلى مقتل مقتل ما يزيد على خمسة آلاف من أهل طليطلة، وهي التي عرفت بوقعة الحفرة([6])([7])، ولم تكن تكن هذه الثورة هي الأولى للطليطليين، فقد ثارت نفس المدينة على هشام( [8]) والد الحكم من قبل([9])، ومن الواضح أن أهل طليطلة كانوا منعمين ومترفين، إذ كانوا من أهل الغنى والسعة في في الملك فرغبوا في عدم تقييد حريتهم من قبل الولاة، وهو ما جعلهم يخلعوهم واحداً إثر

---

١ ) هو يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري ، كان أبوه عبد الرحمن أحد زعماء العرب بالأندلس ، توجه يوسف إلى الأندلس، أيام بشر بن صفوان الكلبي، فهو ى الأندلس واستوطنها، فساد بها ثم تأمر فيها، وكان شريفاً جليلاً، حازماً عاقلاً. اجتمع عليه أهل الأندلس من أجل أنه قرشي، بعد موت أميرهم ثوابة بن سلامة، وكان آخر الأمراء بالأندلس، وعنه انتقل سلطانها إلى بني أمية، واغتاله مملوكان له، وقتلاه عام (142هـ=759م) ( ابن الخطيب: الإحاطة، ج4، 339-340).

٢ ) ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، البداية والنهاية، بيروت، مكتبة المعارف، د.ت.ط، ج10، ص74.

٣ ) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص155.

٤ ) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص344؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج23، ص214.

٥ ) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 5، ص344؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج23، ص214؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج4، ص162.

٦ ) لمعرفة المزيد عن وقعة الحفرة ينظر الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج 5، ص344-345؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج23، ص214-215؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج4، ص162.

٧ ) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج5، ص344؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج23، ص214.

٨ ) تجدر الإشارة إلى أن صفات الأمير هشام بن عبد الرحمن (ت 180هـ=796م) تختلف عن صفات ولده الحكم فقد كان هشام من أهل الخير والصلاح، إذ كان كثير الغزو والجهاد (ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج4، ص160).

٩ ) الحايك: عبد الرحمن الأوسط، ص15.

واحد، خوفاً من زوال الحياة المترفة التي كانوا يحيونها، ففضلوا السعي بالفتنة على أن يفقدوا حياتهم المترفة.

ومن جهة أخرى فيبدو أن حياة الترف التي عاشها الأمير الحكم نفسه، كانت سبباً في تمسكه بالحكم، فيشير الحميدي إلى أن الحكم كان طاغياً مسرفاً( [١] )، لدرجة أنه استمرأ عمليات القتل الجماعي لأكثر من مرة، فلخشيته على ملكه وحكمه نفذ مذبحة الربض( [٢] ) المعروفة، وفيها وفيها تجرأ على قتل الفقهاء والخيار من الناس( [٣] )، في شهر رمضان من عام (202هـ=818م)( [٤] )، وهدم المساجد، علاوة على البيوت( [٥] )، إضافة لقتل ثلاثمائة أسير من أهل الربض، تم صلبهم على النهر( [٦] )، كما قام الحكم بتتبع المستخفين من أهل الربض مدة "ثلاثة أيام لم تقل لمن عثر عليه منهم عثرة، وجرت عليهم خلالها محن لا تضبطها الصفة "( [٧] )، وعلى إثر هذه الحادثة أصبح الحكم يعرف بالربضي( [٨] )، ولعل هذه الحادثة هي التي دفعت حسين مؤنس إلى الإشارة إلى أن الحكم الربضي قضى معظم مدة حكمه في القضاء على الثورات والمؤامرات التي قامت ضده، وأشار إلى أن بعض هذه الثورات كانت من أقرب الناس

---

١ ) الحميدي: جذوة المقتبس، ص16.

٢ ) وقعة الربض: سبب هذه المذبحة يعود لمماطلة أحد مماليك الحكم في دفع أجرة صيقل على معالجة سيفه، فقام الصيقل بقتل المملوك، وعلى إثر هذه الحادثة ثار الناس وكأنهم كانوا ينتظرون هذه الحادثة، وهتفوا بخلع الحكم، وكان أول من أشهر السلاح أهل الربض القبلي، ثم ثار أهل المدينة والأرباض، فانضم بنو أمية للحكم في قصره، فقام الحكم بارتقاء السطح، وأثار جنده، الذين تمكنوا من ضبط الأمور، فأفشوا القتل في السكان، وقتل الحكم عقب ذلك ثلاثمائة أسير، ثم أمر الحكم بهدم الربض القبلي، حتى صار مزرعة، لم تعمر بالبناء طيلة حكم بني أمية، واستباح الحكم دور الثائرين بالهدم والحرق، ولم يوقف ذلك إلا بعد مرور ثلاثة أيام على استباحة دورهم وأموالهم وأرواحهم مقابل خروجهم من قرطبة (ابن سعيد: المغرب، ج1، ص42)؛ وقد أشار ابن خلدون إلى أن الحكم كان في صدر ولايته مترفاً، قد انهمك في لذاته، فلجتمع أهل العلم والورع بقرطبة مثل يحيى بن يحيى الليثى ، وطالوت الفقيه ، وغيرهما فثاروا عليه، وخلعوه، وبايعوا محمداً بن القاسم من عمومة هشام ، وكان بالربض الغربي من قرطبة محلة متصلة بقصره ، وحاصروه، فقاتلهم وغلبهم، وافترقوا، فقام بهدم دورهم ومساجدهم ( ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج4، ص161)

٣ ) ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان ط3- 1424 هـ - 2003 م، ج1، ص95.

٤ ) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج1، ص44.

٥ ) المراكشي: المعجب، ص19.

٦ ) ابن سعيد، المغرب، ج1، ص42.

٧ ) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج1، ص44.

٨ ) المراكشي: المعجب، ص20.

إليه، فكان من منافسيه اثنان من أعمامه وهم سليمان قتل (185هـ=801م)، وعبد الله المعروف بالبلنسي (ت208هـ=823م)، غير أنه انتصر عليهما، وتمكن من إخضاعهما لسلطته([١]).

وكان كرسي الحكم لدى الأمراء الأمويين بمثابة خط أحمر، لا يقبلون من أحد تجاوزه، حتى وإن كان من أبنائهم، وتعامل بنو أمية مع هذه المسألة في غاية القسوة؛ وربما الوحشية في أحيان أخرى، ومن أجل ذلك قام عبد الرحمن الناصر بقتل ولده عبد الله، عندما أراد أن ينافسه في الحكم([٢])، فقد علم بأنه أخذ البيعة لنفسه من أغلب أهل قرطبة، وكانوا بايعوه لفضله ودينه، وإنكاراً لجور أبيه وإقدامه على سفك الدماء، فأمر الناصر بحبسه أياماً([٣])، وقيل أزيد من سنة([٤])، وقام بقتل كل من آزره على ذلك، وفي يوم عيد الأضحى([٥]) أمر بابنه، فأخرج إلى المصلى([٦])، ثم صرع وذبح بين يديه([٧])، بما عرف عن الناصر من جرأة على الدماء([٨]).

وقد عُدّت ولاية الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر في الأندلس عام (300هـ=912م) من طرائف وغرائب الحكم في الأندلس، لأنه كان شاباً([٩]) صغيراً لم يتجاوز الثالثة والعشرين وليس له حنكة([١٠])، بالرغم من وجود أعمامه وأعمام أبيه الذين لم يختلفوا عليه([١١])، ولم ينازعه في ذلك منهم منازع([١٢])، وفي ذلك إيماء إلى عادة كانت موجودة في الأندلس عند خلفاء الأمراء الأمويين، ألا وهي وقوع الصراعات بعد وفاة الأمير، بهدف السيطرة على الحكم، وذلك في حال تعدد ورثته.

وفي المدة التي بدأ الضعف يدب فيها في جسم الدولة الأموية في الأندلس، تعرض هذا الحكم للتربص من قبل الوزراء الذين كانوا يتحينون اللحظة المناسبة للانقضاض على

---

١ ) مؤنس، حسين: شيوخ العصر في الأندلس، القاهرة، دار الرشاد، ط2، 1417هـ=1997م، ص23.

٢ ) ذكر ابن الأبار سبباً آخر في الحلة السيراء لقتله ألا وهو منافسة عبد الله هذا لأخيه الحكم ( ابن الأبار: الحلة السيراء، ج1، ص206) الشاهد في الحادثة أن الناصر قتل ولده بسبب المنافسة على الحكم.

٣ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص161-162.

٤ ) ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة،ج2، ص232.

٥ ) ذكر ابن الأبار أن قتل عبد الله كان ثاني يوم أو ثالث يوم لعيد الأضحى سنة (339هـ=950م) (ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج2، ص232).

٦ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص161-162.

٧ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص161-162؛ ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة،ج2، ص232.

٨ ) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص39.

٩ ) ابن الأثير: الكامل، ج:6 ص:476.

١٠ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص160.

١١ ) ابن الأثير: الكامل، ج6، ص476؛ مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص160.

١٢ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص160.

السلطة(١)، وقد ساعدهم على ذلك بعض نساء الأمويين، وخير مثال على ذلك مساعدة صبح(٢) صبح(٢) أم الخليفة هشام للمنصور ابن أبي عامر، إذ هي التي أظهرته(٣)، بعد أن أمدته بالأموال(٤).

ولأن السلطة مغرية وتميل إليها النفوس لما فيها من فخامة وترف، فإن الوزير ابن أبي عامر استبد بالحكم أثناء عمله حاجباً(٥) للخليفة هشام المؤيد(٦)(٧)، وأصبح هو الخليفة فعلياً ولو ولو لم يكن يحمل لقب الخلافة(٨) لمدة خمس وعشرين سنة حتى توفي(٩)، ويؤكد ذلك قيامه سنة سنة (386هـ=996م) بنقل بيوت الأموال من قرطبة إلى الزاهرة، فلما عرف هشام المؤيد بذلك تأوه متحسراً على عدم مقدرته على السيطرة على ممتلكاته وأنشد يقول:

أليسَ منَ العجائبِ أنّ مثلي … يرى ما قلَّ ممتنعاً عليه
وتؤكلُ باسمهِ الدنيا جميعاً … وما من ذاكَ شيءٌ في يديهِ
إليه تُجمعُ الأموال طراً … ويُمنع بعضُ ما يُجبى إليه(١٠)

---

١ ) زبيب: الموسوعة العامة، ج2، ص209.

٢ ) كانت جارية للحكم المستنصر، وهي أم هشام المؤيد، وكانت تعرف ابن أبي عامر، حيث أنها كانت قد تربّت عند صهره، ومن هنا بدأت علاقتها مع المنصور ابن أبي عامر ( الصفدي: الوافي بالوفيات، ج27، ص204).

٣ ) ابن سعيد: المغرب، ج1، ص195.

٤ ) الحميدي: جذوة المقتبس، ص70.

٥ ) يشير الدكتور حسين مؤنس إلى أن المنصور اهتم ببناء المنشآت ووسع النفقة عليها؛ لأنه كان يخطط ويسعى للوصول إلى السلطان الأعلى، ولأنه أراد أن تكون سلطته هي السلطة العليا، ولم يكن إنفاقه للمال وظهوره بمظهر المؤمن الحق إلا من أجل تنفيذ مخططاته (مؤنس، حسين: موسوعة تاريخ الأندلس تاريخ وفكر وحضارة وتراث، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، 1416هـ-1996م، ج 1، ص 363-364).

٦ ) هو أبو الوليد هشام بن الحكم المستنصر، وكان عند توليه الحكم صغيراً لم يتجاوز العاشرة، ولذلك فقد تولى جميع أموره المنصور بن أبي عامر (ينظر جذوة المقتبس، للحميدي، ص21)

٧ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص175.

٨ ) الحجي، عبد الرحمن علي: التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، القاهرة، دار الاعتصام، ط1، 1403هـ، 1983م، ص306.

٩ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص175.

١٠ ) م.ن: ص184.

وجاء من بعده ابنه عبد الملك المظفر (ت 399هـ=1009م)، والذي استبد أيضاً بهشام، وحجبه ستة أعوام، ثم جاء بعد عبد الملك للحجابة أخوه الناصر، وحجب هشام مدة أربعة أشهر([1]).

ولما مات المظفر بن المنصور بن أبي عامر في إحدى غزواته؛ تولى الحجابة من بعده أخوه عبد الرحمن([2]) الملقب بالناصر عام ( 399هـ=1009م)، وبعد أربعة أشهر ونصف من حجابته قتله محمد بن هشام بن عبد الجبار([3])([4])، ويعود السبب في ذلك إلى أن عبد الرحمن هذا هذا طمع في الخلافة نفسها، وعمل على إجبار هشام بأن يعهد له بالخلافة، فثارت لذلك ثائرة بني أمية بالأندلس، وقتلوا عبد الرحمن، وكان ذلك سبباً في زوال دولة العامريين([5])، ويبدو أن الأجواء في الأندلس ساعدت الأمويين على الإطاحة بالنظام العامري، فقد وصف محمد عنان ممارسات المنصور بن أبي عامر وابنيه من بعده في الحكم، بالطغيان العامري، حتى أن المجتمع الأندلسي كان يتوق لتلك اللحظة التي يتخلص فيها من مغتصبي السلطة الشرعية، ألا وهم العامريون([6])، وكان زوال الدولة العامرية في مطلع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي إيذاناً بانقسام بلاد الأندلس إلى مجموعة دويلات متفرقة([7])، فغلب على كل دولة من هذه الدول رئيس([8])، حتى بلغت الدول الإسلامية في الأندلس عدداً مهولاً، وصل إلى اثنتين

---

١ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص175.

٢ ) عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر: يعرف في التاريخ بلقب شنجول ( المقري نفح الطيب، ج 1، ص589).

٣ ) محمد بن هشام بن عبد الجبار: هو أبو الوليد المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، وهو الخليفة الحادي عشر من بني أمية بالأندلس استولى على الأمر في جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، وكان أبوه قد قتل على يد المظفر بن المنصور لأنه طلب الخلافة لنفسه بدلاً من هشام المؤيد، وظل الأمر كامناً في نفس محمد بن هشام إلى أن مات المظفر بن المنصور وتولى الحجابة بعده أخوه عبد الرحمن، فتطلع محمد بن هشام للخلافة ونالها ( النويري: نهاية الأرب، ج23، ص240).

٤ ) مجهول: ذكر بلاد الأندلس، ص195.

٥ ) ابن خلدون: المقدمة، ص187.

٦ ) عنان: دولة الإسلام في الأندلس (الخلافة الأموية والدولة العامرية)، ق1، ص622.

٧ ) ابن بسام، الذخيرة: ج3، ص11-12.

٨ ) القضاعي، أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر: تاريخ القضاعي "عيون المعارف وفنون الخلائف"، تحقيق جميل عبد الله المصري، السعودية، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1415هـ، ص389؛ ابن بسام، الذخيرة: ج3، ص11-12.

وعشرين إمارة([١])، ويذكر مونتغمري وات أن عدد الدول بلغ ما يقرب الثلاثين دولة، وأن بعضها لم يحافظ طويلاً على أي قدر من الحرية([٢]).

لقد أصبحت الأندلس بعد حكم العامريين موزعة إلى إمارات متنازعة، بعد أن كانت تحت لواء واحد([٣])، فضعف بها المُسلِمُون، وسُلب كثير من ديارهم ، بسبب هذا التنافس([٤])، وربما تكون نظرة البعض صادقة، إذ تقول بأن خروج العرب من الأندلس بدأ يوم أخذ العرب يتنازعون فيما بينهم منذ العام (400هـ=1010م)، وأصبحوا دولاً متناحرة وطوائف متفرقة([٥]). متفرقة([٥]).

وبالعودة إلى الحكم الأموي فقد سيطر على الحكم بعد مقتل عبد الرحمن بن المنصور العامري الأمير محمد([٦])، وهو من نسل الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر ولقب نفسه بالمهدي فقام عليه سليمان بن الحكم([٧])، وحاصره، ولما تمكن منه قتله، واستولى على الخلافة عام (403هـ=1012م)، وتلقب بالمستعين([٨]).

ولم تستقر الأمور لسليمان عقب، ذلك فقد قام عليه علي بن حمود، وقاتله حتى قبض عليه هو وولده وقتلهما، وتلقب بالناصر لدين الله، واستمر والياً([٩]) إلى أن قتله صقالبة له في الحمام عام (408هـ=1018م)، وتولى من بعده أخوه القاسم بن حمود الملقب بالمأمون([١٠])، غير أن يحيى بن علي بن حمود –ابن أخيه-، ثار عليه، وزحف إليه من مالقة، وتملك قرطبة، ولكن عمه القاسم استعان بالبربر، وتمكن من استعادة قرطبة سنة (413هـ=1022م)، بعد أن

---

١) سويدان: الأندلس، ص243.

٢) وات، مونتغمري: في تاريخ إسبانيا، ترجمة محمد رضا المصري، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط2، 1998، ص102.

٣) التازي، عبد الهادي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، المغرب، مطابع فضالة، 1407هـ=1987م، مج5، ص41.

٤) الصلابي: دولة المرابطين: ص120.

٥) الذنون: آفاق غرناطة، ص11.

٦) ذكر اسمه القضاعي بمحمد بن عبد الجبار بن عبد الرحمن، غير أن المحقق في الحاشية ذكره باسم محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن (القضاعي: تاريخ القضاعي، ص 389)، والمحقق يتفق في ذلك مع صاحب كتاب مآثر الإنافة أحمد بن عبد الله القلقشندي (ج1، ص333).

٧) هو سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين، والظافر، استعان بالبربر للسيطرة على السلطة، ولكنه قتل على يد رجاله الذين كانوا ساندوه من قبل عام (407هـ=1016م) ( الحميدي: جذوة المقتبس، ص23).

٨) القضاعي: تاريخ القضاعي، ص389.

٩) م.ن: ص390.

١٠) الحميدي، جذوة المقتبس، ص25.

فر يحيى منها إلى مالقة( ١)، ثم تبع هذه الحقبة عدد من حوادث الهرج والمرج، فقتل بعض الخلفاء في قرطبة، وخلع بعضهم، فبعد فرار يحيى بن علي عام (414هـ=1023م) خلفه رجل من بني أمية يدعى عبد الرحمن بن هشام( ٢)، والذي قتل في الفتنة، فخلفه آخر ويدعى محمد بن عبد الرحمن( ٣)، ولكنه خلع ففر من قرطبة، ليعود يحيى بن علي للحُكم، والذي قطعت الدعوة له سنة ( 417هـ=1026م)، وما كان من الوزير آنذاك أبو الحزم جهور (ت435هـ=1043م)(٤) إلا أن استقدم واحداً من نسل بني أمية هو هشام بن محمد( ٥)، وبويع بالخلافة عام ( 418هـ=1027م)، وفي عام ( 420هـ=1029م) قامت عليه فرقة من الجند وخلعته، ومن هذا اليوم انقطعت الدعوة الأموية واستولى على قرطبة جهور ( ٦)، وهكذا وجدت في الأندلس أوضاع يحكمها أمراء اتصف عدد منهم بصفات الأثرة والغدر، فهانت عليهم مصالح الأمة مقابل مصالحهم الذاتية وشهواتهم(٧).

ففي ظل بني جهور قامت صراعات بين ابني جهور، وهما عبد الرحمن، وعبد الملك وكانت هذه الصراعات تدور على أعين الناس، وكان سبب هذا الصراع رغبة والدهما في تقسيم مدة الإمارة بين ولديه لإرضاء ولده الصغير عبد الملك(٨).

---

١ ) الذهبي: سير، ج17، ص541.

٢ ) عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار: لقب بالمستظهر وقتل عام (414هـ=1024م)، أول أمراء بني أمية بعد انقطاع دعوتهم عقب مقتل المستعين عام(407هـ=1016م) ( المقري: نفح الطيب، ج1، ص301).

٣ ) هو أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر، تولى الخلافة وله من العمر اثنين وخمسين سنة وتلقب بالمستكفي بالله (ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص135).

٤ ) هو أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور ، قال فيه ابن العماد: " أمير قرطبة ورئيسها وصاحبها ساس البلد أحسن سياسة وكان من رجال الدهر حزما وعزما ودعاء ورأيا ولم يتسم بالملك وقال أنا أدبر الناس إلى أن يقوم لهم من يصلح فجعل ارتفاع الأموال بأيدي الاكابر وديعة وصير العوام جندا وأعطاهم أموالا مضاربة وقرر عليهم السلاح والعدة وكان يشهد الجنائز ويعوج المرضي وهو بزي الصالحين لم يتحول من داره الى دار السلطنة" ( ابن العماد: شذرات الذهب، ج3، ص255).

٥ ) هو المعتد أبو بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر ، أحد خلفاء بني أمية بالأندلس بويع له في أيام الفتنة سنة (418هـ=1027م) وتلقب بالمعتد، واستمرت خلافته ثلاثة أعوام ثم خلع (ابن ماكولا: الإكمال، ، ج7، ص217).

٦ ) الحميدي جذوة المقتبس، ص26-29.

٧ ) الحجي، التاريخ الأندلسي، ص325.

٨ ) ابن عذاري: البيان المغرب، ج3، ص255-256.

وقد اشتد الصراع في عهد الطوائف بين المدن الإسلامية، وطغت الفتنة في كل أنحاء الأندلس من الشرق إلى الغرب مروراً بالوسط، حتى كاد يجرف أمامه جميع الممالك الإسلامية في كل الجهات([١])، وذلك بالرغم من بعض الدعوات المخلصة التي حاولت جمع الأندلس تحت حكم واحد، والتي قادها بعض الدعاة من العلماء، وبعض الحكام كأبي الوليد الباجي( [٢] ) بعد عام (440هـــ=1048م) بتأييد من المتوكل بن الأفطس([٣])، وأبو الحزم جهور من قرطبة، وابن حزم حزم الأندلسي( 456هـــ=1064م)، والشاعر أبو إسحاق الألبيري ( 460هـــ=1067م)([٤]) والشاعر ابن العسال الطليطلي ( 487هـــ=1094م)([٥])، وغيرهم([٦])، ولعل عدم الاستجابة لمثل هذه النداءات تعد من الأدلة القاطعة على استغراق ملوك الطوائف بالأندلس في الترف، وتفضيلهم لهذه الحياة على أن يكونوا جنوداً يخدمون دولتهم في دولة واحدة متحدة، يستطيعون من خلالها مجابهة الأخطار الخارجية، التي كانت تتهدد المجتمع الإسلامي الأندلسي بأكمله.

وكان عهد ملوك الطوائف مليئاً بأحداث الصراعات والخلافات التي انتشرت بين ملوك الأندلس المسلمين، الذين انشغلوا عن العدو الحقيقي وهم النصارى بقتال بعضهم بعضاً، وهو ما دعا فقهاء الأندلس وعلماءها لأن يجتمعوا، واستقر رأيهم على الاستنجاد بيوسف بن تاشفين أمير المسلمين المرابطي في المغرب( [٧] )، ويبدو أن موقف العلماء قد وضع ابن عباد تحت ضغط الأمر الواقع، مما جعله يستجيب لذلك، واستقر رأي ابن عباد على إجابة الفقهاء لطلبهم بالاستنصار بيوسف بن تاشفين، ولكن ذلك قوبل برفض من ملوك الطوائف، فأخذوا يُخوّفون

---

١ ) دوزي: ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة كامل كيلاني، القاهرة، مطبعة عيسى الحلبي، ط1، 1351هـــ=1933م، ص170.

٢ ) هو سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي، الاندلسي، القرطبي، الباجي، الذهبي (ت474هـــ=1081م)، من علماء الأندلس، أصله من مدينة بطليوس ، ونسب إلى باجة بسبب رحيل جده إليها، وهو ليس من مدينة باجة الإفريقية ( الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج18، ص536).

٣ ) هو عمر بن المظفر بن الأفطس ملك بطليوس؛ من قبيلة مكناسة البربر ية ، ورث الملك ببطليوس من أبيه، وكان المتوكل ببطليوس كالمعتمد بإشبيلية، وانتهى أمره بوقوعه في يد المرابطين ( الكتبي: فوات الوفيات، ج3، ص155).

٤ ) هو أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبي الزاهد من أهل غرناطة يعرف بالإلبيري، وكان من أهل العلم والعمل، شاعراً مجيداً وشعره كله في الحكم والمواعظ والإزهاد ( ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج1، ص118-119).

٥ ) هو أبو محمد اليحصبي الطليطلي روى الحديث وكان فصيحا مفوها شاعرا مفلقا ( الصفدي: الوافي بالوفيات، ج17، ص216).

٦ ) الحجي، التاريخ الأندلسي، ينظر صفحة 238 وما بعدها.

٧ ) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص28.

المعتمد من عاقبة قدوم المرابطين للأندلس بقولهم له: "  الملك عقيم، والسيفان لا يجتمعان في غمد"([1]).

إن ما يفهم من هذا الموقف الغريب لملوك الطوائف إزاء تصرف المعتمد يعد دليلاً واضحاً على رضا هؤلاء الملوك بحياة الذل في ظل الترف؛ وهم يتسَمَّون بالملوك تحت سياط النصارى، وهو ما يفضلونه على قدوم ابن تاشفين، خشية من سيطرته على بلاد الأندلس، وضياع ما في أيديهم من ممتلكات؛ لم يعملوا على صونها والدفاع عنها.

ويبدو أن يوسف بن تاشفين كان مستاء جداً من حال الفرقة والنزاع التي كانت سائدة في الأندلس، ولذلك فإنه بعد فراغه من معركة الزلاقة عاد لإشبيلية، واجتمع بملوك الطوائف طالباً منهم الاتفاق والاجتماع ضد عدوهم وترك الفرقة والخلاف([2]).

وفي أواخر عهد المرابطين قام دعاة الفتنة والفرقة بغرب الأندلس، فاستفزوا عقول الجهلة واستمالوا قلوب العامة، وكان من جملتهم رجل يدعى أحمد بن قسي (ت560هـ=1165م)([3])([4])، وهو رومي الأصل من بادية شلب، وهو أول الثائرين على المرابطين بالأندلس([5])، وثورته تعد من أكبر الثورات ضدهم، والتي تميزت بتعددها وتعدد مراكزها، ولعل السبب في ثورتهم يعود إلى غضبهم من الحكم المرابطي الذي تميز بالغلظة والجفاء([6])، وهذا تأكيد على أن حياة التقشف لم تعجب الأندلسيين فهم أهل ترف ونعيم، ولذلك كان من الصعب على المرابطين أن يروضوا نفوس الأندلسيين على الحياة الخشنة، وبناءً على ذلك فضّل كثير منهم الثورة على المرابطين على أن يعيشوا تلك الحياة القاسية.

ومع دخول سنة ( 539هـ=1144م) كان ابن قسي مختفياً، وأوعز إلى أتباعه بإطاعة رجل يدعى ابن القابلة (ت 539ه=1144م)([7])، وكان ابن قسي يسميه المصطفى؛ لأنه كان من خاصته، غير أنه قتله فيما بعد، وأمر أتباعه بالغدر بحامية قلعة ميرتلة([8])، وبالفعل فقد قتلوا

---

١ ) الحميري: الروض المعطار، ص 288.

٢ ) نصر الله، سعد: دولة المرابطين في المغرب والأندل س في عهد يوسف بن تاشفين، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1405هـ، 1985م، ص97.

٣ ) هو أحمد بن قسي، مؤلف كتاب خلع النعلين، وهو من أهل الأندلس، وعمل بمبدأ الولاية طالباً البيعة لنفسه (ينظر الوافي بالوفيات، للصفدي،ج7، ص194-195).

٤ ) المراكشي: المعجب، ص:211.

٥ ) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج2، ص197.

٦ ) كحيلة، عبادة بن عبد الرحمن رضا: العقد الثمين في تاريخ المسلمين، الكويت، دار الكتاب الحديث، ط 1، 1417هـ=1996م، ص364.

٧ ) هو أبو بكر محمد بن يحيى الشلطيشي، يعرف بابن القابلة فقيه كاتب (ابن سعيد: المغرب، ج1، ص352)

٨ ) قلعة ميرتلة: إحدى القلاع المنيعة بغرب الأندلس ( ابن الأبار: الحلة السيراء، ، ج2، ص198).

قتلوا بواب القلعة، وأعلنوا من قلب القلعة الدعوة لابن قسي، الذي وصل القلعة إثر ذلك في جمع كبير من أتباعه، وأخذ في مخاطبة أعيان البلاد، فاستجاب له كثير من الناس، منهم أهل يابرة ثم أهل شلب، "واتسع على المرابطين خرق لم يرقعوه وهجم عليهم حادث طالما توقعوه"([١]).

وفي هذا العهد قامت ثورات للموحدين على المرابطين، وكانت بداية ثورتهم في بلاد المغرب، ولكنها سرعان ما انتقلت إلى الأندلس بشيء من السلاسة ودونما أدنى صعوبة([٢])، وقد وقد قاد ثورتهم في المغرب محمد بن تومرت (ت 508هـ=1114م)([٣])، فشجعت هذه الأحداث الزعماء في الأندلس على الانقلاب على أمراء المرابطين، مما كاد يعيد إلى الأذهان حقبة ملوك الطوائف التي سادت الأندلس بعد زوال دولة بني أمية، كما يوضح ذلك نص للمراكشي يقول فيه: "ولما رأى أعيان بلاد تلك الجزيرة ما ذكرناه من ضعف أحوال المرابطين ، أخرجوا من كان عندهم من الولاة، واستبد كل منهم بضبط بلده، وكادت الأندلس تعود إلى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بني أمية"([٤]).

وتعددت الثورات التي قامت ضد المرابطين في كثير من مدن الأندلس ومنها في الجنوب مدينة رندة([٥]) وشريش([٦]) وقادس([٧]) ومالقة والمرية، ولكن حوادث هذه الثورات غير غير متوفرة في المصادر، ولا تتعدى السطرين والثلاث([٨]).

وبالنسبة للموحدين فإنهم وفي بداية عهدهم بالأندلس واجهتم الصراعات، فخرج عليهم

---

١ ) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج2، ص198-199.

٢ ) ديورانت: قصة الحضارة عصر الأيمان، ج2، مج4، ص337.

٣ ) محمد بن تومرت: عُرف بمهدي الموحدين، وقد رحل للمشرق وتعلم من علمائه، وبعد عودته للمغرب دعا الناس إلى فكره وجزم بكفر مخالفيه، وسمى أتباعه بالموحدين ( الناصري: الاستقصا، ج1، ص196)؛ وعنه يقول ابن القيم: " رجل كذاب ظالم، ... قتل النفوس، وأباح حريم المسلمين، وسبى ذراريهم، وأخذ أموالهم، ...، وكان يودع بطن الأرض في القبور جماعة من أصحابه أحياء، يأمرهم أن يقولوا للناس إنه (المهدي) الذي بشر به النبي – صلى الله عليه وسلم – ،ثم يردم عليهم ليلاً لئلا يكذبوه بعد ذلك، وسمى أصحابه ... الموحدين، واستباح قتل من خالفهم من أهل العلم والإيمان، وتسمى بالمهدي المعصوم ( ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: المنار المنيف في الصحيح والضعيف، تحقيق يحيى بن عبد الله الثمالي، مكة المكرمة، دار عالم الفوائد، ط1، 1428هـ، ص153-154).

٤ ) المراكشي: المعجب، ص208.

٥ ) رُندة معقل حصين من أعمال تاكرنا وهي مدينة قديمة على نهر جار وتقع بين إشبيلة ومالقة (الحموي: معجم البلدان، ج3، ص73).

٦ ) شريش: من كور شذونة ، وهي على مقربة من البحر ( الحميري: الروض المعطار، ص340).

٧ ) قادس: جزيرة بالأندلس عند طالقة من مدن إشبيلية (م.ن: ص448).

٨ ) أبو رميلة، هشام: علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، عمان، دار الفرقان، ط1، 1404هـ=1984م، ص75.

رجل يدعى ابن همشك( ¹)، وتمكن من الاستيلاء على غرناطة، وحَصرَ الموحدين بقصبتها، ولكن الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي( 543-558هـ=1148-1163م) أرسل جيشاً له بقيادة أخيه أبي يعقوب فتمكن من هزيمة ابن همشك(²).

وعقب الهزيمة التي لحقت بالموحدين في موقعة العقاب( 609هـ=1212م)(³) ضعف شأن أمرائهم، وبدأ الصراع الداخلي يحتدم فيما بينهم( ⁴)، وليس ذلك حديثاً على دولة الموحدين، فإنهم ما إن مات خليفتهم الأول المهدي وكان له عشرة من خاصة الأصحاب؛ تطلع كل واحد منهم للخلافة بعده، وكانوا من ست قبائل، فأحبت كل قبيلة أن يكون الخليفة منها وليس من غيرها، "فتنافسوا في ذلك وتحاسدوا"(⁵).

وقد ظهر أكثر من تمرد مطلع القرن السابع/الثالث عشر الميلادي في بعض مناطق الأندلس لبعض الزعامات، ومنها ما كان في حصن الصخور الذي يقع على نهر مرسية، حيث دعا فيه محمد بن هود لنفسه، وكان ذلك عام ( 625هـ=1228م)، وفي الوقت نفسه قام أبو العلا إدريس المأمون في إشبيلية، وكان عازماً على التحرك نحو بر العدوة(⁶).

إن المتأمل في هذه الثورات والصراعات التي دارت بين أبناء المسلمين أنفسهم وبين إخوانهم من نفس الملة والدين؛ لا يملك لها تفسيراً سوى أنها كانت بدافع السيطرة على الحكم، والاستيلاء على المراكز العليا في الدولة، رغبة في زينة الحياة الدنيا وطمعاً في خيراتها، وليس ذلك إلا استماتة في الدفاع عن حياة الترف، إذ أن ما تم ذكره في هذا المبحث من الصراعات لا يعدو كونه إشارة فقط إلى حالة التردي والسقوط التي عاشتها الأندلس نتيجة الصراع على السلطة، ويبدو أن هذه الحالة دفعت بعض الحكام في الأندلس إلى الاستعانة بالنصارى والاحتماء بهم، وهو ما سيكون محور حديث المبحث التالي.

---

١ ) ابن همشك: إبراهيم بن أحمد بن مفرج، وكان جده يدعى همشك وتعني مقطوع الأذنين أما إبراهيم فكان فارساً، وقاسياً جباراً فظاً غليظاً، تقرب من ابن غانية بقرطبة، وتملك شقورة، وصاهر ابن مردنيش، وخدم الموحدين وتوفي قريباً من عام (571هـ=1175م) ( ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص263-264).

٢ ) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج6، ص319.

٣ ) العقاب: معركة وقعت بين جيوش الموحدين وبين النصارى، انهزم فيها الموحدون، فكانت سبباً في ضعف المسلمين في المغرب والأندلس، وتساقط الكثير من حصون المسلمين ( الناصري: الاستقصا، ج3، ص37).

٤ ) الطَّرَسوسي، نجم الدين إبراهيم بن علي الحنفي: تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك، تحقيق عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي، ط2، ص9،

٥ ) ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله: الأنيس المطرب بروض القرطاس، تحقيق دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972م، ص184.

٦ ) الحميري: الروض المعطار، ص355.

## المبحث السادس

## الاستعانة بالنصارى والاحتماء بهم

ليس غريباً في حالة أي نزاع أن يستعين المسلم بأخيه المسلم ليغيثه ويعينه على التخلص من الظلم الواقع عليه، ولكن الغريب أن يستعين المسلم بغير المسلمين من النصارى للاستظهار بهم على إخوانه، وهو ما وقع بشكل متكرر خلال معظم العصور الإسلامية في الأندلس، وسأذكر خلال هذا المبحث بعضاً من هذه الأحداث.

ولعل هذا الأمر لا ينطبق على مدة حكم الولاة، فقد عاش المسلمون في الأندلس خلال المراحل الأولى للفتح في مرحلة جهاد ضد النصارى الأسبان، وبالرغم من حدوث صراعات بين المسلمين أنفسهم في هذه المرحلة – كنت قد تطرقت لبعضها في المبحث السابق– إلا أني لم أجد فيما بين يديّ من مصادر ما يوحي بأنهم استعانوا بالنصارى، أو أنهم احتموا بهم في عهدي الإمارة والخلافة الأموية، وفي إشارة إلى ذلك يرى السامرائي بأن العصر الأموي كان عصر المسلمين بامتياز، حيث أن النصارى في الشمال الإسباني هم من استعان بالمسلمين للاستظهار بهم على بعضهم بعضاً، وهو يرجع السبب في ذلك إلى تضارب المصالح بين الإمارات النصرانية، والنزاع على السلطة بين أفراد الأسر الحاكمة، أو ثورات النبلاء ومحاولاتهم للاستقلال، فكان ذلك يدفع بعض هؤلاء الأمراء لطلب العون من الأمراء الأمويين في قرطبة([1])، ويؤكد ذلك ما أورده ابن عذاري في هذا السياق، حيث أشار إلى أن ملوك الروم احتكمت إلى الحاجب عبد الملك بن أبي عامر في عام ( 394هـ=1004م)([2])، هذا عوضاً عن أن بعضهم دفع الجزية عام ( 389هـ=999م) لوالده المنصور من قبل، فقد كان ملك الجلالقة برمند بن أردون يدفع الجزية للمنصور بن أبي عامر([3]).

كما احتكموا إلى المظفر بن المنصور (ت 399هـ=1009م)، فقد "انتهى المظفر عند ملوك الأعاجم في دولته إلى منزلة عظيمة، مثل منزلة والده المنصور، وأجلّوه محله في الإصغاء له، والتعظيم لجلاله، والهيبة من سخطه، والطلب لمرضاته، حتى صار أعاظمهم يحتكمون إليه فيما شجر بينهم، فيفصل الحكم فيهم، ويرضون بما قضاه ويقفون عنده"([4]).

---

١ ) السامرائي، خليل وآخران، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، الموصل، دار الكتاب الجديد، ط 1، 1986م، ص137.

٢ ) ابن عذاري: البيان المغرب: ج3، ص10.

٣ ) القلقشندي، أحمد بن علي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق يوسف علي الطويل، دمشق، دار الفكر، ط1، 1987م، ج5، ص256.

٤ ) ابن عذاري: البيان المغرب: ج3، ص10.

وبالرغم من أن هذه المدة كانت على مسافة زمنية قصيرة من سقوط الخلافة الأموية بالأندلس؛ إلا أنها كانت تتميز بسطوة شديدة للمسلمين أمام النصارى.

المهم أن ظاهرة الاستعانة بالنصارى أخذت في البروز شيئاً فشيئاً، خاصة في أواخر عصر الخلافة الأموية بالأندلس، فقد اتُّهم عبد الرحمن بن أبي عامر الملقب بشنجول (ت400هـ=1010م) بالتعاون مع النصارى، ويشير الصفدي إلى ذلك بقوله: " وخُطب بلعنة عبد الرحمن بن أبي عامر الملقب بشنشول ... سنة تسع وتسعين وثلاث مائة، وكان القاضي ابن ذكوان([١]) يحرض على قتاله ، ويقول هو كافر ، وكان قد استعان بعسكر من الفرنج "([٢])، ويبدو من الواضح أن السعي للبقاء في سدة الحكم كان بهدف التمسك بحياة الترف، ويمكن القول أن هذه الاستعانة بالنصارى أوجدت لهم موطئ قدم على أرض المدن الإسلامية، ولذلك فإني أعتقد بأن ضياع الأندلس وتساقط المدن الواحدة تلو الأخرى قد بدأ من هذه النقطة.

كما وقعت في أواخر العهد الأموي كذلك بعض أحداث الفتنة بين المستعين أبو الربيع سليمان بن الحكم، وبين ابن عمه المؤيد بالله هشام عام (400هـ=1010م)([٣])، وتغلب عليه، ثم سار إلى طليطلة، ثم إلى قرطبة، فبرز إليه المهدي محمد بن عبد الجبار([٤]) بجيشه، فحطمهم سليمان المستعين، فقام المهدي بإخراج المؤيد بالله هشام، وكان فيما مضى قد أخفاه وادعى موته، وأخذ القاضي ابن ذكوان يقول: هذا أمير المؤمنين والمهدي نائبه، فقال له الناس: يا ابن ذكوان بالأمس تصلي عليه، واليوم تحييه، ولذلك خرجت الرعية طالبة الأمان من سليمان المستعين، فأكرمهم لذلك، فيما قام المهدي بالاختفاء، ثم الفرار إلى طليطلة مستنجداً بالنصارى، ودفع إليهم بمبلغ عظيم من الذهب من بيت المال فجمعوا له جيشاً عظيماً، وتوجهوا إلى عقبة البقر([٥])، وهناك انهزم الجيش النصراني، وقتل ثلاثة آلاف منهم، وفي المعركة أُسر المهدي، وذبح، وقطعت أطرافه الأربعة عام (400هـ=1010م)([٦]).

---

١) هو أبو حفص عمر بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان الأموي: قرطبي، كان وزيراً لسليمان المستعين بالله (ت403هـ=1012م) (ابن عبد الملك: السفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة، ، ج2، ص447- 448).

٢) الصفدي: الوافي بالوفيات ج5، ص108.

٣) سبقت ترجمة كل من المستعين سليمان والمؤيد بالله هشام.

٤) ذكره الحميدي باسم محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر (جذوة المقتبس، ص 22)؛ وهو أبو أيوب ويلقب بالمهدي، وكان قد وُتر بقتل أبيه على يد عبد الملك بن المنصور (ابن الخطيب: أعمال الأعلام ، ، ص109).

٥) عقبة البقر: موضع بقرب قرطبة على نحو بضعة عشر ميلاً ( الحميدي: جذوة المقتبس ، ص22)، والميل عند الحنفية والمالكية يساوي 1855متراً، أما عند الشافعية والحنابلة فيساوي 3710 متراً (علي جمعة محمد: المكاييل والموازين الشرعية، ص97).

٦) الذهبي: سير، ج17، ص283-284؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج5، ص109.

أما عهد الطوائف فقد سادت الأندلس خلاله حالة من التردي والسقوط؛ دفعت ببعض حكام الأندلس إلى التهاوي أمام رغباتهم وشهواتهم تلبية لعيش مترف رغيد، فلم يجدوا في قبائح الأفعال التي ارتكبوها أي غضاضة، فما لبث بعضهم يخوف إخوانه بالنصارى، ويتهدده بهم حتى استقدم بعضهم النصارى استنصاراً بهم واستظهاراً على إخوانه من أهل ملته، ويبدو أن السبب في ذلك يعود إلى قيام علاقات تحتية في هذا العصر بين مسلمي الأندلس ونصارى الشمال، حتى أن بعض المسلمين المدجنين والوا النصارى سياسياً، والأكثر من ذلك فقد حارب بعض النصارى مع المسلمين كمرتزقة، ومن جانب آخر فإنه وجد من المسلمين من فعل الأمر نفسه مع النصارى، ويدل على ذلك ملحمة السيد( [١])، وقد تكرست الآثار السلبية لهذه الظاهرة إبان عهد المنصور بن أبي عامر الذي استعان بنصارى من ممالك الشمال([٢]).

ويبدو بأن ظاهرة الاستعانة بالنصارى أصبحت سنة متبعة في الأندلس، فلما تولى إقبال الدولة علي بن مجاهد العامري ( 436هــ=1044م)([٣]) الحكم في دانية بعد وفاة أبيه، صاهر المقتدر بن هود( [٤])، فأخرجه المقتدر من دانية سنة ( 468هــ=1076م)، ونقله إلى سرقسطة، فقام ابنه الملقب بسراج الدولة باللحاق بالنصارى، طالباً منهم المدد، فأمدوه بما أراد بناءً على شروط شرطها هو لهم([٥]).

وتشير الأحداث الواقعة في الأندلس في هذا العصر إلى أن سمة الاستعانة بالنصارى أصبحت تطبع معظم الحكام في المجتمع الأندلسي في هذا العصر، ولذلك لما تولى يحيى بن إسماعيل بن ذي النون الملقب بالقادر أمر طليطلة عام ( 467هــ=1075م)، تراجع أمام ضغط قوة الأذفونش، وتنازل له عنها فأخذها منه عام ( 478هــ=1085م)([٦])، وسقطت المدينة من يد المسلمين من دون إراقة دماء( [٧])، مقابل إعانة الأذفونش للقادر على تملك بلنسية( [٨])، "فكان ذلك

---

[١] ) ملحمة السيد: ملحمة قوية وموضوعها القتال بين المسلمين والنصارى، وهي تمجد بطولة السيد الإقطاعي، وتنفث روح العزة في الإسبان، ( ول ديورانت: قصة الحضارة ، عصر الإيمان، ج6، مج 4، ص253-254).

[٢] ) كحيلة، عبادة، القطوف الدواني، ص112.

[٣] ) ملك دانية مع أبيه مدة ستين سنة، وكان ك أبيه في الإقبال على العلماء إلا أن ذلك كان تطبعاً لا طبعاً ، وكانت همته في التجارة وجمع الأموال (ابن سعيد: المغرب، ج2، ص401-402).

[٤] ) هو المقتدر أحمد بن سليمان ، صاحب سرقسطة، وهو عميد بني هود ، وعظيمهم، ورئيسهم ( ابن سعيد: المغرب، ج2، ص436).

[٥] ) ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص211.

[٦] ) القلقشندي: صبح الأعشى، ج5، ص243.

[٧] ) كولان: الأندلس، ص132.

[٨] ) القلقشندي: صبح الأعشى، ج5، ص243.

ذلك أول وَهن دخل من الفرنج على المسلمين"[1]، إذ تعد طليطلة أولى المدن العظيمة التي تسقط في يد النصارى، وكان السبب في ذلك صراعه مع أحمد بن سليمان بن
هود(ت475هـ=1082م) صاحب سرقسطة، واللذان استعانا في صراعهما بملوك الأندلس النصارى[2].

وقد رثى بعض الشعراء هذه المدينة بشعرهم، مظهرين عدم ثقة الأمة بهؤلاء الحكام[3]، الحكام[3]، وفي ذلك قال عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال:

يا أهل أندلس حثوا مطيكم[4] … فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى … ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا … كيف الحياة مع الحيّاتِ في سفط[5][6].

لقد توالى تساقط المدن الإسلامية في يد النصارى من غير عناء يتكبدونه، وكانت بعض المدن تقدم لهم على أطباق من ذهب، فما فتحه المسلمون من المدن بالدماء ضاع هباءً أمام رغباتٍ وشهواتٍ لحكام ضعاف؛ لا همّ لهم سوى المتعة والنعيم، واتباع ألوان الترف المختلفة، فقد لجأ المتوكل الأفطس ( 460-487هـ=1067-1094م) إلى التنازل عن ثلاث مدن مهمة لأذفونش، في مقابل أن يقوم بإعانته على جيوش المرابطين، حتى أن أحد أبنائه لجأ إلى الليونيين وأقام عندهم وتنصر[7]، ونتيجة لذلك فإن يوسف ابن تاشفين عاجله، وألقى القبض عليه، وقتله[8] مع ولديه[9].

لقد انحدر بعض حكام الأندلس في هذا العهد إلى منحدرات الذل والهوان ومن أكبر المؤشرات لذلك أن بعضهم دفع الجزية للنصارى، وقد أشار الذهبي إلى أن المعتمد بن عباد

---

١ ) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج19، ص61.

٢ ) عبد الهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي، ص41-43.

٣ ) الكفاوين، شاهر عوض: الشعر العربي في رثاء الدول والأمصار حتى نهاية سقوط الأندلس "رسالة دكتوراة" ، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، كلية اللغة العربية، فرع الأدب، 1404هـ=1984م، ص9.

٤ ) المَطْوُ الجِدُّ والنَّجاء في السير (ابن منظور: لسان العرب، ج15، ص284).

٥ ) السَّفَطُ: الَّذي يُعَبَّى فيه الطِّيبُ وما أَشْبَهَه من أَدَواتِ النِّساء ، كالقُفَّةِ (الزبيدي: تاج العروس، ج 19، ص350).

٦ ) المقري: نفح الطيب، ج4، ص352.

٧ ) كحيلة عبادة، القطوف الدواني، ص119.

٨ ) ابن عبد الملك: السفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة، ج2، ص467؛ ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص205.

٩ ) تاريخ ابن خلدون: ج4، ص205.

(ت488هـ=1095م) كان يدفع الجزية للنصارى([1])، كما انحدر في درك التبعية لألفونس السادس حكام كل من بطليموس([2]) وطليطلة وسرقسطة([3]).

والغريب أن سياسة بعض ملوك الأندلس كانت مفضوحة أمام الناس إزاء استعانتهم بالنصارى، وقد كان الناس يُشرّطون على حكامهم بعدم التعاون مع النصارى، ويبدو ذلك مما ذكره ابن الأبار عن ملك سرقسطة عماد الدولة أبو مروان عبد الملك بن أحمد([4])، والذي تولى الحكم عام (503هـ=1109م)، حيث قال: "وشرط عليه أهل سرقسطة ألا يستخدم الروم ، ولا يلابسهم، فنقض بعد أيام يسيرة ذلك؛ لما استشعر من ميل الناس إلى الملثمين...، وجرت قصص طويلة؛ أفضت إلى تغلب الروم على سرقسطة في يوم الأربعاء الرابع من شهر رمضان سنة اثنتي عشرة"([5]).

إن الإشارة السابقة تعطي صورة واضحة عن تصدي السرقسطيين لنزوات ملكهم المترف عماد الدولة، فهم يأبون الذل والهوان والاستعانة بالنصارى، مما يوحي إلى أن المترفين كانوا يواجهون مقاومة عنيفة في بعض الأحيان، بسبب وجود التيار المعارض لحياة الترف، ويبدو بأن السبب هنا واضح، فقد جلبت حياة الترف للأندلسيين الويلات، وأدت لضياع كثير من مدنهم.

ويمكن إرجاع سبب ميل عماد الدولة للنصارى إلى التغير الذي طرأ على دولة المرابطين، بتولي علي بن يوسف الحكم، حيث استعان بفقهاء زينوا له أخذ بلاد الثغر من عماد الدولة، ولذلك فقد حاول علي بن يوسف أن يسلب عماد الدولة إمارته، لكنه "أبى ولج، فكان ذلك سببا في استعانة عماد الدولة بالنصارى، وخرج من سرقسطة، فملكها الملثمون، ثم حصرها النصارى، فأخذوها منهم، واعتصم عماد الدولة بمعقل روطة، وأخذ النصارى في تملك بلاد الثغر شيئا في شيءٍ إلى أن ملكوا جميعه"([6])، وأعتقد بأن اللجوء إلى النصارى للاستعانة بهم كان سلاحاً في يد الأمراء والحكام الضعاف؛ يلوحون به وقت الحاجة طمعاً في بقائهم على رأس مناصبهم؛ حتى ولو كانت صورية، والسبب في ذلك خضوعهم لحياة الترف.

---

١ ) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج19، ص61.

٢ ) بطليموس: يبدو أن المقصود فيها ملك بطليوس المتوكل بن الأفطس.

٣ ) مونتغمري وات: في تاريخ إسبانيا، ص104.

٤ ) ورث الحكم عن أبيه المستعين، بعد استشهاده على مقربة من طليطلة ( ابن الأبار: الحلة السيراء ، ج2، ص248)؛ إن الناظر لحال الأندلس يرى مدى التراجع الذي وصلت إليه الأندلس، فبالمقارنة بين المستعين وابنه المقتدر يتضح الفرق، فالأول كان مجاهداً، والثاني كان موالياً للنصارى.

٥ ) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج2، ص248.

٦ ) ابن سعيد: المغرب، ج2، ص438.

ولقد شهدت عمليات الاستعانة بالنصارى مجابهة عنيفة؛ قادتها الدولة المرابطية ضد الحكام المتخاذلين، فقد كانت الحالة التي عرفتها الأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية بالأندلس تثير سخط المسلمين عامة، حتى أن يوسف بن تاشفين (ت 500هـ=1106م) أمير المسلمين سئم مشهد الانشقاق الذي مزق صفوف الملوك في الأندلس؛ جراء عقد اتفاقيات الصلح مع ملوك النصارى([١])، فعزم على خلع رؤسائهم بمن فيهم المعتمد بن عباد وهو أعظمهم شوكة، وبالفعل تمكن من ذلك، فلم تقم لملوك الطوائف بعدها قائمة([٢])، وقد أحسن أمير المسلمين إذ بدأ بتوحيد الممالك الأندلسية وتخليصها من حكام الطوائف، بما عرف عنهم من اتصالات كثيرة بالنصارى، وبما كان لهم من علاقات ولاء تربطهم بالنصارى من حين لآخر([٣]).

أما العهد الموحدي فقد شهد تطوراً في الاستعانة بالنصارى، إذ ظهر رجل لا يعبأ بحرمات المسلمين؛ هو محمد بن مردنيش، واتخذ منهم درعاً له يحتمي بهم وبهم يستعين، وقد قال فيه ابن الخطيب: " وآثر زي النصارى من الملابس، والسلاح، واللجم، والسروج، وكلف بلسانهم يتكلم مباهتة([٤])، وألجأه الخروج عن الجماعة، والانفراد بنفسه إلى الاحتماء بالنصارى، ومصانعتهم، والاستعانة بطواغيتهم، فصالح صاحب برشلونة لأول أمره على ضريبة، وصالح ملك قشتالة على أخرى، فكان يبذل لهم في السنة خمسين ألف مثقال([٥])، وابتنى لجيشه من النصارى منازل معلومات وحانات للخمور، وأجحف برعيته، لأرزاق من استعان به منهم، فعظمت في بلاده المغارم وثقلت"([٦])، وقد كانت المنفعة متبادلة بين محمد بن سعد بن مردنيش (518-567هـ =1124-1171م) وبين النصارى فقد استعانوا به على المسلمين([٧])، كما أنه ارتكب وزر الاستعانة بالفرنج على الموحدين([٨]).

---

١ ) كولان: الأندلس، ص132.

٢ ) ابن الأبار: الحلة السيراء، ج2، ص101.

٣ ) مؤنس، حسين: الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، 1413هـ=1992م، ص16-17.

٤ ) البهتان: الباطِلُ الّذِي يُتَحَيَّرُ من بُطْلانِهِ (الزبيدي: تاج العروس، ج4، ص452)، والمُرَاد بالمُبَاهِتِ الّذي يَبْهَتُ السّامعَ بما يَفتريه عليه (الزبيدي: تاج العروس، ج4، ص454).

٥ ) المِثْقال في الأصل مقدار من الوزن أيَّ شيءٍ كان من قليل أو كثير فمعنى مِثْقال ذرَّة وزن ذرّة والناس يطلقونه في العرف على الدينار خاصة (ابن منظور: لسان العرب، ج11، ص85).

٦ ) الإحاطة، ج2، ص123-124.

٧ ) الناصري: الاستقصا: ج2، ص122.

٨ ) الزركلي: الأعلام، ج6، ص137.

كما كان ابن مردنيش أداة طيعة في يد ألفنش( [١] )، وفي هذا السياق أشار الناصري إلى أن الفرنج استولوا على المرية وبياسة( [٢] ) وأبدة في زمن المرابطين والموحدين، وفي عام (546هـ=1151م) حاول الموحدون استعادة المرية بإرسال الشيخ أبو حفص([٣]) عمر بن يحيى يحيى الهنتاني([٤]) في عشرين ألف فارس( [٥] ) برفقة السيد أبو سعيد – ابن أمير الموحدين عبد المؤمن بن علي، وكان الموحدون يسمون أبناءهم بالسادة –، ونازلوا المرية، وشددوا عليها الحصار، فلما ضاق الخناق على النصارى فيها، استغاثوا بألفنش، فما كان من ألفنش إلا أن أغاثهم بمحمد بن مردنيش، وقائد نصراني آخر يدعى السليطين( [٦] ) في جيش متحد، ولكنهم لم يتمكنوا من الموحدين بسبب حصانة مكانهم بسور منيع( [٧] )، مع أن المقري يشير إلى أن ابن مردنيش قدم لقتال جيش الموحدين لوحده ولم يقدم لحرب الموحدين إلا مفرداً( [٨] )، ولكني أميل إلى ما قاله الناصري إذ أن هذا الأمر ليس مستغرباً من ابن مردنيش عند التعرف على سيرته، التي اتصف خلالها بالفسق والمجون، والاستهانة بدماء المسلمين، وهو ما سبق ذكره.

وفي عام (554هـ=1159م) خرج ابن مردنيش بجيشه مع أصحابه من النصارى من مدينة مرسية على أمل أن يسيطر على بلاد الأندلس، حتى وصل إلى مدينة جيان وكان واليها

---

١ ) هو ألفنش بن بن فردلند بن البيطبين، ملك قشتالة بعد أبيه، ثم استولى على طليطلة عام(478هـ=1086م)، وبلنسية عام ( 489هـ=1096م)، ومات سنة ( 501هـ=1108م) ( القلقشندي: صبح الأعشى ، ج5، ص257).

٢ ) بياسة: بالأندلس أيضاً، بينها وبين جيان عشرون ميلاً، وكل واحدة منهما تظهر من الأخرى. وبياسة على كدية من تراب مطلة على النهر الكبير المنحدر إلى قرطبة ( الحميري: الروض المعطار، ص121).

٣ ) الناصري: الاستقصا، ج2، ص122

٤ ) أبو حفص الهنتاني(ت571ه=1175م): جد الملوك الحفصيين أصحاب تونس ، أصله من هنتاتة – أعظم القبائل البربرية في إفريقية، وكان يرفع نسبه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ( ا لزركلي: الأعلام، ج5، ص69).

٥ ) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص370.

٦ ) السليطين: قائد نصراني وهو ابن زوجة ألفنش (ابن خلدون: تاريخ، ج4، ص233)، وقد استعان به أحمد بن عبد الملك بن هود الملقب بالمستنصر بالله الأندلسي على إقامة دولته واستمر حلفهما عشرين سنة بشرط أن يدفع للنصارى حصن روطة مقابل إعطائه حصونا أخرى عوضاً عنها، ويعينوه بخمسين ألف مقاتل من الروم ليخرج بها إلى بلاد المسلمين ليتملكها، وخرج ابن هود مع جيش السليطين المتحد نحو إشبيلية لملاقاة جيش أمير المسلمين تاشفين وبقي ينفق على جيوش السليطين ما يقرب من ثمانية أشهر ( الذهبي: سير ، ج20، ص42).

٧ ) الناصري: الاستقصا، ج2، ص122.

٨ ) المقري: نفح الطيب، ج4، 463.

محمد بن علي الكومي([1]) فوجد فيه أرضاً خصبة لمناصرته، ووجد لديه قابلية للانقلاب على الموحدين، ولما ضمن ولاء محمد بن علي توجه إلى قرطبة، وحاصرها، ولكن واليها أبو زيد عبد الرحمن بن تيجيت([2]) تصدى للجيش المتحد من المسلمين والنصارى، وصرفه عنها إلى إشبيلية بحيلة اصطنعها هو والقاضي أخيل بن إدريس، حيث أطمعوه بترك حصار قرطبة مقابل رغبة أهل إشبيلية في الخضوع له، فترك حصار قرطبة، وتوجه إلى إشبيلية([3]).

وتوالت المعارك بين ابن مردنيش وبين جيوش الموحدين، في الوقت نفسه الذي واصل فيه ابن مردنيش الاستعانة بالنصارى، فقد كان ابن مردنيش تجمع مع جيش من النصارى لملاقاة الجيش الموحدي، الذي أرسله الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن، وأمّر عليه أخاه أبا سعيد بن عبد المؤمن، ودارت بين الطرفين معركة عرفت بموقعة الجلاب([4]) سنة (560هـ=1165م)، تمكن خلالها أبو سعيد من هزيمة ابن مردنيش، وكتب لأخيه الخليفة كتاباً يعلمه بذلك([5]).

وبتولي الأمير الموحدي عبد الله بن يعقوب المنصور الملقب بالعادل عام (621هـ=1224م) امتنع عن بيعته عبد الرحمن بن إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن وهو صاحب بلنسية وشاطبة ودانية، وامتنع عليه كذلك عمال أفريقية الحفصيون، وكان لهذا الأمر أثر على عامله على بياسة عبد الله بن محمد بن إدريس بن يوسف، حيث قام بالاستقلال ببياسة، والتمرد على السلطة المركزية، وضبط أمور بياسة، وأضاف معها قرطبة وجيان وقيجاطة وحصون الثغر الأوسط([6]) ومالقة، وكانت له علاقات ولاء ومناصرة مع نصارى طليطلة([7])، وعرف بالبياسي لأنه كان يحكم بياسة واستقل بحكمها، وللقضاء على تمرده أرسل الخليفة الموحدي العادل جيشاً كثيفاً يقوده أخوه إدريس، مما جعله يهادن العادل ويبايعه مكراً، ولما رجع جيش إدريس نكث البياسي عهده([8])، ولتبلغ الخيانة من قبل البياسي ذروتها، ودونما أي تبصر

---

[1] ) محمد بن علي الكومي والي جيان (ابن خلدون: تاريخ، ج6، ص318)، لم أجد له ترجمة كاملة فيما بين يدي من مصادر، غير أن الاسم يوحي بأنه أحد إخوان عبد المؤمن بن علي الكومي أمير الموحدين.

[2] ) أشار محقق كتاب المن بالإمامة إلى أن هذا الاسم يكتب في المصادر بابن بكيت، وبعضها ابن يكيت، وبعضها ابن يخيت (ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، حاشية ص66)، ولم أجد له ترجمة.

[3] ) م.ن: ص65-68.

[4] ) لم أجد فيما بين يدي من المصادر تفصيلاً عن المعركة فضلاً عن موقع المعركة.

[5] ) الناصري: الاستقصا، ج2، ص147

[6] ) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص246.

[7] ) الحميري: الروض المعطار، ص121.

[8] ) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص246.

بالعواقب([1])، حيث أرسل إلى ألفونسو يستنصره على العادل مقابل إعطائه بياسة وقيجاطة، فكان البياسي ممن سن إعطاء البلاد والحصون للروم([2])، وللبرهنة على صدق ولائه للنصارى قام بتقديم ولده الأصغر رهينة([3])، ولم يكد ألفونسو يصدق هذا الأمر فبعث إلى البياسي بجيش من عشرة آلاف فارس([4])، وقيل عشرين ألف فارس([5])، وكونا جيشاً متحداً من النصارى والمسلمين، وتوجهوا نحو إشبيلية، فخرج لهم إدريس بجيشه، إلا أنه هُزم، وتمكن البياسي والجيش النصراني من إشبيلية([6])، وفي عام (623هـ=1226م) تملك النصارى بياسة([7]).

وقد تطور الأمر من حيث الاستعانة بالنصارى في أواخر الدولة الموحدية، حيث تجاوزت الاستعانة بالنصارى حدود الأندلس لتتخطاها إلى مراكش، ولذلك سخط الناس على الخلفاء، وكرهوهم بسبب نزاع هؤلاء الخلفاء على الخلافة في مراكش، وبالتالي تطور الأمر إلى الاستعانة بالممالك النصرانية ضد بعضهم البعض؛ مقابل تنازل بعضهم للنصارى عن بعض البلاد والحصون الأندلسية([8]).

وقد أشار ابن الخطيب إلى ما يفيد بذلك عند حديثه عن أمير الموحدين إدريس بن يعقوب المعروف بمأمون الموحدين (624-630هـ=1227-1232م)، الذي قام على أخيه العادل بمعونة أخيه أبي زيد أمير بلنسية، وعقدت له البيعة في مراكش والأندلس معاً، إلا أن الموحدين في مراكش عدلوا عنه، واختاروا ابن عمه أبي زكريا بن الناصر، وعلم المأمون بذلك "فهاجت نفسه، ووقدت جمرته، واستعد لأخذ ثأره، ورحل من إشبيلية، واستصحب جمعاً من فرسان الروم، واستجاز البحر سنة ست وعشرين وستمائة، قاصداً مراكش، وبرز ابن عمه إلى مدافعته، والتقى الجمعان فكانت الهزيمة على يحيى بن الناصر، وفر إلى الجبال، واستولى القتل على جيشه، ودخل المأمون مراكش"([9]).

ويشير عز الدين موسى إلى أن النزاع الذي احتدم بين بني عبد المؤمن، أتاح الفرصة لتسلط الأشياخ والوزراء واستبداد الولاة، حتى ضعفت دولة الموحدين عن مواجهة القوى

---

١) العاوور، وسيسالم: محاضرات في تاريخ الدويلات الإسلامية، ص621.
٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص246.
٣) الحميري: الروض المعطار، ص121.
٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب: ص246.
٥) الناصري: الاستقصا، ج2، ص230.
٦) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص246.
٧) الحميري: الروض المعطار، ص121.
٨) أبو رميلة: علاقة الموحدين بالممالك النصرانية، ص206.
٩) ابن الخطيب: الإحاطة، ج1، ص411.

الخارجية، واستمرؤوا الاستعانة بالنصارى في سبيل القضاء على ما يهيج عندهم من ثورات([1]).
ثورات([1]).

وفي عام (635هـ=1238م) دارت معركة بين محمد بن يوسف بن هود (ت635هـ=1238م)([2]) الخارج عن سلطان الموحدين؛ وبين أمير الموحدين المأمون في إشبيلية، فانهزم بن هود وفر إلى مرسية([3])، وقد استعان المأمون الموحدي من أجل القضاء على على ابن هود بملك قشتالة فرناندو الثالث؛ مقابل تجديد هدنة سابقة كانت وقعت بين الطرفين، ويلتزم المأمون بموجب الهدنة الجديدة بدفع ثلاثمائة ألف قطعة من الفضة، ويحصل المأمون من خلال الاتفاقية على دعم عسكري يجتاز به المغرب، لمقاتلة يحيى بن محمد الناصر، وقد أضاف فرناندو لهذه الشروط شروطاً إضافية مذلة للمأمون، ومنها قيام المأمون بتسليم عشرة حصون حدودية للنصارى؛ يختارها فرناندو بنفسه، وأن يُسمح ببناء كنيسة للنصارى بمراكش، وما كان من المأمون إلا أن وافق على هذه الشروط وغيرها([4]).

وبغرناطة دعا محمد بن يوسف الخزرجي الأنصاري (ت 671هـ=1273م) لنفسه وكان في جيان، وتوجه إلى غرناطة عام ( 635هـ=1238م)، "وفي سنة ثلاث وأربعين وستماية، صالح طاغية الروم، وعقد معه السلم، الذي طاحت في شروطه جيان"([5])

إن الدارس لتاريخ عمليات الاستعانة بالنصارى يجد أنها كانت تؤثر على تركيبة المجتمع الإسلامي، فقد كان يذهب ضحيتها خيرة أبناء المجتمع من العلماء والفقهاء، ويمكن إرجاع هذا السبب إلى أن الرافضين للاستعانة بالنصارى كانوا من أهل العلم والفقهاء الذين ينكرون مثل هذه الأفعال، والتي لم تكن الغاية منها سوى حب الرياسة والزعامة، والبحث عن حياة الترف وشهوات الحكم والسلطة، ويمكن من خلال هذا المبحث أن أجزم بأن تساقط المدن الأندلسية وضياع البلاد الأندلسية كلها إنما كان بسبب الرغبات الشاذة لحكام لا هم لهم سوى

---

١ ) موسى: عز الدين: الموحدون في المغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1411هـ=1991م، ص56.

٢ ) هو المتوكل محمد بن يوسف بن هود الجذامي ، ادعى انه من بني هود الذين كانوا م لوكاً بثغر سرقسطة، وآل أمره إلى أن بتلك مرسية، ونهض إليه مأمون بني عبد المؤمن ، وحصره بها فانصرف عنه ، فثارت بلاد الأندلس على المأمون ، وانقادت لابن هود سنة (625هـ=1228م) (ابن سعيد: المغرب، ج 2، ص251).

٣ ) ابن الخطيب: الإحاطة، ج2، ص130.

٤ ) العاوور، وسيسالم: محاضرات في تاريخ الدويلات الإسلامية، ص623-624.

٥ ) ابن الخطيب: الإحاطة، ج2، ص98.

العيش المترف المرفه، فالتمسك بالمتع والشهوات أعمى بصائرهم عن مصالح المسلمين، وقادهم للتخلي عن الأرض التي صمدت أمام الهجمات النصرانية طيلة ثمانية قرون عَمَرَ خلالها المسلمون الأرض الأندلسية.

## الخاتمة ونتائج البحث

بعناية من الله وفضل منه فقد تم الانتهاء من هذه الرسالة، وقد توصلت من خلالها إلى عدد من النتائج التي يرجو من الله أن تكون فيها الفائدة والخير، وكانت على النحو التالي:

- يمثّل الترف التنعم بشتى الوسائل من طعام وشراب ولباس ومسكن وشهوة وسلطة.
- جاء القرآن على ذكر المترفين بالذم والقدح.
- وقف النبي عليه الصلاة والسلام، وأصحابه رضي الله عنهم، والتابعون رحمهم الله من نعيم الدنيا موقفاً وسطياً، فلا هُم رفضوه بالكلية، ولا هُم انساقوا خلف متطلباته.
- ربط علماء المسلمين بين الترف والبذخ والإسراف، وجعلوها من مظاهر الحضارة.
- انقسم غير المسلمين حول موضوع الترف إلى فريقين، أحدهما كان مؤيداً له بالكلية، والآخر كان رافضاً له بالكلية.
- كان جمال الطبيعة، وغنى الأندلس بالموارد الطبيعية من العوامل المهمة في التأثير على حياة الناس، واتباعهم لعادات تميزت بالترف.
- ساهمت الأنشطة الاقتصادية التي مارسها الأندلسيون في رفع مستواهم المعيشي، مما مهد لهم الطريق أمام حياة الترف.
- يُعد الثراء الفاحش الذي اتسمت به شرائح كبيرة من المجتمع الأندلسي، سبباً رئيساً حقق لهم حياة مرفهة مترفة.
- أثَّر الاحتكاك الذي وقع بين المسلمين وبين غير المسلمين على أرض الأندلس في المسلمين بشكل كبير، فقد كان ذلك عاملاً مؤثراً في إدخال عادات الترف على المسلمين.
- حاول حكام الأندلس التسامي لمصاف كبار الملوك والخلفاء، فتشبهوا بهم في العيش في حياة مترفة.
- تفنن الأندلسيون في مجال الأطعمة والملابس والمساكن الفخمة التي دلت على اتساع أرزاق كثير من الناس، ورغبتهم في التمتع بنعيم الحياة وزينتها.
- اعتنى الأندلسيون بأعيادهم واحتفالاتهم وأعراسهم، وجعلوا منها أياماً لإبراز مستوى معيشي مترف مرفه.
- بالغ الأندلسيون بالاعتناء بالمنشئات الدينية، لدرجة إزهاق الكثير من الأموال من أجلها.
- تمتع الأندلسيون بوسائل الترف في بلادهم، سواء تلك التي وجدوها في الأندلس، أو التي ابتكروها هم أنفسهم.
- تركت المبالغة في حياة الترف آثاراً كارثية على المجتمع الأندلسي، حيث أضاعت مروءة الرجال، وأنتجت جيلاً لاهياً لا يعرف للجد طريق، مما أسهم في تفكيك المجتمع

الأندلسي وبالتالي ضعفه، وتمثلت آثار الترف في: ولع الكثير من الأندلسيين بالموسيقا والغناء، ومبالغتهم في اقتناء الجواري، وانتشار شرب الخمر على نطاق واسع.

- أفرزت حياة الترف كثيراً من الانحرافات السلوكية الأخلاقية والفكرية، أثارت الفساد والانحلال في المجتمع الأندلسي، خصوصاً في العصور المتأخرة.
- جعلت حياة الترف من السلطة والحكم هدفاً لكثير من حكام الأندلس، فلم يكن لهم هم سوى الاحتفاظ بسلطاتهم الزائفة، فآثروا إقامة الحروب والمعارك الطاحنة في سبيل المحافظة على مناصبهم.
- كان الترف عاملاً رئيساً في ضعف الملوك أمام رغباتهم وشهواتهم، فلم يروا في الاستعانة بالنصارى على إخوانهم بأساً، مما كان له عظيم الأثر في تلاشي قوة المسلمين وضياع مدنهم، وتساقطها الواحدة تلو الأخرى، والسبب في ذلك كله يعود إلى التمسك بحياة الترف والمتعة.

## التوصيـــات:

يمكن للباحث من خلال دراسته لموضوع الترف في المجتمع الإسلامي الأندلسي أنَّ يؤكد بأن هناك عدداً من الموضوعات الجديرة بالبحث، والتي ربما تكون المكتبة العربية بحاجة ماسة لإثراءها بها من خلال الأبحاث المحكمة، ومن هذه الموضوعات:-

1- دراسة آثار الضعف الروحي والأخلاقي على الوجود الإسلامي في الأندلس.

2- دراسة أثر الصراع الإسلامي الإسلامي على زوال الحكم الإسلامي عن الأندلس.

3- دراسة أثر الاختلاط بالنصارى في المجتمع الأندلسي على تراجع النواحي الأخلاقية عند المسلمين.

4- دراسة خيانة الحكام الأندلسيين وأثرها على ضياع المدن الأندلسية.

# مصادر ومراجع البحث

## أولاً: المصادر العربية:


١) القرآن الكريم

**ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ، (ت:658هـ=1259م):**

٢) المقتضب من كتاب تحفة القادم، تحقيق: إبراهيم الأبياري، القاهرة، دار الكتاب المصري، ط3، 1410هـ=1989م.

٣) التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام الهراس، لبنان، دار الفكر للطباعة، 1415هـ=1995م.

٤) الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، القاهرة، دار المعارف، ط2، 1985م.

٥) المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي ، ، بيروت، دار صادر ، 1885م.

**ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم، محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، (ت:630هـ=1233م):**

٦) الكامل في التاريخ، تحقيق عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط 2، 1415هـ.

**الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني، (ت:560هـ=1156م):**

٧) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت، عالم الكتب، ط1، 1409هـ، 1989م.

**ابن الأزرق، أبو عبد الله (ت:896هـ=1491م):**

٨) بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق: علي سامي النشار، العراق، وزارة الإعلام، ط1.

**الأزدي، معمر بن راشد، (ت:151هـ=768م):**

٩) الجامع، تحقيق: حبيب الأعظمي، بيروت، المكتب الإسلامي، 1403هـ.

**أبي الأصبغ، عيسى بن سهل الأندلسي، (ت:486هـ= 1093م):**

١٠) ثلاث وثائق في محاربة الأهواء والبدع في الأندلس مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى للقاضي أبي الأصبغ، دراسة وتحقيق: محمد عبد الوهاب خلاف، مراجعة وتقديم: محمود علي مكي، ومصطفى كامل إسماعيل، القاهرة، المركز العربي الدولي للإعلام، ط1، 1981م.

١١)ديوان الأحكام الكبرى (الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام)، تحقيق: يحيى مراد، القاهرة دار الحديث، 1428هـ=2007م.

١٢)وثائق في شئون العمران في الأندلس مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى للقاضي

أبي الأصبغ: دراسة وتحقيق محمد خلاف، مراجعة: محمود علي مكي، ومصطفى كامل إسماعيل، القاهرة، المركز العربي الدولي للإعلام، ط1، 1983م.

**الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، (ت430هـ=1038م):**

١٣) حلية الأولياء، بيروت، دار الكتاب العربي، 1405هـ.

**الأصفهاني، أبو الفرج، (ت356=967م):**

١٤) الأغاني، تحقيق: سمير جابر، بيروت، دار الفكر، ط2.

**ابن أبي أصيبعة، أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الجزري، (ت668هـ=1270م):**

١٥) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق : نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت.ط.

**الإلبيري، أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبي، (ت460هـ=1068م):**

١٦) ديوان ابن خفاجة، تحقيق: محمد رضوان الداية، دمشق، دار قتيبة، ط 2، 1401هـ=1981م.

**الألوسي، أبو الفضل محمود بن عبد الله الحسينى الألوسى، (ت:1270هـ=1854م):**

١٧) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.ط.

**الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم، (ت328هـ=940م):**

١٨) الزاهر فى معانى كلمات الناس، ، تحقيق: حاتم صالح الضامن، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1412هـ=1992م.

**البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل الجعفي، (ت256هـ=870م):**

١٩) صحيح البخاري، تحقيق مصطفى ديب البغا، بيروت، دار ابن كثير، ط 3، 1407هـ=1987م.

**ابن بسام، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، (542هـ=1147م):**

٢٠) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، 1417هـ=1997م.

**ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك الخزرجي الأنصاري، (578هـ=1183م):**

٢١) الصلة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، القاهرة، دار الكتاب المصري، ج 2، ط 1، 1410هـ=1989م.

**ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي (ت779هـ=1377م):**

٢٢) رحلة ابن بطوطة، تحقيق: علي المنتصر الكتاني، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 4،

1405م.

**البغدادي، زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين، (ت795هـ=1393م):**

٢٣) جامع العلوم والحكم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وإبراهيم باجس، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط7، 1417هـ.

**البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، (ت510هـ=1117م):**

٢٤) معالم التنزيل، المسمى تفسير البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، وآخران، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، 1417هـ=1997م.

**البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبد الله، (ت458هـ=1066م):**

٢٥)سنن البيهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، مكة المكرمة، مكتبة دار الباز، 1414هـ=1994م.

٢٦) شعب الإيمان، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1410هـ.

**الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى السلمي، (ت279هـ=892م):**

٢٧) الجامع الصحيح، المسمى سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.ط.

**الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف، (ت875هـ=1470م):**

٢٨) الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، المسمى تفسير الثعالبي، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، د.ت.ط.

**الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل، (ت429هـ=1038م):**

٢٩) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، ط1، 1965م.

٣٠) خاص الخاص، تحقيق: حسن الأمين، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت.ط.

٣١)يتيمة الدهر، تحقيق: مفيد محمد قميحة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1983م.

**الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد، (ت471هـ=1078م):**

٣٢) دلائل الإعجاز، تحقيق محمد التنجي، بيروت، دار الكتاب العربي، ط1، 1995م.

**الجزري، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني، (ت630هـ=1233م):**

٣٣) اللباب في تهذيب الأنساب، بيروت، دار صادر، 1400هـ=1980م.

**الجزري، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، (ت606هـ=1210م):**

٣٤) النهاية في غريب الأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، ومحمود محمد الطناحي، بيروت، المكتبة العلمية، 1399هـ=1979م.

**ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، (ت:597هـ=1201م):**

٣٥) زاد المسير في علم التفسير، بيروت، المكتب الإسلامي، ط3، 1404هـ.
٣٦)صيد الخاطر، تحقيق: حامد أحمد الطاهر، القاهرة، دار الفجر للتراث، ط 1، 1424هـ=2003م

**الحاكم، محمد بن عبدالله أبو عبدالله النيسابوري، (ت: 405هـ= 1014م):**

٣٧)المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1411هـ=1990م.

**ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي، (ت:354هـ=965م):**

٣٨) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط2، 1414هـ=1993م.

**ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، (ت:852هـ=1449م):**

٣٩) فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، بيروت، دار المعرفة، د.ت.ط.
٤٠) نزهة الألباب في الألقاب ، تحقيق : عبد العزيز محمد بن صالح السديري، الرياض، مكتبة الرشد، 1409هـ=1989م.
٤١) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، حيدر أباد، مجلس دائرة المعارف، ط2، 1392هـ، 1972م.

**ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، وآخران:**

٤٢) فضائل الأندلس وأهلها، تحقيق: صلاح المنجد، دار الكتاب الجديد، ط1، 1968م.

**ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، (ت:456هـ=1064م):**

٤٣) طوق الحمامة في الألفة والألاف، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1987م.
٤٤) جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان ط3- 1424هـ-2003م.

**الحسيني، عبد القادر:**

٤٥) فلك القاموس، تحقيق: إبراهيم السامرائي، بيروت، دار الجيل، 1414هـ، 1994م.

**الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، (ت:626هـ=1229م):**

٤٦) معجم البلدان، بيروت، دار الفكر، د.ت.ط.

**الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت900هـ=1495م):**

٤٧) الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، مؤسسة ناصر للثقافة، ط2، 1980م.

**ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، (ت241هـ=855م):**

٤٨) مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، القاهرة، مؤسسة قرطبة، د.ت.ط.

**الحنبلي، أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي، (ت بعد880هـ= بعد 1475م):**

٤٩) اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، والشيخ علي محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، 1419هـ=1998م.

**الحنفي، أبو المحاسن يوسف بن موسى:**

٥٠)معتصر المختصر، بيروت، عالم الكتب، د.ت.ط.

**الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله التقي:**

٥١) طيب المذاق من ثمرات الأوراق، تحقيق : أبو عمار السخاوي، الشارقة، دار الفتح، 1997م.

**الحميدي، أبو محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الأزدي، (ت488هـ=1095م):**

٥٢) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق: روحية عبد الرحمن السويفي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1417هـ=1997م.

**ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف (ت:469هـ=1076م):**

٥٣) المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق: محمود علي مكي، القاهرة، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1415هـ=1994م.

**ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسي الإشبيلي (ت:528هـ=1134م):**

٥٤) مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق: محمد علي شوابكة، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط1، 1983م.

**الخشني، أبو عبد الله محمد بن حارث بن أسد (ت:366هـ=976م):**

٥٥) قضاة قرطبة، وعلماء أفريقية، تحقيق: السيد عزت العطار الحسني، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط2، 1415هـ=1994م.

**الخطابي، أبو سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم البستي، (ت388هـ=998م):**

٥٦)غريب الحديث، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم

**ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله التلمساني، (ت776هـ=1374م):**

٥٧) أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، المسمى "تاريخ أسبانيا الإسلامية"، ، بيروت، دار المكشوف، ط2، 1956م، ص183هـ.

٥٨) الإحاطة في أخبار غرناطة، ، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1393هـ=1973م.

٥٩) الحلل الموشية، صححه: البشير الفورتي، تونس، مطبعة التقدم الإسلامية، ط1.

**ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت808هـ=1406م):**

٦٠) تاريخ ابن خلدون "العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، بيروت، دار القلم، ط5، 1984م.

٦١) مقدمة ابن خلدون، بيروت، دار القلم، ط5، 1984م.

**ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، (681هـ=1282م):**

٦٢) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، لبنان، دار الثقافة، د.ت.ط،

**ابن دحية، ذو النسبين أبي الخطاب عمر بن حسن، (ت633هـ=1236م):**

٦٣) المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق: إبراهيم الأبياري، وحامد عبد المجيد، بيروت، دار العلم للجميع، د.ت.ط .

**ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن (ت321هـ=933م):**

٦٤) الاشتقاق ، ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط3.

**ابن أبي الدنيا، عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي أبو بكر:**

٦٥) المنامات، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، بيروت، مؤسسة الكتب الثقافية، 1413هـ=1993.

**ابن الدلائي، أحمد بن عمر بن أنس العذري، (ت:478هـ=1085م):**

٦٦) نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق: عبد العزيز الأهوازي، مدريد، معهد الدراسات الإسلامية، د.ت.ط.

**الدولابي، أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد، (ت310هـ=923م):**

٦٧) الذرية الطاهرة، تحقيق سعد المبارك الحسن، الكويت، الدار السلفية، ط1، 1407هـ.

**الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، (748هـ=1348م):**

٦٨) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، لبنان، دار الكتاب العربي، ط1، 1407هـ=1987م.

٦٩) سير أعلام النبلاء ، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط9، 1413هـ.

٧٠) العبر في خبر من غبر، تحقيق: صلاح المنجد، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ط 2، 1984م.

**الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، (ت بعد666هـ= بعد1268م):**

٧١) مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، بيروت، مكتبة لبنان، 1415هـ=1995م.

**الرشاطي، أبو محمد، وابن الخراط الإشبيلي:**

٧٢) الأندلس في اقتباس الأنوار وفي اختصار اقتباس الأنوار، تقديم وتحقيق: إيميليو مولينا، وخاثينتو بوسك بيلا، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، 1990م.

**الزبيدي، أبو بكر محمد بن حسن الأشبيلي (ت:379هـ=989م):**

٧٣) الزيادات على كتاب إصلاح لحن العامة بالأندلس، دراسة ونصوص عبد العزيز الساوري، دبي، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ط1، 1415هـ=1995م.

**الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، (ت:1205هـ=1790م):**

٧٤) تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق: مجموعة من المحققين، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ط1406هـ=1986.

**ابن أبي زرع، أحمد بن عمر الفاسي، (ت:741هـ=1340م):**

٧٥) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس: الرباط، دار المنصور للطباعة والوراقة، 1972م.

**الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (ت:538هـ=1144م):**

٧٦) الفائق في غريب الحديث والأثر، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار المعرفة.

٧٧) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.ط.

**الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، (ت: أواسط القرن السادس الهجري= أواسط القرن الثاني عشر الميلادي):**

٧٨) كتاب الجغرافيا، تحقيق: محمد حاج صادق، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت. ط.

**ابن زيدون، أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن احمد بن غالب (ت463هـ=1071م):**

١) ديوان ابن زيدون، دراسة وتهذيب: عبد الله سنده، بيروت، دار المعرفة، ط 1، 1426هـ=2005م.

**ابن السري، هناد بن السري الكوفي، (243هـ=857م):**

٧٩) الزهد، تحقيق: عبد الرحمن، عبد الجبار الفريوائي، الكويت، دار الخلفاء للكتاب، ط1، 1406هـ.

**السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي (ت1376هـ=1956م):**

٨٠) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المسمى تفسير السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، القاهرة، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ=2000م.

**ابن سعد الخير:**

٨١) القرط على الكامل، (نقلاً عن المكتبة الشاملة، الإصدار 3,28).

**ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى بن عبد الملك (685هـ=1286م):**

٨٢) المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف، القاهرة، دار المعارف، ط 3، 1955م.

**أبو السعود، محمد بن محمد العمادي (982هـ=1574م):**

٨٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، المسمى تفسير أبي السعود، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.ط.

**السقطي، أبو عبد الله محمد بن أبي محمد المالقي الأندلسي، (ت: القرن السابع الهجري=الثالث عشر الميلادي)**

٨٤) في آداب الحسبة، ترجمة: ليفي بروفنسال، باريس، المعهد المتوسط الوطني المغربي، 1931م.

**السِّلَفي، أبو طاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سِلَفَه السِّلَفي الأصبهاني، (ت: 576هـ=1180م):**

٨٥) أخبار وتراجم أندلسية، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الثقافة، ط1، 1963م.

**السمعاني، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي، (562هـ=1167م):**

٨٦) الأنساب، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، بيروت، دار الفكر، ط1، 1998م.

**ابن سهل، إبراهيم بن سهل الأسرائيلي الأندلسي الإشبيلي (ت649هـ=1251م):**

٨٧) ديوان إبراهيم بن سهل، بيروت، المطبعة الأدبية، 1885م.

**السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد (ت581هـ=1185م):**

٨٨) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1421هـ=2000م.

**ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل المرسي (ت:458هـ=1066م):**

٨٩) المحكم والمحيط الأعظم، بيروت، دار الكتب العلمية، 2000م.

٩٠) المخصص، تحقيق : خليل إبراهم جفال، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1417هـ=1996م.

**السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ=1505م):**

٩١)بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، صيدا، المكتبة العصرية، د.ت.ط.

٩٢)تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر، مطبعة السعادة، ط 1، 1371هـ.

٩٣)تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر، مطبعة السعادة، ط1، 1371هـ.

٩٤)الدر المنثور، بيروت، دار الفكر، 1993م.

**السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، وجلال الدين محمد بن أحمد المحلي:**

٩٥)تفسير الجلالين، القاهرة، دار الحديث، ط1، د.ت.ط.

**الشيباني أبو عبد الله محمد بن الحسن (ت189هـ=805م):**

٩٦)الحجة على أهل المدينة، تحقيق مهدي حسن الكيلاني القادري، بيروت، عالم الكتب، 1403هـ.

**الشيباني، أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة الشيباني، (560هـ=1165م):**

٩٧) اختلاف الأئمة العلماء، تحقيق: السيد يوسف أحمد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1423هـ=2002م.

**الشيزري، عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر بن عبد الرحمن 590هـ=1094م):**

٩٨) المنهج المسلوك في سياسة الملوك، تحقيق علي عبد الله الموسى، الزرقاء، مكتبة المنار، 1407هـ=1987م.

**ابن صاحب الصلاة، عبد الملك، (594هـ= 1197م):**

٩٩) المن بالإمامة "تاريخ بلاد المغرب والأندلس في عهد الموحدين"، تحقيق: عبد الهادي التازي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط3، 1987م.

**الصفدي، صلاح الدين خليل أيبك، (ت764هـ=1363م):**

١٠٠) الوافي بالوفيات: تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث، 1420هـ=2000م.

**الصنعاني، عبد الرزاق بن همام، (211هـ=827م):**

١٠١) تفسير القرآن، المسمى تفسير الصنعاني، تحقيق: مصطفى مسلم محمد، الرياض، مكتبة الرشد، 1410هـ.

**الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، (ت: 599هـ=1202م):**

١٠٢) بغية الملتمس، تحقيق: إبراهيم الأبياري، القاهرة، دار الكتاب المصري، ط1، 1410هـ=1989م.

**الطائي: أبي تمام حبيب بن أوس (ت231هـ=846م):**

١٠٣) ديوان الحماسة، تحقيق محمد عبد القادر سعيد الرافعي، الأردن، مكتبة الأدب العربي، إعداد الخطيب للتسويق والبرامج، الإشراف العلمي: مركز التراث، لأبحاث الحاسب الآلي، الإصدار الأول، 1999م.

**الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب، (ت360هـ=971م):**

١٠٤) المعجم الكبير ، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الموصل، مكتبة العلوم والحكم، ط2، 1404هـ=1983م.

١٠٥) المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، وعبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، القاهرة، دار الحرمين.

**الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (ت310هـ=923م):**

١٠٦) جامع البيان في تأويل القرآن، المسمى تفسير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ=2000م.

**الطَّرَسوسي، نجم الدين إبراهيم بن علي الحنفي، (ت: 758هـ=1357م):**

١٠٧) تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك ، تحقيق: عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي، ط2.

**ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا (ت709هـ=1309م):**

١٠٨) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، بيروت، دار صادر، د.ت.ط.

**ابن عاشور، الشيخ محمد الطاهر، (ت1393هـ=1973م):**

١٠٩) التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون للنشر والتوزيع، 1997م.

**ابن أبي عاصم، أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشيباني، (ت: 287هـ=900م):**

١١٠) الزهد، تحقيق: عبد الغني عبد الحميد حامد، القاهرة، دار الريان للتراث، ط2،

**ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله عبد الحكم بن أعين القرشي المصري، (ت257هـ=871م):**

١١١) فتوح مصر وأخبارها ، تحقيق: محمد الحجيري، بيروت، دار الفكر، ط 1، 1416هـ=1996م.

**ابن عبد الملك، أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري الأوسي المراكشي، (ت:703هـ=1303م):**

١١٢) السفر الخامس من كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة

**ابن عبدون، وابن عبد الرؤوف، وعمر بن عثمان الجرسيفي:**

١١٣) ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة: تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1955م.

**ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن أبي جرادة، (ت660هـ=1262م):**

١١٤) بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكار، دار الفكر، د.ت.ط.

**ابن عذاري، أبو عبد الله محمد المراكشي، (ت: بعد712هـ=1312م):**

١١٥) البيان المغرب في أخبار أهل الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة: ج.س. كولان، وليفي بروفنسال، بيروت، دار الثقافة، ط3، 1983م.

**ابن عسكر، أبو عبد الله، وأبو بكر بن خميس، (ت636هـ=1239م):**

١١٦) أعلام مالقة، تحقيق: عبد الله المرابط الترغي، بيروت، دار الغرب، ط 1، 1420هـ=1999م.

**ابن العماد، عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي، (ت:1089هـ=1679م):**

١١٧) شذرات الذهب ، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، ومحمود الأرناؤوط، دمشق، دار ابن كثير ، ط1، 1406هـ.

**العيني، بدر الدين محمود بن أحمد، (ت:855هـ=1451م):**

١١٨) عمدة القاري، بيروت، دار إحياء التراث.

**الفاسي، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الإدريسي الشاذلي، (ت:1224هـ=1809م):**

١١٩) البحر المديد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1423هـ=2002م.

**الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، (170هـ=786م):**

١٢٠) العين، تحقيق: مهدي المخزومي، و إبراهيم السامرائي، بيروت، دار ومكتبة الهلال، د.ت.ط.

**ابن فرحون، إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المالكي، (ت:799هـ=1397م):**

١٢١) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.ط.

**ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يونس الأزدي، (ت: 403هـ=1013م):**

١٢٢) تاريخ العلماء بالأندلس، تحقيق: عزت العطار الحسيني، القاهرة، مطبعة المدني، ط2، 1408هـ=1988م.

**الفيروز أبادي، مجد الدين بن محمد بن يعقوب الشيرازي، (ت:817هـ= 1415م):**

١٢٣) القاموس المحيط ، مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3، 1398هـ، 1978م.

**الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقري، (770هـ =1368م):**

١٢٤) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، بيروت، المكتبة العلمية، د.ت.ط.

**ابن قدامة، أبو محمد عبد الله بن أحمد المقدسي، (ت:620هـ=1223م):**

١٢٥) المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، بيروت، دار الفكر، ط 1، 1405هـ.

**القرشي، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان، (ت:281هـ=894م):**

١٢٦) إصلاح المال، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت، مؤسسة الكتب، ط 1، 1414هـ.

**القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، (ت671هـ=1273م):**

١٢٧) الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: هشام سمير البخاري، الرياض، دار عالم الكتب، 1423هـ=2003م.

**القرطبي، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، (ت:463هـ=1071م):**

١٢٨) الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار، ، تحقيق: سالم محمد عطا، ومحمد علي معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، 2000م.

**القضاعي، أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر، (ت:454هـ=1062م):**

١٢٩) تاريخ القضاعي "عيون المعارف وفنون الخلائف"، تحقيق: جميل عبد الله المصري، السعودية، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1415هـ.

**ابن القطاع، أبو القاسم علي بن جعفر السعدي، (ت:515هـ=1121م):**

١٣٠) تهذيب كتاب الأفعال لأبي بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطية، بيروت، عالم الكتب، 1403هـ=1983م.

**القفطي، أبو الحسن علي بن القاضي الأشرف يوسف القفطي (ت: 646هـ=1248م):**

١٣١) أخبار العلماء بأخيار الحكماء ، ، تحقيق: محمد أمين الخانجي، مصر، مطبعة السعادة، 1326هـ.

**القلقشندي: أحمد بن علي، (ت:821هـ=1418م):**

١٣٢) صبح الأعشا في صناعة الإنشا، تحقيق: يوسف علي الطويل، دمشق، دار الفكر، ط1، 1987م.

١٣٣) مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، الكويت، مطبعة حكومة الكويت، ط2، 1985م، ج2، ص9.

**ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر، (ت: 367هـ=977م):**

١٣٤) تاريخ افتتاح الأندلس ، ، تحقيق: إبراهيم الأبياري، القاهرة، دار الكتاب المصري، ط2، 1410هـ=1989م.

**ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب: (ت: 751هـ=1350م)**

١٣٥) المنار المنيف في الصحيح والضعيف، تحقيق: يحيى بن عبد الله الثمالي، مكة المكرمة، دار عالم الفوائد، ط1، 1428هـ.

**الكتاني، محمد بن الكتاني الطبيب(ت:420هـ=1030م):**

١٣٦) كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار الشروق، ط2، 1982م.

**الكتبي، محمد بن شاكر، (ت:764هـ=1363م):**

١٣٧) فوات الوفيات، تحقيق: علي بن محمد بن يعوض الله، وعادل أحمد عبد الموجود، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 2000م.

**ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، (ت:774هـ=1373م):**

١٣٨) تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، الثانية 1420هـ=1999م.

١٣٩) البداية والنهاية، بيروت، مكتبة المعارف، د.ت.ط.

**الكندي، بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الجندي، (ت:732هـ=1332م):**

١٤٠) السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي، صنعاء، مكتبة الإرشاد، 1995م.

**ابن ماكولا، علي بن هبة الله بن أبي نصر، (ت:475هـ=1082م):**

١٤١) الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، ط2، 1993م.

**ابن المبارك، أبو عبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي، (ت:181هـ=797م):**

١٤٢) الزهد، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.ط.

**مجاهد، أبو الحجاج بن جبر المخزومي التابعي، (104هـ=722م):**

١٤٣) تفسير مجاهد، تحقيق : عبد الرحمن الطاهر محمد السورتي، بيروت، المنشورات العلمية، د.ت.ط.

**مجموعة من المؤلفين**

١٤٤) سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس، حسين مؤنس، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 1420هـ=2000م.

**مجهول، (عاش في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي):**

١٤٥) أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، تحقيق: إبراهيم الأبياري، القاهرة، دار الكتاب المصري، ط 2،

1410هـ=1989م.

**مجهول:**

١٤٦) ذكر بلاد الأندلس: تحقيق وترجمة: لويس مولينا، مدريد، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد ميغيل أسين، 1983م.

**مجهول:**

١٤٧) رسائل أندلسية، تحقيق فوزي عيسى، الإسكندرية، منشأة المعارف، ط 1، 1989م.

**مجهول:**

١٤٨) رسائل موحدية "مجموعة جديدة"، تحقيق أحمد عزاوي، القنيطرة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط1، 1416هـ=1995م.

**المراكشي، عبد الواحد، (ت:647هـ=1249م):**

١٤٩) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان،

**مسلم: مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، (ت:261هـ=875 م):**

١٥٠) صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار احياء التراث، د.ت.ط، ح 2008.

**المطرزي، أبو الفتح ناصر الدين بن عبد السيد بن علي بن المطرز، (ت:610هـ=1213م):**

١٥١) المغرب في ترتيب المعرب ، تحقيق: محمود فاخوري، وعبد الحميد مختار، حلب، مكتبة أسامة بن زيد، ط1، 1979م.

**المقري، أحمد بن محمد التلمساني، (ت: 1041هـ=1631م):**

١٥٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1388هـ.

**المناوي، محمد عبد الرؤوف، (ت:1031هـ=1622م):**

١٥٣) التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: محمد رضوان الداية، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط1، 1410هـ.

**ابن منده، أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن عيسى، (ت:395هـ=1005م):**

١٥٤) الفوائد، تحقيق مجدي السيد

**ابن منظور، محمد بن مكرم، (ت:711هـ=1311م):**

١٥٥) لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط1، ج9، ص17.

**الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي، (ت: 1279هـ=1863م):**

١٥٦) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق: جعفر الناصري، ومحمد

الناصري، المغرب، مطبعة الدار البيضاء، 1418هـ=1997م.

**النباهي، أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي الأندلسي، ( ت: بعد 792هـ=بعد1390م):**

١٥٧) تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط 5، 1403هـ=1983م.

**النسائي، أحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن: سنن النسائي الكبرى، (ت:303هـ=915م):**

١٥٨) تحقيق: د.عبد الغفار سليمان البنداري، و سيد كسروي حسن، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1411هـ=1991م.

**النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري، (ت676هـ=1277م):**

١٥٩) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (شرح النووي على مسلم)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط2، 1392هـ.

**النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت: 733هـ=1332م):**

١٦٠) نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق : مفيد قمحية وآخرون، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1424هـ=2004م.

**النيسابوري، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، (ت:427هـ= 1035م):**

١٦١) الكشف والبيان، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1422 هـ=2002.

**النيسابوري، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني، (ت: 518هـ= 1124م):**

١٦٢) مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، بيروت، دار المعرفة، د.ت.ط.

**ابن الهائم، شهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري الجياني، (ت887هـ=1482م):**

١٦٣) التبيان في تفسير غريب القرآن، تحقيق : فتحي أنور الدابولي، القاهرة، دار الصحابة للتراث، ط1، 1992م.

**ابن هبة الله، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي، (ت: 571هـ=1175م):**

١٦٤) تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، بيروت، دار الفكر، 1995م.

**الهيثمي، علي بن أبي بكر، (ت: 807هـ=1405م):**

١٦٥) مجمع الزوائد، القاهرة، دار الريان، القاهرة، 1407هـ.

**ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر، (ت749هـ=1349م):**

١٦٦) تاريخ ابن الوردي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1417هـ=1996م.

**الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحيى، (ت914هـ=1508م):**

١٦٧) المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1401هـ=1981م.

**اليافعي، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان، (ت:768هـ=1367م):**

١٦٨) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، القاهرة، دار الكتاب الإسلامي، 1413هـ.

**اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، (ت بعد292هـ= 905 م):**

١٦٩) تاريخ اليعقوبي، بيروت، دار صادر، د.ت.ط.

**أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، (ت:182هـ=798م):**

١٧٠) كتاب الآثار، تحقيق: أبو الوفا، بيروت، دار الكتب العلمية، 1355هـ.

## ثانياً: المراجع العربية:

**أرسلان، شكيب:**

١) الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، مصر، المطبعة الرحمانية، ط 1، 1355هـ=1936م.

٢) تاريخ غزوات العرب، بيروت، دار الكتب العلمية.

**البنا، حسن:**

٣) رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، الإسكندرية، دار الدعوة للطباعة والنشر، ط 1، 1422هـ=2002م.

**بوتشيش، إبراهيم القادري:**

٤) مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، بيروت، دار الطليعة، 1997م، ص115.

٥) المغرب والأندلس في عصر المرابطين، بيروت، دار الطليعة، ط1، 1993م.

**بولعراس، خميسي:**

٦) الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف، (رسالة ماجستير غير منشورة)، باتنة، جامعة الحاج لخضر، 1428هـ=2007م.

**التازي، عبد الهادي:**

٧) التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم، المغرب، مطابع فضالة، 1407هـ=1987م.

**الترمانيني، عبد السلام:**

٨) الزواج عند العرب في الجاهلية والإسلام، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1984م.

**الجارم بك،**

٩) علي: قصة العرب في أسبانيا، مصر، مطبعة المعارف، د.ت.ط.

**الجربوع، عبدالله بن عبد الرحمن:**

١٠) أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، المدينة المنورة، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط1، 1423هـ=2003م.

**الجزائري، أبو بكر جابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر:**

١١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير ، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحكم، ط 5، 1424هـ=2003م.

**الحايك، سيمون:**

١٢) عبد الرحمن الأوسط، لبنان، المطبعة البولسية، د.ت.ط، ص32.

**الحجي، عبد الرحمن علي:**

١٣) التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، القاهرة، دار الاعتصام، ط1، 1403هـ، 1983م.

**حسن، حسن إبراهيم:**

١٤) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، بيروت، دار الجيل، ط 14، 1416هـ=1996م.

**حسن، حسن علي:**

١٥) الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس (عصر المرابطين والموحدين)، مصر، مكتبة الخانجي، ط1، 1980م.

**حسين، حمدي عبد المنعم محمد:**

١٦) التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، مصر، دار المعرفة الجامعية، 1997م.

**الحسين، قصي:**

١٧) من معالم الحضارة العربية الإسلامية، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1414هـ=1993م.

**الحميدي، عبد العزيز بن عبد الله:**

١٨) السيرة النبوية، الإسكندرية، دار الدعوة، ط1، 1418هـ-1997م.

**حومد، أسعد:**

١٩) محنة العرب في الأندلس، ص 65، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 2، 1988م.

**الخالدي، خالد:**

٢٠) اليهود تحت حكم المسلمين في الأندلس، "رسالة دكتوراة منشورة"، 1421هـ=2000م.

**الخطيب، مصطفى عبد الكريم:**

٢١) معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1416هـ=1996م.

**الدغلي، محمد سعيد:**

٢٢) الحياة الاجتماعية في الأندلس وأثرها في الأدب العربي وفي الأدب الأندلسي،

منشورات دار أسامة، ط1، 1984م=1404م.

**الدقر، محمد نزار:**

٢٣) روائع الطب الإسلامي، ، نقلاً عن المكتبة الشاملة، الإصدار

**دندش، عصمت عبد اللطيف:**

٢٤) الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين "عصر الطوائف الثاني"، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1408هـ=1988م.

**دويدار، حسين يوسف:**

٢٥) المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، مصر، مطبعة الحسين الإسلامية، ط 1، 1414هـ=1994م.

**الذنون، عبد الحكيم:**

٢٦) آفاق غرناطة "بحث في التاريخ السياسي والحضاري العربي، دمشق، دار المعرفة، ط1، 1408هـ=1988م.

**أبو رميلة، هشام:**

٢٧) علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، عمان، دار الفرقان، ط1، 1404هـ=1984م.

**زبيب، نجيب:**

٢٨) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، بيروت، دار الأمير للثقافة والعلوم، ط 1، 1415هـ=1995م.

**الزركلي، خير الدين:**

٢٩) الأعلام، ، بيروت، دار العلم للملايين، ط15، 2002م.

**زيتون: محمد محمد:**

٣٠) المسلمون في المغرب والأندلس، مصر، دار الوفاء للطباعة، 1411هـ 1990م.

**زيدان، جرجي:**

**الزين، عبد القادر نبيل:**

٣١) زوجات النبي صلى الله عليه وسلم،عمان، دار أسامة للنشر والتوزيع، ط1، 1997م

٣٢) فتح الأندلس، تقديم ودراسة: محمود علي مكي، القاهرة، مؤسسة دار الهلال، 1982م.

**سالم، سحر:**

٣٣) بنو خطاب بن عبد الجواد التدميري "أسرة من المولدين بمرسية في العصر الإسلامي"، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1989م.

**سالم، السيد عبد العزيز:**

٣٤) أضواء على مشكلة تأريخ بنيان المسجد الجامع بقرطبة، مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد15، عام 1970.

٣٥) تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ط 2، 1982م.

**السامرائي، خليل وآخران:**

٣٦) تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، الموصل، دار الكتاب الجديد، ط1، 1986م.

**السلمان، أبو محمد عبد العزيز:**

٣٧) مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار، المكتبة الشاملة.

**سويدان، طارق:**

٣٨) الأندلس "التاريخ المصور"، الكويت، مطابع المجموعة الدولية، ط 1، 1426هـ=2005م.

**شاكر، مصطفى:**

٣٩) الأندلس في التاريخ، سوريا، منشورات وزارة الثقافة، 1990م.

**شتيوي، أشرف:**

٤٠) الأندلس في عصر الولاة "رسالة ماجستير غير منشورة"، نابلس، جامعة النجاح الوطنية، 2004م.

**الشويخ، عادل:**

٤١) مسافر في قطار الدعوة، طنطا، دار البشير للثقافة والعلوم، ط2، 1419هـ=1999م

**الصلابي، علي محمد محمد:**

٤٢) دولة المرابطين، المنصورة، مكتبة الإيمان، ط1.

٤٣) دولة الموحدين، المنصورة، مكتبة الإيمان، ط1، 2004م.

**الطاهر، حامد أحمد:**

٤٤) الوصايا النبوية، دار الفجر للتراث، ط1، 2005.

**العاوور، صلاح، وعصام سيسالم:**

٤٥) محاضرات في تاريخ الدويلات الإسلامية، غزة، مكتبة المنارة، ط 1، 1418هـ=1997م.

**العبادي، أحمد:**

٤٦) الأعياد في مملكة غرناطة، مجلة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، 1970م.

**عباس، إحسان:**

٤٧) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، بيروت، دار الثقافة، ط1، 1960م.

٤٨) تاريخ الأدب الأندلسي ( عصر الطوائف والمرابطين)، بيروت، دار الثقافة، ط 3، 1974م.

**ابن عبد الجليل، عبد العزيز:**

٤٩) الموسيقا الأندلسية المغربية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1988م.

**العفاني، سيد بن حسين:**

٥٠) رائق الشهد في فضل الزهد، القاهرة، دار العفاني، ط1، 1425هـ.

**العقاد، عباس:**

٥١) أثر العرب في الحضارة الأوروبية، مصر، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.ط.

**علي، جواد:**

٥٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، دار الساقي، ط4، 1422هـ=2001م.

**علي، كرد:**

٥٣) غابر الأندلس وحاضرها، مصر، المطبعة الرحمانية، ط1، 1341هـ=1923م.

**العمار، ناصر بن عبدالله:**

٥٤) الترف وأثره في المجتمع من خلال القرآن الكريم، مجلة دعوة الحق، تصدرها رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، السنة العاشرة، العدد118، 1412هـ-1991م.

**العمير، عبد الله إبراهيم:**

٥٥) صدرية رخامية من الأندلس، مجلة جامعة أم القرى للبحوث العلمية المحكمة، العدد 15، السنة10، 1417هـ=1997م.

**عنان، محمد عبد الله:**

٥٦) دولة الإسلام في الأندلس، الخلافة الأموية والدولة العامرية، العصر الأول، ق 2، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط4، 1417هـ=1997م.

**عناني، محمد زكريا:**

٥٧) الموشحات، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1980م.

**عويس، عبد الحليم:**

٥٨) التكاثر المادي وأثره في سقوط الأندلس، القاهرة، دار الصحوة للنشر والتوزيع، ط 1، 1414هـ=1994م.

**الغزالي، محمد:**

٥٩) فقه السيرة، الإسكندرية، دار الدعوة، ط2، 1409هـ=1989م.

**الفقي، عصام الدين:**

٦٠) تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة، مكتبة نهضة الشرق، د.ت.ط.

**فكري، أحمد:**

٦١) قرطبة في العصر الإسلامي "تاريخ وحضارة"، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، 1983م.

**فنديك، أدورد:**

٦٢) اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، بيروت، دار صادر، 1896م.

**قجة، محمد حسن:**

٦٣) محطات أندلسية، جدة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط1، 1405هـ=1985م.

**القرني، عائض:**

٦٤) لا تحزن، الرياض، مكتبة العبيكان، ط3 لجمهورية مصر العربية، 1423=2003م.

**قطب، سيد:**

٦٥) في ظلال القرآن، القاهرة، دار الشروق، ط 35، 1425هـ، 2005م، ج 4، ص1984.

**قطب، محمد:**

٦٦) شبهات حول الإسلام، القاهرة، دار الشروق، ، ط16، 1403هـ=1983م.

**الكحلاوي، محمد:**

٦٧) عرفاء البناء في المغرب والأندلس وأهم أعمالهم المعمارية، السجل العلمي لندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، القسم الثالث، الحضارة والعمارة والفنون، الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ط1، 1417هـ=1996م.

**كحيلة، عبادة عبد الرحمن رضا:**

٦٨) الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية، مصر، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط1، 1995م.

٦٩) العقد الثمين في تاريخ المسلمين، الكويت، دار الكتاب الحديث، ط 1، 1417هـ=1996م.

٧٠) القطوف الدواني في التاريخ الأسباني، ، ط1، 1998م.

**الكزبري، سلمى الحفار:**

٧١) "محاضرات"، بصمات عربية ودمشقية في الأندلس، دمشق، منشورات وزارة الثقافة،

1993م.

**الكفاوين، شاهر عوض:**

٧٢) الشعر العربي في رثاء الدول والأمصار حتى نهاية سقوط الأندلس "رسالة دكتوراة"، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، كلية اللغة العربية، فرع الأدب، 1404هـ=1984م.

**الكواكبي، عبد الرحمن:**

٧٣) أم القرى، بيروت، دار الرائد العربي، 1402هـ=1982م.

**مؤنس، حسين:**

٧٤) فجر الأندلس، بيروت، دار المناهل، ط1، 1422هـ=2002م.

٧٥) الحضارة دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1978م.

٧٦) شيوخ العصر في الأندلس، القاهرة، دار الرشاد، ط2، 1417هـ=1997م.

٧٧) المساجد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1981م.

٧٨) موسوعة تاريخ الأندلس تاريخ وفكر وحضارة وتراث، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، 1416هـ-1996م.

٧٩) الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، 1413هـ=1992م.

**المبارك، هاني، وشوقي أبو خليل:**

٨٠) دور الحضارة العربية الإسلامية في النهضة الأوروبية، بيروت، دار الفكر المعاصر، ط1، 1417هـ=1996م.

**محمد، علي جمعة:**

٨١) المكاييل والموازين الشرعية، ، القاهرة، القدس للإعلان والنشر والتسويق، ط 2، 1421هـ=2001م.

**محمود، منى حسن:**

٨٢) المسلمون في الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة، القاهرة، دار الفكر العربي، 1986م.

**مصطفى، إبراهيم وآخرون:**

٨٣) المعجم الوسيط، القاهرة، دار الدعوة، د.ت.ط.

**مصطفى، خزعل ياسين:**

٨٤) بنو أمية في الأندلس ودورهم في الحياة العامة "أطروحة دكتوراه"، الموصل، جامعة الموصل، 2004م.

**المعيقل، خليل:**

٨٥) أثر الجامع الأموي بدمشق على عمارة المسجد الجامع بقرطبة، السجل العلمي لندوة الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، القسم الثالث، الحضارة والفنون والعمارة، الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ط1، 1417هـ=1996م.

**موسى: عز الدين:**

٨٦) الموحدون في المغرب الإسلامي تنظيماتهم ونظمهم، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1411هـ=1991م.

**الندوي، أبو الحسن علي الحسني:**

٨٧) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، المنصورة، مكتبة الإيمان، د.ت. ط.

**نصر الله، سعد:**

٨٨) دولة المرابطين في المغرب والأندلس في عهد يوسف بن تاشفين، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1405هـ، 1985م.

**نوح، محمد السيد:**

٨٩) آفات على الطريق، المنصورة، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط 7، 1413هـ=1992م.

**هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية:**

٩٠) البحوث العلمية، السعودية، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء، 1423هـ=2002م.

**واصف بك، أمين:**

٩١) معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية، تحقيق: أحمد ذكي باشا، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.ط.

**الوراكلي، حسن:**

٩٢) ياقوتة الأندلس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1994م.

## ثالثاً: المراجع المترجمة:

**بانيري، ماريا لويزا:**

١) المدينة الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة: عطيات أبو السعود، وعبد الغفار مكاوي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1997م.

**بروفنسال، ليفي:**

٢) حضارة العرب في الأندلس، ترجمة، ذوقان قرقوط، بيروت، دار مكتبة الحياة، د.ت.ط.

**دوزي، رينهرت:**

٣) المسلمون في الأندلس، ترجمة: حسن حبشي، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1414هـ=1994م.

٤) ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة كامل كيلاني، القاهرة، مطبعة عيسى الحلبي، ط1، 1351هـ=1933م.

**ديورانت، وول:**

٥) قصة الحضارة، الشرق الأدنى، ترجمة محمد بدران، القاهرة، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، 1950م.

**الرماني، زيد بن محمد:**

٦) مقالة الإسراف والتبذير، مجلة البحوث الإسلامية، الرياض، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، 1421هـ، العدد60.

**شلميطا، بدرو:**

٧) صورة تقريبية للاقتصاد الأندلسي، من كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمى الجيوسي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1998م.

**غرابار، أولغ:**

٨) نظرتان متضاربتان إلى الفن الإسلامي في شبه الجزيرة الإسبانية (نظرة عامة)، من كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1998م.

**فيرنيت، خوان:**

٩) فضل الأندلس على ثقافة الغرب، ترجمة نهاد رضا، دمشق، إشبيلية للدراسات والنشر، ط1، 1997م.

**كاستيو، بدرو خيمينيث:**

١٠) الزجاج في مرسية، ترجمة: عبد الله العمير، السجل العلمي لندوة الأندلس قرون من التقلبات

والعطاءات، القسم الثالث، الحضارة والفنون والعمارة، الرياض، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ط1، 1417هـ=1996م.

**كولان. ج. س:**

١١)الأندلس، ترجمة: إبراهيم خورشيد، وآخران، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط1، 1980م.

**لوبيث، لوثي– بارالت:**

١٢) أثر الإسلام في الأدب الإسباني، ترجمة: حامد أبو أحمد، وعلي البمبي، القاهرة، مركز الحضارة العربية، ط1، 2000م.

**هونكه، زيغريد:**

١٣) شمس العرب تسطع على الغرب "أثر الحضارة العربية في أوروبة، ترجمة: فاروق بيضون، وكمال دسوقي، مراجعة: مارون عيسى الخوري، دار الجيل، بيروت، ط8.

**وات، مونتغمري:**

١٤) في تاريخ أسبانيا الإسلامية، ترجمة: محمد رضا المصري، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ط2، 1998م.

**وينز، دايفد:**

١٥)فنون الطبخ في الأندلس، من كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى الخضراء الجيوسي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، 1998م.

**خامساً: المراجع الأجنبية ومواقع الإنترنت:**

**أحمد: عبد الرحمن يسرى،**

١) موسوعة المفاهيم، www.islamic-council.com .

**http://www.cultural.org.ae**

٢) تراجم شعراء الموسوعة الشعرية نقلاً عن الشاملة.

## ABSTRACT

This study addressed some of the habits of Andalusian society, characterized by luxury, and well-being between (92 AH / 711 AD = 668 AH / 1269 AD), a period extending from the Islamic conquest of Andalusia and even the fall of the uniform, which were marked by the lives of large segments of the Andalusian luxury conditions, and exaggeration in enjoy the appetites of the world.

The study discusses the concept of luxury in linguistic and semantic sides in view of the difference between the Islamic concept, which combines almost all of them related to this concept that the exaggeration in the pleasures and desires - which is the life of luxury - reprehensible, unacceptable, outcast, and should not be a Muslim indulge in these desires; and the non-Islamic concept of luxury, being prepared by some of them are a sin, and others prepared a virtue.

The study confirmed that the conditions of Muslims in Andalusia and enjoyed by this country of good works, surmounted them access to a well-off living a comfortable life, and so they had the beauty of nature and an abundance of wealth and capacity in a livelihood, in addition to other factors such as complication of Muslims in Andalusia with native people, non-Muslims and the rulers of Andalusia try to compete with their counterparts in parts of the earth.

It also highlighted the glamorous elements of life known to land in Andalusia, introduced its various manifestations, which make the Andalusians of good food, clothing, elegant and beautiful aspects of public housing are printing their lives and to distinguish them from other communities, and crowned all by following the various means of entertainment, and different, until he reached the peak of luxury in religious facilities.

The study confirmed the negative effects caused by the life of luxury Andalusian society, which led to a wide range of deviations within this community, and so singing and popularized drinking alcohol spread and many people scramble to acquire slaves, have produced a life of luxury retreat at the level of affiliation to the Islamic nation, bringing the conflict among Muslims is nothing strange about that, and the tendency to become Christians is permissible non-evil, As a result ; forts fall and humiliation among Muslim children increased.

The study also showed a number of behavioral abnormalities that emerged in the Andalusian society, was the weakness of religious faith, when many of the Andalusians became homosexual, some parents killed their children, and other deviations and evil habits.

To conclude, the study found a number of results, the researcher mentioned by mentioning some of them in the conclusion of his research

المحتويات